

ديوان معروف الرَّصافي

معروف الرَّصافي

ديوان معروف الرَّصافي

تأليف
معروف الرَّصافي

مراجعة
مصطفى الغلاييني



ديوان معروف الرَّصافي

معروف الرَّصافي

رقم إيداع ١٠١٠٠ / ٢٠١٤
تدمك: ٠ ٨٨٢ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

الجزء الأول

الكونيات

في مشهد الكائنات

جمالك يا وجه الفضاء عجيب

جمالُكَ يا وجهَ الفضاء عجيبُ ... وصدرك يأبى الانتهاءَ رحيبُ
وعينُك في أم النجوم كبيرة ... تضيء على أن الضياء لهيب[١]
وما زلتَ تغضيها فنخطئ قصدَنا ... وتفتحها براقةً فنصيب[٢]
فيحمرُّ منها في الغديَّة مَطلعٌ ... ويصفرُّ منها في العشيِّ مَغِيب
ويخلفها البدر المنير حفيدُها ... وعنها إذا جَنَّ الظلام ينوب[٣]
وليلٍ كأن البدر فيه مَليحة ... أغازلها والنَّيِّراتُ رقيب
سريتُ به والبحرُ رَهوٌ بجانبي ... وردنُ النسيم الغضُّ فيه رطيب[٤]
فشاهدت فيه الحسن أزهرَ مشرقًا ... له في العُلا وجهٌ أغرُّ مهِيب

---

[١] لما أثبت للفضاء وجهًا وصدرًا في البيت الأول، ناسب أن يعبر عن الشمس التي في الفضاء بقوله: وعينك، العين لفظ مشترك بين الشمس والباصرة. أم النجوم: المجرة، و«على» في البيت للمصاحبة بمعنى مع.

[٢] يقال: أغضى الرجل عينه: أي طبق جفنيها، والضمير من تغضيها عائد إلى العين التي هي بمعنى الشمس في البيت المتقدم، وأراد بإغضائها إخفاءها عند الغروب.

[٣] الحفيد: ولد الولد، وجعل البدر حفيدًا للشمس؛ لأنه منفصل عن الأرض المنفصلة عن الشمس، فهو منها بمنزلة ولد الولد.

[٤] سريت به: أي فيه. رهو: أي ساكن.

ورحتُ وأهلُ الحيِّ في قبضة الكرَى　　وفي الليل صمتٌ بالسكون مشوب[٥]
فكنت كأني أسمع الصمت ساريًا　　له بين أحشاءِ الفضاءِ دبيب[٦]
ولو أنَّ صمتَ الليل لم يكُ مطربًا　　لما هزَّ أعطافَ النسيم هبوب

* * *

ألا إنَّ وجه البحر بالنُّور ضاحكٌ　　طليق وثغر الماءِ فيه شنيب[٧]
ترقرق منسابًا به الماءُ والسنا　　فلم أدرِ أيُّ اللامعين يسيب؟[٨]
وللبدر نورٌ يمنح البحرَ رونقًا　　فيبدو كأن الماءَ فيه ضريب[٩]
إذا جمَّش البحرَ النسيمُ تهللت　　أساريرُ فيها للضياء وثوب[١٠]
وقفتُ ولألاءُ المنى يستخفني　　فتطرب نفسي والكريم طروب

* * *

أرِدِّد بين البدر والبحر ناظري　　فيصعد طرفي مرة ويصوب
تأمَّلت في حسن العوالم مَوهنًا　　فجاش بصدري الشعرُ وهو نسيب[١١]

---

[٥] معنى أنهم في قبضة الكرى: هو أن النوم قد استولى عليهم؛ أي: هم نائمون، وأراد بالصمت عدم الصوت، وبالسكون عدم الحركة، ومعنى كون الصمت مشوبًا — أي: مخلوطًا بالسكون — أنه ليس هناك صوت ولا حركة.

[٦] أراد بقوله: أسمع الصمت؛ أي أدركه بواسطة السمع، وذلك أن المرء إذا أصاخ في الليل فلم يسمع صوتًا ولا حركة، أدرك أن في الليل صمتًا، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الصمت ليس بعدم محض، وإنما هو عدم الصوت أو الكلام، فبهذا تبين لك معنى قوله: أسمع الصمت.

[٧] يقال: ثغر شنيب، أي: فيه شنب، وهو ماء ورقة في الأسنان.

[٨] ترقرق: أي جرى جريًا سهلًا. ومنسابًا: أي متدافعًا في جريه. والسنا: النور. يسيب: يجري ذاهبًا كل مذهب.

[٩] يمنح: يعطي. ورونقًا: أي حسنًا وإشراقًا. والضريب: الجليد والصقيع.

[١٠] التجميش: الملاعبة، يقال: جمش الجارية إذا لاعبها وداعبها بالقرص ونحوه. وتهللت: تلألأت. والأسارير: الخطوط التي تكون في جبهة الإنسان، شبه خطوط الأمواج الصغيرة بخطوط الوجه؛ أي بالأسارير، وقال: إنها تتلألأ بسبب ملاعبة النسيم للبحر، فتلوح أشعة النور متواثبة بين تلك الأسارير.

[١١] الموهن: وقت الوهن من الليل، ويكون نحو نصف الليل، وهو في البيت منصوب على الظرفية. وجاش: بمعنى هاج. والنسيب: هو الشعر الرقيق في النساء.

كأني وعُلويَّ العوالم عاشق أطلَّ من الأعلى عليه حبيب
فقام له مُستشرفًا ويمينه تشدُّ ضلوعًا تحتهنَّ وجيب[١٢]
ولما رأيت الكون في الأصل واحدًا عجبتُ؛ لأن الخلق فيه ضروبُ
ألا إن بطنًا واحدًا أنتج الورى كثيرين في أخلاقهم لرغيبُ[١٣]
وإنَّ فضاء شاسعًا قد تضاربت بأبعاده أيدي القُوى لرهيبُ
وإن اختلاف الآدميين سِيرَةً وهم قد تساووا صُورة لعجيب
وأعجب ما في الكائنات ابن آدم فما غيره في الكائنات مُريب
يذمِّمم فعلَ السوءِ وهو حليفه ويحمد قول الصدق وهو كذوب

* * *

رأيتُ الورى كلًّا يراقب غيرَه فكلٌّ عليه من سواه رقيب
ومن أجل هذا قد ترى كلَّ فاعل إلى الناس في كلِّ الفعال يُنيب[١٤]
فكم حَملٍ في مجمع القَوم يُتَّقى به ثعلب عند الخلاءِ وذيب[١٥]
ولو باح كل بالذي هو كاتم لما كان في هذا الأنام أديب
وليس يجدُّ المرءُ إلا تكلفًا وذاك لأن الطبع فيه لعوب
ويجتنب المرءُ العيوبَ؛ لأنها لدى عائبيه لا لديه عيوب
رياء قديم في الورى شَقِيت به قبائل منهم جمَّةٌ وشعوب
ورُبَّةَ أخلاقٍ يراها خبيثة أناس وعند الآخرين تطيبُ
وحِلم الفتى عند الضعيف فضيلة ولكنَّه عند القويِّ مَعيب

* * *

---

[١٢] مستشرفًا: أي منتصبًا رافعًا بصره باسطًا كفَّه فوق حاجبيه كالمستظلِّ، وكذلك يفعل الناظر إذا نظر إلى شيء مرتفع أو بعيد. والوجيب: خفقان القلب واضطرابه.

[١٣] رغيب: أي واسع، يقال: هو رغيب البطن؛ أي واسع الجوف.

[١٤] ينيب: يرجع، أي لما كان كل من الناس رقيبًا على غيره مترصدًا لسواه، صار كل واحد منهم ينيب في أفعاله إلى الناس؛ ليدفع عنه بذلك سوء ظنهم به، ومن هنا نشأ فيهم الرياء والتمويه، كما فسر ذلك في البيت الذي يليه.

[١٥] الباء في قوله: يتقى به: للسببية أو للتجريد؛ مثلها في قولك: لقيت بزيد أسدًا.

وقد يفتري المالُ الفضائل للورى ... وليس لهم ممَّا افتراه نصيب[16]
وللفقر بين الناس وجهٌ تبيَّنتْ ... بهِ حسنات المرء وهي ذنوب
لقد أحجم المثرِي فسمَّوه حازمًا ... وأحجم ذو فقر فقيل: هيوب
وإن يتواضع معدم فهو صاغر ... وإن يتواضع ذو الغنى فنجيب
وذو العُدم ثرثار بكثر كلامه ... وذو الوجد مِنطيق به ولبيبُ
وللناس عادات كثير تقودهم ... فكل امرئ منهم لهنَّ جنيب
وهنَّ إذا ما يأكلون أكيلُهم ... وهنَّ إذا ما يشربون شَريب
أبَوْا أن يحيدوا ضِلَّةً عن طريقها ... وإن مسَّهم من أجلهنَّ لغوب
هي الداء أعيا الأوَّلين فهل له ... على عُقمه في الآخرين طبيب؟

[16] يفتري المال الفضائل: أي يختلقها، فكأنه جعل فضائل الأغنياء كذبًا محضًا تفتريه أموالهم. ومعنى قوله: «وليس له مما افتراه نصيب» أنهم براء من هذا الافتراء؛ إذ ليس لهم نصيب من الفضائل.

العالم شعر

وما المرء إلا بيت شعر

قرأتُ وما غير الطبيعة من سِفْرِ صحائفَ تحوي كل فن من الشعر[١]
أرى غُرَر الأشعار تبدو نضيدةً على صفحات الكون سطرًا على سطر[٢]
وما حادثات الدهر إلا قصائد يفوه بها للسامعين فم الدهر
وما المرء إلا بيتُ شِعرٍ عروضُه مصائبُ لكنْ ضَرْبُه حُفرة القبرِ[٣]
تنظمنا الأيام شعرًا وإنما تردُّ المنايا ما نظَمن إلى النثر[٤]
فمنَّا طويل مُسهب بحر عمره ومنا قصير البحر مختصَر العمر[٥]
وهذا مديح صيغ من أطيب الثنا وذاك هجاء صيغ من مَنطق هُجر[٦]

* * *

[١] السفر: الكتاب.

[٢] نضيدة: منسقة.

[٣] العروض في علم الشعر: الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت. والضرب: الجزء الأخير من الشطر الثاني، ومعنى البيت أن الإنسان أوله للمصائب وآخره للموت.

[٤] النثر: التفريق.

[٥] مسهب: طويل.

[٦] الهجر: القبيح من الكلام.

وربَّ نـيـامٍ فـي الـمـقـابـر زرتـهـم بـمـنـهـلٍّ دمـع لا يُـنـهـنـهُ بـالـزجـرِ[٧]
وقـفـت عـلـى الأجـداث وقـفـةَ عـاشـق على الدار يدعو دارس الطلل القفرِ[٨]
فما سال فيض الدمع حتى قرنته إلى زفرات قد تصاعدن من صدري
أسُـكَّـانَ بـطـنِ الأرض هـلَّا ذكـرتـمُ عهودًا مضت منكم وأنتم على الظهر؟
رضـيـتـم بـأكـفـان البِلـى حُـلـلًا لـكـم وكنتم أولي الديباج والحللِ الحمر
وقد كنتمُ تؤذي الحشايا جنوبكمْ فكيف رقدتم والجنوب على العفر؟![٩]
ألا يـا قـبـورًا زرتـهـا غـيـرَ عـارف بها ساكنَ الصحراء من ساكن القصر![١٠]
لـقـد حـار فـكـري فـي ذويـكِ وإنَّـه ليحتار في مثوى ذويك أولو الفكر[١١]
فـقـلـت، ولـلأجـداث كَـفـي مـشـيـرة: ألا إن هذا الشعرَ من أفجع الشعر![١٢]

* * *

ولـيـلٍ غـدافـيِّ الـجـنـاحـيـن بِـتُّـهُ أسـامـر فـي ظـلـمـاتـه واقـعَ الـنـسـر[١٣]
وأقـلـع مـن سُـفْـن الـخـيـال مَـراسـيًـا فتجري من الظلماء في لُجَج خُضرِ[١٤]
أرى الـقـبـة الـزرقـاء فـوقـي كـأنـهـا رُواق مـن الـديـبـاج رُصِّـع بـالـدر[١٥]
ولـولا خـروق فـي الـدجـى مـن نـجـومـه قبضت على الظلماء بالأنمل العشر[١٦]

---

[٧] أنهل الدمع: سال. لا ينهنه: لا يكف.
[٨] الأجداث: القبور. درس المكان: امَّحى. والطلل: ما بقي من آثار الديار.
[٩] الحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشو. العفر: التراب.
[١٠] الصحراء: الأرض الفضاء لا شيء فيها.
[١١] المثوى: المقام.
[١٢] أفجع: أوجع.
[١٣] غدافي الجناحين: أسودهما، نسبة إلى الغداف وهو الغراب. النسر: اسم لنجمين، يقال له: النسر الواقع، والآخر يقال له: النسر الطائر، وفي البيت تورية لا تخفى.
[١٤] لجج: جمع لجة، وهي في الأصل معظم الماء. خضر: سود، يقال: أخضر بمعنى أسود، والخضرة والسواد يستعمل كل منهما مكان الآخر.
[١٥] القبة الزرقاء: السماء. الرواق: سقف في مقدم البيت، أو هو الخيمة.
[١٦] الدجى: الليل. وأراد بالأنمل: الأصابع؛ وهي في الأصل رءوسها.

خليليَّ ما أبهى وأبهج في الرُّؤَى نجومًا بأجواز الدجى لم تزل تسري![17]
إذا ما نجومُ الغرب ليلًا تغوَّرت بدت أنجم في الشرق أخرى على الإثر[18]
تجوَّلت من حسن الكواكب في الدجى وقبح ظلام الليل في العرف والنكر[19]
إلى أن رأيت الليلَ ولَّت جنوده على الدُهم يقفو إثرها الصبح بالشُّقرِ[20]
فيا لك من ليلٍ قرأت بوجهه نظيم البهَا في نثر أنجمه الزُّهر!
فقلت، وطرفي شاخص لنجومه: ألا إن هذا الشعر من أحسن الشعر!

* * *

ويوم به استيقظت من هجعة الكرى وقد قَدَّ درعَ الليل صمصامةُ الفجر[21]
فأطربني والديك مُشجٍ صياحُه ترنمُ عصفور يزقزق في وكر[22]
ومما ازدهى نفسي وزاد ارتياحها هبوبُ نسيمٍ سَجْسَجٍ طيِّب النشرِ[23]
فقمت وقام الناس كلٌّ لشأنهِ كأنَّا حجيجُ البيت في ساعة النفر[24]
وقد طلعت شمس النهار كأنها مليكٌ من الأضواء في عسكرٍ مَجر[25]

---

[17] الرؤى: المنظر. أجواز الدجى: أوساط الليل.

[18] تغوَّرت: غابت.

[19] تجولت: كذا بالجيم؛ كما في الأصل، ولم أجد هذه الصيغة في مادة «جال»، ولو روي بالحاء المهملة لكان أحسن وأوفى بالمراد.

[20] الدهم: جمع أدهم؛ وهو الأسود من الخيل. يقفو إثرها: يتبعها. الشقر: جمع أشقر، والشقرة في الخيل: حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب. وأراد بالدهم: الظلمات، وبالشقر: أشعة الشمس مجازًا.

[21] الهجعة: من الهجوع، وهو النوم. الكرى: النعاس. قد: شق. والمراد بدرع الليل: ظلمته. الصمصامة: السيف، والمراد بصمصامة الفجر: شعاعه.

[22] مشجٍ: مطرب.

[23] ازدهى نفسي: استفزها. ريح سجسج: لينة الهواء معتدلة. النَّشر: الرائحة.

[24] الحجيج: الحجاج. والمراد بالبيت: البيت الحرام في مكة. النفر: مصدر نفر الحجيج إذا اندفعوا من منًى إلى مكة.

[25] المجر: الجيش العظيم.

بدت من وراء الأفق ترفل للعلا رويدًا رويدًا في غلائلها الحمر[٢٦]
غدت ترسل الأنوار حتى كأنها تسيل على وجه الثرى ذائب التبر[٢٧]
إلى أن جلت في نورها رونقَ الضحى صقيلًا وفي بحر الفضاء غدت تجري[٢٨]
وأهدت حياة في الشعاع جديدة إلى حيوان الأرض والنبت والزهر
فقلت، مشيرًا نحوها بحفاوةٍ: ألا إن هذا الشعر من أبدع الشعر![٢٩]

* * *

وبيضةِ خِدْرٍ إن دعت نازح الهوى أجاب ألا لبيَّك يا بيضةَ الخدْر[٣٠]
من اللَّاء يملكن القلوبَ بكلمة ويحيين ميت الوجد بالنَّظرِ الشزر[٣١]
تهادت تريني البدر محدقةً بها أوانسُ إحداقَ الكواكب بالبدر[٣٢]
فلله ما قد هِجنَ لي من صبابة ألفتُ بها طيَّ الضلوع على الجمر![٣٣]
تصافح إحداهن في المشي تِرْبَها فنحرٌ إلى نحرٍ وخصْر إلى خصر[٣٤]
مررن وقد أقصرت خطوي تأدُّبًا وأجمعت أمري في محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهنَّ أرْؤسًا عليها أكاليلٌ ضُفرن من الشعر
فألقيتُ كفي فوق صدري مُسلمًا وأطرقت نحو الأرض منحني الظهر
وأرسلت قلبي خلفهن مُشيِّعًا فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدري

---

[٢٦] ترفل: تجر ذيلها وتتبختر. غلائلها: أراد بها ثيابها، مفردها غلالة، وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع.

[٢٧] الثرى: الأرض والتراب الندي.

[٢٨] رونق الضحى: إشراقه وحسنه. صقيلًا: مجلوًّا.

[٢٩] الحفاوة: التلطف والمبالغة بالإكرام.

[٣٠] أراد ببيضة الخدر: الجارية الحسناء؛ لأنها مكنونة في خدرها. نازح الهوى: نائيه وذاهبه.

[٣١] اللاء: اللاتي. الوجد: الحب. النظر الشزر: هو نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين، أو النظر يمين وشمال، وهذا التفسير أقرب لمعنى البيت.

[٣٢] أحدق بالشيء: أحاط به.

[٣٣] هجن: هيجن. الطي: مصدر طوى.

[٣٤] يقال: هذا ترب فلان، وهذه ترب فلانة: إذا كانت على سنها، وأكثر ما يستعمل في المؤنث. النحر: موضع القلادة من العنق.

وقـلـت، وكـفِّـي نـحـوهـن مـشـيـرةٌ: ألا إن هـذا الـشـعـر مـن أجـمـل شـعـر!

* * *

ومـائـدةٍ نـسْـجُ الـدِّمـقـس غـطـاؤهـا بـمـجـلـس شـبـانٍ هُـمُ أنـجـم الـعـصـر[٣٥]
رَقـى مـن أعـالـيـهـا الـفـنـغـرافُ مـنـبـرًا مـحـاطًـا بـأصـحـاب غـطـارفـةٍ غُـرِّ[٣٦]
وفـي وسَـط الـنـادي سـراج مـنـوَّر فـتـحـسـبـه بـدرًا وهُـمْ هـالـة الـبـدر[٣٧]
فـراح بـإذن الـعـلـم يُـنـطِـق مِـقْـوَلًا عـرفـنـا بـه أن الـبـيـانَ مـن الـسـحـر
فطوْرًا خطيبًا يُحزِنُ القلبَ وعْظُه وطورًا يُسرُّ السمع بالعزف والزمرِ[٣٨]
يـفـوه فـصـيـحًـا بـاللُّـغـا وهـو أبْـكـمٌ ويُسمع ألحان الغنا وهو ذو وَقر[٣٩]
أمينٌ أَبَى التدليسَ في القول حاكيًا فتسمعه يروي الحديث كما يجري[٤٠]
تـراه إذا لـقـنـتـه الـقـول حـافـظًـا تمر الليالي وهو منه على ذُكر[٤١]
فـيـا لـك مـن صـنـع بـه كـل عـاقـل أقـرَّ لآديـسـونَ بـالـفـضـل والـفـخـر![٤٢]
فـقـلـت، وقـد تـمَّـت شـقـاشـق هـدره ألا إن هذا الشعر من أعجب الشعرِ![٤٣]

* * *

وأصْـيَـدَ مـأثـورِ الـمـكـارم فـي الـورَى يُـريـك إذا يـلـقـاك وجـه فـتًـى حُـرِّ[٤٤]

---

[٣٥] الدمقس: الديباج والحرير الأبيض.

[٣٦] الغطارفة: السادة.

[٣٧] الهالة: دارة القمر، كالطفاوة لدارة الشمس.

[٣٨] العزف: الضرب بالمعازف؛ وهي آلات الطرب.

[٣٩] اللغا: اللغات؛ وهي جمع لغة. الوقر: الصمم؛ وهو ذهاب السمع.

[٤٠] التدليس في الحديث: هو أن لا يذكر المحدث في حديثه مَنْ سمعه منه، ويذكر مَنْ هو أعلى مِمَّنْ حدثه؛ لوهم أنه سمعه منه، والمدلس لا يُقْبل حديثه.

[٤١] الذكر بضم الذال: التذكر.

[٤٢] أديسون: هو مخترع الصدى؛ «الفنغراف».

[٤٣] تمت شقاشق هدره: سكت، والشقشقة في الأصل: لهاة البعير، وقيل: شيء كالرئة يخرجه من فيه إذا هاج، ويقال للفصيح: هدرت شقشقته.

[٤٤] الأصيد: الرجل الذي لا يلتفت من زهوه وخيلائه.

يـروح ويـغـدو فـي طـيـالـسـة الـغـنـى ويقضي حقوق المجد من ماله الوفر[٤٥]
تـخـوَّنـه ريـب الـزمـان فـأولِـعـتْ بِإخْلاقها ديبَاجَتيْهِ يدُ الفقر[٤٦]
فأصبح في طُرْق التصعلك حائرًا يحول من الإملاق في سمل طِمْر[٤٧]
كأن لم يَرُح في موكب العز راكبًا عتاق المذاكي مالك النهي والأمر[٤٨]
ولم تزدحم صِيدُ الرجال ببابه ولم يَغمُرِ العافين بالنائل الغَمْرِ[٤٩]
فظل كئيبَ النفس ينظر للغنى بعين مُقلٍّ كان في عيشة المثري[٥٠]
إلى أن قضى في علة العُدم نحْبه فجهَّزهُ من مالهم طالبو الأجر[٥١]
فرُحتُ ولم يُحفَل بتشييع نعشه أشيِّعه في حامليه إلى القبرِ
وقلت، وأيدي الناس تحثو ترابه: ألا إن هذا الشعر من أفجع الشعر![٥٢]

* * *

ونائحة تبكي الغداةَ وحيدَها بشجو وقد نالته ظلمًا يدُ القهر[٥٣]
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكم عليه قضى بُطلًا بها وهو لا يدري[٥٤]
فويل له من حاكم صُبَّ قلبه من الجوْر مطبوعًا على قالب الغدر
من الروم أما وجهه فمشوَّه وَقاح وأما قلبه فمن الصخرِ[٥٥]

---

[٤٥] طيالسة: جمع طيلسان، وهو نوع من الثياب يلبسه الخواص. الوفر: الكثير.

[٤٦] أولع به بالبناء للمجهول: علق به شديدًا. الإخلاق: مصدر أخلق الثوب: أبلاه. ديباجتيه: خديه. ومعنى البيت: خانه الزمان، وعلقت به يد الفقر، فوضعت من شرفه، وذلت خديه بعد أن كانتا مصعرتين.

[٤٧] التصعلك: الافتقار. الإملاق: الفقر. سمل طمر: بالٍ.

[٤٨] المذاكي: الخيل التي تمَّت سنها وكملت قوتها.

[٤٩] صيد: جمع أصيد وقد تقدم معناه. يغمر: يبالغ في الإحسان. العافين: الفقراء. النائل الغمر: العطاء الكثير.

[٥٠] المقل: ضيق ذات اليد. والمثري: الغني.

[٥١] العدم: الفقر.

[٥٢] تحثو ترابه: تصبه.

[٥٣] الشجو: الحزن.

[٥٤] عزاه: نسبه.

[٥٥] وقاح بفتح الواو: ذو وقاحة، يطلق على المذكر والمؤنث.

أضرَّ بعفٍّ الذيل حتى أمضَّه ... ولم يلتفت منه إلى واضح الغدر[٥٦]

تخطَّفه في مخلب الجور غِيلةً ... فزجَّ به من مظلم السجن في القعر[٥٧]

تنوء به الأقياد إن رام نهضة ... فيشكو الأذى والدمع من عينه يجري[٥٨]

تناديه والسجانُ يُكْثِرُ زَجْرَها ... عجوزٌ له من خلف عالية الجُدْر[٥٩]

بُنيَّ أظن السجنَ مسَّك ضُرُّه ... بُنيَّ بنفسي حلَّ ما بك من ضرِّ!

بُنيَّ استعنْ بالصبر ما أنت جانيًا ... وهل يخذل اللَّه البريءَ من الوزر؟![٦٠]

فجئت أعاطيها العزاء وأدمعي ... كأدمعها تنهلُّ مني على النحر

وقلت، وقد جاشت غوارب عَبرتي: ... ألا إن هذا الشعر من أقتل الشعر![٦١]

---

٥٦ عف: عفيف.

٥٧ المخلب: هو في الأصل ظفر كل سبع من الماشي والطائر. غيلة: يقال: قتله غيلة: أي خدعه فذهب به إلى موضع فقتله. زج به: طرحه.

٥٨ تنوء به: تثقله. الأقياد: جمع قيد.

٥٩ الجدر: جمع جدار.

٦٠ الوزر: الذنب.

٦١ جاشت: فاضت. غوارب الماء: أعالي موجه. العبرة: الدموع.

تجاه اللانهاية

أبعدَ الدهر في الفضاء مكرَّهْ   عالقًا في مكرِّه بالمجرَّهْ

إن أمَّ النجوم بنتُ زمان   لم تزل حادثاته مستمرهْ

في فضاء لو سافر البرق فيه   ألفَ قرنٍ لمَا أتى مُستقرَّهْ

ولِو الشمسُ ضُوعفت ألفَ ضعف   لم تكنْ في أثيره غيرَ ذرَّه

ولِو الفكر غاص فيه مُغِذًّا   لم يكن بالغًا يدَ الدهر قعرَه

سعة تحسب المجرَّة فيها   حَلقةً ألقيت بصحراء قفرَه

يقف الفكر دونها مُكوَئِدًّا   مقشعرًّا وتأخذ العقل حَيْرَه

لو أضفنا إلى الفضاء فضاء   مثله لم نزد ولا قيدَ شعره

إن تكن هذه المجرَّة نهرًا   مستفيضًا فشَمْسُنا منه قطره

أو تكن أرضنا من الشمس جزءًا   فهْي سقطٌ من جمرة مستحرِّه

إن تُسائِل عنا فنحن هباءٌ   ذُرَّ من صنعة القوَى بمذرَّه

صادفتنا أشعةٌ من حياةٍ   فظهرنا وهل لأول مره

كل مَنْ جاوز الأشعة منا   فهو هاوٍ في ظلمةٍ مكفهره

فعلام الحقودُ يضمر حقدًا   وعلام الجهول يظهر كبرَه؟

من أين وإلى أين؟

من أين من أين يا ابتدائي	ثم إلى أين يا انتهائي؟
أمن فناءٍ إلى وجودٍ	ومن وجود إلى فناءٍ؟
أَم من وجودٍ له اختفاءٌ	إلى وجود بلا اختفاء؟
خرجت من ظلمة لأخرى	فما أمامي وما ورائي؟
ما زلت من حيرة بأمري	معانق اليأس والرجاء
إنَّ طريق النجاة وعرٌ	يكبو به الطِّرْف ذو النجاء[1]
يا قوم هل في الزمان نطسٌ	يهدي إلى ناجع الدواء؟[2]
لأيِّ أمرٍ ذهِ الليالي	تأتي وتمضي على الولاء؟[3]
فتطلعُ الشمس في صباح	وتغرب الشمس في مساء
أرى ضياءً يروق عيني	ولست أدري كنه الضياء[4]

[1] الطرف: الكريم من الخيل. النجاء: الإسراع والسبق.

[2] النطس: الطبيب الحاذق.

[3] ذه: اسم إشارة بمعنى هذه. على الولاء: متتابعة دون فاصل.

[4] كنهه: حقيقته، والشطر الثاني من البيت فيه استعمال فاعلن على وزن مفعولن، وقد درج على ذلك بعض الشعراء في مخلع البسيط، غير أن علماء الفن لم يذكروا ذلك؛ وفي هذه القصيدة عدة أبيات كذلك.

وما اهـتـزاز الأثـيـر إلَّا عُـلالـة نـزرة الـجَـلاء[٥]
نـحـن عـلـى رغـم مـا عـلـمـنـا نـعـيـش فـي غـيـهـب الـعـمـاء[٦]
نـشـرب مـاء الـظـنـون عـبًّـا فـلـم نـعـد مـنـه بـارتـواء[٧]
تـأتـي عـلـيـنـا مـشـاهـدات نـروح مـنـهـنَّ فـي مـراء[٨]
وكـم نـرى فـضـل فـاعـلات من القوى وهي في الخفاء[٩]
يـا ويـلـة الـحـسـن إنـه عـن حـقـيـقـة الأمـر فـي غـطـاء!
فـإن أجـزاء كـل جـسـم مـبـتـعـدات بـلا الـتـقـاء
وفـي دُقـاق الـجـمـاد عَـرْكٌ يـتَّـهـم الـحـسَّ بـالـخـطـاء[١٠]

* * *

يـا قـوة الـجـذب أطـلـقـيـنـي من ثِـقـلـة أوجـبـت عـنـائـي
لـولاك لـولاك يـا شـكـالـي لطرت كالنور في الفضاء[١١]
أنـت عِـمـاد الـسـمـاء لـكـن خـفـيـت عـن عـيـن كـل راء
ربـطـت كـل الـنـجـوم فـيـهـا بـعـضًـا بـبـعـض ربـطَ اعـتـنـاء
فـدُرنَ فـي الـجـوِّ جـاريـاتٍ كـأنـهـا الـسـنُّ فـوق مـاء
نـحـن بـنـي الأرض قـد عـلـمـنـا بـأنـنـا مـن بـنـي الـسـمـاء
لو كنت في المشتري لبانت أرضـي سـمـاءً بـلا اعـتـراء[١٢]

[٥] الأثير في اصطلاح العلم: شيء ألطف من الهواء، مملوء به الفضاء. العلالة: هي ما يتعلل به ويتهلى. نزرة الجلاء: قليلة الوضوح. يقولون: إن الضياء حاصل من اهتزاز الأثير والشاعر يقول: إن قولهم هذا قليل الوضوح، فهم يتلهون بهذا التفسير؛ لأنهم لم يدركوا الحقيقة.

[٦] الغيهب: الظلمة.

[٧] عب الماء عبًّا: شربه بلا تنفس.

[٨] المراء: الخلاف والجدل.

[٩] القوى: جمع قوة؛ وأراد بها القوى الطبيعية.

[١٠] أراد بدقاق الجماد: ذراته، وذرات كل شيء — على ما حققه العلم — في حراك مستمر، مع أن الحس في الظاهر يدركها ساكنة، وهذا معنى قوله: يتهم الحس بالخطاء.

[١١] الشكال: الوثاق يقيد به.

[١٢] المشتري: أحد النجوم السيارة.

فليس فوق وليس تحت ولا اعتلاءٌ لذي اعتلاء
وإنما نحن فوق نجم نحيا محاطين بالهواء
فليت شعري أي ارتقاء للروح يبقى أيُّ ارتقاء!
وأنت يا كهرباء سرٌّ بدا وما زال في غِشاء[13]
عجائب الكون وهي شتَّى فيك انطوت أيما انطواء[14]
أضأت إن شئت كلَ داجٍ لنا وأدنيت كل ناء[15]
فأنت للكائنات روح إن كانت الروح للبقاء
وكم تقاضاكِ فيلسوف حقيقة صعبة الأَداء![16]
فقال والقول منه ظن: ما الكون إلا بالكهرباء

* * *

وليلة بتُّها أنادي نجومَها أبعد النداء
آخذ منهنَّ بالتَّداني فكرًا ويأخذنَ بالتنائي
فأنثني باكيًا بشعري ويطرب الليل من بكائي
وربما كرَّ بعدَ وهْنٍ فكري فألفِي بعض الشفاء[17]
فأرجع القهقرى أغنِّي وما سوى الشعر من غناء
أقول، والنسرُ فوق رأسي وطالع النجم في إزائي:[18]
يا أيها الأنجم الزواهي للَّه ما فيكِ من بهاء!
أما كفاك السنا جمالًا حتى تجللت بالسَّناء؟![19]
يا أنجم النعش فاصدقيني أمات ذو النعش بانطفاء؟[20]

[13] غشاء: غطاء.

[14] شتى: متفرقة.

[15] داجٍ: مظلم. أدنيت: قربت. ناء: بعيد.

[16] تقاضاك: طلبك.

[17] الوهن: الضعف.

[18] النسر: اسم كوكب. النجم: الثريا. إزائي: مقابلي.

[19] السنا: الضوء. السناء: الرفعة.

[20] أنجم النعش: هي الأنجم التي تسمى ببنات نعش. ذو النعش: هو الميت.

إنــي إذا كـنـت فـي حـدادٍ إلـيـك أهـدي حـسـن الـعـزاء
وأنـت يـا نـسـر مـن كـلال وقـعـت أم طِـلـبْـة الـغـذاء؟[٢١]
أخـوك هـل طـائـر لـوَكْـرٍ أم قاصد منتهى الفضاء؟[٢٢]
كـأنَّ أمَّ الـنـجـوم سـيـفٌ سُلَّ على الليل ذو مَضاء[٢٣]
رُصِّـع مَـتْـنـاه بـالـدراري فراق في الحسن والرُّواءِ[٢٤]
كـأنَّ نـجـم الـسُّـهـا أديـبٌ فـي أرض بـغـدادَ ذو ثـواء[٢٥]
كـأنَّ خـط الـشـهـاب مُـدلٍ لأسـفـل الـبـئـر بـالـرِّشـاء[٢٦]
كـأنـمـا أنـجـم الـثـريـا في شكلها الباهر الضياء
قُـفَّـازُ كـفٍّ بـه فـصـوصٌ من حجر الماس ذي الصفاء[٢٧]
بـرئـت لـلـمـوت مـن حـيـاة ما نُكِّبت مَهيعَ الشقاء[٢٨]
لـم يـكـفـهـا أنـهـا احـتـيـاج حـتـى غـدت حَـوصـةَ الـبـلاء
يـا أيُّـهـا الـمـتـرف الـمـهـنَّـا يـمـرح فـي ثـوب كـبـريـاء[٢٩]
مهلًا أخا الكبر بعضَ كِبْرٍ ألست تقْنَى بعض الحياء؟!
أنـت ابـن فـقـر إلـى أمـورٍ بـهـنَّ يُـدعـى بـابْـنِ الـثـراء[٣٠]

---

[٢١] أراد بالنسر: الواقع، وهو اسم نجم. الكلال: التعب.

[٢٢] أخوك: خطاب النسر الواقع، وأخوه هو النجم المعروف بالنسر الطائر.

[٢٣] ذو مضاء: حاد قاطع.

[٢٤] متناه: جانباه. الرواء: حسن المنظر.

[٢٥] السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته. الثواء: الإقامة.

[٢٦] مدلٍ: مَنْ أدلى الدلو أو الحبل إذا أرسله في البئر. الرشاء: الحبل.

[٢٧] القفاز: لباس اليد، وهما قفازان. الفصوص: جمع فص، بفتح الفاء وضمِّها وكسرها، وهو يركب في الخاتم من المعادن كالياقوت والماس ونحوها.

[٢٨] نكبت: مجهول نكبه الطريق، بمعنى نحاه وأبعده عنها. المهيع: الطريق.

[٢٩] المترف: المنعم.

[٣٠] الثراء: الغنى.

نحن على منطاد

نحن من أرضنا على مُنطادِ جائلٍ في شواسع الأبعادِ[1]
طائرٍ في الفضاء عرضًا وطولًا بجناح من القوى غير بادِ[2]
أيها الأرض سرت سيرك مثنى ذا نِتاجين في زمان أُحَاد[3]
فتقلَّبت في نهارٍ وليلٍ ذا مُضِلٌّ وذاك للناس هادِ
في بلاد يكون سيرك تأويـ ـبًا على أنه سُرًى في بلاد[4]
فيك دفع وفيكِ يا أرض جذب لكِ ذا سائق وذا لكِ حادي[5]
فلكٌ دائر على الشمس طورًا في اقتراب وتارة في ابتعاد

---

[1] المنطاد: هو ما يطار به في الفضاء، وهو ما يسمونه «البالون». جائل: اسم فاعل من الجولان. الشواسع: البعيدة، من شسع المكان بمعنى بعد. الأبعاد: جمع بعد.

[2] غير باد: غير ظاهر.

[3] إنما كان سير الأرض مثنى؛ لأن لها في الزمان الواحد دورتين، تنتجان نتاجين: دورة ينتج عنها اختلاف الليل والنهار، وهذه تتمها بأربع وعشرين ساعة، ودورة ينتج عنها اختلاف الفصول، وهذه تتمها في سنة كاملة.

[4] التأويب: السير جميع النهار. السرى: السير في الليل. يقول: أيها الأرض إن سيرك النهاري في بلاد هو في الوقت نفسه سير ليلي في بلاد أخرى؛ وذلك لأن الكرة يكون نصفها مضيئًا وهو ما يقابل نور الشمس، والنصف الآخر يكون مظلمًا وهو ما لا يقابلها، وبمقدار ما تنير الشمس من الأرض ترسل الظلام على قسم آخر.

[5] حادي: من حدا الناقة إذا غنى لها لتجود في السير.

ليت شعري وما حصلت من الآ راء إلا علـى خلاف السـداد
لبقاءٍ تُقلِّنا الأرض في تَسـ ـيارها أم تقلِّنا لنفاد؟![6]
نحن في عالم تَقصَّف فيه عارض النائبات بالإرعاد[7]
شأننا العجزُ فيه نوجد أنى قذفتنا يدُ الخطوب الشداد
ضاع جَذر الحياة عنا فخلنا أنها كالأصم في الأعداد[8]
شغلتنا الدنيا بلهو ولعبٍ فغفلنا والموت بالمِرصاد
ضلَّ مَنْ رام راحة في حياةٍ ونحن منها في معرك وجلاد[9]
إنما هذه الحياة جروح أثخنتنا والموت مثل الضماد[10]
كلُّ أسرٍ يهون إن أطلقت أر واحنا المُوثقاتُ بالأجساد
لا تلمني إذا جَزعت فإني ما ملكت الخيار في إيجادي
طال عُتْبي على عِدات الليالي مثلما طال مَطْلُها بمرادي[11]
كدَّرت عيشيَ الحوادثُ حتى لا أرى الصفو غير وقت الرقادِ[12]
صاحِ ما دلَّ في الأمور على الأشـ ـكال إلا تفحص الأضداد
فاعتبر بالسفيه تُمْسِ حليمًا وتعرَّفْ بالغيِّ طرْق الرشاد
واللبيب الذي تعلَّم إتيا نَ المعالي من خِسة الأوغاد[13]
أيها الغِرُّ لا تغرُّك دنيا ك بكون مصيره لفساد
خفَّ من غاص في الغرور كما في لجة الماء خفَّ ثِقلُ الجماد[14]

---

[6] تقلنا: تحملنا.

[7] العارض في الأصل: السحاب الذي يعترض في الأفق. النائبات: المصائب.

[8] خلنا: ظننا. الأصم في اصطلاح الحسابين: هو العدد الذي لا يؤخذ جذره، بمعنى أنه لا يكون حاصلًا من ضربه بنفسه كالخمسة والثلاثة والأحد عشر وغيرها، معنى البيت: أننا جهلنا أصل الحياة، فظنناها لا أصل لها، كالعدد الأصم الذي لا جذر له.

[9] الجلاد: مصدر جالدوا، بمعنى تضاربوا بالسيوف.

[10] أثخنتنا: أوهنتنا وأضعفتنا. الضماد: العصابة التي يربط بها موضع الجروح.

[11] عدات: جمع عدة بمعنى الوعد.

[12] الرقاد: بمعنى النوم.

[13] الأوغاد: جمع وغد، وهو اللئيم.

[14] خف: من خفة العقل.

يا خليليَّ والخليل المُواسي منكما من يقوم في إسعادي[١٥]
خاب قوم أتوا وغى العيش عُزلًا من سلاحَيْ تعاون واتحاد[١٦]
قد جفتنا الدنيا فهلَّا اعتصمنا من جفاء الدنيا بحبل وِداد؟
لو عقلنا لمَا اختشى قطُّ محسو دون وقع الأذاة من حُسَّاد
فمتاع الحياة أحقر من أن يستفزَّ القلوب بالأحقاد
أنا واللَّهِ لا أريد بأن أو قِع شرًّا ولو على من يعادي
إنَّ لي إن سمعتُ أنةَ محزو نٍ أنينًا مُرَجعًا في فؤادي
إن نفسي عن همها ذات شغل بهموم العباد، كلِّ العباد
لا أحب النسيم إلا إذا هبَّ على كل حاضر أو باد

* * *

أيها الناس إن ذا العصر عصرُ الـ ـعلم والجدِّ في العُلا والجهاد
عصر حكم البخار والكهربائيـ ـة و«الماكنات» والمُنطاد
بُنيت فيه للعلوم المباني وأقيمت للبحث فيها النوادي
فاض فيضُ العلوم بالرغم مِمَّنْ ضربوا دونهن بالأسداد[١٧]
إنَّ للعلم في الممالك سيرًا مثل سير الضياءِ في الأبعاد
أطلع الغربُ شمسه فحبا الشر قَ اقتباسًا من نورها الوقاد
إن للعلم دولة خضعت دو نَ علاها عوالمُ الأضداد
ما استفاد الفتى وإن ملك الأر ضَ بأعلى من علمه المستفاد
لا تُسابق في حَلبة العزِّ ذا العلـ ـم فما للهجين شأوُ الجواد[١٨]
إن أموات أمة العلم أحيا ءٌ حياة الأرواح والأجساد
وكأيِّنْ في الناس من ذي خمول صار بالعلم كعبة القصاد!

---

[١٥] المواسي: المعين.

[١٦] وغى العيش: شدته، والوغى في الأصل: أصوات المحاربين في الحرب. عزلًا: جمع أعزل، وهو الذي لا سلاح معه.

[١٧] الأسداد: جمع أسد.

[١٨] الهجين من الخيل: هو الذي ولدته برذونة من حصان عربي.

* * *

رُبَّ يـومٍ وردت دجـلَـةَ فـيـهِ مـوردًا خـالـيًـا عـن الـورَّاد
حيث ينصب في سكون عميق مـاؤهـا لاثـمًـا ضـفـاف الـوادي
وهبوب النسيم يكتب في الما ءِ سـطـورًا مُـهـتـزَّةً فـي اطِّـراد
يَمَّحي بعضها ويظهر بعضٌ فهي تنساب بين خافٍ وبادِ[19]
وتـئـنُّ الـمـيـاه لـي بـخـريـرٍ كـأنـيـن الـسـقـيـم لـلـعُـوَّاد[20]
قمت في وجهها أردِّد طرفي ساكنًا والضمير منِّي ينادي
واقفًا تحت سَرحة ناح فيها طائر فوق غصنها الميَّادِ[21]
منشدًا في النواح شعرًا غريزيـ ـا حـزيـنًـا كـأنـه إنـشـادي
جـاوبـتـه أفـنـانُـهـا بـأنـيـن من حفيف الأوراق والأعواد[22]
أيها الطائر المرجِّع فوق الـ ـغْصن هل أنت نائح أم شاد؟!
بين ماء جارٍ ولحنٍ شجيٍّ منك يا طائرُ استطار فؤادي
يا مياهًا جرت بدجلة تجتا ز مـرورًا بـجـانـبَـي بـغـداد
إن نفسي إلى الحقيقة عَطشَى أفتشفين غُلة من صادِ؟[23]
كنت تجرين والرُّصافةُ والكر خ خَـلاءٌ مـن رائـحٍ أو غـادِ
أيها الماءُ أين تجري ضَياعًا وحواليك قاحلات البوادي؟![24]
فمتى تفطن النفوس فيحيا بك سقيًا موات هذي البلاد؟
لو زرعنا بك البقاع حبوبًا لحصدنا النُّضار يوم الحصاد[25]
أفـيـدري خـلـيـج فـارسَ مـاذا فـمـه مـنـك بـالـعٌ بـازدراد؟!

[19] تنساب: تسرع.

[20] العواد: الزوار.

[21] السرحة: الشجرة العظيمة. المياد: المتمايل.

[22] أفنانها: أغصانها. الحفيف: صوت أوراق الشجر.

[23] الغلة: العطش. الصادي: العطشان.

[24] أرض قاحلة: لا نبات فيها.

[25] النضار: الذهب.

أنت واللَّهِ عسجد ولُجَين لو أتينا الأمور باستعداد[٢٦]
فَاجْرِ يا ماءُ إن جريت رويدًا بأناةٍ ومُهْلةٍ واتئآد[٢٧]
علَّنا نستفيق من رقدة الفقـ ـر فنَغْنَى بفيضك المزداد
سلكتك السما ينابيعَ في الأر ض أمدَّتك أيَّما إمداد!
فتفجَّرتَ في السفوح عيونًا نبعت من مخازن الأطواد[٢٨]
وإذا ما انتَهيت في جرَيانٍ عُدت للبدءِ في مُتون الغوادي[٢٩]
هكذا دار دائر الكون من حيـ ـث انتهى عاد راجعًا للمبادي

---

[٢٦] العسجد: الذهب. اللجين: الفضة.

[٢٧] الأناة والمهلة والاتئاد: ألفاظ مترادفة بمعنى التأني.

[٢٨] السفوح: جمع سفح، وهو أسفل الجبل. الأطواد: جمع طود، وهو الجبل.

[٢٩] المتون: جمع متن، وهو جانب الشيء. الغوادي: السحاب الذي يكون فيه المطر، يقول: إن الماء بعدما ينتهي جريانه يرجع كما كان في بادئ الأمر سحابًا بواسطة التبخر ثم ينزل مطرًا، وهكذا قال أبو العلاء:

فيا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيِّب؟!
تعود طهورًا إذا ما رجعت إلى الأصل كالمطر الصيب

كلمة معتبر

أقوى مَصيفُ القوم والمربعُ … فالدار قفر بعدَهم بلقعُ[1]

سارت بنا الأرض إلى غاية … لنا ولَلأرضُ هي المرجِعُ

ونحن كالماء جرى نابعًا … لكنْ علينا خفيَ المنبعُ

والعلم قد أنكر مِنهاجَنا … ولم يبِنْ أين هو المهيع

خرقت يا علْمُ رداءً لنا … كنا ارتديناه فهل ترْقعُ؟!

فَجعتنا يا علْمُ في أمرنا … أمعتِبٌ أنت إذا تجزع؟![2]

لقد طغت حيرة أهل النهى … هل فيك يا علم لها مَردَع؟[3]

كم نشرب الظنَّ فلا نرتوي … ونأكل الحَدْس فلا نشبع![4]

والناس ويل الناس في غفلة … ترتع والموت بهم يرتع

والكون قد لاح بمرآته … للعيش وجهٌ شاحب أسفعُ[5]

---

[1] المصيف: مكان الإقامة صيفًا، والمربع: مكانها ربيعًا. البلقع: الأرض الخالية من السكان.

[2] مُعتب: مرضٍ، مشتق من أعتبه بمعنى أعطاه العتبى؛ أي الرضا. نجزع: لم نصبر.

[3] النهى: العقل.

[4] الحدس: التخمين والرجم بالغيب.

[5] شاحب، يقال: شحَب لونه وشحُب، بمعنى تغير من جوع أو سفر أو مرض، وجه أسفع شاحب متغير من المشاق.

وإن في البدر لخطبًا به | في البدر لاحت بقع أربع[٦]
فالعين ما يورث حزنًا ترى | والأذن ما يزعجها تسمع
والأرض في منقلبٍ بالورى | والشمس من مشرقها تطلع
حتى إذا ما بلغتْ شوطها | لاحت نجوم في الدجى تلمع[٧]
وهكذا الظلمةُ تتلو الضيا | والضوء للظلمة يستتبع[٨]
ونحن في ذاك وفي هذه | بالنوم واليقظة نستمتعُ[٩]
ما بين مسعود يميت الدُّجَى | نومًا ومنكود فلا يهجع[١٠]
ومسرع يسبقه مبطئٌ | ومبطئ يسبقه مسرع
وشامتٍ يضحك من حادث | حلَّ بباكٍ قلبه موجَع
لو كان للقسوة عين وقد | رأته كانت عينها تدمع
والكلُّ في شغْبٍ لهم دائم | لم يقلعوا عنه ولن يقلعوا[١١]
والماءُ يمشي وشَلًا تارةً | وحوضه آونةً مُترَعُ[١٢]
والريح تجري وهي رَيْدَانَةٌ | حينًا وحينًا عاصفٌ زَعزع[١٣]
وبعضهم تُمْرع وِديانه | وبعضهم واديه لا يُمرع[١٤]

* * *

قد لا يحسب الإنسان آماله | والموت مصغٍ نحوه يسمع
حتى إذا أكمل حُسْبانها | وافاه ما ليس له مدفع

---

[٦] الخطب: الأمر.

[٧] الشوط: الغاية والنهاية.

[٨] تتلو: تتبع.

[٩] نستمتع: ننتفع زمانًا طويلًا.

[١٠] الدجى: الليل. يهجع: ينام.

[١١] الشغب: الهياج وإثارة الشرور.

[١٢] الوشل: الماء القليل. مترع: ملآن.

[١٣] ريدانة: لينة الهبوب. عاصف، زعزع: شديدة الهبوب.

[١٤] تمرع: تخصب.

فـخـرَّ لـلـجـنْـب صـريـعًـا بـه　　وأيُّ جـنـب مـا لـه مـصـرع؟!
وظـل فـوق الأرض فـي حـالـة　　يـزورُّ عـنـهـا الـحـسب الأرفـعُ[15]
لا تـعـمـل الأقـلام فـي كـفِّـه　　وكـان مـن قـبـل بـهـا يـصـدع[16]
ولـم تـعـد تـقـطـع أسـيـافـه　　مـن بـعـد مـا كـان بـهـا يـقـطـع
فاستلَّ مثل السيف من مُطرَفٍ　　طـرائـق الـوشـي بـه تـلـمـع[17]
ولُـفَّ فـي ثـوب لـه واحـدٍ　　لـيـس لـه رقـم ولا مِـيـدع[18]
واهًـا لـه ثـوب الـبِـلَـى إنـه　　يـبـلـى مـع الـجـسـم ولا يـنـزع
ودُسَّ حـيـث الأرضُ أمـسـت لـه　　مـلـحـودة ضـاق بـهـا الـمـضـجـع[19]
حـيـث الـبِـلَـى يـرمـيـه حـتـى إذا　　لم يَبْقَ في قوس البِلَى منزع[20]
خـالـط تـرب الأرض جـثـمـانـهُ　　مـطـحـونـة مـنـه بـهـا الأضـلـع[21]
لـلَّـه دَرُّ الـمـوت مـن خـطَّـةٍ　　فيها استوى ذو العيِّ والمُصْقِع![22]
يـخـون فـيـهـا الـقـولُ مِـنـطـيـقـه　　كـمـا تـخـون الـبـطـلَ الأدرع[23]
مـا أقـدر الـمـوتَ! فـمِـن هَـوْلِـه　　لـم يـنـجُ لا كِـسْـرى ولا تُـبَّـع[24]
يـا رافـع الـبـنـيـان كـمـا لـلـردى　　مـن سُـلَّـم يـدرك مـا تـرفـع
ويـا طـبـيـب الـقـوم لا تـؤذهـم　　إنَّ دواء الـمـوت لا يـنـجَـع[25]

---

[15] يزور: يميل وينحرف.

[16] يصدع: يشق.

[17] المطرف: نوع من الثياب. طرائق الوشي: خطوط التنميق والنقش.

[18] الرقم: الوشي. الميدع: الصوان الذي يصان به الثوب، أي: ليس وشي ولا صوان يصان به؛ لأن الكفن يلبس ولا ينزع كما قال في البيت الثاني.

[19] دس في التراب: أودع فيه. ملحودة: اتخذ لها لحدًا.

[20] يقال: لم يبقَ في القوس منزع، أي: بلغ الأمر الغاية.

[21] الجثمان: الجسم.

[22] ذو العي: ذو الحصر، وهو الذي لا يحسن الكلام. المصقع: الفصيح.

[23] المنطيق: البليغ.

[24] كسرى: اسم كل ملك كان يحكم الفرس. وتبع: اسم كل ملك كان يحكم اليمن، كقيصر للروم، وخاقان للترك، والنجاشي للحبشة، وفرعون للقبط، والعزيز لمصر.

[25] لا ينجع: لا يؤثر.

لا بدَّ للمغرور من مَنْدَمٍ	فالعَضُّ تدمَى عنده الأصبع
وما عسى تُغني وقد حشرجتْ	ندامةٌ ليست إذنْ تنفع[٢٦]
يا برقع الخلقة واهًا لما	فيك واهًا منك يا بُرقُع
قد زاغت الأبصار فيما ترى	إذ فات عنها سرك المودَع
وليس في الإمكان عند النهى	أبدع مما خلق المبدِع

[٢٦] حشرجت: الضمير راجع للروح، والحشرجة: الغرغرة عند الموت.

ألكني يا ضياء

أجـدَّكِ يـا كـواكـب لا تـريـنـا بيانًا منك يُخبِرُنا اليقينا؟[١]

كـأن الـعـالـم الـعُـلـوِيَّ سِـفـرٌ نـطـالـعـهُ ولـسـنـا مـفـصـحـيـنـا

نـحـاول مـنـه إعـراب الـمـعـانـي بـتـأويـل فـنـرجـع مُـعْـجِـمِـيـنـا[٢]

كـواكـب فـي الـمـجـرة عـائـمـاتٌ حكت في بحر فسحتها السفينا[٣]

سـرت زُهْـرُ الـنـجـوم ومـا دراهـا فـلاسـفـة مـضـت ومـنـجـمـونـا

شموس في السماء عَلتْ وجلَّت فظنوا في حقيقتها الظنونا

سـوابحَ فـي الـفـضـاء لـهـا شئونٌ ولـمَّـا يـعـلـمـوا تـلـك الـشـئـونـا

ومـا ارتـجـفـت بـجُـنـح الـلـيـل إلا لـتـضـحـك فـيـه مـمـا يـزعـمـونـا

لـعـلَّ لـهـا بـهـذا الـجـو شـأنًـا سِوى ما نحن فيه مُرجمونا[٤]

تـلـوح عـلـى الـدجـى مـتـلألـئـات فـتُـبْـهِـج فـي تـلألُـئـهـا الـعـيـونـا

---

[١] أجد: بفتح الجيم وكسرها، والهمزة للاستفهام، وهذه من الكلمات التي لا تستعمل إلا مضافة، ومعناها: أيجد منك هذا العمل، وقيل معناها بفتح الجيم: استحلاف بالجد؛ أي البخت والحظ، وبكسرها معناها: استحلاف بالجد؛ أي الحقيقة والاجتهاد، والجد الذي هو ضد الهزل.

[٢] الإعراب: الإظهار. معجمين: غير مفصحين.

[٣] المجرة: مجموعة نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوءها كأنه بقعة بيضاء. حكت: أشبهت، السفين: جمع سفينة.

[٤] مرجمون: قائلون بما لا نعلم.

وأنَّـى يـدرك الـرائـي مـداهـا ... وإن ألقى لها نظرًا شفونا؟![٥]
تـودُّ الـغـانـيـات إذا رأتـهـا ... لو انتظمت لها عِقْدًا ثمينا
تـقَـلـدُه عـلـى اللَّـبَّـات مـنـهـا ... وتـطَّـرح الـدمـالـج والـبُـريـنـا[٦]

* * *

أَلِكْني يا ضياءُ إلى الدراري ... رسالةَ مُسهِرٍ فيها الجفونا[٧]
لـعـلَّـك راجـع مـنـهـا جـوابًـا ... يـزيـل عـمـايـةَ الـمـتـحـيـريـنـا
فقل، إني تحيَّر فيك فكري ... كذاك تحير المتفكرونا
فـيـا أمَّ الـنـجـوم وأنـتِ أمٌّ ... أيولد فيك كالأرض البنونا؟[٨]
وهل فيك الحياة لها وجود ... فيمكن للرَّدى بك أن يكونا؟
وهل بك مثل هذي الأرض أرضٌ ... وفيها مثلنا متخالفونا؟
وهل هم مثلنا خُلقًا وخَلقًا ... هناك فيأكلون ويشربونا؟
وهل هم في الديانة من خلاف ... نصارى أو يهود ومسلمونا؟
وهل طابت حياة بنيك عيشًا ... ففوق الأرض نحن معذبونا؟
وهل حُسِبت بك الأيام حتى ... تألَّف من تعاقبها السنونا؟
وهل بالموت نحن إذا خرجنا ... عن الأجساد نحوك مرتقونا؟[٩]
فـتـبـقـى عـنـدك الأرواحُ مـنَّـا ... تُصان فلا ترى جَنَفًا وهُونًا[١٠]

[٥] مداها: غايتها. شفن شفونا: رفع طرفه ناظرًا الشيء كالمتعجب أو كالمكاره، فهو شافن وشفون بفتح الشين.

[٦] تقلده: أي تتقلده بمعنى تلبسه كالقلادة. اللبات: جمع لبة وهي النحر، الذي هو موضع القلادة من العنق. الدمالج: جمع دملج، وهو حلي يلبس في المعصم. البرين: نوع من الحلي، وهو جمع برة — بضم الباء وفتح الراء — على غير قياس.

[٧] ألكني يا فلان: أي كن رسولي إليه، وتحمل رسالتي إليه. الدراري: أراد بها النجوم الزواهر.

[٨] أم النجوم: هي المجرة.

[٩] مرتقون: مرتفعون.

[١٠] تصان: تحفظ. جنفًا: ظلمًا.

فأحْبِبْ بالمنون إذن وأحبِب بها إن كان سُلَّمك المنونا![11]

* * *

أبيني ما وراءَك يا دراري فنحن نخاله بعدًا شَطونا[12]
قد اتسع الفضاءُ لك اتساعًا فهل أبعاده بك ينتهينا؟
وصغَّرك ابتعادك فيه حتى إليك استشرف المتشوِّفونا[13]
فهل كان ابتعادك من دلال علينا أم بعدت لتخدعينا؟
خوالد في فضائك أنت؟ أم قد يحلُّ بك الفناءُ فتذهبينا؟
وقالوا: ما لعدَّتك انتهاءٌ فهل صدقوا أو ارتكبوا المجونا؟[14]
وقالوا: الأرضُ بنتك غيرَ مَيْن فهل أبناءُ بنتك يصدقونا؟[15]
وقالوا: إن والدك المفدَّى أثيرٌ في الفضاء أبى السكونا[16]
ترصَّدك الأنام وما أتانا بعلم كيانك المترصدونا[17]
«فهرشل» ما شفى منا غليلًا ولا «غاليلُ» أنبأنا اليقينا[18]
و «كبلر» قد هدى أو كاد لما أبانك يا نجوم تجاذبينا[19]
إلى كم نحن نَلبس فيك لبسًا ومن جَرَّاكِ ندَّرع الظُّنونا![20]
لعلَّ النجم في إحدى الليالي سيبعث للورى نورًا مبينا
تقوم له الهواتف قائلات: خذوا عني النهَى ودعوا الجنونا

---

[11] يقول: أيتها المجرة، هل نحن نرتفع إليك إذا متنا، فإن كذلك فما أحلى الموت إن كان سلمًا للوصول إليك!

[12] بئر شطون: بعيدة القعر، وغزوة ونية شطون: بعيدة.

[13] استشرف الشيء: رفع بصره ينظر إليه. تشوف إلى الشيء: تطلع إليه.

[14] المجون: إرسال القول أو الفعل من غير مبالاة كالهزل.

[15] المين: الكذب.

[16] الأثير: مادة منتشرة في كل خلاء ألطف من الهواء.

[17] الكيان: الطبيعة.

[18] هرشل وغاليل وكبلر: علماء فلكيون.

[19] أبانك: أظهرك.

[20] من جراك: من أجلك.

الأرض

خَبرٌ فـي الأرض أوحتـه الـسمـا لأولـي الـعـلـم بـرُسـل الـفـكـر

أن هــذي الأرض كــانــت أولا مـا تـرى بـحـرًا بـهـا أو جـبـلا

أو ســهــولًا أو رُبًـا أو سُــبـلا أو رياضًـا زهـرهـا الـغـضُّ نـمـا[1]

مـن سـحـاب جـادهـا بـالـمـطـرِ

إنـمـا كـانـت كـتـلـك الأخـوات مـن نـجـوم سـائـرات دائـرات

حـول شـمـس هـي إحدى النيرات كـنَّ مـن قـبـلُ عـلـيـهـا سُـدُمـا[2]

كـتـلـة واحـدةً فــي الــنـظـر

ثم بعدُ انفصلت من ذا السديمْ قِـطـعٌ مـنـهـا صـغـيـر وجـسـيـمْ

ضـمـن أفـلاك بـهـا الـدور تُـديـم فـاسـتـقـر الـكـل فـيـهـا أنـجـمـا

حـول غـيـر الـشـمـس لـم يَـسْـتـدر[3]

---

[1] الغض: الطري.

[2] السدم: جمع سديم، وهو الضباب؛ أي كانت النجوم التي هي في العالم الشمسي حول الشمس بمنزلة الغيوم.

[3] الأرض وأخواتها من النجوم السابحة التي يتألف منهما النظام الشمسي، كانت جميعها مع الشمس كتلة واحدة، انفصلت وصار كل نجم على حدة، مرتبطًا مع أخواته بنظام واحد، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

أولًا «نِبتُون» منه انفصلا ثم «أورانِسُ» يهدي زُحَلا[٤]
ثم للمشتري مرِّيخٌ تلا ثم هذي الأرض فالزُّهرة ما
بعدها غير أخيها الأشهر[٥]
وأخو الزُّهرة بالشمس اقتدى ولها أقربَ سيار غدا
وهي سارت خلفهُ طول المدى فأمام الأرض ذانِ انتظما
خلفها المريخ ثم المشتري
أرضنا كانت لَظى مشتعله مُذْ مِنَ الشمس غدت منفصلهْ
لم تزل في دورها منتقلة كتلةٌ فيها اللهيب احتدما
وهي ترمي في الفضا بالشرر
كان فيح النار منها مصعدا وهَجًا في الجو عنها مبعدا
حيث لا يمكن أن ينعقدا فوقها منه بخارٌ ديَما[٦]
هاطلات بالحيا المنهمر[٧]
بقيت حينًا وهذا أمرها وهي بالإشعاع يخبو حرُّها[٨]
وانثنى يبرد من ذا ظهرها فاكتست قشرًا يحاكي الأدما[٩]
واستمرت بطنها في سُعر[١٠]

[٤] نبتون: هو النجم السيار الذي لم يعرف في القديم. أورانس: هو نجم سيار لم يكن معروفًا من قبل، وإنما عرف أخيرًا، ويسمى أيضًا هرشيل باسم مكتشفه، وهذه النجوم التي ذكرها بعد أورانس هي السبعة السيارة الأصلية، التي تخطر حول الشمس، ولم يذكر القمر؛ لأنه قد ثبت أنه يدور حول الأرض، وهي تدور حول الشمس.

[٥] أراد بأخيها الأشهر: عطارد، وهو أقرب سيار إلى الأرض، وليس بين الزهرة والأرض سيار سواه.

[٦] الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق، والمراد به هنا المطر مطلقًا.

[٧] الحيا: المطر. المنهمر: السائل؛ أي أن شدة الحرارة المتصاعدة من الأرض كانت تمنع البخار من أن ينعقد سحابًا ماطرًا.

[٨] يخبو: يخمد ويسكن.

[٩] يحاكي: يشابه. الأدم: البشرة وهي ظاهر الجلد.

[١٠] البطن: مذكر، وتأنيثه لغة، وعليها مشى الشاعر، ويجوز أن يكون الضمير في استمرت عائدًا إلى الأرض، فتكون جملة بطنها في سعر، في موضع الحال من الضمير، السعر: الحر، وأراد به الاشتعال والهيجان، والسعر في الأصل بتسكين العين، وضم هنا للضرورة.

ثم قد صار على مر الزمان   قشرها يغلظ آنًا بعد آن
بيد أن النار عند الهيجَان   قد أعادت قشرها منخرما
بصدوع مُدهشات البصر[١١]
شخصت أطراف هاتيك الصدوغ   بجبال شمخت منها الفروع
ولها في العين أشكال تروغ   تقذف الأفواه منها حُممَا[١٢]
صار منهن ركام الحجرِ[١٣]
حصلت من قذف هاتيك المواد   حيث يجمدنَ جبال ووهاد[١٤]
وركاز وصخور وجماد   بعضها دَقَّ وبعضٌ عظما[١٥]
وهو صلب الجسم صعب المكسرِ
وهناك انعقدت فيها الغيومْ   من بخار كان في الجوِّ يعوم
ردَّه البردُ مياهًا في التخوم   فجرى السيل عليها مفعِما[١٦]
كل غور فوقها منحدرِ[١٧]
عمَّها السيل فغطى حين سالْ   سطحها مجترفًا منها الرمال
فَطَما الماء ولكنَّ الجبال   شخصت في الماء لَمَّا أن طَمَا[١٨]
وعلتْ كالسُّفْن فوق الأبحرِ
غمر الماءُ بها ما غمرا   ثم خلَّى بعضها منحسرا[١٩]

---

[١١] صدوع: شقوق.

[١٢] تروع: تخيف. الحمم: جمع حمة، وهي ما تقذفه البراكين عند ثورانها.

[١٣] الركام: الشيء المتراكم بعضه فوق بعض.

[١٤] الوهاد: الأماكن المنخفضة.

[١٥] الركاز: المعدن. دق: صغر.

[١٦] التخوم: الفواصل بين الأرضين. مفعمًا: مالئًا.

[١٧] الغور: هو ما انحدر من الأرض، متى تسلطت حرارة الشمس على الأرض امتصت رطوبتها فتتصاعد تلك الرطوبة بخارًا في الجو، ومتى بلغ الطبقة الباردة من الهواء يتحلل ويتساقط مطرًا، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللـَّه يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. الودق: المطر.

[١٨] طما: ارتفع.

[١٩] منحسرًا: منكشفًا.

مـحـدثًا فـي الـسـطـح مـنـهـا جـزُرا أنـزل الـمـاء بـهـا مـا حـطـمـا[٢٠]
مـن طُـفـالٍ وحُـتـات الـمـدَرِ[٢١]
بـسـيـول الـمـاء كـم فـيـهـا ارتـكـمْ مـن رمـال رسـبـت فـيـهـا أكـم[٢٢]
ولــكــم خــدَّت أخــاديــدَ وكــم قـد بَـنـت مـن طـبـقـات عَـلـمـا[٢٣]
نـضَّـدت فـيـه صـفـيـح الـمَـرمَـرِ
ثـم صـارت وهـي مـن قـبلُ مـواتْ تـصلُح الأقـطـار مـنـهـا لـلـحـياة[٢٤]
فـانـبـرت تُـنـبـت فـي الـبـدء الـنـبـات ثـم أبـدت مـن قـواهـا الـنـسـمـا[٢٥]
وارتـقـت فـيـهـا لـنـوع الـبـشـرِ[٢٦]
فـغـدت إذ ذاك تـزهـو بـالـريـاضْ وبـها الأدواح تنمو في الغياض[٢٧]
ثـم تـرمـيـهـا أكـفُّ الإنـقـراض بـانـحـطـام حـيـث تـمـسـي فـحـمـا
حــجــريًّــا بــمــرور الأعــصــرِ
من حطام الخلق في الأرض هضابْ كــوَّنــتــهــن أكــفُّ الإنــقــلاب[٢٨]

---

[٢٠] الجزر: جمع جزيرة، على غير قياس، والقياس: جزائر.

[٢١] الطفال: بفتح الطاء وضمها هو الطين اليابس. الحتات بضم الحاء: وهو ما تناثر من شيء. المدر: التراب المتلبد.

[٢٢] ارتكم الشيء: اجتمع مع ازدحام وكثرة. رسب الشيء في الماء: وصل إلى أسفله. أكم: جمع أكمة، وهي التل.

[٢٣] خدت: شقت. الأخاديد: جمع أخدود، وهو شق مستطيل في الأرض. العلم: الجبل.

[٢٤] الأرض الموات: وهي الخراب، أو التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد. الأقطار: النواحي والجهات، مفردها قطر.

[٢٥] النسم جمع نسمة وهي نفس الروح، وأراد بالنسم الأرواح أنفسها.

[٢٦] يظهر أن الشاعر يميل إلى مذهب النشوء والارتقاء كما يفهم من هذا المقطع، وقد اضطربت الآراء في أن هذا المذهب يعارض نصوص الدين، وعندي أنه لا يعارضها، ولم يزل علماء الكون في حيرة من تحقيق هذا المذهب.

[٢٧] الأدواح: الأشجار العظيمة.

[٢٨] الحطام: ما تكسر وتفتت من الأشياء اليابسة، وحطام الخلق: ما تكسر من عظامها وتحطم. الهضاب: جمع هضبة، وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

مـا تـراب الأرض والـلَّـهِ تـرابْ إنـــمـــا ذاك حُـــطـــام قـــدُمـــا
مـن جـسـوم بـالـيـات الـكـسـرِ
كـم عـلـى الأرض رُفـات بـالـيـاتْ من جسومٍ طحنتها الدائرات[٢٩]
فاحتفِرْ في الأرض تلك الطبقات تـجـد الأنـقـاض فـيـهـا رمـمـا[٣٠]
هـــي لـــلأحـــيـــاء أو لـــلـــشـــجـــر
كل وجـه الأرض لـلـخـلـق قـبـور خـفف الوطء على تلك الصدور
والـعـيون النجل منهم والثغور إنـمـا أنـت سـتـفـنـى مـثـلـمـا[٣١]
قـد فَـنُـوا والـمـوت دامـي الـظـفُـرِ
ظـلَّـت الأرض عـلـى كـرِّ الـدهـورْ تُـبـحـر الأجـبـل فـيـهـا والـبـحـور[٣٢]
فـوقـهـا تُـجـبَـلُ والـمـاء يـغـور وعـلـى ذاك اسـتـدل الـحُـكـمـا
بـجـبـال الـسَّـمـكِ الـمـسـتـحـجِـرِ
عـلـمـاء الأرض لـم تـبـرح تـرى حـــيـــوان الـــبـــرِّ لـــمَّـــا دَثـــرا[٣٣]
مـنـه فـي الأبـحـر أبـقـى أثـرا وكـذا فـي الـبـرِّ ألـقـى الـعـلـمَـا
أثـــرًا مـــن حـــيـــوان الأبـــحـــرِ
كل ما فـي الأرض من قفرٍ وبِيدْ وجبال شَـهـقـت فوق الـصـعـيـد[٣٤]
عـن زُهـاءِ الـربـع مـنـهـا لا يـزيـد وسـوى ذلـك مـنـهـا انـكـتـمـا
تـحـت مـاء الـبـحـر لـم يـنـحـسـرِ
فـي صـعـيـد الأبـحـر الـمـنـغـمـسِ مـثـلُ مـا يـوجـد فـوق الـيَـبـسِ

[٢٩] الرفات: الحطام وهو مفرد مذكر، أراد به الشاعر معنى الجمع، فجمع صفته وأنثها.

[٣٠] الأنقاض: الأبنية المتهدمة. الرمم: ما بلي من العظم، مفردها رمة، وأراد بها الشاعر ما هو أعظم.

[٣١] النجل: العيون الواسعة الحسنة.

[٣٢] تبحر الأجبل: أي تصيرها بحرًا، والأجبل: جمع جبل، تجبل: تصير جبالًا — يعرض للأرض بسبب ما في جوفها من القوى والفواعل المختلفة اضطرابات وانقلابات، وقد تسبب هذه الفواعل تغوير الجبال الشاهقة، في غمرها الماء فتصير بحرًا، وقد تسبب ظهور جبال وجزائر في البحر، وقد استدل علماء الكون على ذلك بما شاهدوه من الأسماك المتحجرة في رءوس الجبال ومن آثار الحيوانات البرية في أغوار البحار.

[٣٣] دثر: بلي وامحى.

[٣٤] البيد: جمع بيداء، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس. الصعيد: وجه الأرض.

مـن جـبـالٍ نـاتـئـات الأرؤس وَوِهــادٍ تـسـتـزِلُّ الـقـدَمـا[٣٥]
وَرُبًـا مـخـتـلـفـات الـقَـدَرِ[٣٦]
ما نرى اليوم من الماء الحميم والبراكين التي تحكي الجحيم[٣٧]
ومن الزَّلزال ذي الهول العظيم دلَّ أن الأرض فـيـمـا قـدُمـا
ذات جِـرم ذائـب مـسـتـعـرِ[٣٨]
كـل مـا كـان بـحَـال الـسَّـيـلان فـهـو يـغـدو كـرة بـالـدورَان
وكذاك الأرض في ماضي الزمان كـرويًّـا قـد عـدا مـلـتـئـمـا
جِـرمـهـا مـن سَـيـلانِ الـعُـنـصـرِ
ثـم إن الأرض مـن قـبـل الـجـمـودْ ولـدت مـنـهـا ولـيـست بـالـولـود[٣٩]
قـمـرًا دار عـلـيـهـا بـسـعـودْ وجـلا فـي الـلـيـل عـنـهـا الـظـلَـمَـا
فـهـي بـنـت الـشـمـس أمُّ الـقـمَـر[٤٠]

---

[٣٥] ناتئات: مرتفعات. تستزل: تزلق.

[٣٦] ربا: جمع ربوة، وهي المرتفع من الأرض.

[٣٧] الحميم: الساخن الحار. البراكين: جبال تقذف نارًا ودخانًا وماء ووحلًا ومواد ذائبة، فيبدو منها إذ ذاك مجموع حوادث تظهر فيها النار أعمالها الغريبة، وأسباب تلك الحوادث غير معروفة، وربما بقيت على الدوام إذ لا وسيلة إلى معرفتها، ومفردها بركان، وهو لفظ قد اصطلح عليه، ولفظه العربي فلقان: جمع فلق، بفتح الفاء واللام ومعناه جهنم، ثم استعمل لجبل النار.

[٣٨] مستعر: ملتهب.

[٣٩] الولود بفتح الواو: الكثيرة الأولاد، الأرض قبل أن تجمد بعد انفصالها عن الشمس انفصل عنها القمر.

[٤٠] هي: أي الأرض بنت الشمس؛ لأنها منفصلة عنها وهي أم القمر، لأنه منفصل عنها.

الاجتماعيات

نحن والماضي

عهدتك شاعرَ العرب المُجيدا فما لك لا تطارحُنا النشيدا[1]
فنحن إليك بالأسماع نُصغِي فهل لك أن تفيد فنستفيدا
بشعرٍ لا تزال تنوط منه بجيد بدائع الدنيا عقودا[2]
إذا أنشدْتَه الحسناءَ تاهتْ كأنْ قرَّطتها دُرًّا فريدا[3]
وأنت إذا قرعتَ به عبيدًا رددت إلى الحرار به العبيدا[4]
ولو تستنهض الجُبناء يومًا به لتقَحَّموا الهيجا أسودا
ولو كرَّرتهُ للقوم ألفًا لأقسم سامعوه بأن تُعيدا
وكم تهتز أعطافُ المعالي إذا ما قلتَ قافيةً شرودا
فلو أنشدتنا في الفخر شعرًا تذكرنا به العهد البعيدا
تذكرنا الأوائل كيف سادوا وكيف تبوَّعوا الشرف المديدا[5]

---

[1] قوله: «لا تطارحنا النشيد»: أي لا تجاوبنا منشدًا، يقال: طارحه الكلام والشعر والغناء إذا ناظره وجاوبه.

[2] تنوط: تعلق. والجيد: العنق أو مقلده أو مقدمه.

[3] تاهت: تكبرت. وقرطتها: أي ألبستها قرطًا، والقرط بالضم: هو الذي يعلق في شحمة الأذن، من درة أو نحوها.

[4] قرعت: ضربت. والحرار بالفتح: العتق والحرية.

[5] تبوَّعوا الشرف: امتدوا فيه وأدركوا غايته. والشرف المديد: أي الممدود الطويل.

* * *

فقلت له وقد أبدى ارتياحًا ... إليَّ إذ ارتجلتُ له القصيدا:

أَجَلْ إنَّ القبائل من مَعدٍّ ... علوا فتسنَّموا المجد المجيدا[٦]

وإنَّ لهاشمٍ في الدهر مجدًا ... بناه لها الذي هشَمَ الثريدا

ومذ قام ابن عبد اللَّه فيهم ... أقام لكل مكرمةٍ عمودا[٧]

وأنهضهم إلى الشرف المُعلَّى ... وكانوا عنه قبْلئذٍ قعودا

فأصبح واريًا زند المعالي ... وقبلًا كان مقْدحُه صُلودا

فهم فتحوا البلاد ودوَّخوها ... وقادوا في معاركها الجنودا[٨]

وهم كانوا أشدَّ الناس بأسًا ... وأمنعَ جانبًا وأعمَّ جُودا

وأرجحهم لدى الجُلَّى حلومًا ... وأصلبهم لدى الغمرات عودا[٩]

ولكن أيُّها العربيُّ إني ... أراك لغير ما يُجدي مُريدا

وما يُجدي افتخارك بالأوالي ... إذا لم تفتخر فخرًا جديدا؟!

* * *

أرى مستقبل الأيام أولى ... بمطمح من يحاول أن يسودا

فما بلغ المقاصد غيرُ ساعٍ ... يُردِّد في غدٍ نظرًا سديدا

فوجِّه وجهَ عزمك نحو آتٍ ... ولا تلْفِتْ إلى الماضين جِيدا

وهل إن كان حاضرنا شقيًّا ... نسود بكون ماضينا سعيدا؟

تقدَّم أيُّها العربي شوطًا ... فإن أمامك العيشَ الرَّغيدا[١٠]

وأسِّس في بنائك كلَّ مجد ... طريفٍ واترُكِ المجدَ التليدا[١١]

[٦] أجل: حرف جواب بمعنى نعم. وتسنموا المجد: أي علوه. ومعد: هو معد بن عدنان أبو العرب.

[٧] ابن عبد الله: يعني محمد بن عبد الله ﷺ.

[٨] دوخوها: أي قهروها واستولوا على أهلها.

[٩] الجلى: الخطب العظيم، والأمر الشديد، وهي مؤنث الأجل.

[١٠] الشوط: الجري مرة إلى الغاية.

[١١] المجد الطريف: الحديث المكتسب، والتليد: القديم الموروث.

فشرُّ العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخيرُ الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبًا جديدا
تراه إذا ادَّعى فِي الناس فخرًا تُقيم له مكارمُه الشهودا
فدَعْني والفخارَ بمجدِ قومٍ مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضًا لهم ورأيننا فعبسْنَ سودا
وقد عهِدوا لنا بتراث مُلكٍ أضعنا في رعايته العهودا[١٢]
وعاشوا سادة في كل أرض وعشنا في مواطننا عبيدا
إذا ما الجهل خيَّم في بلادٍ رأيتَ أسودَها مُسِخت قرودا

[١٢] قوله: بتراث ملك، التراث: ما يخلفه الرجل لورثته، أي: بتراث هو ملك، فالإضافة بيانية.

معترك الحياة

هو الدهر لم يترك مشنَّ غوارِه على سابق من ليله أو نهارِه[١]
يثير غبار الحادثات بكرِّه وهل نحن إلا من مُثار غباره؟!
وكم عبر مطويةٍ في صروفه! فهل من مُجيلٍ فيه طرف اعتباره؟
خليليَّ إنَّ الأرض غربال قدرة تجمعت الأحياء بين إطاره[٢]
تميد به كفُّ الزمان تحرُّكًا لمحو ضعيف أو لإثبات فاره[٣]
فيبقى به الأقوى قرينَ ارتقائه كما يسقط الأوهى رهين اندثاره[٤]
فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها قديرًا على دفع الأذى والمكاره

* * *

[١] الغوار: كالإغارة، مصدر غاور العدو إذا أغار عليهم. ومشن: مصدر ميمي بمعنى الشن، وشن الغارة: تفريقها وصبها من كل جهة. يقول: إن الدهر لا يقعد عن شن الإغارة بحوادثه المتتالية، وهو على جوادين سابقين، هما: الليل والنهار.

[٢] يشير بهذا والذي بعده إلى قانون الاصطفاء الطبيعي، وهو قانون بقاء الأنسب، فهو يعمل عمله في الأرض الدائرة حول الشمس، فيضمحل في أثناء دورانها الضعيف من المخلوقات، ويبقى بها القوي القادر على دفع كل ما يقاوم حياته فيها، فهي في ذلك بمنزلة الغربال، الذي يسقط عند تحريكه كل دقيق صغير، ويبقى فيه ما هو كبير. وإطار الغربال: اللوح المحيط به.

[٣] تميد به: أي تدور به وتتحرك. والفاره: المليح النشيط، والمراد به هنا: ما يقابل الضعيف، وهو القوي.

[٤] الأوهى: الأضعف، وهو مقابل للأقوى في الشطر الأول.

لـعـمـرك مـا هـذي الـحـيـاة بـمـلـبـس لمن حيك من عجز نسيجُ شعاره
ولـكـن لـمـن أمـسـى بـأيـدٍ وقـوَّةٍ يـجـرُّ عـلـى الأيـام فـضـل إزاره[٥]
أرى الشمس تُخفي ضوءها كل شارق وإن كان ينبو الطرف عن مستناره
ومـا ذاك إلا أنـهـا فـي تـلـهُّـبٍ يـمـوج بـنـور سـاطـع وَقْـدُ نـاره
فلم يستطع نجمٌ طلوعًا تجاهها إذا لم يغُد بالليل غبَّ اعتكاره
كذاك ضعيف القوم إن كان جارُه قـويًّـا يـكـن شِـلـوًا أكـيـلًا لـجـاره[٦]
وما الليث لولا بأسه في عرينه بأشرفَ من ضَبِّ الفلا في وِجاره
ومـن غـاور الأيـام غـيـر مـدجَّـجٍ فلا يطمَعَنْ في مغنمٍ من مُغاره[٧]
ومن لم يُهِن صرفَ الزمان برحلةٍ تُهنه صروفُ الدهر في عُقر داره[٨]
ومـا شـرَّف الـدر الـثـمـيـن فـريـدهُ إذا هـو لـم يـبـرح بـطـونَ مَـحـارهِ[٩]

* * *

أرى كلَّ ذي فـقـر لـدى ذي غِـنًـى أجيرًا له مستخدمًا في عقاره[١٠]
ولـم يُـعـطـه إلا الـيـسـيـر وإنـمـا عـلـى كدِّهِ قـامـت صـروح يـسـاره
ويلبس من تَذليله العز ضافيًا ويـنـظـره شـزرًا بـعـيـن احـتـقـاره
يشُدُّ الغنى أزْرَ الفتى في حياته ومـا الـفـقـر إلا مـكْـسـر فـي فَـقـاره

[٥] بأيد: أي بقوة، فعطف القوة عليه من قبل عطف التفسير، والباء هنا للمصاحبة، وقوله: يجر على الأيام فضل إزاره: كناية عن القوة والقدرة؛ لأن جر فضل الإزار إنما هو فعل الجبابرة والأغنياء، فكأنه يقول لمن أمسى قويًّا ذا قدرة وعظمة.

[٦] ضرب في الأبيات المتقدمة مثلًا لتغلب القوي على الضعيف، بما ذكر من الشمس التي لا تستطيع النجوم طلوعًا تجاهها، فلا تطلع إلا إذا غابت الشمس واعتكر الظلام، ثم قال: وكذلك ضعيف القوم إن جاور القوي كان مغلوبًا له، والشلو: العضو من اللحم.

[٧] المدجج: اللابس السلاح.

[٨] عقر الدار: وسطها، أي: من لم يرحل لدفع نوائب الدهر عنه، نابته تلك النوائب وهو في وسط داره.

[٩] المحار: الصدف الذي يكون فيه اللؤلؤ، واحده: محارة.

[١٠] ينتصر بهذا البيت وما بعده لمذهب الاشتراكية، حيث ذكر منزلة الفقير تجاه الغني، وعيش الثاني من كد الأول.

وليس الغنى إلا غِنى العلم إنه — لَنورُ الفتى يجلو ظلام افتقاره[١١]
ولا تحسبَنَّ العلمَ في الناس منجيًا — إذا نَكَّبت أخلاقهم عن مناره
وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى — ولكن تزيغُ العين عند انكساره[١٢]
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحًا — وإن كان بحرًا زاخرًا من بحاره

* * *

سل الفلك الدوَّارَ عن حركاتهِ — فهل هو فيها دائر باختيارهِ؟
وهل هو في هذا الفضاء مسافر — له غاية مقصودة من سفاره؟
وهَبْنا جهلنا بدأه من تقادمٍ — فهل يدرك العقل انتهاء مدارهِ؟
متى ينجلي ليل الشكوك عن النُهى — وترفع كفُّ العلم مرخَى ستاره؟
ألا ورْيَ في زند الزمان فنهتدي — بسقط ضئيل من سقيطِ شراره؟
أرى الدهر ليلًا كله غير مبصرِ — وإن كان في رأد الضحى من نهاره
وأهليه ساروا خابطين ظلامَه — وإن ركبوا في السير متن بخاره
لعمرك إن الدهر يجري لغاية — فإن شئت أن تحيا سعيدًا فجارهِ
وها هو ذا يعدو فيبتدر المدى — وينهب أعمار الورى في ابتداره
لقد فاز من بارى جديديه جدَّةً — وخاب الذي في جدِّهِ لم يُبارهِ
وليست حياة الناس إلا تجدُّدًا — مع الدهر في إيباسه واخضراره
وما الناس إلا الماء يُحييه جريُه — ويرديه مُكثٌ دائمٌ في قرارهِ

* * *

لك الخير هل للشرق يقظةُ ناهض — فقد طال نوم القوم بين دياره؟

[١١] يشير بهذه الأبيات إلى أن الغنى الحقيقي هو غنى العلم لا المال، وأن العلم لا يجدي نفعًا إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة.

[١٢] العلم يشبه بالنور من جهة أنه يجلو ظلام العمى، أي: الجهل، كما أن النور يجلو ظلام الليل، وكذلك يشبه النور من جهة أنه إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يؤدي بصاحبه إلى الزيغ عن الهدى، كما أن النور إذا انكسر شعاعه عند نفوذه في الأجسام الشفافة كالهواء والماء تزوغ عين الرائي، أي: تنحرف بسبب انكساره عن رؤية المرئي كما هو في نفس الأمر، وتحرير المعنى أن العلم إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يكون كالنور المنكسر، الذي يزوغ به البشر عن إدراك حقيقة المرئي كما هي.

ألـم تـرَ أنَّ الـغـرب أَصْـلـتَ سـيـفَـه عـلـيـهـم وهـم لاهـون تـحـت غـراره؟!
وبـادرهـم كـالـسـيـل عـنـد انـحـداره وهـم فـي مـهـاوي غـفـلـةٍ عـن بـداره
أمـا آن لـلـسـاهـيـن أن يـأبـهـوا لـه وقد أصبحوا في قبضة من إساره[١٣]
تـراهـم جـمـيـعًـا بـيـن حَـيْـوانَ واجـمٍ وآخـر يُـطـري مـاضـيًـا مـن فـخـاره[١٤]

[١٣] أن يأبهوا له: أي أن يفطنوا له.
[١٤] واجم: أي ساكت لشدة حزن أو غم.

أم اليتيم

رمتْ مِـسـمَـعـي لـيـلًا بـأنَّـة مـؤلـمِ فـألـقـت فـؤادي بـين أنـيـاب ضـيـغـمِ[١]
وبـاتـت تـوالـي فـي الـظـلام أنـيـنـهـا وبـتُّ لـهـا مُـرْمًـى بـنـهـشـة أرقـم[٢]
فـيـهـفـو بـقـلـبـي صـوتـهـا مـثـلـمـا هـفـت بـقـلـب فـقـيـر الـقـوم رنَّـةُ درهـم[٣]
إذا بـعـثـت لـي أنَّـة عـن تـوجُّـع بـعـثـت إلـيـهـا أنَّـة عـن تـرحُّـم
تـقـطَّـع فـي الـلـيـل الأنـيـن كـأنـهـا تـقـطَّـع أحـشـائـي بـسـيـفٍ مـثـلَّـم[٤]
يـهـزُّ نـيـاط الـقـلـب بـالـحـزن صـوتـهـا إذا اهـتـزَّ فـي جـوف الـظـلام الـمـخـيِّـم[٥]
تـردِّده والـصـمـت فـي الـلـيـل سـائـد بـلـحـن ضـئـيـل فـي الـدُّجُـنَّـة مُـبـهـم[٦]
كـأنَّ نـجـوم الـلـيـل عـنـد ارتـجـافـهـا تُـصـيـخُ إلـى ذاك الأنـيـن الـمـجـمـجِـم[٧]
فـمـا خَـفـقـان الـنـجـم إلا لأجـلـهـا ومـا الـشـهـب إلا أدمـع الـنـجـم تـرتـمـي

---

[١] الضيغم: الأسد.
[٢] الأرقم: أخبث الحيات وأطلبها للناس.
[٣] يهفو: يخفق.
[٤] مثلم: مفلٌّ، مكسر الحد.
[٥] النياط: عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين، والنيط في الأصل: ما يعلق عليه أي شيء.
[٦] الدجنة: الظلمة.
[٧] تصيخ: تستمع. جمجم الكلام: أي لم يبينه.

لقد تركتني مُوجعَ القلب ساهرًا أخا مَدمع جارٍ ورأس مُهوِّم[٨]
أرى فحمة الظلماء عند أنينها فأعجب منها كيف لم تتضرَّم![٩]
فأصبحت ظمآن الجفون إلى الكرى وإن كنت ريَّان الحشا من تألمي[١٠]
وأصبح قلبي وهو كالشعر لم تدعْ له شعراء القوم من متردِّم[١١]
وبيتٍ بكت فيه الحياة نحوسة ولاحت بوجه العابس المتجهِّم[١٢]
به ألقت الأيام أثقالَ بؤسها فهاجت به الأحزانُ فاغرَةَ الفم[١٣]
كأني أرى البنيان فيه مهدَّمًا وما هو بالخاوي ولا المتهدِّم
ولكنَّ زلزال الخطوب هوى به إلى قعر مهواة الشقاء المحسَّم
دخلت به عند الصباح على التي سقاني بكاها في الدُّجى كأسَ علقم[١٤]
فألفيتُ وجهًا خدَّد الدمع خدَّه ومحمَرَّ جفنٍ بالبكا متورِّم[١٥]
وجسمًا نحيفًا أنهكته همومه فكادت تراه العينُ بعضَ توهم
لقد جثمت فوق التراب وحولها صغير لها يرنو بعيني ميتَّمِ[١٦]
تراه وما إن جاوزَ الخمسَ عمرُهُ يدير لحاظ اليافع المتفهِّم[١٧]
بكى حولها جوعًا فغذَّته بالبكا وليس البكا إلا تعِلَّة مُعْدم[١٨]
وأكبر ما يدعو القلوب إلى الأسى بكاء يتيمٍ جائع حول أيِّم[١٩]

---

[٨] هوم الرجل تهويمًا وتهوم تهومًا: أي هزَّ رأسه من النعاس.

[٩] تتضرم: تشتعل.

[١٠] الكرى: النعاس.

[١١] المتردم: المرقع الذي يرقع.

[١٢] المتجهم: هو الذي يستقبلك بوجه كريه.

[١٣] فاغرة: فاتحة.

[١٤] الدجى: الليل. العلقم: الحنظل وكل شيء مر.

[١٥] خدد: شقق.

[١٦] يرنو: يديم النظر.

[١٧] اليافع: الذي ترعرع وناهز البلوغ.

[١٨] التعلة: هو الشرب بعد الشراب تباعًا، والمراد هنا: أنه كان يبكي مرة بعد مرة، ليعلل نفسه ويشغلها بذلك. المعدم: الفقير.

[١٩] الأيم: التي فقدت زوجها.

* * *

وقفت وقد شاهدت ذلك منهما لمريم أبكي رحمة وابن مريم
وقفت لديها والأسى في عيونها يكلمني عنها ولم تتكلمِ
وساءلتها عنها وعنه فأجهشت بكاءً وقالت: أيها الدمع ترجم[٢٠]
ولما تناهت في البكاء تضاحكت من اليأس ضِحك الهازئ المتهكم
ولكنْ دموع العين أثناء ضحكها هواطلُ مهما يسجمِ الضحكُ تسجم[٢١]
فقد جمعت ثغرًا من الضحك مُفعَمًا إلى محجر باكٍ من الدمع مُفعم[٢٢]
فتُذري دموعًا كالجمان تناثرت وتضحك عن مثل الجمان المنظم[٢٣]
فلم أرَ عينًا قبلها سال دمعها بكاءً وفيها نظرة المتبسمِ
فقلت، وفي قلبي من الوجد رعشة: أمجنونةٌ؟ يا ربِّ فارحم وسلِّم!

* * *

ومذ عرضت للابن منها التفاتة أشارت إليه بالمدامع أنْ قُمِ
فقام إليها خائرَ الجسم فانثنت عليه فضمته بكف ومعصم[٢٤]
وظلت له ترنو بعينٍ تجودُه بفذٍّ من الدمع الغزير وتوءمِ[٢٥]
فقال لها لما رآنيَ واقفًا أردِّدُ فيه نظرة المتوسم[٢٦]
سلي ذا الفتى يا أمُّ: أين مضى أبي؟ وهل هو يأتينا مساءً بمطعمِ؟
فقالت له، والعين تجري غروبها وأنفاسها يقذفن شُعْلة مضرَم:[٢٧]

---

[٢٠] أجهشت بالبكاء: أي همت به وتهيأت له.

[٢١] سجم الدمع: سال.

[٢٢] مفعمًا: مملوءًا. المحجر: ما دار بالعين وبدا من البرقع.

[٢٣] الجمان: اللؤلؤ.

[٢٤] المعصم: موضع السوار من الساعد.

[٢٥] الفذ: الفرد. التوءم: المولود مع غيره في بطن، من الاثنين فصاعدًا.

[٢٦] المتوسم: المتفرس.

[٢٧] غروبها: دموعها.

أبوك ترامت فيه سفرة راحلٍ إلى الموت لا يُرجى له يوم مقدم[٢٨]
مشى أرمنيًّا في المعاهد فارتمت به في مهاوي الموت ضربة مسلم
على حينَ ثارت للنوائب ثورةٌ أتت بحزازات إلى الدين تنتمي[٢٩]
فقامت بها بين الديار مذابحٌ تخوَّض منها الأرمنيُّون بالدم
ولولاك لاخترت الحِمام تخلُّصًا بنفسيَ من أتعاب عيشٍ مُذَمَّمِ[٣٠]
فأنت الذي أخَّرت أمَّك مريمَا عن الموت أن يودِي بأمكَ مريم[٣١]
أمريمُ! مهلًا بعضَ ما تذكرينه فإنك ترمين الفؤاد بأسهم
أمريمُ! إن اللَّه لا شك ناقمٌ من القوم في قتل النفوس المحرَّم
أمريم! فيما تحكمين تَبصَّري فإن أنت أدركت الحقيقة فاحكمي
فليس بدينٍ كلُّ ما يفعلونه ولكنه جهل وسوءُ تفهم
لئن ملئوا الأرض الفضاءَ جرائمًا فهم أجرموا والدين ليس بمجرمِ
ولكنهم في جنح ليلٍ من العمى تمشَّوا بمطموس العلائم مُبهَم[٣٢]
وقد سلكوا تيهاء من أمر دينهم فكم مُنجدٍ في المُخزيات ومُتهِم[٣٣]
ولما رأيت اللوم لؤمًا تجاهها سكتُّ فلم أَنْبسْ ولم أتبرَّم[٣٤]
وأطرقت نحو الأرض أطلب عفوها ولا أنا بالجاني ولا بالمتيَّم[٣٥]

[٢٨] ترامت به: أبعدته.

[٢٩] يشير بذلك إلى فتنة أطنة التي ثارت بسبب حمقى الأرمن وجهلاء المسلمين.

[٣٠] الحمام: الموت.

[٣١] أردى به: أهلكه.

[٣٢] جنح الليل: طائفة منه. بمطموس: أي بطريق مطموس. والعلائم: جمع علامة، وهي شيء منصوب في الطريق يهتدى به.

[٣٣] التيهاء: الأرض التي يتوه بها الإنسان. المنجد: قاصد النجد، أي: المكان المرتفع، والمتهم: قاصد تهامة أي: المكان المنخفض.

[٣٤] لم أنبس: أتكلم. أتبرم: أتضجر.

[٣٥] الجاني: المجرم. المتيم: الذي تيمه العشق أي: ذلَّلَــه وعبَّده.

وظلْتُ لها أبكي بعينٍ قريحة   جرت من أماقيها عصارةُ عَندَمِ[٣٦]
بكيتُ وما أدري أأبكيَ تضجُّرًا   من القوم أم أبكي لِشقوة مريم؟!

[٣٦] الأماقي: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف. العندم: البقم، وهو شجر له ساق أحمر يصبغ بطبيخه.

السجن في بغداد

سكنَّا ولم يسكن حَراكُ التبدُّدِ ... مواطن فيها اليوم أيمنُ من غدِ[1]
عفا رسمُ مغنى العزِّ منها كما عفت ... «لخولة أطلال ببرقة ثهمد»[2]
بلادٌ أناخ الذلُّ فيها بكلكلٍ ... على كل مفتول السَّباليْنِ أصيدِ[3]
معاهدُ عنها ضلَّ سابق عزها ... فهل هو من بعد الضلالة مُهتد؟
أحاطت بها الأرزاء من كل جانبِ ... إلى أن محتها معهدًا بعد معهد[4]
وحلَّق في آفاقها الجور بازيًا ... مُطلًّا عليها صائتًا بالتهدُّد[5]
وينقضُّ أحيانًا عليها فتارة ... يروح وفي بعض الأحايين يغتدي

---

[1] التبدد: التفرق. أيمن: أسعد.

[2] عفا: امَّحى. الرسم: ما كان لاحقًا بالأرض من آثار الديار. المغنى: المنزل الذي أقام به أهله ثم رحلوا. خولة: اسم امرأة. الأطلال: جمع طلل، وهو الباقي من آثار الديار. برقة ثهمد: اسم موضع، استعار الشاعر هذا العجز من صدر مطلع معلقة طرفة بن العبد.

[3] أناخ بالمكان: أقام به. الكلكل: الصدر. السبالين: تثنية سبال، والسبال: جمع سبلة، وهي شعر الشاربين. الأصيد: الذي يرفع رأسه زهوًا وعجبًا.

[4] الأرزاء: المصائب.

[5] البازي: اسم فاعل من بزا عليه بمعنى تطاول، وفيه تورية بالبازي، وهو نوع من الطيور الجارحة التي تسمى الصقور. صائتًا: مصوتًا.

فيخطف أشلاءً من القوم حيَّة ولم يَقُدِ المقتولَ منها ولم يَدِ[٦]
ويرمي بها في قعر أظلمَ مُوحش به أين تسقطْ جذوة الروح تُخْمَد[٧]
هو السجن ما أدراك ما السجن! إنه جلاد البلايا في مضيق التجلد
بناءٌ محيطٌ بالتعاسة والشقا لظلم بريءٍ أو عقوبة معتدِ

* * *

زر السجن في بغداد زوْرةَ راحمٍ لتشهدَ للأنكاد أفجعَ مشهدِ[٨]
محلٌّ به تهفو القلوب من الأسى فإن زرته فاربطْ على القلب باليدِ[٩]
مربَّعُ سور قد أحاط بمثله محيط بأعلى منه شِيدَ بقَرمدِ[١٠]
وقد وصلوا ما بين ثانٍ وثالثٍ بمعقود سقف بالصخور مُشيَّدِ
وفي ثالث الأسوار تشجيك ساحةٌ تمور بتيَّارٍ من الخسف مُزبدِ[١١]
ومن وسط السور الشماليِّ تنتهي إليها بمسدودِ الرِّتاجين مُوصدِ[١٢]
هي الساحة النكراء فيها تلاعبت مخاريق ضيم تخلط الجِدَّ بالدَّدِ[١٣]
ثلاثون مترًا في جدار يحيطها بسمكٍ زُهاءَ العشر في الجو مصعدِ
تواصلت الأحزان في جنباتها بحيث متى يَبلَ الأسى يتجدَّد
تصعَّد من جوف المراحيض فوقها بخارٌ إذا تمرُرْ به الريح تفسد

---

[٦] أشلاء الإنسان: أعضاؤه. لم يقد المقتول: لم يقتل قاتله. لم يد: لم يعط الدية؛ وهي مال يعطى لولي القتيل بدل النفس.

[٧] جذوة الروح: شعلتها.

[٨] الأنكاد: جمع نكد، وهو الرجل المشئوم ذو العسر.

[٩] تهفو: تضطرب.

[١٠] أي: هو مربع سور، يصف بهذا البيت وما بعده بناء السجن وشكله؛ أي: هو سور مربع أحاط بسور آخر مثله، وهذا أيضًا أحاط بسور ثالث أعلى منه.

[١١] هو السور الذي تليه ساحة السجن. تشجيك: تحزنك. تمور: تضطرب. الخسف: الإهانة والذل. مزبد: هائج.

[١٢] الضمير في قوله: إليها يعود إلى الساحة في البيت السابق. الرتاج: الباب العظيم. موصد: مغلق.

[١٣] المخاريق: ما يلعب به الصبيان من الخرق المفتولة. الضيم: الذل. الدد: اللهو.

هـنـاك يـودُّ الـمـرءُ لـو قـاءَ نـفـسَـه ... وأطـلـقـهـا مـن أسْـرِ عـيـشٍ مُـنـكَّـدِ[١٤]
فقف وسطها وانظر حواليك دائرًا ... إلى حُـجَـرٍ قـامـت عـلـى كـل مـقـعـد
مـقـابـر بـالأحـيـاء غـصَّـت لـحـودهـا ... بـخـمـس مـئـيـنٍ أنـفـس أو بـأزيـدِ
وقـد عـمـيـت مـنـهـا الـنـوافـذ والـكـوى ... فلم تكتحل من ضوء شمس بمرْود[١٥]
تـظـنُّ إذا صـدرَ الـنـهـار دخـلـتـهـا ... كـأنـك فـي قِـطـع مـن الـلـيـل أسـود
فـلـو كـان لـلـعُـبَّـاد فـيـهـا إقـامـةٌ ... لصلَّوا بها ظهرًا صلاة التهجُّد[١٦]
يـزور هـبـوبُ الـريـح إلا فِـنـاءَهـا ... فلم تحظَ من وصل النسيم بموعد[١٧]
تـضـيـق بـهـا الأنـفـاس حـتـى كـأنـمـا ... على كل حيزوم صفائح جلْمَد[١٨]
وحـتـى كـأن الـقـومَ شُـدَّت رقـابـهـم ... بحبل اختناق محكم الفتل مُحصدِ[١٩]

* * *

بـهـا كـل مـخـطـوم الـخُـشـام مـذلَّـل ... متى قيد مجرورًا إلى الضَّيم يَنْقدِ[٢٠]
يَـبـيـت بـهـا والـهـمُّ مِـلءُ إهـابـه ... بليلة مَنْبول الحشا غير مُقْصَدِ[٢١]
يُـمـيـت بـمـكـذوب الـعـزاء نـهـارَه ... ويـحـيـي الـلـيـالـي غـيـر نـومٍ مُـشـرَّدِ
يـنـوءُ بـأعـبـاء الـهـوان مـقـيَّـدًا ... ويكفيه أنْ لو كان غيرَ مُقيدِ[٢٢]
وتـقـذفـهـم تـلـك الـقـبـورُ بـضـغـطـهـا ... عـلـيـهـم لـحـرِّ الـسـاحـة الـمـتـوقـدِ
فـيـرجـع بـعـضٌ مـن حـصـيـر ظـلالـة ... ويـجـلـس فـيـهـا جـلـسـة الـمـتـعـبِّـد

[١٤] قاء نفسه: أي أخرج روحه من جسده كالقيء.

[١٥] الكوى: جمع كوة، وهي شيء في الجدار أشبه بالنافذة إلا أنه لا ينفذ. المرود: الميل الذي يكتحل به.

[١٦] التهجد: الصلاة في الليل.

[١٧] الفناء: الوصيد، وهو ساحة أمام البيت.

[١٨] الحيزوم: وسط الصدر. الصفائح: الحجارة العراض. الجلمد: الصخر.

[١٩] محصد: محكم الفتل.

[٢٠] الخشام: الأنف العظيم. ومخطوم الأنف: أي جعل من أنفه خطام، والمعنى ظاهر. قيد: سحب.

[٢١] الإهاب: الجلد. منبول: مصاب بالنبل. والحشا: ما انضمت عليه الضلوع. مقصد: اسم مفعول من أقصده السهم، أي: أصابه فقتله.

[٢٢] ينوء بأعباء الهوان: تثقله أحماله.

وليست تقيه الحر إلا تعلَّة لنفس خلت من صبرها المتبدد[23]
وبالثوب بعض يستظل وبعضهم بنسج لعاب الشمس في القيظ يرتدي[24]
فمن كان منهم بالحصير مظلَّلًا يعدُّونه ربَّ الطراف الممدد[25]
تراهم نهار الصيف سُفعًا كأنهم أثافيُّ أصلاها الطُّهاة بموقَد[26]
وجوه عليها للشحوب ملامح «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد»[27]
وقد عمَّهم قيد التعاسة موثقًا فلم يتميز مطلق عن مقيد
فسيدهم في عيشه مثل خادم وخادمهم في ذُلِّه مثل سيِّد
يخوضون في مستنقعٍ من روائح خبائث مهما يزددِ الحر تزدد
تدور رءوس القوم من شمٍّ نُتنها فمن يك منهم عادم الشم يُحسد
تراهم سُكارى في العذاب وما هُمُ سُكارى ولكن من عذاب مشدَّدِ
وتحسبهم دودًا يعيش بحمأةٍ وما هو من دودٍ بها متولِّد[28]
ألا رُبَّ حُرٍّ شاهد الحكم جائرًا يقود بنا قوْدَ الذلول المعبَّد[29]
فقال ولم يجهر ونحن بمنتدى به غيرُ مأمون الوشاية ينتدي:[30]
على أيِّ حكم أو لأية حكمةٍ ببغداد ضاع الحق من غير منشدِ؟![31]

---

[23] التعلة: ما يتعلل به؛ أي يتلهى.

[24] القيظ: شدة الحر. ومعنى قوله: «بنسج لعاب الشمس يرتدي» أنه عاري الجسم لا ثوب له.

[25] الطراف: بيت يصنع من الأدم؛ أي الجلد، للملوك والرؤساء خاصة.

[26] سفعًا: وجوههم متغيرة موردة. الأثافي: أحجار يوضع عليها القدر، مفردها أثفية. أصلاها: أحرقها. الطهاة: جمع طاهٍ، وهو الطباخ.

[27] الشحوب: تغير اللون. الوشم: هو أن تغرز الإبرة في الجلد، ثم تذر عليه مادة خاصة معروفة. هذا العجز تتمة لصدر بيت طرفة المتقدم.

[28] الحمأة: الطين الأسود المنتن؛ أي هم يشبهون الدود الذي تولد في غير الحمأة، ثم ألقي في الحمأة فإنه يموت فيها، بخلاف الدود المتولد من الحمأة، فإنه يعيش فيها ولا يموت.

[29] الذلول: البعير السهل القيادة. المعبد: المذلل.

[30] ينتدي: يجتمع في النادي، والمعنى: قال ذلك القول ونحن في نادٍ يجتمع فيه من لم نكن نأمن تجسسه ووشايته.

[31] منشد: مصدر ميمي من نشد الضائع؛ أي نادى وسأل عنه.

فأدنيت لِلنَّجوى فمي نحو سمعه ... وقلت: لأن العدل لم يتبغددِ[٣٢]
رعى اللَّه حيًّا مستباحًا كأنه ... من الذعر أسراب النعام المطَرَّدِ[٣٣]
وما صاحب البيت الحقير بناؤه ... بأفزع من رب البلاط الممردِ[٣٤]
وما ذاك إلا أنهم قد تخاذلوا ... ولم ينهضوا للخصم نهضة مُلبدِ[٣٥]
فناموا عن الجلَّى ونمت كنومهم ... سوى نوْحةٍ مني بشعر مغرِّدِ[٣٦]
وهل أنا إلَّا من أولئك إن مشوا ... مشيت وإن يقعد أولئك أقعدِ؟
وكم رُمْتُ إيقاظًا فأعيا هبوبهم! ... وكيف وعزم القوم شارب مُرقدِ؟![٣٧]
نهوضًا نهوضًا أيها القوم للعُلا ... لتبنوا لكم بنيان مجد موطَّدِ
تقدَّمنا قوم فأبعد شوطهم ... وقد كان عنا شوطهم غير مُبعدِ
وسدَّ علينا الاعتساف طريقَنا ... فأجحف بالغوريِّ والمتنجِّدِ[٣٨]
أفي كل يوم يَزْحَفُ الدهر نحونا ... بجندٍ من الخطب الجليل مجنَّدِ
فيا ربِّ نفِّسْ من كروبٍ عظيمة ... ويا ربِّ خفِّفْ من عذابٍ مشدَّدِ

[٣٢] النجوى: حديث السر. لم يتبغدد: لم ينتسب لبغداد، ومعنى الأبيات الأربعة: أن ذلك الحر جهر في ذلك النادي الذي يجمع فيه غير الأمناء قائلًا: لِمَ يضيع الحق في بغداد من غير أن نطلبه ونسأل عنه؟ فقلت له سرًّا: ذلك لأن العدل غير بغدادي.

[٣٣] الذعر: الخوف. الأسراب: جمع سرب، وهو القطيع من النعام والنساء وغيرها.

[٣٤] الممرد: المملس المنظم.

[٣٥] الملبد: من أسماء الأسد.

[٣٦] الجلى: الأمر العظيم.

[٣٧] أعيا: يريد أعياني؛ أي أتعبني. هبوبهم: استيقاظهم من الخمول، وإسراعهم إلى المعالي. المرقد: دواء، يرقد شاربه أي يُنيمه كالأفيون. يقول: كيف يهبون إلى المجد وهم شاربون من الخمول والاستبداد ما أفقدهم السداد؟!

[٣٨] الاعتساف: الظلم. أجحف به: كلفه ما لا يطيق. الغوري: قاصد الغور، وهو المطمئن من الأرض. المتنجد: قاصد النجد، وهو المرتفع منها.

الدهر والحقيقة

أرى الدهر لا يألو بستر الحقائقِ إذا افترَّ عن صبحٍ تلاه بغاسقِ[١]
يجرُّ ذيول الخطْبِ فوق طريقها ليعفوَ منه ما به من سلائق[٢]
ولو لم يجئنا كل يومٍ مواربًا لما كان فجر كاذب قبل صادق
كأن ليالي الدهر غضبى على الورى فتَنْظر شزرًا بالنجوم الشوارقِ[٣]
وما طلعت كي تهديَ القوم شمسُه ولكن لتصليهم جحيم الودائق[٤]
وقد تنطق الأيام بالحق أعجمًا وتسكت عن تبيانه كل ناطق
وكم مدَّعٍ فضل التمدُّن ما له من الفضل إلا أكله بالملاعق!
وكم عاقلٍ قد عدَّه الناس أحمقًا وما هو لو يُبْلى سوى متحامق![٥]
وربَّ ذكي لم يكن من ذكائه سوى ما رووه من ذكاء اللقالق[٦]
وقد تُعْرِض الأسماع عن ذي فصاحة وتصغي إلى ذي اللُّكْنةِ المتشادق[٧]

[١] غاسق: ظلام دامس.

[٢] سلائق: جمع سليقة، وهي الطبيعة.

[٣] النظر الشزر: ما كان بمؤخرة الطرف، وهو نظر احتقار وكبر. والشارق: الطالع.

[٤] الودائق: جمع وديقة، وهي حر نصف النهار.

[٥] المتحامق: المتشبه بالحمقى في أفعاله وليس بأحمق.

[٦] اللقالق: جمع لقلق، وهو ضرب من الطير طويل العنق والمنقار، يأكل الحيات.

[٧] اللكنة: الحبسة في اللسان. المتشادق: المتفاصح.

ومن شِيم الأيام في الناس أنها تجور عليهم باقتطاع العلائق
وألطف جور الدهر جور نرى به تدلُّل معشوق وذلة عاشق
وما كان كذب القوم في القول وحده ولكنه في كتبهم والمهارق[8]
وأقبح مَيْنٍ في الزمان خُرافةٌ تحط بها طرسًا يراعةُ نامقِ
ضلال على مر الجديدين لم تزلْ مغاربنا من أمره كالمشارقِ
فعدٍّ عن الأيام إذ لم تجد بها سوى لغط يُزري بفضل المناطق
نفضتُ من الدنيا يديَّ؛ لأنني تعرفت منها ما بها من خلائق
فما أنا وقَّاف بها عند منزل ولا أنا باكٍ من حبيب مفارق
ولا عذَّبتني في العذيب صبابة ولا شاقني برق لربعٍ ببارق
تعشقت فيها حسن كل حقيقة وأعرضت عن حسن الحسان الغرانق[9]
ولي عند إخوان الصفا أريحيةٌ إلى كل خلٍّ في الزمان موافق[10]
إذا ما عقدنا مجلس الأنس بالطلا فبيني وبين السكر خمس دقائقِ[11]
أقوم إلى كُبرى الزجاجات مُدهِقًا بمستقطر من خالص التمْرِ رائق
فأقرع بالكأس الرويَّةِ جبهتي بشرب كما عبَّ القطا متلاحق[12]
أسابق ندماني إلى السكر طائرًا بجنح من الأنس المضاعف خافق
فما هي إلَّا بعد شربي سويعة وقد دب من رأسي الطلا في المفارق
فنادمت أصحابي على غير حشمةٍ وقلت لهم ما قلت غير منافق
وأغنيتهم عن نُقلهم في شرابهم بِمزٍّ طريٍّ من نُقُولِ الحقائق
ولم يبدُ فيَّ السكر عند اشتداده سوى شكر خلِّي أو سوى حمد خالقي
تعوَّدت سبقي في الفخار فلم أرد من السكر أن أحظى به غير سابق

[8] المهارق: الصحف تتخذ من حرير أبيض مصمغ مصقول، يكتب عليها الكتب المخلدة كالمعاهدات ونحوها.
[9] الغرانق: جمع غرنوقة، وهي الشابة الممتلئة.
[10] أريحية: ارتياح.
[11] الطلا: الخمر.
[12] الروية: المملوءة.

كما اعتاد سبقًا في المكارم خزعلٌ   بلا سابق فيها عليه ولاحق
أمير نمته للمكارم والعلا   جحاجحُ من كعب كرام المعارق[١٣]
كذلك أعلى اللَّه في الناس كعبه   بحظ من المجد المؤثَّل فائق[١٤]
إذا سار سار المجد في طيِّ بُرْدِهِ   يرافقه أكرِمْ به من مرافق!
فيرحل من أنسابه في مواكب   وينزل من أحسابه في سرادق
وإن جاء أغضى من رآه تهيبًا   سوى نظَر منهم بعيني مُسارقِ

* * *

أبا الأمراء الصيد جئتك شاكيًا   إليك جنايات الزمان المماذق
أجرني رعاك اللَّه منها فإنِّها   رمت كل عظم فيَّ منها بعارق[١٥]
أترضى وإني صقر بغداد أنني   تقدَّمني فيها فراخ العقاعق[١٦]
لئن أنكروا حقي فسوف تُحقُّه   شواهد أقلامٍ بكفي نوامق
أصوغ بها حُرَّ الكلام لخزعلٍ   مديحًا كعقد اللؤلؤ المتناسقِ

[١٣] نمته: نسبته. والجحاجح: جمع جحجاج، وهو السيد الكريم. والمعارق: جمع معرق وهو الأصل والحسب.

[١٤] المؤثل: الثابت القديم.

[١٥] عرق العظم يعرقه فهو عارق: أكل ما عليه من اللحم.

[١٦] العقاعق: جمع عقعق، وهو طائر صغير ذو لونين: أبيض وأسود، طويل الذنب، صوته العقعقة، قيل: وهو نوع من الغربان.

في سبيل حرية الفكر

أنشدت في حفلة منتدى التهذيب السنوية ببغداد بتاريخ ٢ أيار سنة ١٩٢٦.

كتبتُ لنفسي عهد تحريرها شِعْرا ... وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا
ومن بعد إتمامي كتابة عهدها ... جعلت الثُّريَّا فوق عنوانه طُغرا[١]
وعلَّقته كي لا تَناوَلَهُ يدٌ ... بمنبعث الأنوار من ذروة الشِّعرَى[٢]
لذاك جعلت الحقَّ نُصْبَ مقاصدي ... وصيَّرت سرَّ الرأي في أمره جهرا
وجرَّدت شعري من ثياب ريائهِ ... فلم أَكْسهُ إلا معانيَه الغُرَّا
وأرسلته نظمًا يروق انسجامُه ... فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا
فجاء مضيئًا ليلُه كنهارِهِ ... وإن كان بعض القوم يزعمه كفرا
أضمِّنه معنى الحقيقة عاريًا ... فيحسبه جُهَّالهُ مَنطقًا هُجرا[٣]
ويحمله الغاوي على غير وجهه ... فيُوسعني شتمًا وينظرني شزْرا[٤]

---

[١] الثريا: نجم مؤلف من عدة أنجم صغيرة. والطغراء، ويقال لها الطرة: هي علامة توضع في كتب الملوك شعارًا لهم، والنقش يجعل في حاشية الثوب.

[٢] ذروة الشيء: أعلاه. والشعرى: كوكب نير، يطلع في شدة الحر.

[٣] الهجر: الفحش في الكلام.

[٤] الغاوي: الضال أو الجاهل. ويوسعني شتمًا: يبالغ في شتمي. وينظرني شزرًا: يرمقني باحتقار بمؤخر عينه.

رُوَيدَك إن الكفر ما أنت قائل وإن صريح العُرف ما خلته نُكرا[٥]
هل الكفر إلا أن ترى الحق ظاهرًا فتضرب للأنظار من دونه سترا
وأن تبصر الأشياء بيضًا نواصِعًا فتظهرها للناس قانية حُمرا
إذا كان في عُري الجسوم قباحةٌ فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
فيلمُسُها من مارست عينه عمى ويبصرها من كابدت أذنه وقْرا[٦]
أحبُّ الفتى أن يستقل بنفسه فيصبح في أفكاره مطلقًا حرًّا
وأكره منه أن يكون مقلدًا فيحشر في الدنيا أسيرًا مع الأسرى
وما هذه الأوطان إلا حدائقٌ بها تُنبِت الأفكار من أهلها زهرا
وما حبُّها إلا لأجل تحرُّرِ يكون إلى العلياء بالناس مُنجرًّا
وما حسنها إلا بأنَّ سماءها تضاحك من أحرارها أنجمًا زُهرا
إذا كان في الأوطان للناس غايةٌ فحرية الأفكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقلَّ سياسةً إذا أنتمُ لم تستقلوا بها فكرا
إذا السيفُ لم يعضُدْهُ رأي محرَّر فلا تأملنْ من حدِّه ضربةً بكرا[٧]
سواء على الإنسان بعد جموده أحلَّ بقفر الأرض أم سكن المصرا
إذا لم يعش حرًّا بموطنه الفتى فسمِّ الفتى ميتًا وموطنه قبرا
أحرِّيتي إني اتَّخذتك قبلةً أوجِّه وجهي كل يوم لها عشرا
وأمْسِكُ منها الركن مستلمًا له وفي ركنها استبدلت بالحجَرِ الحجْرا[٨]
إذا كنتُ في قفْرٍ تخذتكِ مؤنسًا وإن كنت في ليلٍ جعلتكِ لي بدرا
وإن نابني خطبٌ ضممتكِ لاثمًا فقبَّلت منك الصدر والنحر والثغرا
وإن لامني قومٌ عليك فإنني لَملتمِسٌ للقوم من جهلهم عذرا

[٥] رويدك: تمهل ولا تعجل. والنكر: المنكر ضد المعروف.

[٦] الوقر: ثقل السمع.

[٧] لم يعضده: لم يؤازره. والضربة البكر: التي لم يضرب قبلها مثلها.

[٨] الحجر، بتحريك الجيم: هو الحجر الأسود الذي في ركن من أركان الكعبة. والحجر، بكسر الحاء وتسكين الجيم، مكان بجانب الكعبة، وفي اللفظ تورية؛ لأنه يطلق أيضًا على العقل وهو المراد به في البيت.

إلى أبناء المدارس

كفى بالعلم في الظلمات نورا يبيِّن في الحياة لنا الأمورا
فكم وجد الذليل به اعتزازًا وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به العقول هُدًى ورشدًا وتستعلي النفوس به شعورا

* * *

إذا ما عقَّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا[1]
فإنَّ ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا
وحُقَّ لمثلهم في العيش ضَنْكٌ وإن يُدْعوا بدنياهم ثبورا[2]

* * *

أرى لُبَّ العلا أدبًا وعلمًا بغيرهما العُلا أمست قشورا
أأبناءَ المدارس إنَّ نفسي تؤمِّل فيكُمُ الأملَ الكبيرا
فسُقيًا للمدارس من رياضٍ لنا قد أنبتت منكم زهورا
ستكتسب البلاد بكم عُلوًّا إذا وجَدتْ لها منكم نصيرا

---

[1] عقه يعقه عقوقًا: لم يوفَ له بعهده وحقه.

[2] حق لهم كذا: استحقوه. والضنك: الضيق والذل. أن يدعوا ثبورًا: أن يطلبوا الهلاك في الدنيا، يريد أن من قصر في حق العلم استهدف للهلاك.

فإن دَجَتِ الخطوب بجانبيها طلعتُمْ في دُجنَّتها بدورا[٣]
وأصبحتم بها للعزِّ حصنًا وكنتم حولها للمجد سورا

* * *

إذا ارتوتِ البلاد بفيضِ علْمٍ فعاجزُ أهلها يمسي قديرا
ويقوَى من يكون بها ضعيفًا ويغنى من يعيش بها فقيرا
ولكن ليس منتفعًا بعلمٍ فتًى لم يحرز الخُلُق النضِيرا
فإنَّ عماد بيت المجد خلقٌ حكى في أنف ناشقه العبيرا
فلا تستنفعوا التعليم إلا إذا هذَّبتمُ الطَّبعَ الشريرا
إذا ما العلم لابسَ حسنَ خُلقٍ فرجِّ لأهله خَيرًا كثيرا
وما إنْ فاز أغزرنا علومًا ولكن فاز أسلمُنا ضَميرا

* * *

أأبناءَ المدارسِ هل مُصِيخٌ إلى من تسألونَ به خبيرا؟[٤]
ألا هل تسمعون فإن عندي حديثًا عن مواطنكم خطيرا؟
ورأيًا في تعاونكم صوابًا وقلبًا من تخاذلكم كسيرا
قد انقلب الزمان بنا فأمست بُغَاثُ القوم تحتقر النسورا[٥]
وساء تقلُّب الأيام حتى حمدنا من زعازعها الدَّبورا[٦]
وكم من فأرةٍ عمياء أمست تُسمَّى عندنا أسدًا هصورا![٧]
فكيف تروم في الأوطان عزًّا وقد ساءت بساكنها مصيرا؟!
ولم يك بعضنا فيها لبعض على ما ناب من خطبٍ ظهيرا[٨]

---

[٣] دجت الخطوب: أظلمت الحوادث واشتدت. والدجنة: الظلمة.

[٤] مصيخ: مستمع.

[٥] البغاث: مثلث الباء؛ صغار الطير وضعافها.

[٦] الزعازع: جمع زعزع، وهي الريح الشديدة. والدبور: هي الريح التي تأتي من الجنوب وهي مكروهة عند العرب.

[٧] الهصور: الشديد الافتراس.

[٨] ظهيرًا: عونًا ومساعدًا.

ألسنا الناظمين عقود مجد ... نزين من العصور بها النحورا؟
إذا لُجَجُ الخطوب طَمَتْ بنَينا ... عليها من عزائمنا جسورا
لنبتدر العُبور إلى المعالي ... بحيث تطاول الشعرَى العَبورا[٩]

* * *

ألا يا ابن العراق إليك أشكو ... وفيك أمارس الدهر المَكُورا[١٠]
تنفَّضْ من غبار الجهل واهرعْ ... إلى تلك المدارس مستجيرا[١١]
فهنَّ أمانُ من خشيَ الليالي ... وهُنَّ ضمان من طلب الظهورا

[٩] الشعرى: كوكب مضيء يطلع في الحر، وهما شعريان: العبور والغميصاء.

[١٠] المكور: شديد المكر.

[١١] اهرع: أسرع.

المطلَّقة

بدت كالشمس يحضنها الغروبُ فتاةٌ راع نضرتها الشحوبُ[١]
منزَّهةٌ عن الفحشاء خَوْدٌ من الخِفرَات آنسة عروبُ[٢]
نَوارٌ تستجدُّ بها المعالي وتبلى، دون عفتها، العيوب[٣]
صفا ماءُ الشباب بوجنتيها فحامتْ حول رونقهِ القلوب
ولكنَّ الشوائب أدركته فعاد وصفوُه كدرٌ مشوب[٤]
ذوى منها الجمال الغضُّ وجدًا وكاد يجفُّ ناعمُه الرطيب[٥]
أصابت من شبيبتها الليالي ولم يُدرك ذؤابتها المشيب[٦]

---

[١] راع: شوه، وراع في الأصل بمعنى أفزع وأخاف. نضرتها: رونقها وحسنها.

[٢] الخود: المرأة الشابة. الخفرات: جمع خفرة، وهي المرأة التي تستحي أشد الحياء. الآنسة: التي يؤنس بحديثها. العروب: المرأة المتحببة إلى زوجها.

[٣] النوار: المرأة النفور من الريبة، ونوار اسم امرأة كانت زوجًا للفرزدق، فطلقها ثم ندم، وفي البيت إشارة إلى ذلك.

[٤] الشوائب: الأمور التي تغير الشيء. مشوب: مخلوط.

[٥] ذوى: ذبل.

[٦] الذؤابة: الناصية وهي مقدم الرأس، أو هي الطرة.

وقد خلَبَ العقول لها جبينٌ تلوحُ على أسرَّته النُّكوب[٧]
ألا إنَّ الجمالَ، إذا علاه نقابُ الحزن، منظرُه عجيب

* * *

حليلةُ طيِّبِ الأعراقِ زالت به عنها، وعنه بها، الكروب
رعى ورعت، فلم ترَ قطُّ منه ولم يرَ قطُّ منها ما يريب
توثَّق حبلُ ودِّهما حضورًا ولم يَنكثْ توثُّقَه المغيبُ[٨]
فغاضتْ زوجها الخلطاءُ يومًا فأمرٍ، للخلاف به نشوب[٩]
فأقسمَ بالطَّلاق لهم يمينًا وتلك أَليَّةٌ خطأٌ وحوب[١٠]
وطلقها على جهل ثلاثًا كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاقَ بتٍّ ذوو فُتيا يعصِّبُهم عصيب[١١]
فبانتْ عنه، لم تأتِ الدَّنايا ولم يعلق بها الذَّامُ المعيب[١٢]
فظلَّت وهي باكية تنادي بصوتٍ منه ترتجفُ القلوب

* * *

لماذا يا نجيب صرمت حبلي وهل أذنبتُ عندك يا نجيب؟![١٣]
وما لكَ قد جفوتَ جفاءَ قالٍ وصرتَ إذا دعوتُكَ لا تجيب؟![١٤]

---

[٧] الأسرة: هي خطوط في الجبهة والكف، وفي كل شيء، والغالب استعمالها لخطوط الجبهة. النكوب: جمع نكب، وهي المصيبة.

[٨] توثق: تقوى. ينكث: ينقض.

[٩] النشوب: نشب الشيء نشوبًا، بمعنى علق.

[١٠] ألية: قسم. الحوب: الذنب، الحلف بالطلاق حرام؛ لذلك كان الحالف به مذنبًا.

[١١] عصيب: شديد.

[١٢] بانت: بعدت، بسبب هذه الفتيا الباطلة الخاطئة. الذام: العيب، جهل الناس الحكمة من مشروعية الطلاق، وعبد من يُسمَّون بالعلماء ألفاظ الكتب التي درسوها، فأفتوا بغير علم صحيح فضلوا وأضلوا، وأوقعوا الناس في حرج عظيم.

[١٣] صرمت: قطعت.

[١٤] قالٍ: مبغض.

أَبِنْ ذنبي إليَّ، فدتك نفسي فـإنـي عـنـه بـعـدئـذٍ أتـوب
أمـا عـاهـدتـنـي بـاللَّـه أن لا يـفـرِّق بـيـنـنـا إلَّا شَـعُـوب[15]
لئنْ فارقْتني وصدَدْت عني فقلبي لا يفارقه الوَجِيب[16]
وما أدماءُ ترتع حولَ روضٍ ويرتع خلفَها رشأٌ رَبيب[17]
فما لفتَتْ إليه الجِيدَ حتَّى تخطَّفَه بآزمتيه ذيب[18]
فراحتْ منْ تحرُّقها عليه بداءٍ ما لها فيه طبيب
تشمَّ الأرضَ تطلبُ منه ريحًا وتنحَبُ، والبُغامُ هو النحيب[19]
وتمزَعُ في الفلاةِ لغيرِ وَجهٍ وآونةً لمصرعه تئوب[20]
بأجزعَ من فؤاديَ يومَ قالوا: برغمٍ منكِ فارقكِ الحبيب[21]
فأطرق رأسَه خَجلًا وأغضى وقالَ ودمعُ عينيه سَكوب:
نجيبةُ أقصري عنِّي فإني كفاني من لظَى النَدَم اللَّهيب
وما واللَّه هَجرُك باختياري ولكنْ هكذا جرتِ الخُطوب
فليسَ يزولُ حبُّك من فؤادي وليس العيشُ دونَك لي يطيب
ولا أسلو هواكِ وكيفَ أسلو هوًى كالرُّوح فيَّ له دبيب
سلي عني الكواكبَ وهي تسري بجُنْح الليلِ تَطلع أو تغيب
فكم غالبتُها بهواكِ سُهدًا ونجمُ القطبِ مُطَّلع رقيب
خذي من نورِ «رَنتَجنٍ» شعاعًا به للعينِ تنكشف الغيوب[22]

---

[15] شعوب: اسم للموت.

[16] الوجيب: الخفقان.

[17] الأدماء: الظبية المشرب لونها بياضًا. الرشأ: ولد الظبية الذي قد تحرك ومشى. ربيب: ملازم لها.

[18] الجيد: العنق. الآزمتان: النابان.

[19] تنحب: تبكي وبكاؤها أشبه بالسعال. البغام: صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

[20] تمزع: تسرع. لمصرعه: لمكان هلاكه. تثوب: ترجع.

[21] بأجزع: الجار والمجرور خبر لقوله: وما أدماء في بيت سابق. يقول عن لسان المطلقة: إن هذه الظبية التي صفتها كيت وكيت ليست بأشد جزعًا واضطرابًا مني حين بلغني أنك طلقتني، فليتبصر بمثل هذا القول المتسرعون بإيقاع الطلاق، وحل عقدة النكاح الموثقة.

[22] رنتجن: هو مخترع الأشعة المعروفة باسمه.

وألـقِـيـهِ بـصـدري وانـظـريـنـي تـرَيْ قلبي الجريحَ به ندوب[٢٣]
وما المكبولُ ألقي في خِضَمٍّ به الأمواجُ تصعد أو تصوب[٢٤]
فـراح يـغُـطُّـه الـتَّـيار غـطًّـا إلى أن تمَّ فيه له الرسوب[٢٥]
بـأهلكَ يا ابنةَ الأمجاد منِّي إذا أنا لم يعدْ بك لي نصيب

* * *

ألا قلْ في الطلاق لِمُوقعيه بما في الشرع ليس له وجوب
غـلـوْتـم فـي ديـانـتـكـم غُـلـوًّا يضيقُ ببعضهِ الشَّرحُ الرَّحيب
أرادَ الـلَّـهُ تـيـسـيـرًا، وأنـتـم من التعسير عندكم ضروب
وقـد حـلَّـت بـأمَّـتـكـم كـروبٌ لـكـم فـيـهـنَّ لا لـهـمُ الـذُّنـوب
وَهَـى حبلُ الزواج، ورقَّ حتى يـكـاد إذا نـفـخـتَ لـه يـذوب
كخَيط من لُعاب الشَّمس أدلت به في الجو هاجرةٌ حَلوب[٢٦]
يـمـزِّقـه مـن الأفـواه نـفـثٌ ويقطعه من النَّسم الهبوب
فِدى ابن القيِّم الفقهاءُ كم قد دعاهم للصَّواب فلم يُجيبوا[٢٧]
فـفـي «إعلامـه» لـلـنـاس رُشـدٌ ومزدجرٌ لمن هو مُستريب[٢٨]
نـحـا فـيـمـا أتـاه طـريقَ عـلـم نحاها شيخُه الحَبْر الأريب[٢٩]
وبـيَّـنَ حـكـمَ ديـنِ الـلَّـه لـكـنْ من الغالينَ لم تعِهِ القلوب[٣٠]

---

[٢٣] الندوب: آثار الجروح.

[٢٤] المكبول: المقيد. الخضم: البحر. تصوب: تنخفض.

[٢٥] الرسوب: الغرق إلى القعر.

[٢٦] لعاب الشمس: شيء كأنه ينحدر من السماء وقت شدة الحر، تراه مثل نسج العنكبوت. أدلت: أرسلت. الهاجرة: شدة الحر، والهاجرة الحلوب: هي التي تجلب الغرق لشدة حرارتها.

[٢٧] ابن القيم: هو العلَّامة الْمُحَدِّث الفقيه المشهور.

[٢٨] يشير إلى كتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم المذكور، وهو من أنفس الكتب التي ألفها. ومزدجر: مصدر ميمي من ازدجر، بمعنى زجره ومنعه. مستريب: شاك.

[٢٩] أراد بشيخه: الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله.

[٣٠] الغالين: هم المتشددون في الدين حتى تجاوزوا الحد، قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. لم تعه: لم تحفظه، ولم تتدبر معناه.

لـعـلَّ اللَّـه يُـحـدث بـعـدُ أمـرًا   لنا، فيخيبَ منهم من يخيب

اليتيم في العيد

أطلَّ صباحُ العيدِ في الشرق يسمعُ ضجيجًا، به الأفراحُ تمضي وترجعُ
صباحٌ به تُبدي المسرةَ شمسُها وليس لها إلا التوهُّمَ مطلعُ
صباحٌ به يختالُ بالوشي ذو الغنى ويُعوزُ ذا الإعدام طِمرٌ مرقَّع[1]
صباحٌ به يكسو الغنيُّ وليدَه ثيابًا لها يبكي اليتيمُ المضيَّعُ
صباحٌ به تغدو الحلائلُ بالحُلى وترفَضُّ من عينِ الأرامل أدمع[2]
ألا ليتَ يوم العيد لا كان، إنه يجدِّد للمحزون حزنًا فيجزع
يُرينا سرورًا بين حزنٍ، وإنما به الحزنُ جَدٌّ، والسرور تصنُّع
فمن بؤساء الناسِ في يوم عيدهم نحوسٌ بها وجه المسرَّة أسفع[3]
قد ابيضَّ وجهُ العيدِ لكنَّ بؤسَهم رمى نُكَتًا سودًا به، فهو أبقع[4]

* * *

خرجتُ بعيدِ النحر صُبحًا فلاح لي مسارحُ للأضدادِ فيهنَّ مرتع

[1] الوشي: نوع من الثياب الموشية المحسنة. أعوزه الشيء: احتاج إليه فلم يقدر عليه. الإعدام: الفقر. الطمر: الثوب البالي.

[2] الحلائل: النساء ذوات الأزواج.

[3] أسفع: أسود.

[4] نكتًا: نقطًا سوداء. أبقع: مختلف اللون.

خرجتُ وقرصُ الشَّمس قد ذرَّ شارقًا ... تـرى الـنـورَ سـيَّـالًا بـه يـتـدفَّـع
هي الشمس خودٌ، قد أطلَّت مصيخةً ... على الأرض من أفقِ العلا تتطلع[5]
كـأن تـفـاريـقَ الأشـعَّـةِ حـولـهـا ... عـلـى الأفـقِ مُـرخـاةً ذوائبُ أربـع[6]
ولـمـا بـدَتْ حـمـراءَ أيـقـنـتُ أنَّـهـا ... بـهـا خـجَـلٌ مـمـا تـراهُ وتـسـمـع
فرحتُ وراحتْ ترسل النورَ ساطعًا ... وسـرتُ وسـارتْ فـي الـعُـلا تـتـرفَّـع
بـحـيـثُ يـسـيـرُ الـنـاسُ كلٌّ لـوُجـهـةٍ ... فـهـذا عـلـى رِسـل، وذلـك مـسـرع[7]
وبـعـضٌ لـه أنـفٌ أَشـمُّ مـن الـغـنـى ... وبـعـضٌ لـه أنـفٌ مـن الـفـقـر أجدع[8]
وفـي الـحـيِّ مِـزمـارٌ لـمُـشـجِـي نـعـيـرهِ ... غدا الـطـبـلُ فـي دَردابه يـتـقـعـقـع[9]
فجئتُ وجوفُ الطبل يرغو، وحولَه ... شـبـابٌ، وولـدان عـلـيـه تـجـمـعـوا[10]
لـقـد وقـفـوا، والـطـبـلُ يـهـتـزُّ صـوتُـه ... فـتـهـتـزُّ بـالأبـدانِ سـوقٌ وأكـرُع[11]
تـرى مـيْـعـةَ الإطـرابِ والـطـبـلُ هـادرٌ ... تـفـيـضُ، وفـي أسـمـاعـهـم تـتـمـيَّـع[12]
فـقـد كـانـتِ الأفـراحُ تـفـتـحُ بـابَـهـا ... لمن كانَ حولَ الطبلَ والطبل يُقرع

* * *

وقفت أجيل الطرفَ فيهم فراعني ... هـنـاكَ صـبـيٌّ بـيـنـهـمْ مـتـرعـرع
صـبـيٌّ صـبـيـحُ الـوجـهِ أسـمـرُ شـاحـبٌ ... نحيفُ المباني أدعجُ العينِ أنزَعُ[13]
يـزيـنُ حِـجـاجـيـهِ اتِّـسـاعُ جـبـيـنـهِ ... وفـي عـيـنـهِ بـرقُ الـفَـطـانـة يـلـمَـع[14]

[5] الخود: المرأة الشابة. مصيخة: مستمعة.

[6] الذوائب: الضفائر.

[7] على رسل: أي على مهل.

[8] أنف أشمُّ: مرتفع كبرًا. أجدع: مقطوع، وهو كناية عن الذل.

[9] نعيره: صوته. الدرداب: صوت الطبل.

[10] يرغو: يضج ويصوت.

[11] سوق: جمع ساق. وأكرع: جمع كراع، وهو مستدق الساق.

[12] ميعة: كل شيء أوله، تتميع: تتسيل.

[13] شاحب: أي متغير اللون. أدعج العين: أسودها مع سعة فيها. الأنزع: المنحسر الشعر عن جانبي جبينه.

[14] حجاجيه: حاجبيه، وأصل الحجاج العظم المحيط بالعين.

علـيـهِ دريـسٌ يـعـصِـرُ الـيـتـمُ رُدنـهُ فـيـقـطـرُ فـقـرٌ مـن حـواشـيـه مُـدقِـع[15]
يُـلِـيـحُ بـوجـهٍ لـلـكـآبـةِ فـوقَـه غُـبـارٌ بـه هـبَّـتْ مـن الـيُـتـم زعـزَع
على كُثر قرع الطبلِ تلقاهُ واجمًا كأنْ لم يكنْ للطَّبل ثمَّة مقرع[16]
كأن هـديـرَ الـطـبـل يـقـرعُ سـمـعَـه فـلـم يُـلـفِ رجـعًـا لـلـجـوابِ فـيـرجـع
يـردُّ ابـتـسـامَ الـواقـفـيـنَ بـحـسـرةٍ تـكـادُ لـهـا أحـشـاؤه تـتـقـطَّـع
ويُرسلُ من عينيه نظرةَ مُجهِشٍ وما هوَ بالباكي، ولا العينُ تدمع[17]
لـه رجـفـةٌ تـنـتـابـهُ وهـو واقـفٌ على جانبٍ والجوُّ بالبردِ يلسع[18]
يرى حوله الكاسين من حيثُ لم يجد على البرد من بُرْدٍ به يتلفَّع[19]
فكانَ ابتسامُ القوم كالثلجِ قارسًا لدى حسراتٍ منه كالجمرِ تلذَع

* * *

فـلـمـا شـجـانـي حـالُـه وأفـزَّنـي وقـفـتُ وكُـلِّـي مـجـزَعٌ وتـوجُّـع[20]
ورحـت أعـاطـيـه الـحـنـانَ بـنـظـرةٍ كـمـا راحَ يـرنـو الـعـابـدُ الـمـتـخـشِّـع
وأفـتـحُ طـرفـي مُـشْـبَـعًـا بـتـعـطُّـف فيرتدُّ طرفي وهو بالحزن مُشْبَعُ
هـنـاك عـلـى مـهـلٍ تـقـدَّمـتُ نـحـوهُ وقـلـتُ بـلـطـف قـولَ مـن يـتـضـرع:
أيا ابن أخي! من أنت ما اسمُك ما الذي عراكَ فلم تفرح، فهل أنت مُوجع؟[21]
فـهـبَّ أمـامـي مـن رقـادٍ وجُـومُـه كـمـا هـبَّ مـرعـوبَ الـجـنـانِ الـمـهـجَّـع
وأعـرضَ عـنـي بـعـدَ نـظـرةِ يـائـسٍ وراح ولم ينبُس إلى حيثُ يُهرَع[22]
فـعـقَّـبـتـهُ مـسـتـطـلـعًـا طـلـعَ أمـره على البعد أقفو الإثر منه وأتبع[23]

[15] الدريس: الثوب البالي. الردن: أصل الكم. فقر مدقع: شديد كأنه يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي التراب.

[16] واجمًا: ساكتًا عاجزًا عن التكلم من كثرة الغم أو الخوف. ثمة: هناك.

[17] المجهش: الهام بالبكاء المتهيئ له، وماضيه أجهش.

[18] تنتابه: تصيبه.

[19] البرد: الثوب المخطط. تلفع بالثوب: تلفف به.

[20] شجاني: حزنني.

[21] عراك: أصابك.

[22] لم ينبس: لم يتكلم.

[23] أقفو الإثر منه: أي أتبع أثره.

وبيناهُ ماشٍ حيثُ رُحتُ وخلفهُ أدبُّ دبيبَ الشيخ طورًا وأسرع[٢٤]
لمحتُ على بعد إشارةَ صاحب ينادي أن ارجع وهو بالثوب مُلمع
فأومأتُ أن ذكرتهُ موعدًا لنا وقلت له: اذهبْ وانتظرْ فسأرجع
وعدتُ فأبصرت الصبيَّ معرِّجًا ليدخل دارًا بابُها متضعضع[٢٥]
فلما أتيتُ الدارَ بعدَ دخوله وقمتُ حيالَ البابِ والبابُ مرجَع[٢٦]
دنوت إلى بابِ الدُّويرةِ مطرقًا وأصغيتُ، لا عن ريبة، أتسمَّع[٢٧]
سمعت بكاءً ذا نشيجٍ مردَّدٍ تكادُ له صمُّ الصفا تتصدَّع[٢٨]
فحرتُ وعيني ترمقُ البابَ خِلسة وللنفسِ في كشفِ الحقيقةِ مَطمَع
أأرجعُ أدراجي ولم أَكُ عارفًا جَليَّةَ هذا الأمرِ أم كيف أصنع؟

* * *

فمرَّت عجوزٌ في الطريقِ وخلفَها فتاةٌ يغشِّيها إزارٌ وبُرقع[٢٩]
تعرَّضتُها مستوقفًا، وسألتها عن الاسم، قالت: إنني أنا بَوْزَعُ
فأدنيتُها مني، وقلتُ لها: اسمعي حنانيكِ ما هذا الحنينُ الموجَّع
فقالتْ: وأنَّت أنَّةً عن تنهُّدٍ وفي الوجهِ منها للتعجُّبِ موضع
أيا ابنيَ ما يعنيكَ من نوحِ أيِّم لها من رزايا الدَّهر قلبٌ مفجَّع[٣٠]
فقلتُ لها: إني امرؤ لا يهمني سوى من له قلبٌ كقلبي مروَّع[٣١]
وإني وإن جارت عليَّ مواطني فؤادي على قطَّانهن مُوزَّع[٣٢]

---

[٢٤] الشيخ: هو الذي انتهى شبابه، وقيل: هو مَنْ بلغ الأربعين، وقيل: الخمسين.

[٢٥] عرج: مال من جانب إلى آخر.

[٢٦] حيال الباب: قبالته.

[٢٧] الدويرة: تصغير دار. أطرق: سكت ولم يتكلم.

[٢٨] النشيج: الغصة بالبكاء من غير انتحاب.

[٢٩] يغشيها: يغطيها.

[٣٠] الأيم: هي مَنْ فقدت زوجها. مفجع: موجع.

[٣١] مروع: أصابه الروع وهو الخوف.

[٣٢] قطانهم: سكانهم.

أبـوزَعُ مُـنِّـي، عَـمْـرَكِ الـلَّـهُ، بـالـذي سـألـتُ، فـقـد كـادت حـشـايَ تـمزَّع
فقالت: أعن هذي التي طال نحبُها سـألـتَ فـعـنـدي شـرحُ مـا تـتـوقـع
ألا إنَّـهـا سـلـمـى تـعـيـسـةُ مـعـشـرٍ من الصِّيد أقوتْ دارهُمْ فهي بلقع[٣٣]
وصـارعـهـم بـالـموتِ حتـى أبـادَهـم من الـدَّهـر عـجَّـارٌ شـديـدٌ مـصـرِّع[٣٤]
فـلـم يـبـقَ إلا زوجُـهـا وشـقـيـقُـهـا خـلـيـلُ، وأمـا الآخـرونَ فـودَّعـوا
ولم يلبثِ المقدورُ أن غالَ زوجَها سعيدًا فأودى وهي إذ ذاك مرضع[٣٥]
فـربَّـى ابـنَـهـا سـعـدًا، وقـام بـأمـره أخوها إلى أن كاد يقوى ويضلـع[٣٦]
فـأذهـبَ عـنـه الـخـالَ دهـرٌ غـشـمـشـم بـمـا يـوجِـع الأيـتـام مُـغـرًى ومُـولـع[٣٧]
جرت هَنةٌ منها على خاله انطوى بقلب رئيسِ الشرطة الحقدُ أجمع[٣٨]
فـزجَّ بـه فـي الـسـجـنِ بـعـدَ تـجـرُّمٍ عـلـيـه بـجُـرم مـا لـه فـيـه مـصـنـع[٣٩]
عـزاه إلـى إيـقـاعِـه مُـوقـعًـا بـه وما هو يا ابن القوم للجرم مُوقع[٤٠]
ولـكـنَّ غَـدْرَ الـحـاقـديـن رمـى بـه إلى السجن فهو اليومَ في السجن مودَع
فـحُـقَّ لـسـلـمـى أن تـنـوحَ فـإنـهـا من الـعـيـش سُـمًّـا نـاقـعًـا تـتـجـرَّع[٤١]
فـلا غـروَ مـن أم الـيـتـيـم إذا غـدت ضُحى العيد يبكيها اليتيم المضيَّعُ

* * *

[٣٣] الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل الذي لا يلتفت من كبره، وأراد بالصيد: أولي النعمة. بلقع: خالية من السكان.

[٣٤] العجار: المصارع، الذي لا يطاق جنبه في المصارعة.

[٣٥] غال: أهلك. أودى: أهلك.

[٣٦] يضلع: يقوى وتشتد أضلاعه.

[٣٧] الغشمشم: هو مَنْ يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء، وقيل: هو الكثير الظلم.

[٣٨] هنة: أي شيء ما وهي مؤنث الهن، وكلاهما يكون كناية عن كل اسم جنس، ومعناها شيء. الشرطة: رجال البوليس والضابطة.

[٣٩] تجرم عليه: أي ادعى عليه بجرم لم يفعله.

[٤٠] موقعًا: منزلًا به ما يسوءه.

[٤١] السم الناقع: البالغ القاتل.

فـعُـدْتُ، وقـلـبـي جـازع مـتـوجِّـع وقلت، وعيني ثرَّةُ الدمعِ تهمع:[٤٢]
ألا لـيـتَ يـومَ الـعـيـدِ لا كـانَ إنـهُ يـجـدِّد لـلـمـحـزون حـزنًـا فـيـجـزع!
وجئتُ إلى ميعادنا عندَ صاحبي وقد ضمَّه والصحب نادٍ ومجمع
فـأطـلـعـتـهـم طِـلْـعَ الـيـتـيـم فـأفَّـفـوا وخبَّرتهم حال السجينِ فرجَّعوا[٤٣]
فقلتُ: دعوا التأفيفَ فالعارُ لاصقٌ بكم واتركوا الترجيعَ فالأمرُ أفظعُ
ألسنا الأُلى، كانت قديمًا بلادُنا بأرجائها نورُ العدالة يسطع[٤٤]
فما بالنا نستقبلُ الضَّيْمَ بالرضا ونعنو لحكم الجائرين ونخضع[٤٥]
شربنا حميمَ الذلِّ ملءَ بطونِنا ولا نحنُ نشكوهُ ولا نحنَ نيْجع[٤٦]
فلو أنَّ عِيرَ الحيِّ يشرب مثلنَا هوانًا، لأمسى قالسًا يتهوَّع[٤٧]
نهوضًا إلى العزِّ الصُّراحِ بعزمةٍ تخرُّ لمرماها الطُّغاةُ وتركعُ
ألا فاكتبوا صكَّ النهوضِ إلى العلا فإني على موتي به لموقِّع[٤٨]

---

[٤٢] الثرة من العيون: السحاب الغزيرة. تهمع: تدمع.

[٤٣] رجعوا: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

[٤٤] الأرجاء: الأطراف.

[٤٥] الضيم: الهوان. نعنو: نخضع.

[٤٦] الحميم: الماء الحار.

[٤٧] العير: الحمار. قلس: خرج من بطنه طعام أو شراب إلى الفم، سواء ألقاه أم أعاده إلى بطنه، فإن غلب فهو القيء والتهوع.

[٤٨] الصك: ما يُكتب عليه الإقرار بالمال وغيره. موقع: كاتب التوقيع.

سياسة لا حماسة

الشعرُ مفتقرٌ منِّي لِمُبتَكِرِ ... ولستُ للشِّعر، في حالٍ، بمفتقرِ

دعوتُ غرَّ القوافي وهي شاردةٌ ... فأقبلتْ وهي تمشي مشيَ معتذر

وسلَّمتنيَ عن طوعٍ مقادتَها ... فرحتُ فيهنَّ أجري جريَ مقتدرِ

إذا أقمت أقامتْ وهي من خدمي ... وأينما سِرتُ سارتْ تقتفي أثري

صرَّفتُ فيهنَّ أقلامي ورحتُ بها ... أعرِّف الناسَ سحرَ السَّمع والبصرِ

ملكنَ من رقَّةٍ رقَّ النفوسِ هوًى ... من حيث أطربنَ حتى قاسيَ الحجرِ

سقيتهنَّ المعاني فارتوينَ بها ... وكنَّ فيها مكان الماءِ في الثمرِ

كم تشرئبُّ لها الأسماعُ مصغيةً ... إذا تُنوشِدنَ بين البدوِ والحضَرِ

طابقتُ لفظيَ بالمعنى فطابقَه ... خلوًا من الحشوِ مملوءًا من العبرِ

إني لأنتزعُ المعنى الصحيحَ على ... عُرْيٍ فأكسوهُ لفظًا قُدَّ مِن دُررِ

سلِ المنازلَ عني إذ نزلتُ بها ... ما بين بغدادَ والشهباء في سفري

ما جئتُ منزلةً إلَّا بنيت بها ... بيتًا من الشِّعْر لا بيتًا من الشَّعَر

وأجودُ الشعر ما يكسوه قائلُهُ ... بوشيِ ذا العصر لا الخالي من العُصرِ

لا يَحسُنُ الشِّعْرُ إلا وهو مبتكرٌ ... وأيُّ حسنٍ لشعرٍ غيرِ مبتكرِ

وَمَنْ يكنْ قال شعرًا عن مفاخرةٍ ... فلست واللَّهِ في شعرٍ بمفتخرِ

وإنما هي أنفاسٌ مُصعَّدةٌ ... ترمي بها حسراتي طائرَ الشررِ

وهُنَّ إنْ شئت منِّي أدمعٌ غُزُرٌ ... أبكي بهنَّ على أيامنا الغُررِ

أبـكـي عـلـى أمـةٍ دار الـزمـان لـهـا قَـبْـلًا، ودار عـلـيـهـا بـعـدُ بـالـغِـيَـرِ[١]
كم خـلَّـدَ الـدهـرُ مـن أيـامـهـم خـبـرًا زان الـطـروسَ ولـيـس الـخُـبر كـالـخَـبرِ
ولـسـتُ أدَّكـرُ الـمـاضـيـنَ مـفـتـخـرًا لـكـنْ أقـيـمُ بـهـمْ ذكـرى لـمـدَّكـرِ[٢]
وكـيـف يـفـتـخـر الـبـاقـون فـي عـمـهٍ بـدارسٍ من هُـدَى الـمـاضـيـن مـنـدثـرِ[٣]
لهفي على العُربِ أمستْ من جمودهمِ حتى الجماداتُ تشكو وهي في صَخرِ!
أيـن الـجـحـاجِـحُ مـمـن يـنـتـمـون إلـى ذؤابـةِ الـشـرفِ الـوضَّـاح من مُـضـرِ؟![٤]
قـومٌ هـم الـشـمـسُ كـانـوا والـورى قـمـرٌ ولا كـرامـةَ لـولا الـشـمـسُ لـلـقـمـرِ[٥]
راحـوا وقـد أعـقـبـوا من بـعـدهـم عـقـبًـا نـامـوا عـن الأمـر تـفـويـضًـا إلـى الـقـدرِ
أقـولُ، والـبـرقُ يـسـري فـي مـراقـدِهـم: «يا ساهر البرق أيقظ راقد السمرِ»[٦]
يَـأيـهـا الـعُـرب هـبُّـوا مـن رقـادِكـمُ فقد بدا الصبح وانجابت دُجى الخطرِ[٧]
كـيـف الـنـجـاحُ وأنـتـم لا اتـفـاقَ لـكـم والـعُـودُ لـيـس لـه صـوتٌ بـلا وتـرِ؟!
مـا لـي أراكـمْ أقـلَّ الـنـاس مـقـدرةً يـا أكـثـرَ الـنـاس عـدًّا غـيـر مـنـحـصـرِ؟!

[١] الغير: الحوادث.
[٢] أدكر: أذكر.
[٣] العمه: الضلال. الدارس: المنمحي. مندثر: بالٍ دارس.
[٤] الجحاجح: السادة. الذؤابة: في الأصل معناها الضفيرة فوق الناصية، وذؤابة الشرف: أعلاه.
[٥] ذلك لأن نور القمر مقتبس من نور الشمس، فلا كرامة له لولاها.
[٦] المراقد: جمع مرقد، وهو مكان النوم. السمر: القوم يجتمعون للمسامرة.
[٧] انجابت: انكشفت.

إلى الشبان[1]

أدبُ العلم وعلمُ الأدبِ　　شرفُ النفسِ ونفسُ الشرفِ
بهما يَبلغُ أعلى الرتبِ　　كلُّ رامٍ منهما في هدفِ

* * *

أيها السابح في بحر الفنونْ　　غائصًا في لُجِّها الملتطمِ
أنتَ واللَّهِ على رغم المنون　　ذو وجودٍ قاتلٍ للعدمِ
قرنُك الحاضر من أرقى القرون　　خضع السيفُ به للقلمِ
فإذا شئتَ بلوغَ الأربِ　　فاغترفْ من بحره وارتشفِ
فالمعالي أُودعتْ في الكتبِ　　كاللآلي أودعت في الصَّدَفِ
أنتَ يا جاهلُ من قبلِ المماتِ　　ميِّتٌ يمرحُ ما بين البيوت[2]
أوما تعلمُ في هذي الحياة　　أن ربَّ العلم حيٌّ لا يموت
إذ قضى للعلم ربُّ الكائناتِ　　بالعُلا فهْوَ زِمام الملكوت

[1] هذه القصيدة أنشدت يوم افتتاح المنتدى الأدبي الذي أسسه شبان العرب في الآستانة، وقد طلبوا إلى الرصافي أن ينظم لهم قصيدة تُنشد في يوم الافتتاح المذكور، فنظم لهم هذه القصيدة.

[2] يمرح: يتبختر ويختال فرحًا ونشاطًا، والجملة صفة الميت، والغرض من وصفه بها بيان الفرق بينه وبين الميت الحقيقي، كما يدل عليه قوله: من قبل الممات، أي: أنت ميت مجازًا قبل أن تموت حقيقة.

وعلى الجهلِ قضى بالعَطبِ　　فهْوَ في الناسِ دليلُ التلفِ
فافتكرْ إن شئتَ علمَ السببِ　　هل يكونُ النور مثل السَّدَفِ[٣]

* * *

يا رعى اللَّه زمانًا لو يدوم　　كان للدَّهر كأيام الصِّبا
أشرقتْ فيه من العلم النُّجوم　　ظنَّ كلُّ الناسِ أن لنْ تغرُبا
زمنٌ قد ضحكت فيه العلوم　　ونراها اليومَ تبكي العَرَبا
حيثُ منهمْ فقدتْ خيرَ أبٍ　　واغتدتْ من يُتمها في شظفِ[٤]
يا عهودَ العِلمِ ما شئتِ اندبي　　يا عيونَ المجد ما شئت اذرفي

* * *

هل أتاكَ الدهرُ، فيما قد أتى،　　بحديثِ العُربِ في الأندلسِ؟
حيثُ بالعَزمِ أماطوا العنَتَا　　وبنورِ العِلم ليلَ الهوَسِ[٥]
فاسألنَّ الغربَ عما ثَبُتا　　في رُبوعٍ خلَّفوها دُرُسِ؟
هل ترى ثمَّةَ من لم يجبِ　　عن معاليهم ولم يعترفِ؟
آهِ لو يرْجِع ماضي الحُقُبِ　　آه لو عاد زمان الشرف!

* * *

سل رُبا بغدادَ عما قد مضى　　لبني العباس في تلك الديارْ
واسألنَّ الشامَ عما قد أضا　　للمعاويين فيها من فخارْ
كم ترى للمجدِ سيفًا منتضى　　كم ترى للعلم فيها من مَنارْ!
عجبي يا قومُ كلَّ العجبِ　　هذه الآثارَ لم لا نقتفي؟!

[٣] السدف بفتحتين: الظلمة، ويجوز أن يكون بضم ففتح، على أن يكون جمع سدفة كظلمة، وزنًا ومعنى.
[٤] الشظف: بالتحريك، ضيق العيش ويبسه وشدته.
[٥] العنت: مصدر عنت إذا فسد، أو وقع في أمر شاق، أو لقي الشدة وهلك. والهوس: بفتحتين طرف من الجنون وخفة العقل.

آهِ مـن رقـدتـنـا وا حَـربـي آهِ مـن غـفـلـتـنـا وا أسـفـي![٦]

* * *

يا أُباةَ الضَّيمِ من عُليا نزارْ أينَ منكم ذهبتْ تلك الطِّباعْ؟
كنتمُ كالسيفِ مشحوذَ الغِرار والذي حلَّ حِماكم لن يُراع[٧]
كم إلى العلمِ أقمتم من مَنار بعقولٍ هي أسنى من شعاع
قـطَـفـتْ أبـواعُـكم عن كثبِ كلَّ مجد شاهقِ المقتطفِ[٨]
تـلـك والـلَّـهِ مـزايـا الـعـرب أورِثُـوهـا خـلـفًـا عـن سـلـفِ

* * *

أنتِ يا شمسُ على كرِّ السنين قد تقلبتِ طلوعًا في الورَى
حـدثـيـنـا بـحـديـثِ الأولـيـن فـلـقد شاهـدتِ تلك الأعصـرا
أفـكـانـوا مـثـلـنَـا مـخـتـلـفـيـن لا يُـغـيـثـون إذا خـطـبٌ عـرَا؟[٩]
إنـنـا يا شـمـس في مُـضـطـربٍ قـد ألـفـنـاهُ فـلـم نـأتِـلـفِ
إن بـقـيـنـا هـكـذا فـاحـتـجـبـي عن بني الغبراءِ أو فانكسفي

* * *

يا بني يعرُبَ ما هذا المنامْ أوَمـا أسـفـرَ صـبـحُ الـنُّـوَّمِ؟!
أينَ من كان بِكم يرعى الذِّمامْ ويـلـبِّـي دعـوةَ الـمـهـتَـضـمِ؟[١٠]
أفـلا يـلـذعُـكـم مـنـي الـمـلامْ فـلـقد ألفظُ جمرًا من فمي؟!
خـارجًا عن نَفَسي كاللهب مـحـرقًا مهجة قلبي الدنفِ
أنا لولا فيضُ دمعي السَّكِبِ لـتـحـرَّقـتُ بـنـارِ الأسـفِ

---

[٦] وا حربي: وا، حرف ندبة للتوجع أو التفجع، والحرب بفتحتين: الهلاك، يقال: وا حربا ووا حربي توجعًا أو تأسفًا وكذلك وا أسفي ووا أسفا.

[٧] الغرار: بالكسر حد السيف، ومشحوذ الغرار: أي ماضي الحد.

[٨] الكثب: بفتحتين، القرب، يقال: رماه من كثب، وعن كثب؛ أي من قرب وتمكن.

[٩] عرا: يعرو؛ أي عرض وألم. والخطب هنا: الأمر المكروه.

[١٠] المهتضم: بصيغة المفعول، المظلوم.

* * *

يا شبابَ القومِ لولاكمُ لما　　ساغَ لي العذبُ وما إن لذَّ لي
إنني أبصرُ منكم أنجمًا　　لامعاتٍ في ظلامِ الأملِ
فاصبروا اليومَ على حرِّ الظَّما　　كي تنالوا الرِّيَّ في المستقبلِ
واتعبوا اليومَ فعُقبى التعبِ　　راحة مُشبعَةٌ بالترفِ
لتقونا أسوأ المنقلب　　إذ بناءُ القوم هاري الجُرُفِ

* * *

يا شبابَ القومِ هُبُّوا للبرازْ　　فبكم يَبسم ثغرُ الوطنِ
وارفلوا إما بثوبِ الإعتزاز　　أو بثوبٍ هو ثوبُ الكفَن
وأعدُّوا العلمَ لا السيفَ الجُراز　　إنه عُدةُ هذا الزمن[١١]
بسواه العزُّ لم يكتسبِ　　وهو المُنصِفُ للمنتصفِ
إنه واللَّهِ لا عن كذبِ　　شرفُ النفسِ ونفسُ الشرف

[١١] الجراز بالضم: صفة للسيف، ومعناه القاطع.

الدهر[١]

هل الدهرُ إلا أعجميٌّ أخاطبهْ فما لي إلى فهمِ الحديث أجاذبه؟
أيثني إلى وجه اللئيم بوجهه ويرتدُّ مزورًّا عن الحرِّ جانبه[٢]
أراه إذا طارحته الجد لاعبًا وما أنا ممَّن يا أميمُ يلاعبه[٣]
ويضرب أطنابَ المنى ليَ هازلًا وما أنا مخدوعٌ بما هو ضاربه
وبيناه يُبدي لي ابتسامةَ خادع يقطِّب حتى لا تَبين حواجبه[٤]
لقد أضحكتْ غيرَ الحليم شُئونُهُ وأبكت سوى عينِ السفيه نوائبُه
فيا أدباءَ القوم هل تنقضي لكم شكايةُ دهرٍ حاربَتْكم مصائبه؟!
يشدُّ عليكم بالسيوفِ نكايةً وأقلامُكم، وهو الأصمُّ، تعاتبه[٥]

---

[١] هذه القصيدة لم تنشر هنا بكاملها بل حذف منها زهاء أحد عشر بيتًا.

[٢] يثني: يعطف، والباء في بوجهه زائدة في المفعول. ومزورًّا: منحرفًا.

[٣] يقال: طارحه الكلام والشعر وغير ذلك: إذا ناظره وجاوبه.

[٤] بيناه: الألف كافة لبين أو هي مختصرة من ما الكافة، والأصل بينما، فحذفت الميم من ما، وكذلك القول في الضمير المتصل بها أنه مختصر من هو، والأصل بينا هو، فالضمير ضمير رفع، وقوله يقطب: أي يزوي ما بين عينيه.

[٥] أي: هو يحمل عليكم بالسيوف قهرًا بالقتل والجرح، وأنتم تقابلونه بالأقلام عتابًا، وهو مع ذلك أصم غير سامع للعتاب، والبيت تمثيل لحالة الأدباء مع الدهر.

* * *

هو الدهر لم يسلم من الغيِّ أهله | كما الليلُ لم يأمنْ من الشر حاطبه[٦]
إذا آنسوا نورَ الحقيقة رابهم | فتجثو على الأبصارِ منهم غياهبه[٧]
تضاربت الأهواءُ فيهم فناكبٌ | عن الشرِّ يُقْصيه، وآخرُ جالبه
طبائعُهم شتى على أنَّ بينهمْ | كريمًا تواليه ووغدًا تجانبه
لعمرك حتى البرق خالف بعضه | فقد خولفت بالموجبات سوالبه[٨]
أبتْ حركات الكونِ إلا تباينا | دوافعُه فعَّالة وجواذبُه
ولولا اختلافٌ شاءَه اللَّه في القوى | لما دار في هذا الفضاء كواكبه

* * *

سبرتُ زماني بالنُّهى ومَخَضتهُ | بتجربتي حتى تجلَّت عواقبُه
ولم أستشرْ في الناس إلا تجاربي | وهل يصدقُ الإنسانَ إلا تجاربُه
فلا ترتكبْ قربَ اللئامِ فإنَّهم | لكالبحرِ محمولٌ على الهول راكبه
وما عجبي في الدهر إلا لواحدٍ | وإن كثرتْ في كلِّ يومٍ عجائبه
وذلك أن العيشَ فيه مطيَّبٌ | لِمَنْ خبثت بالمخزيات مكاسبه
ولو كان في أعماله الدهرُ عاقلًا | لما كان مثلي في الورى مَنْ يحاسبُه

[٦] حاطب ليل: مثل عندهم في التخليط، ومنه قولهم: المكثار حاطب ليل؛ أي يجمع بين الحميد والرديء، أو أن الحاطب في الليل لا يأمن الشر إذا ربما جمع الأفاعي في الحطب الذي احتطبه وهو لا يدري، ففي البيت تشبيه الدهر بالليل، وأهليه بالحاطب فيه، فهم لا يسلمون من الوقوع في الباطل كما أن حاطب الليل لا يأمن من الوقوع في الشر، وكما في البيت: مثلها في قول الشاعر:

كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

[٧] آنسوا: أبصروا. رابهم: أوقعهم في الريب، وضمير الفاعل في رابهم يعود إلى الدهر.

[٨] يريد بهذا البيت وما بعده: أنه لا عجب في اختلاف طبائع الناس، وكونهم شتى بين كريم ولئيم؛ إذ هذا التخالف جارٍ في جميع ما في الكون فالبرق منه موجب ومنه سالب، ولولا اختلاف القوانين الجاذبة والدافعة لَمَا تم نظام هذا العالم، ولا دارت في هذا الفضاء كواكبه.

ولو لم يكن في كل ما فيه خادعًا لما أَمَّ فيه صادقَ الفجر كاذبه[٩]
ألا ربَّ شيطانٍ من الإنس قد غدا يخاتلني خَلسًا وعيني تراقبُه[١٠]
فقلتُ له: اخسأ إنما أنت خائبٌ وقبلك أعيا الجنَّ ما أنت طالبه[١١]
فولَّى على الأعقاب يحبو وقد درى ولـلَّـه درِّي أنني أنا غالبُه[١٢]
فأتبعه مني شهابُ تسامحٍ يشقُّ ظلام الجهلِ بالحلم ثاقبه[١٣]
ولو شئتُ أرسلتُ الخديعةَ خلفَه تطاردُه حتى تضيقَ مذاهبُه
ولكنْ أبى منِّي الخداعَ مهذبٌ تعوَّد فعلَ الخيرِ مذْ طُرَّ شاربه

* * *

وذي سَفَه أغضيتُ عنه تكرُّمًا فدبَّتْ على رجليَّ غدرًا عقاربُه
فقمتُ له بالنعلِ ضربًا فلم تزلْ يدايَ به حتى اطمأنت غواربه[١٤]
وجنَّبته السيفَ الجُرازَ؛ لأنَّه تعالت عن الكلبِ العقورِ مضاربُه
لقد عابني جهلًا ولم يدرِ أنه أقلُّ فداءٍ للذي هو عائبه
له نسبة مجهولةٌ غير أنه مغامزه معلومة ومعايبه[١٥]

[٩] أم فلان القوم: إذا تقدمهم. وصادق الفجر: مفعول مقدم، وكاذبه: فاعل مؤخر، والمعنى أن كل ما في الدهر خادع فلذلك ترى الفجر الصادق يتقدمه الفجر الكاذب.

[١٠] يخاتلني: أي يخدعني عن غفلة. والخلس: مصدر خلس الشيء إذا أخذه في مختلة، وهو في البيت مفعول لأجله، أو هو مفعول مطلق؛ لأنه بمعنى المخاتلة.

[١١] اخسأ: أي ابعد وانزجر، وهي كلمة زجر وطرد للكلب.

[١٢] المعنى المراد من قوله: «فولى على الأعقاب يحبو» أنه ذهب كالكلب يمشي على أربع.

[١٣] أتبعه: بمعنى تبعه أي لحقه. وشهاب تسامح: أي شهاب صفح وعفو عنه.

[١٤] فلم تزل يداي به حتى اطمأنت: أي لم تزل يداي تمارسه أو موقعة به حتى فعل؛ أي ما زلت أحاوله. غواربه: الغارب هو الكاهل، وأعلى كل شيء، وأعلى الموج.

[١٥] المغامز: جمع مغمز، وهو المطعن، فهي كالمعايب معنًى.

إلى أبناء الوطن

أنشدها في حفلة أقيمت له بعد رجوعه إلى بغداد سنة ١٩٢٣.

سر في حياتك سَيرَ نابهْ ولُمِ الزمانَ ولا تحابِه[١]
وإذا حللتَ بموطنٍ فاجعلْ محلَّك في هِضابه[٢]
واخترْ لنفسِك منزلًا تهفو النجومُ على قِبابه[٣]
ورُمِ العلاءَ مخاطرًا فيما تحاولُ من لُبابه
والمجدُ ليسَ ينالهُ إلا المخاطرُ في طِلابه
وإذا يخاطبُك اللئيـ ـمُ فصمَّ سمعَك عن خطابه
وإذا انبرى لك شاتمًا فاربأْ بنفسكِ عن جوابه[٤]
فالروضُ ليس يضيرُه ما قد يُطَنطِنُ من ذُبابه[٥]
ولرُبَّ ذنبٍ قد أتا كَ من ابن آدمَ في إهابه[٦]
ما امتازَ قطٌّ عن ابن آ وى شخصُه بسوى ثيابه

---

[١] النابه: المشهور، ضد الخامل.

[٢] هضابه: جمع هضبة، وهي الجبل المنبسط على الأرض، والمراد: المنازل المرتفعة.

[٣] تهفو: تسرع، يقال: هفت نفسه إلى الشيء إذا أسرعت إليه.

[٤] انبرى له: عارض وصنع مثل صنعه، اربأ بنفسك: ارفع نفسك.

[٥] يضيره: يؤذيه، يطنطن: يصوت ويحدث طنينًا.

[٦] أصل الإهاب: الجلد قبل أن يدبغ، والمراد الجلد مطلقًا.

وإذا ظـفـرتَ بـذي الـوفـا ءِ فحُطَّ رحلك في رحابه[٧]
فـأخـوكَ مـن إن غـاب عنــ ـكَ رعى ودادَك في غيابه
وإذا أصـابـك مـا يـسـو ءُ رأى مصابَك من مصابه
وتـراهُ يَـيْـجـع إن شـكـو تَ كأنَّ ما بك بعضُ ما به[٨]

* * *

يـا قـومُ قـد هـرم الـزمـا نُ من التمادي في انقلابه
فـلـذاكَ عـنـدَ الـهـاجـرا تِ يسيلُ شيء من لعابه
مـا زال عـن خَـرَف بـه للناس يهذِر في كِذابه[٩]
يـأتـي بـكـل عـجـيـبـةٍ تدعو اللبيبَ إلى ارتيابه
والـنـاسُ في عطشٍ تسيـ ـرُ إلى ارتواءٍ من سَرابه
فـمـتـى يـجـود لـنـا الـزمـا نُ ولو بمذق من وِطابه؟[١٠]
وإلـى مـتـى هـو سـاتـرٌ وجهَ الحقيقة في ضبابه؟[١١]
يـتـلـو بـصـرفِ الـحـادثـا ت لنا فصولًا من كتابه
كـمْ يـدَّعـي وطـنـيَّـة مَنْ لم تكنْ مرَّت ببابه!
فـتـراهُ يـنـفـخُ لاغـيًـا فيها وينفخ في جرابه
لـيـكـونَ مـكـتـسـبًـا بـهـا مالًا تهالكَ في اكتسابه
فـكـأنـمـا هـو صـائـدٌ وكأنما هي من كلابه
وتـراهُ يـرمـي الـمـخـلـصيـ ـنَ بكلِّ سهمٍ من جعابه
ويـعـيـبُ قـومًـا بـالـخـيـا نةِ والخيانةُ بعضُ عابه[١٢]

---

[٧] حط رحلك في رحابه: أي انزل عنده في أرضه، والمراد تمسك بإخائه.

[٨] يقال: وجع في الماضي، ويوجع وييجع وياجع في المضارع، يريد أنه يتوجع لِمَا ينوبك.

[٩] الخوف: الهذيان والهذر، مثل كلام المحموم والمجنون، والمراد أنه يخلط فيما يأتي به من الحوادث ولا يستقيم له قصد.

[١٠] المذق: اللبن الممزوج بالماء، يريد غير الخالص. والوطاب: جمع وطب، وهو سقاء يوضع فيه اللبن.

[١١] يريد أن وجه الحقيقة ليس ظاهرًا وإنما يخفيه الضباب؛ يعني ما يأتي به الدهر من الخير والشر ليس واضحًا.

[١٢] عابه: عيبه.

* * *

لا بدَّ للوطنِ العزيزِ   من المسكِّنِ لاضطرابهْ
من مجلسٍ للشعب ينـ   ـظر بالتأمُّلِ في مآبِه
وينوبُ عن أبنائهِ   إن صادقوه على منابه
حتى نرَى أَمْرَ البلا   دِ به يعودُ إلى نصابِهْ
أَبِهتْ حكومتُنا لهُ   والشعب ليس له بآبِهْ
أترى الحكومة تبتغيـ   ـهِ ونحن نعرضُ عن طِلابهْ؟!
هذا لعمرُ أبيكَ ما   يدعو الحليم إلى انتخابِهْ
هلَّا يقوم القاعدون   مسارعينَ إلى انتخابهْ؟
كي ينقذ الوطنَ الذي   صرف الزمان له بنابهْ
وغدا يهدِّد بالبوار   بنيه، بورٌ في ترابهْ
إن لم تكونوا مدركيه   فلا محالةَ من خرابهْ

* * *

آبَ المسافرُ للديا   رِ على اضطرارٍ في إيابِه
لو كان يجنح للإيا   بِ لما تعَجَّل في ذهابه
قد كان يمرح في التغرُّ   ب بالحفاوة من صحابه
لا تعجبنَّ لخاملٍ   لبس النَّباهة في اغترابه
فالسيفُ أحسن ما يكو   ن إذا تجرَّد من قِرابه
أما العراق فإنَّ لي   كلَّ الرجاء بأسْدِ غابه
ينجاب يأسي بالرجا   ء إذا نظرت إلى شبابه
من كل مَنْ هو في ظلا   م الليل أضوأ من شهابه
لمع الذكاء بوجهه   كالبرق يلمع في سَحابه
يا مَنْ زكت أحسابهم   فأتوا بأخلاقٍ نوابِهْ[١٣]

[١٣] زكت أحسابهم: برئت أصولهم من الدنس. نوابه: جمع نابه، أي: شريف عالٍ.

ووجـوهــهــم بـالـنَّـيِّـرا ت من النجوم لها مشابه
إنــي لأشـكـر فـضـلـكـم شكرَ المثاب على ثوابِه
كـالـروض يـشـكـر وابـلًا حـيًّا الأزاهـر بـانـسـكـابـه

في المعهد العلمي

لعمرك إن الحرَّ لا يتقيَّدُ   ألا فليقل ما شاءَ فيَّ المفنِّدُ[1]

إذا أنا قصَّدتُ القصيدَ فليس لي   به غير تبيان الحقيقة مَقْصد

نشدت بشعري مَطْلبًا عزَّ نيله   وإن هان عند الشعر ما كنت أنشدُ

فللنجم بُعْدٌ دون ما أنا ناشدٌ   وللدُّر قدْرٌ دون ما أنا منشدُ

وكم جنَّبتني عزَّةُ النفس مَنهلًا   يطيب به لكنْ من الذل موردُ

وما أنا إلا شاعرٌ ذو لبانةٍ   أنوح بها حينًا وحينًا أغرِّدُ

ولي بين شَدْقيَّ الهَريتين صارمٌ   يُسلُّ على الأيام طورًا ويُغمدُ[2]

ولا عجبٌ إن عابني الشاعر الذي   يقول سخيفَ الشعر وهو مقلِّدُ

فإن ابنَ بُرْدٍ وهو أكبرُ شاعرٍ   تنقَّصه في الشعر حمَّاد عجرد[3]

تعودت تصريحي بكلِّ حقيقةٍ   وللمرء من دنياه ما يتعود

إذا رمت نصحًا جئت بالنُّصح واضحًا   وما كان من شأني الكلام المعقد

---

[1] المفند: اللائم العائب.

[2] الشدق الهريت: الواسع، وأصله من صفات الأسد. وصارم: لسان حاد مثل السيف يغمد؛ أي: يوضع في غمده وهو قرابه.

[3] ابن برد: هو الشاعر بشار بن برد، شاعر فارسي، وحماد عجرد: شاعر أيضًا في عصر بشار كان مولعًا بهجائه، وكلاهما عاش في صدر الدولة العباسية.

وقد أبصر الدَّاءَ الدفين الذي بنا كما أَبصر الأمواه في الترب هُدهد[٤]
يقولون لي: استنهضْ إلى العلم قومَنا بشعرٍ معانيه تُقيمُ وتُقعِد
أما علموا أن الحياة بعصرنا مدارس في كل البلاد تشيَّد
وما ينفع القول الذي أنتَ قائلٌ إذا لم يكن بالفعل منك يُؤيَّد
فيا قومَنا إن العلوم تجدَّدت فإن كنتم تهوَوْنها فتجدَّدوا
وخلُّوا جمود العقل في أَمْرِ دينكم فإن جمودَ العقل للدين مفسد
وإن شئتمُ في العيش عزًّا فأقدموا فكم نيلَ بالإقدام عزٌّ وسُؤْدد
وأمضوا سديد الرأي دون تردُّدٍ فما يبلغ الغاياتِ مَنْ يتردَّد
ولا تقبلوا قيدًا بقولٍ مُجرَّدٍ فما قيَّد الأحرارَ قول مجرَّد

* * *

وأطلالِ علم لا تزال شواخصًا تذكر بالعهد القديم وتشهد
أراها فأبكي وهي رهنُ يد البِلى بدمع كما ارفضَّ الجمان المنضَّد
وما أنا سالٍ عهدَها حين لم تسلْ دموعي ولكني امرؤٌ متجلد
فإن تكبروا تسديد دمعي لأجلها فإن دمي من أجلها سيبدَّد
ومعهدِ علم أسَّسته عصابةٌ من القوم تسعى للنجاح وتجهد
شباب مشوا للمكرُمات بعزمةٍ تقاعس عنها الكوكبُ المتوقد
سأستودع الأيَّام كلَّ قصيدةٍ يطيب لهم فيها الثناء المخلد
أقول لهم قولًا به أَستزيدهم وأشكركم شكرًا جزيلًا وأحمد
أما وخلالٍ فيكُمُ عربيَّةٍ وذا قسَمٌ لو تعلمون مؤكد
يسرُّ العلا أن ينهض القوم للعلا وأن يجمع الشبانَ للعلم معهد

[٤] يعني الشاعر أنه لطول تجربته وممارسته لشئون الحياة يستطيع أن يميز الصحيح من الفاسد ما لا يستطيعه غيره، وشبه نفسه بالهدهد الذي يرى الماء الغائر في الأرض لبعد نظره.

في منتدى التهذيب

أنشدها في حفلة افتتاح منتدى التهذيب في بغداد.

تــريــد لــيَ الأيــام أن أتــقــيَّــدا وأطـلـب فـيـهـا أن أكـون الـمـجـدِّدا
وتقعُد بي دون المدى في خطوبها وغـايـة هـمِّ الـنـفـس أن أبـلـغ الـمـدى
كفى لصريح العقل قيدًا لمطلَقٍ من الـنـاس يـبـغـي أن يـكـون مـقـيـدا
لعمر الهدى إنَّ النُّهى ليس من صُوى سواها لِمَنْ ضلُّوا الطَّريقَ إلى الهدى[1]
فما بال هذا العقل أمسى معطَّلًا لـديـنـا كـأنَّ الـلَّـه أوجـده سُـدى؟![2]
أَيُـخْـلـقُـنـا كـرُّ الـجـديـديـن ضـلَّـة ولـم نـتـقـمَّـص فـيـهـمـا مـا تـجـددا؟![3]
فيما منجدي فيما أريد من العلا ولـولا الـعـلا لـم أطـلـب الـدهـر منجدا
أعنِّي على ما لو تحقَّق كونُه لـمـا كـان لـي بـل لـلأنـاسـيِّ مُـسـعـدا
تجهَّزْ من الحسنى بما أنت قادرٌ عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
وأحسن إلى مَنْ قد أساء تكرُّمًا وإن زاد بـالإحـسـان مـنـك تـمـردا
وحِبَّ الذي عاداك إن رمت قتله فـإنـي رأيـتُ الـحـبَّ أقـتـلَ لـلـعِـدا

[1] النهى: العقل وأصله جمع نهية، وهي ما ينهى المرء عن القبيح. والصوى: جمع صوة، وهي العلامة تنصب في الطريق ليهتدي بها السائرون في الصحراء ونحوها. يريد أن العقل من معدن الهداية.

[2] سدًى: ضياعًا، بلا فائدة.

[3] يخلقنا: يبلينا. ويقال: فلان يفعل كذا ضلة، إذا لم يوفق للرشاد، وكأنه منصوب على الحال؛ أي: ضالًا. وتقمص الشيء: كالقميص.

فليس مضرًّا في العلا بالذي أرى ... على كل حالٍ أن تحبَّ مَنِ اعتدى
إذا دُفع الشر القبيح بمثله ... تحصَّل شرٌّ ثالث وتولَّدا
وأمست دواعي الشر ذات تسلسل ... مَديدٍ وصار الشر في الناس سرمدا
فما الرأي عندي إن تمخَّضتِ الوغى ... سوى أن يظلَّ السيف في الغِمد مغمدا
وأن تجمع الدنيا على ردِّ طامعٍ ... أشار إلى أسيافه متهدِّدا
فإن كان هذا في العصور التي خلتْ ... عسيرًا ففي هذا الزمان تمهدا
فإن جميع الأرض أمستْ كبلدةٍ ... بها كل جمعٍ عُدَّ في الحكم مفردا
ولي خُلُقٌ يأبى عليَّ انطباعه ... على الخير تسليمي إلى الشر مقودا
وأُضرِب عن جهل الجهولِ ولم أكنْ ... لأَضربَ في الأيام للغدر موعدا
إذا ما اتَّقت نفسٌ رداها بذلَّة ... فعنديَ نفْسٌ تتقي الذلَّ بالردى
ولو طلبت نفسي الغنى بامتهانها ... لأصبحتُ في المثرينَ أطولهم يدا
ولكنني آليتُ ألا أذيقها ... من العيش إلا ما استطيبَ وحُمِّدا
سجيَّة نفس لم أحُل عن عهودها ... وإن لامني الأعمى عليها وفنَّدا
وما ضرَّني إذ عضَّني مُتشَادِقٌ ... شَحا بفمٍ قد كان في العضِّ أدردا[٤]
ولي وطنٌ أفنيت عمري بحبه ... وشُتتَ شملي في هواه مبدَّدا
ولم أرَ لي شيئًا عليه وإنما ... عليَّ له في الحبِّ أن أتشدَّدا
تعلَّقته منذ الصبا مغرمًا كما ... تعلَّق ليلى العامريُّ مُعمَّدا
وسيَّرتُ فيه الشعرَ فخرًا فطالما ... شدوت به في محفل القوم مُنشدا
وكم رامَ إسكاتي أناسٌ أبى لهم ... خَنا الطبع إلا أن يُرَوْا لي حُسَّدا
ومن عجبٍ أن يعشق الرَّوضَ بلبلٌ ... ويمنعه ذبَّانُه أن يغرِّدا
وما الناس إلا اثنان في الشرق كلِّه: ... جهولٌ تلهَّى أو حليمٌ تبلَّدا
ولم أرَ مثلَ الفضل في الشرق مخفقًا ... ولا مثل جَدِّ المرء للمرء مُسعدا

---

[٤] المتشادق: يريد به المتشدق، وهو المتفاصح الذي يملأ شدقيه بالكلام، وقيل: هو المستهزئ بالناس، يلوي شدقه بهم وعليهم، وتشدق في كلامه: فتح فمه واتسع. شحا الرجل فاه: فتحه، وشحا فوه: انفتح، متعدٍّ ولازم، والباء زائدة أو على تضمينه معنى نطق بفم. والأدرد: صفة من الدرد، وهو سقوط مقدم الأسنان.

تأمَّلْ قليلًا في بنيه مفكِّرًا ... لتشهد منهم للعجائب مشهدا
فتبصرَ أيقاظًا يُطيعون هُجَّدًا ... وتبصر أحرارًا يخافون أعبدا
وكم فأرةٍ في الشرق تُحسب هرَّةً ... وكم عقْعَقٍ في الشرقِ سُمِّيَ هُدْهُدا
ألا رُبَّ شاكٍ قال لي وهو آسِفٌ: ... أما آن للتَّهذيب أن يتبغددا؟[٥]
فقلت له: أبشرْ بخيرٍ فإنه ... ببغدادَ للتهذيب أسِّس مُنتدَى

[٥] تبغدد: أي يصير ويتحول إلى بغداد.

في زحلة

قالها سنة ١٩٢٣ وأنشدها في حفلة أقيمت له وللريحاني في زحلة.

حَببت العلا منذ الصبا حبَّ شاعرِ وقمت إليها ساعيًا سعيَ قادرِ
أأقدر فيها أن أصيخ للائمٍ وقد ملكت مني جميع المشاعر؟![1]
تقول ابنة الأقوام وهي تلومني وأدمعُها رقراقة في المحاجر:[2]
إلى كم تُجدُّ البين عني مسافرًا أما تستلذُّ العيش غيرَ مسافرِ؟![3]
وأسكتها عني نشيجٌ لم تزل تردِّده منها بأقصى الحناجر
إلى أن تفانى الصَّبر فافترَّ مدمعي كمدمعها عن لؤلؤٍ متناثر
ولا غروَ أن أبكي أسًى من بكائها فأعظم ما يشجي بكاء الحرائر
وقلت لها: إني امرؤٌ لي لبانةٌ منوطٌ مداها بالنجوم الزواهر
تعوَّدت أن لا أستنيمَ إلى المنى وألَّا أُرَى إلا بهيئةِ ثائر
وأن أُمضيَ الهم الذي هو مُقلقي بطيِّ الفيافي أو بخوض الدياجرِ[4]

[1] أصاخ له: استمع وأنصت.

[2] رقراقة: جائلة متحركة. والمحاجر: جمع محجر، وهو ما دار بالعين من العظم.

[3] تجد البين سفرًا بعد سفر.

[4] أمضى همه: نفذ ما عزم عليه وهم به. وطي الفيافي: قطع الصحاري، والفيافي: جمع فيفاة. والدياجر: جمع ديجور، وهو الظلمة، وأصله: الدياجير.

أما ترَينَّ الوجهَ منِّيَ شاحبًا لكثرة ما عرَّضتُه للهواجر[٥]
ولست أبالي أنني عادم الغنى إذا كان جَدِّي في العلا غير عاثر
ذريني أزرْ في هُضْب لبنان أربُعًا تعالت بحيث العز مُرخى الضفائر
بحيث أرى تلك الليوث خوادرًا تسارق ألحاظًا عيون الجآذر
ليوثٌ إذا ما عبَّست في مُلمَّةٍ تبسمت الدنيا تبسُّم ناصر
وألقت جيوش الفاخرين سلاحَها إذا خفقت راياتها بالمفاخرِ
فأكرمْ بلبنانٍ مَقرًّا لنابهٍ ومأوَى لمنكود ومهدى لحائر
ألا إنما لبنان في الأرض عاهل تبوَّأَ عرشًا من حليل المآثر
وزحلةُ في لبنان تاجٌ لرأسه قد ازدان من أبنائها بالجواهر
وما هيَ إلا روضةٌ أنبتت له أزاهيرَ من تلك الحسان الغرائر[٦]
أزحلةُ إني تاركٌ فيك مُهْجتي تعاطيك من بَعدي محبة شاكر
فنشكرك الشكر الذي أنت أهله طَوال الليالي خالدًا في الدفاتر
وفاء امرئٍ ما عوَّد الغدرَ نفسَه ولا وُدَّ إلا مُخلصًا في الضمائرِ
ومن عجبٍ أن الشُّويعرَ لامني ببيروت لومَ الشَّاتم المتجاسر
وَمَنْ كان مثلي شاعرًا لا تسوءه مقاذعة جاءته من متشاعر[٧]
على أنني مِنْ عاذريه وإن يكن لي الحق في عذري له غير عاذر
وكم في رُبا لبنان من ذي فصاحةٍ مُجيدٍ بيوم الحفل قرْعَ المنابر!
ومن أهل آدابٍ كشارقة الضحى ومن أهل علمٍ كالبحار الزواخر

[٥] الشحوب: الصفرة والتغير. والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر وسط النهار.

[٦] الغرائر: جمع غريرة، وهي التي لم تجرب شئون الحياة لنعمتها وحداثتها.

[٧] مقاذعة: مهاجاة ومسابة.

الفنون الجميلة

إن رُمتَ عيشًا ناعمًا ورقيقا فاسلك إليه من الفنون طريقا
واجعل حياتك غضَّةً بالشعر والتـ ـمثيل والتصوير والموسيقى
تلك الفنون المشتهاة هي التي غصن الحياة بها يكون وريقا
وهي التي تجلو النفوس فتمتلي منها الوجوهُ تلألؤًا وبريقا
وهي التي بمذاقها ومشاقِها يمسي الغليظ من الطباع رقيقا
تمضي الحياة طريَّةً في ظلها والعيش أخضرَ والزمان أنيقا
إن الذي جعل الحياة رواعدًا جعل الفنون من الحياة بروقا
وأدرَّها غيثَ اللذاذةِ منبتًا زهرَ المسرة سوسنًا وشقيقا
وأقام منها للنُّفوسِ حوافزًا تدع الأسيرَ من القلوب طليقا
فتحلُّ عقدة مَنْ تراهُ معقدًا وتفُك رِبْقة مَنْ تراه ربيقا
تلك الفنون، فطِرْ إلى سعةٍ بها إن كنت تشكو في الحياة الضيقا
وإذا أردتَ من الزمان مضاحكًا فَتَحَسَّ منها قرقفًا ورحيقا
ما فاز قطُّ بوصلها من عاشق إلا وكان لعارفيه عشيقا
فهي ابتسامات الدُّنا وبغيرها ما كان وجه الحادثات طليقا

* * *

رطِّب حياتك بالغناء إذا عرا همٌّ يجفِّف في الحلوق الريقا
إن الغناء لمحدثٌ لك نشوةً في النفس تطفئ في حشاك حريقا
واتركْ مجادلةَ الذين توهَّموا هَزَج الغناء خلاعة وفسوقا

أفأنتَ أغلظ مهجة من نوقهِم؟! فقد استحثُّوا بالحداءِ النُّوقا
أرقى الشعوب تمدنًا وحضارة مَنْ كان منهم في الفنون عريقا
وأحطُّهم من إن سمعت غناءهم فمن الضفادعِ قد سمعت نقيقا
فالفن مقياس الحضارة عند مَنْ حازوا الرقيَّ، وناطحوا العيُّوقا

* * *

الشعر فنٌّ لا تزال ضروبه تتلو الشعور بألسن الموسيقى
ويجيدُ تقطير العواطف للورى فتخاله لقلوبهم أنبيقا

* * *

ومسارح التمثيل أصغر فضلها جعل الكليل من الشعور ذليقا[١]
وإذا رأى فيها الوقائع غافل من نوم غفلته يكون مفيقا
تنمي الحميدَ من الخصال وتنتقي ما كان منها بالفخار خليقا
وتجيء من عبر الزمان بمشهد يُلقي خشوعًا في النفوس عميقا
ويكون منظره الرهيب ممهدًا لمشاهديه إلى الصلاح طريقا

* * *

أما المصوِّر فهو فنَّانٌ يرى ما كان من صور الحياة دقيقا
يأتيك ريشتُه بشعرٍ صامت ولقد يفوق الشاعرَ المِنطيقا[٢]
وبدائع التَّصوير من حسناتها أن يستفيد بها الشعور سموقا[٣]
فهي الجديرة أن تكون ثمينةً وتكون أنفق من سواها سوقا[٤]
إن الحياة على الكُدورةِ لم تجد مثل الفنون لنفسها راووقا[٥]

---

[١] الكليل من السلاح: الذي لا يقطع. والذليق: الماضي الحاد.
[٢] المنطيق: الفصيح.
[٣] السموق: الارتفاع.
[٤] أنفق: أروج.
[٥] الراووق: المصفاة.

الحياة الاجتماعية والتعاون

أنشدت في حفلة تأسيس جمعية حماية الأطفال في بغداد سنة ١٩٣٨.

يعيش الناس في حال اجتماعِ فتحدث بينهم طرق انتفاعِ

وتكثر للتعاون والتفادي على الأيام بينهم الدواعي

ولو ساروا على طرق انفراد لما كانوا سوى هَمَجٍ رعاعِ[١]

رأيت الناس كالبنيان يسمو بأحجار تسيَّع بالسياعِ[٢]

فيمسك بعضه بعضًا فيقوى ويمنع جانبيه من التداعي

كذاك الناس من عَجَمٍ وعُرْبٍ جميعًا بين مرعيٍّ وراعِ

قد اشتبكت مصالحهم فكلٌّ لكلٍّ في مجال العيش ساعِ

ولولا سعيُ بعضِهُمُ لبعضٍ لعاشوا عيش عاديةِ السباع[٣]

إذا ربُّ الحسام ثناه عجز تدارك عجزَه ربُّ اليراعِ

وإنْ قلم الأديب عراه زَيْغٌ تلافى زيغه سيفُ الشجاعِ

وإن صفِرت يدٌ من رَيْع زرع أعيد ثراؤها بيدٍ صَناعِ[٤]

---

١ الهمج والرعاع: السفلة من الناس، وأصل الهمج: صغار البعوض.

٢ تسيع بالسياع: أي تطلى بما يطلى به البناء بعد بنائه، ليجمل شكله ومنظره.

٣ عادية: أي مفترسة.

٤ صفرت: أي صارت صفرًا خالية. وريع الزرع: يريد ثمرته وفائدته التي تجنى منه. واليد الصناع: الماهرة، وهي ضد اليد الخرقاء، وهي التي لا تحسن عملًا.

بذاك قضى اجتماع الناس لَمَّا أن اعتصموا بحبل الإجتماع
يساند بعضهم في العيش بعضًا مساندة ارتفاع وانتفاع
فتعلوا في ديارِهُمُ المباني وتخصب في بلادهمُ المراعي
وتستعلي الحياة بهم فتمسي من العيش الرغيد على يفاع[5]
وما مدنيَّة الأقوام إلا تعاونهم على غُرِّ المساعي
ولم يصلَح فساد الناس إلا بمال من مكاسبهم مُشاعِ
تُشاد به الملاجئ لليتامى وتُمتار المطاعم للجياعِ
وتُبنى للعلوم به مبانٍ تفيض العلمَ مؤتلقَ الشعاع
وإلا فالشَّقاء لهم حليفٌ وما حملُ الشقاء بمستطاعِ
ومما سرني أني أناجي رجالًا في الفخار ذوي ابتداعِ
سعوا لحماية الأطفال منا بما أوتوه من كرم الطباع
فقاموا بالذي يُعلي ويُسلي يصونون الضعاف من الضياع
وما هذي الحياة سوى صراعٍ يتمُّ بفوز مفتول الذراعِ
وما سادت شعوب الخلق إلا بتهيئة البنين لذا الصراعِ
إذا لم يُعنَ بالأطفال قومٌ فهضْبة مجدهم رهن انصداع[6]
ولا تزكو الْمَناشئ في أناسٍ يرون الطفل من سقط المتاعِ[7]
وما هاج العواطف في فؤادٍ كحال الطفل في زمن الرضاعِ
فشكرًا للكرام وكل شكر لِمَنْ عضدوا الكرام بمدِّ باعِ[8]

[5] اليفاع: المرتفع.
[6] انصداع: تشقق وتكسر.
[7] سقط المتاع: أردأ وأرخص ما في البيت من متاع وأدوات كالمكنسة والكوز ونحوهما.
[8] عضده يعضده، بضم الضاد في المضارع: قوَّى عضده وشد أزره، يريد عاونوا بمد أيديهم بالمال.

في سبيل الوطنية

كتب إليه صديقه فخري البارودي وهو إذ ذاك في بيروت، يخبره بأنه ألف في دمشق شركة للمنسوجات الوطنية، ويطلب إليه أن يكتب فيها قصيدة يدعو بها القوم إلى مؤازرتها والانضمام إليها، فكتب القصيدة الآتية وأرسلها إليه في دمشق.

مَنْ كان في المجد المؤثَّل راغبًا ... فليطلبنْه بهمة البارودي
فخري الذي ابتكر المفاخر واغتدى ... منهنَّ مفتخرًا بكل جديد
وأبى سوى غُرِّ المساعي إذ سعى ... متشبِّثًا منها بكل مفيدِ[1]
وبنى له بدمشق مجدًا طارفًا ... من بعد مجد في دمشق تليد[2]
إن كان محمود الفعال فإنه ... ورث المكارم عن أبٍ محمود
نفع البلاد بماله وبسعيه ... وبحسن رأي في الأمور سديد
ورأى الشَّتات بها فقام موحدًا ... فيها المساعي أيَّما توحيد[3]
ودعا الرجال بها فألَّف شِركةً ... ترمي إلى غرض أغر حميد
تغني البلاد بسعيها عن غيرها ... وتعيد عهد ثرائها المفقودِ
وتقوم بالعمل المفيد لأهلها ... من نسج أرديةٍ لهم وبُرود

---

[1] غر المساعي: جمع أغر، وهو الذي في وجهه بياض.

[2] الطارف والطريف: المكتسب الحديث، والتالد والتليد: الموروث القديم.

[3] الشتات: التفرق.

حتى تكون عن الأجانب في غنًى وتعيش غيرَ أسيرة التقليد
أوَما ترى أهلَ البلاد تقيدوا للغرب من حاجاتهم بقيود؟
العربُ يكسوهم ملابس هم بها يعرون من مال لهم ونقود
وتراه يسلخهم بمصنوعاته سلخَ الشياه فهم بغير جلود
هذي سفائنهم تروح وتغتدي ببضائعٍ لم تحصَ بالتعديد
فكأنما هي لامتصاص دمائنا بعض المحاجم أو كبعض الدودِ[4]
حتى متى نشقى ليسعد غيرنا وتذلَّل القربى لعزٍّ بعيد؟!
ويجانب الوطني من أشيائنا ولوَ انَّه من أحسن الموجود؟!
إن البلاد لتشتكي من أهلها وتقول قول الرازح المجهود:[5]
يا سادة الأوطان لستم سادة ما عشتم من فقركم كعبيد
أفَسيِّدٌ مَنْ عاش وهو لغيره في حاجةٍ؟! بل ذاك عيش مسودِ
إن السيادة تستدير مع الغنى في حالتيْ عدمٍ له ووجود[6]
لا يستقلُّ بسيفه الشعب الذي لا يستقلُّ بنقده المنقودِ[7]
مَنْ كان محلول العرى في ماله وجب انحلال لوائه المعقود
يا قومنا أنتم كغارس كرمة وسواه منها قاطف العنقود
كم تزرعون بأرضكم ولغيركم مما زرعتم حبُّ كل حصيد!
فتبصَّروا يا قوم في أحوالكم وتنبَّهوا من غفلة ورقود
مَنْ شاء منكم أن يُعزَّ بلادهُ فليسعَ سعي معزِّها البارودي

[4] المحاجم: جمع محجم، وهو كأس صغير يسحب به الدم من الإنسان. والدود: هو العلق الأسود، يستعمل كالمحجم لامتصاص بعض الدم من الجسم.
[5] الرازح المجهود: هو الذي لحقه الإعياء من حمل ثقيل.
[6] يريد أن المرء لا يوصف بأنه سيد إلا إذا استغنى عن غيره، فأما إذا احتاج إلى غيره فهو عبد له، وقد قيل: «استغنِ عمن شئت تكن أميره، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيره.»
[7] يريد أن الاستقلال الاقتصادي للبلاد ينبغي أن يقدم على الاستقلال السياسي.

في المدرسة: دار التفيض

نِعْمَتِ الدار للتفيُّضِ دارا! قد أقيمت للطالبين منارا
هي دارٌ ينتابها ولْد قوم جعلوا العلم للحياة مدارا
نحن قوم نرى المفاخر إلا من طريق العلوم ثوبًا معارا
ما قصدنا بسلِّنا السيف إلا ردَّ ليلِ الجهل المميت نهارا
هل شددنا الرحال في الأرض للأسـ ـفار إلا لنكتب الأسفارا؟![1]
كم طوينا من قبلُ في طلب العلـ ـم فِجاجًا وكم شققنا بحارا!
واقتحمنا لأجله كلَّ هول وركبنا لأجله الأخطارا
ولقد هانت النوائب فيه إذ لبسنا الصبر الجميل شعارا
إنما تصغر الخطوب لدى القو م إذا كانت النفوس كبارا
سل بنا العلم والفنون جميعًا هل ملكنا بغيرها الأقطارا[2]
سل بنا العدل في جميع الرعايا هل عمرنا بغيره الأمصارا؟
سلْ بنا الغرَّ من كبار المساعي هل طلبنا بغيرهن فخارا؟
سل بنا هذه الدماء الدوامي هل غسلنا بغيرهن العارا؟
سل بنا هذه النجوم الدراري هل رضينا تحت النجوم قرارا؟

[1] الأسفار الأولى: جمع سفر بفتح الفاء، والثانية: جمع سفر بكسر السين وسكون الفاء، وهو الكتاب.
[2] سل بنا: سل عنا، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾.

كم رفعنا للعلم في الأرض برجًا وبـنـيـنـا لـه كـغـمْـدانَ دارا!
لا يكن منك في الذي قلت شكٌّ وإذا شـئـت فـانـظـر الآثـارا
يـعـلـم الـلَّـه ذو الـجـلالـة أنَّـا لـسـوى الـلَّـه ما رجـونـا وقـارا
إنـمـا هـذه الـمـدارس روضٌ يـنبت المجد والـعُلا والـفـخـارا
تـتـغـذى بـهـا الـنـفـوس غـذاء هـو يُـنـمـي الـعـقـول والأفـكـارا
جلَّ فعلًا إكسيرها المتعالي كيف يجلو القلوب والأبصارا؟!
يدخل الناشئون فيها من النا س نحاسًا ويخرجون نضارا
ربَّ نفس كَدِرْهَمٍ قد جلاها الـ ـعـلـم حـتـى أعـادهـا ديـنـارا
نـضـرت هـذه الـمـدارس روضًـا من بـنـي الـقـوم منبتًا أزهارا
تمنح العاجز الضعيف اقتدارًا مُـوشـكًـا أن يـغـالـب الأقـدارا
كانت الناس في القديم عبيدًا وبـهـا الـيـوم أصـبـحـوا أحـرارا
فعليكم فيها بتحصيل علمٍ يُـرغـد الـعـيش، يُـسـعـد الأعـمـارا

المدارس ونهجها

أنشدت في حفلة وضع الحجر الأساسي لبناية مدرسة التفيض الأهلية التي أقيمت عصر ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٢٩.

ابْنُوا المدارسَ واستقصوا بها الأَمَلا	حتى نُطاوِلَ في بنيانها زُحَلا
جودوا عليها بما درَّت مكاسبكم	وقابلوا باحتقارٍ كلَّ مَنْ بخلا
إن كان للجهل في أحوالنا عِللٌ	فالعلم كالطب يشفي تلكمُ العللا
سيروا إلى العلم فيها سير معتزمٍ	ثم اركبوا الليل في تحصيله جَملا
لا تجعلوا العلم فيها كلَّ غايتكم	بل علِّموا النَّشءَ علمًا ينتج العمَلا[1]
هذي مدارسكم شرْوَى مزارعكم	فأنبتوا في ثراها ما عَلا وغَلا[2]
لا تتركوا الشوك ينمو في منابتها	أعني بذلكُمُ الأهواءَ والنِّحَلا
وأسِّسوها على الأعمال قائمة	ممهِّدين إلى المحيا بها سُبُلا
يلقى بها النشء للأعمال مختَبرًا	ولِلطباع من الأدران مُغْتَسلا
وأمطروا روضها علمًا ومقدرة	حتى تفتَّح من أزهارها الأمَلا
فتنبت العالم الفنان مخترعًا	وتنبت الفارسَ المِغوار والبَطلا

[1] يريد لا توجهوا كل اهتمامكم إلى التعليم القولي النظري، بل وجهوا عنايتكم إلى الشئون العملية، كالعلوم التطبيقية التي تفيد في ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها.

[2] شروى: مثل.

وتنبت الحارس الفلَّاح مزدرعًا وتنبت الْمِدره المنطيق مرتجلا
واسقوا المتلمذ فيها خمرَ مكرمةٍ عن خمرة الكرم تمسي عنده بدلا
حتى إذا ما غدا خِرِّيجها طربًا من عزة النفسِ خيلَ الشارب الثمِلا
ربُّوا البنين مع التعليم تربية يمسي بها ناطق الأخلاق مكتملا
وثقفوهم بتدريب وتبصرةٍ ثقافة تجعل المعوَجَّ معتدلا
وجنبوهم على فعل معاقبة إن العقاب إذا كرَّرته قتلا
إن العقاب يزيد النفس شرَّتها وليس ينكر هذا غير مَنْ جهلا
بل أنشئوا ناشِئ الأحداث وهو على حبِّ الفضيلة في محياه قد جبلا
بحيث يمشي إذا شانَتْه شائنة من فعله احمرَّ منها وجهه خجلا
مَنْ يترك الشرَّ خوفًا من معاقبةٍ فليس يُحسَب ذا فضل وإن فضلا
فجيِّشوا جيشَ علم من شبيبتنا عَرَمْرَمًا تضرب الدنيا به المثلا
إن قام للحرث ردَّ الأرض مُمْرعةً أو قام للحرب دكَّ السهلَ والجبلا
وإن غزا مستظلًّا ظلَّ رايته هزَّ البلاد وأحيا الأعصر الأوَلا
إنَّا لمن أمَّةٍ في عهد نهضتها بالعلم والسيف قبلًا أنشأت دوَلا
هذا هو العلم لا ما تأدبون له مما تكون به عُقباكم الفَشلا
ماذا تقولون في نقدي مناهجَكم وقد كفيتكمُ التفصيل والجملا؟
وأيُّ نفع لِمَنْ يأتي مدارسَكم إن كان يخرج منها مثلما دخلا؟!
فأجمعوا الرأيَ فيما تعلمون به ثم اعملوا بنشاط ينكر المللا
ثم انهجوا في بلاد العُرب أجمعها نهجًا على وحدة التعليم مشتملا
حتى إذا ما انتدبنا العُربَ قاطبة كنا كأنا انتدبنا واحدًا رجلا

العلم والإجازة فيه[1]

إنَّ مَنْ حاز في العلوم إجازهْ　　لـجـديـرٌ بـرتـبـة مـمـتـازهْ
وخـلـيـقٌ بـعـيـشـةٍ مـرتـضـاة　　وافتخارٍ بفضل ما قد حازه
إنــمــا هــذه الإجــازة صَــكٌّ　　بـيـد الـمـرء ضـامـنٌ إعـزازه
وهـي تـعـويـذةٌ لـه مـن عـيـونٍ　　بـالـمـسـاوي هـمَّـازةٍ غـمَّـازه
فـهـنـيـئًـا لِـمَـنْ أُجـيـز وشـكـرًا　　لـلـذي فـي عـلـومـه قـد أجـازه

* * *

معهدُ العلم وهو حِرْزٌ يفوق الـ　　أبـلـقَ الـفـردَ مـنـعـةً وحـرازه[2]

[1] الإجازة: هي الشهادة التي تمنحها المدارس والمعاهد للطلاب الذين أتموا دراستهم كلها أو بعضها وسميت بذلك؛ لأن شيوخ العلم من سلف المسلمين كانوا يجيزون المنتهين من الطلاب برواية مروياتهم وقراءة مؤلفاتهم، لأنهم أصبحوا أهلًا لذلك، وكان الطلاب يعتزون بشهادة أستاذيهم لهم، ويذكرونها في تراجمهم وتواريخ حياتهم.

[2] الأبلق الفرد: حصن معروف للسَّموءل بن عادياء اليهودي بأرض تيماء من بلاد العرب، قال فيه الشاعر:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره　　يعز على مَنْ رامه ويطول

تلجأ الناس في الحياة إليه   هَربًا من جهالة وخَّازه
حبذا العلمُ يكسبُ المرءَ عزًّا   ويقيه في عيشه إعوازه
في نفوس الذين لم يُرزَقوه   حسرات وفي القلوب حَزازه
إنما العلم من معاجز عيسى   كم جهولٍ أحياه وهو جنازه!
صاحب العلمِ يركب المجد طِرفًا   جاعلًا غاية العلا مِهمازه[3]
ويهز الدنيا رجاءً وخوفًا   بيدٍ من دراية هزازه
نحن سَفْرٌ وما الرواحل والزا   دُ سوى العلم، والحياة مَفازه[4]
كلُّ مَنْ لم يُعدُّه لاجتيازٍ   لم تيسر بيد النجاح اجتيازه
إن عقل الفتى ليصبح بالعلـ   ـم رزينًا بكفِّ مَنْ قد رازه[5]
والطباع العرجاء في كل شخص   تقتضي من ثقافة عُكازه
ألغز الدهر في الحقائق لكن   أفهم العلم أهله ألغازه
وإذا الأمر قد غشته الغواشي   ضمن العلم للورى إبرازه

* * *

كان للعلم في القديم طريق   غير رحب يُشقُّ أن تجتازه
فجرى اليوم في طريقٍ جديد   جُعل الشك واليقينُ طرازه
هو صيد ولم يَعد يجعل المصـ   ـطادُ منه غير التجاريب بازه[6]
قد عرفنا حقيقة القول فيه   وتركنا للغافلين مجازه
وبحثنا عن جوهر الحق فيه   فبلغنا دفينه وركازه[7]
بَلْهَ إطناب شرحه بقياس   إنَّ في تجرباته إيجازه[8]

[3] الطرف: الحصان الكريم. والمهماز: ما يحث به الفرس على السير.

[4] مفازه: صحراء يهلك فيها السائر الذي لم يستعد لها.

[5] رازه: اختبره بيده ليعرف ثقله.

[6] شبه العلم بصيد، وجعل التجربة كالبازي، وهو الصقر الذي يستعان به على الصيد.

[7] الركاز: المعادن المدفونة في الأرض.

[8] يقول: استعنا في عصرنا على تحقيق العلم بالتجربة الموجزة، واستغنينا بها عن الشرح الطويل، والقياس المنطقي النظري.

هـو فـي الـنـاس قـدره مـتـعـالٍ لم يطلْ صرحُ إيفلٍ أنشازه[٩]
وإذا الْـمُـلْـك لـم يـؤيِّـده عـلـم فارتقب سلبه ورجٍّ ابتزازه[١٠]
وإذا الـعـلـم فـاه يـومًـا بـوعـدٍ ذهـب الـيـأس آمـلًا إنـجـازه[١١]
وإذا أنـشـط الـجـبـان لـحـربٍ صال يرغو حماسة وحمازه
قلَم المرء في بلوغ المعالي فائق في وغى الحروب جُرازه[١٢]
صاحب العلم في الأمور أمير قد غدا كل حادث جِلوازه[١٣]
يبصر الخطب من هواديه حتى يلتهي فيه مبصرًا أعجازه[١٤]
فـلـهـذا، نـعـم لـهـذا أهـنِّـي كلَّ مَنْ حاز في العلوم إجازه

[٩] صرح إيفل، أو برج إيفل: بناء عالٍ جدًّا في فرنسا. والأنشاز: جمع نشز، وهو كل شيء مرتفع، ويقول: إن قدر العلم وشرفه عالٍ جدًّا لا يساميه برج إيفل علوًّا.

[١٠] يقول: إن الْمُلْكَ الذي لا يقوم على دعائم العلم لا يلبث أن يضيع ويسلب.

[١١] إذا وعد العلم بتحقيق غرض، فلا بد أن يناله، وإن ظنه الناس مستحيلًا أو بعيدًا.

[١٢] الجراز: السيف.

[١٣] الجلواز: بمعنى الشرطي.

[١٤] هواديه: أوائله ومقدماته.

العلم

إلى شبان الكلية الإنكليزية في القدس

لا يبلغ المرء منتهى أَربهْ — إلا بعلم يَجدُّ في طلبهْ
فَأوِ إلى ظلِّه تعشْ رَغدًا — عيشًا أمينًا من سوء منقلبه
واتعب له تسترحْ به أبدًا — فراحة المرء من جَنى تعبه
ولذة العلم، مَنْ تذوَّقَها — أضرب عن شهده وعن ضَربه
وإن للعلم في العلا فلكًا — كل المعالي تدور في قُطُبه
فاسْعَ إليه بعزم ذي جلد — مصمِّم الرأي غير مضطربه
وابذل له ما ملكت من نشبٍ — فالعلم أبقى للمرءِ من نشبه
لا تتكل بعده على نسب — فالعلم يغني النسيب عن نسبه
واطَّرح المجد غيرَ طارفه — واجتنب الفخر غير مكتسَبه
ما أبعد الخير عن فتى كسلٍ — يسرح في لهوه وفي لعبه!
كم رفع العلم بيت ذي ضعة — فقصَّر الناس عن مدى حسبه!
حتى تمنى أعلى الكواكب لو — يحلُّ بيتًا يكون في صَقَبه
وودَّت الشمس في أشعَّتها — لو كنَّ يُحسبن من قوى طُنُبه[١]
وإن يَسُدْ جاهلٌ فسؤدُده — بعد قليل يفضي إلى عطبه

---

[١] الطنب: حبل تشد به الخيمة.

يرى امرؤ مجدَ جاهلٍ عجبًا — لو صحَّ عقلًا لكفَّ عن عجبه
كم كذب الدهر في فعائله — وسؤدد الجاهلين من كذبه
العلم فيضٌ تحيا القلوب به — فامتَحْ بسجْلِ الحياة من قُلُبِهْ[٢]
كل فخارٍ أسبابه انقطعت — إلا فخارًا يكون من سببه
للعلم وجهٌ بالحسن منتقِب — وسافر منه مثل منتقبهْ
ما حسن وجه للفتى بمفخرةٍ — إن لم يؤيَّد بالحسن من أدبه
ما أقدر العلم! إنَّ صيحَته — يمعن منها الخميس في هربه[٣]
مَنْ تَخِذَ العلم عُدَّة لوغًى — أغناه عن درعه وعن يَلَبِه[٤]
فانتدب العلْم للخطوب فما — خاب لعمري رجاء منتدبه
العلم كالنور بل أفضِّله — ما أفقر النور أن يشبَّه به!
سقيًا ورعيًا لروض معهده — وطالبيه وقارئي كتبه
ما الناس إلا رُوَّاد نجْعتهِ — وناشروه وكاشفو حُجُبه
وَمَنْ غدا هاديًا يعلِّمُه — وراح يشقى الجهول من وَصبه
ومعهدٍ أسست قواعده — في بلد شفني هوى عَربه
شيده للعلوم مدرسة — مَنْ كانَ نشر العلوم من دأبه
قد غرَّد المجد في جوانبه — فاهتزَّ عِطف الفخار من طربه[٥]
وأصبح العلم فيه مزدهرًا — بكل ذاكي الذكاء ملتهبه
بمثله في البلاد قاطبة — يشفي عَقور الزمان من كَلَبِه[٦]
أضحت فلسطين منه مُمْرعةً — مذ جادها بالغزير من سُحُبه[٧]

[٢] السجل: الدلو. والقلب: جميع قليب، وهي البئر.

[٣] الخميس: الجيش؛ لأنه خمس فرق: قلب وجناحان، ومقدمة ومؤخرة. يمعن: يبالغ.

[٤] عدة الحرب: أداتها. واليلب: الترسة أو الدروع من الجلود، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض، تلبس على الرءوس خاصة.

[٥] العطف: الجانب.

[٦] شبه الزمان بالكلب العقور، وهو المصاب بالكلَب، فإذا عض إنسانًا عقره أي: أهلكه.

[٧] الممرع: المخصب. جادها: أنزل بها المطر الجود الغزير.

تـاهـت بـه إيـلـيـاءُ فـاخـرةً على دمشـق الشـآم أو حلبه
شـكـرًا لـبـانـيـه مـا أقـام بـه شبَّانه الـقـاطـنون فـي قُبَبه

دار الأيتام أو مدرسة شنلَّر في القدس

لدار شنلَّرٍ في القدس فضل — به تنسى تيتُّمها اليتامى
ويحمده من الفقراء طفل — يذمُّ لفقد والده الحِماما
بها يجد اليتيم له مقامًا — إذا ما الدهر أفقده المقاما
يرى عن أمه أمًّا عطوفًا — عليه وعن أبيه أبًا هماما
تميت نهارها فيه ليحيا — وتُحيي الليل فيه لكي يناما
فتُشرِب نفسه حبُّ المعالي — وتطعم جسمه منها الطعاما
وترأم كل مَنْ فجعوا بيتم — صغارًا قبل ما بلغوا الفطاما[1]
ويدخلها يتيم القوم طفلًا — فتخرجه لهم يفعًا غلاما
عليمًا بالحياة يسير فيها — على علم فيخترق الزحاما
وقد لبس الفضيلة وارتداها — وشدَّ عليه من حزْم حزاما

* * *

وقفت بها أعاطيها التحايا — وأستسقي لساكنها الغماما
وأشكر فضلها والشكر عجز — إذا هو لم يكن إلا كلاما
أدارَ شنلَّرٍ لا زلت مأوى — لأبناء الأرامل والأيامى
أثابك مالِكُ الملكوت عنهم — مثوبةَ كل مَنْ صلَّى وصاما

[1] رئمت الأم ولدها: شمته وعطفت عليه.

ضمِنت لهم رغيد العيش حتى أخذت على الزمان لهم ذماما
وجارَ الدهر معتديًا عليهم فكنت لهم من الدهر انتقاما
إذا ما أبكت الدنيا يتيمًا أعدت بكاءه منه ابتساما
لقد هوَّنت رزء اليتم حتى غفرنا للزمان بك الأثاما
وكاد إذا رأى مغناك راءٍ يودُّ بأن يكون من اليتامى
ليمكثَ فيكِ مغتبطًا سعيدًا ويكسب عندك الشرف الجساما[٢]
ويعلم كيف يدَّرع المعالي ويعرف كيف يبتدر المراما
وما فقد المسيحَ الناسُ لَمَّا أعدت لهم خلائقه الكراما
فنُبت عن المسيح وقمت حتى لقد شكر المسيحُ لك القياما
ولا عجب فقد جدَّدت منه عواطف كان عمَّ بها الأناما
شمخت على رُبا القدس اعتلاءً فكنت لهن من شرف وساما
ولحت بأفقها بدرًا منيرًا جلا من ليل أبؤسها الظلاما
ألا إنَّ النجومَ بشُعْرَييها لتحسد من مرابعك الرغاما[٣]
هززت الطور فهو يكاد يمشي إليك على تقدُّسه احتراما
وجاذبت الكرامة خير قبر به دفن المسيح ومنه قاما
تُباهي القدس مكة فيك حتى تفاخر فيك مشعرها الحراما
فلا برحت ربوعك عامرات نسلُّ على الشقاء بها حُساما

[٢] الشرف الجسام: الجسيم.

[٣] الشعريان: الشعرى العبور، والغميصاء؛ كوكبان مضيئان. والرغام: التراب.

الفقر والسقام

أيُّ مضنى يمدُّها باكتئابِ   أنَّة تترك الحشا في التهابِ
يتشكَّى والليل وحْفُ الإهابِ   ضمن بيت جثا على الأعقاب[1]
صفعته، فمال، كفُّ الخراب[2]
تسمع الأذن منه صوتًا حزينا   راجعًا في حشا الظلام كمينا
يملأ الليل بالدعاء أنينا   ربِّ كن لي على الحياة معينا
ربِّ إن الحياة أصل عذابي
وجَعٌ في مفاصلي دقَّ عظمي   ودهاني ولم يرقَّ لعُدمي[3]
عاقني عن تكسُّبي قوتَ يومي   ربِّ فارحم فقري بصحَّة جسمي
إن فقري أشد من أوصابي[4]
يا طبيبًا وأين مني الطبيبُ؟!   حال دون الطبيب فقر عصيب[5]
لا أصاب الفقيرَ داء مصيب   إن سقم الفقير شيءٌ عجيب

---

[1] الوحف: الشعر الكثير الأسود. الإهاب: الجلد، يصف شدة ظلام الليل. جثا على الأعقاب: يريد أنه قارب أن يتهدم.

[2] كف: فاعل صفعت.

[3] العدم: الفقر.

[4] الأوصاب: الأمراض.

[5] عصيب: شديد.

بطلت فيه حكمة الأسباب

* * *

رجلٌ معسرٌ يسمى بشيرا كان يسعى طول النهار أجيرا
كاسبًا قوته زهيدًا يسيرا مالكًا في المعاش قلبًا شكورا
راجيًا في المعاد حسن المآب[٦]

عالَ أختًا حكتهُ خُلقًا نزيها عانسًا جاوز الزواجُ سنيها[٧]
لزمت بيت أمها وأبيها معْ أخيها تعيش عند أَخيها
مثله في طعامه والشراب

كل يوم له ذهاب ومأتى في معاش من كدِّه يتأتى[٨]
هكذا دأبه مَصيفًا ومشتى فاعتراه داء المفاصل حتى
عاقه عن تعيُّشٍ واكتساب

بينما كان في قواه صحيحا ساعيًا في ارتزاقه مستميحا[٩]
إذ عراه الضنى فعاد طليحا ورمته يد السقام طريحا[١٠]
جسمه من سقامه في اضطراب

بات يبكي إذا له الليل آوى بعيون من السهاد نشاوى[١١]
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تتهاوى
كشهاب ينقضُّ إثر شهاب[١٢]

إنَّ سقمًا به وعُقمًا أَلَمَّا تركاه يذوب يومًا فيوما
فهو حينًا يشكو إلى القسم عُدْما وهو يشكو حينًا إلى العدم سقما

---

[٦] أي أن ذلك المضنى الذي مرَّ ذكره في أول القصيدة هو رجل معسر ... إلخ.

[٧] عال أختًا: كفلها وكفاها معاشها. العانس: هي التي طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

[٨] يتأتى: يتهيأ.

[٩] مستميحًا: طالبًا.

[١٠] الطليح: المهزول.

[١١] نشاوى: سكارى، جمع نشوان.

[١٢] الشهاب: هو ما يُرَى كأنه كوكب قد سقط.

باكيًا من كليهما بانتحاب

ظل يشكو للأخت ضعفًا وعجزا   إذ تعزيه وهو لا يتعزَّى

أيها الأخت عزَّ صبريَ عزَّا   إن للداء في المفاصل وخزا[13]

مثل طعن القنا ووخز الحراب[14]

قد تمادى به السقام وطالا   وتراءى له الشفاء محالا

إذْ قُلابًا به السقام استحالا   كان هَينًا فصار داء عضالا[15]

ناشبًا في الفؤاد كالنُّشاب[16]

* * *

ظلَّ ملقًى وأعوزته المطاعم   موثَّقًا من سقامِهِ بالأداهم[17]

منفقًا عند ذاك بعض دراهم   ربحتها من غزلها الأخت فاطم

قبل أن يُبْتَلى بهذا المصاب

قال والأخت أخبرته بأن قد   كرَبت عندها الدراهم تنفَدْ:[18]

أخبري السُّقم علَّهُ يتبعَّدْ   أيها السقم خلِّ عيشي المنكدْ

لا تُعقني في عيشتي عن طلابي

مرِّضيني شقيقتي مرِّضيني   وعلى الكسب في غدٍ حرِّضيني

وإذا مسَّك الطَّوى فارفضيني   أو على الناس للمبيعِ اعرضيني[19]

علَّهم يشترونني مما بي

رام خبزًا والجوع أذكى الأوارا   في حشاه فعلَّلتهُ انتظارا

ثم جاءت بالماء تُبدي اعتذارا   وهل الماءُ، وهو يطفئُ نارا

[13] الوخز: الطعن غير النافذ برمح أو إبرة أو غير ذلك.

[14] القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

[15] القلاب: داء القلب، داء عضال: شديد متعب غالب.

[16] ناشبًا: عالقًا.

[17] أعوزته المطاعم: احتاج إليها فلم يقدر عليها. موثقًا: مقيدًا. الأداهم: القيود.

[18] كربت: كادت.

[19] الطوى: الجوع.

يطفئُ الجوع ذاكيًا في التهابِ؟!

خـرجـتْ فـاطـمٌ إلـى جـارتـيـهـا   وهي تُذري الدموع من مقلتيها

فـأبـانـت بـرقَّـةٍ حـالـتـيـهـا   من سَقامٍ ومن سُعارٍ لديها[٢٠]

وشكت بعد ذا خلوَّ الوِطاب[٢١]

فـانـثـنـت وهـي بـيـن ذلٍّ وعـزٍّ   تحمل التمر في يدٍ فوق خبْزِ[٢٢]

وبـأخـرى سـمـنًـا وبـعـض أرُزٍّ   منحوها به وذو العرش يجزي

مَنْ أعان الفقير حسن الثواب

* * *

لـيـلـة تـنـشـر الـعـواطـفُ ذُعـرا   في دجاها حيث السحاب اكفهرا[٢٣]

ذا هـزيـمٌ يـمـجُّ فـي الأذن وُقـرا   حين تبدي صوالج البرق تترى[٢٤]

كهربائيَّة سرت في السحاب

مدَّ فـيـهـا ذاك الـمـريـض الأكـفَّـا   في فِراش به على الموت أوفى[٢٥]

طرفـهـا كـالسُّـهـا يَبين ويَـخـفـى   حيث يُغضي طرفًا ويفتح طرفا[٢٦]

عـاجـزًا عـن تـكـلـم وخـطـاب

فدعته والـعـيـن تُذري الدموعا   أخـتـه وهـي قـلـبـهـا قـد ريـعـا

يـا أخـي أنـت سـاكـن أَفَـجُـوعَـا؟   ساكت أنت يا أخي أم هجوعا؟[٢٧]

---

[٢٠] السعار بضم السين: شدة الجوع.

[٢١] الوطاب: جمع وطب، وهو سقاء اللبن من الجلد، وخلو الوطاب كناية عن الفقر والحاجة.

[٢٢] انثنت: رجعت.

[٢٣] ذعرًا: خوفًا. اكفهر: تراكم واشتدت ظلمته.

[٢٤] الهزيم: الرعد وصوته. يمج: يلقي. الوقر: الصمم. صوالج: صولجان وهو ما تضرب به الأكرة، وصوالج البرق: هي الرياح التي تسوق السحب بشدة، فيحصل منه الاحتكاك الذي يولد البرق، فإن كان الاحتكاك أعظم حصل مع البرق صوت الرعد.

[٢٥] أوفى: أشرف.

[٢٦] السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته، يغضي: يغمض.

[٢٧] الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة، وجوعًا: مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله من ساكت، وأصل العبارة: أفأنت ساكت جوعًا أم أنت ساكت هجوعًا؛ أي نومًا؟

فاشفني يا أخي برجع الجواب

فـرأت مـنـه أنَّـه لا يـجـيـبُ فتدانت والدمع منها صبيبُ

ثم أصغت وفي الفؤاد وجيبُ ثم هابت والموت شيء مهيبُ[٢٨]

ثـم قـامـت بـخـشـيـة وارتـيـاب

خرجت فاطمٌ من البيت ليلا حيث أرخى الظلام سِدلًا فسدلا[٢٩]

وهي تبكي والغيث يهطُل هطلا مثل دمع من مقلتيها استهلا

أو كـمـاءٍ جـرَى مـن الـمـيـزاب

ربِّ أدرك باللطف منك شقيقي وامنع الغيث ربِّ عن تعويقي

ومُرِ البرق أن يضيءَ طريقي ببريقٍ يبديه إثرَ بريق

فعسى أهتدي به في ذهابي

قرعت في الظلام باب الجار وهي تبكي الأسى بدمعٍ جار

ثـم نـادت بـرقَّـةٍ وانـكـسـار أمَّ سـلـمـى ألا بـحـقِّ الـجـوار

فافتحي إنني أنا في الباب

فأتتها سُعْدَى وقد عرفتها وعن الخطب في الدُّجى سألتها[٣٠]

ثم سارت من بعد ما أعلمتها تقتفيها وبنتها تبعتها

فتخطين في الدجى بانسياب[٣١]

جئن والسُّحْب أقلعت عن حياها وكذاك الرعود قلَّ رغاها[٣٢]

حيث يأتي شبهَ الأنين صداها غير أن البروق كان ضياها

مومِضًا في السماء بين الرباب[٣٣]

فدخلن المحلَّ وهو مخيف حيث إنَّ السكوت فيه كثيف[٣٤]

---

[٢٨] الوجيب: الخفقان والرجفان.

[٢٩] السدل: الستر.

[٣٠] الخطب: الأمر.

[٣١] الانسياب: الإسراع في المشي.

[٣٢] الحيا: المطر. الرغاء: صوت الرعد.

[٣٣] الرباب بفتح الراء: السحاب الأبيض الذي أراق ماءه.

[٣٤] شبه كثرة السكون بجيش كثيف أو عظيم.

وضـيـاءُ الـسـراج نـزر ضـعـيـف   وبه في الفراش شخص نحيف
دبَّ منه الحِمام في الأعصاب[٣٥]

قالت الأخت أم سلمى: انظريهِ   ثـكـلـت روح أمـه وأبـيـه[٣٦]
فـرأت مـنـه إذ دنـت نـحـو فـيـه   نَـفـسًـا مـبـطـئ الـتـردد فـيـه
ثم قد غاله الردى باقتضاب[٣٧]

وَجـمـت حـيـرة وبـعـد قـلـيـل   رمقت فاطمًا بطرفٍ كليل[٣٨]
فيه حَمْلٌ على العزاء الجميل   فَعَـلا صوت فـاطـمٍ بـالـعـويـل
وبـكـت طـول لـيـلـهـا بـانـتـحـاب

فاستمرَّت حتى الصباح تُوالي   زفـرات بـنـارهـا الـقـلـب صـالِ[٣٩]
فـأتـاهـا ودمـعـهـا فـي انـهـمـال   بعض جاراتها وبعض رجال
من صعاليك أهل ذاك الجناب[٤٠]

وقـفـوا مـوقـفًـا بـه الـفـقـر ألـقـى   منه ثِقلًا به المعيشة تشقى
فـرأوا دمـع فـاطـمٍ لـيـس يـرقـا   وأخوها ميْت على الأرض ملقى[٤١]
مُـدْرَج فـي رثـائـث الأثـواب[٤٢]

فـغـدت فـاطـمٌ تـرَنُّ رنـيـنـا   بـبـكـاء أبـكـت بـه الـواقـفـيـنـا
ثـم قـالـت لـهـم مـقـالًا حـزيـنًـا   أيـهـا الـواقـفـون هـل تـرحـمـونـا
من مُصابٍ دها وأي مصاب؟!

أيـهـا الـواقـفـون لا تـهـمـلـوه   دونكم أدمعي بها فاغسلوه
ثـم بـالـثـوب ضـافـيًـا كـفـنـوه   وادفـنـوه لـكـن بـقـلـبـي ادفـنـوه

---

[٣٥] الحمام: الموت.

[٣٦] ثكلته أمه: فقدته.

[٣٧] غاله: أهلكه. الاقتضاب: الاقتطاع والانتزاع.

[٣٨] وجمت: سكتت من كثرة الغم والحزن.

[٣٩] صال: محترق.

[٤٠] الصعاليك: الفقراء، مفردها صعلوك. الجناب: هو المكان القريب من محلة النوم.

[٤١] ليس يرقا: لا يجف، وأصله يرقأ بالهمز فخفف.

[٤٢] مدرج: مكفن. ورثائث الأثواب: البالي منها.

لا تـواروا جـبـيـنـه بـالـتـراب

بـعـد أن ظـلَّ لافـتـقـاد الـمـال وهـو مُـلـقـى إلـى أوان الـزوال

جـاد شـخـص عليـه بعـد سؤال بـرِيـال وزاد نـصـفَ رِيـال

رجـل حـاضـر مـن الأنـجـاب[٤٣]

كفنوه من بعد ما تمَّ غُسلا وتمشوا به إلى القبر حملا

فـتـرى نـعـشـهُ غـداة اسـتـقـلَّا نعش مَنْ كان في الحياة مقلَّا[٤٤]

دون سِـتـر مـكـسَّـر الأجـنـاب

ناحت الأخت حين سار وصاحت أختك اليوم لو قضت لاستراحت

ثم سارت مدهوشةً ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت[٤٥]

تـسـكـب الـدمـع أيـمـا تَـسْـكـاب

أيُّـهـا الـحـامـلـوه لا مـشْـيَ رَكْـضِ إن هـذا يـوم الـفـراق الْـمُـمِـضِّ[٤٦]

فاسألوه عن قصده أين يمضي إنه قد قضى ولم يك يقضي

واجباتِ الصبا وشرخ الشباب[٤٧]

إن قلبي على كريم السجايا طاح واللَّهِ من أساه شظايا[٤٨]

قاتل اللَّه يا ابن أمِّي المنايا أنا من قبلُ مُذْ حسبت الرزايا

لم يكن رزءُ موتكم في حسابي

إن لـيـلـي ولـيـس مـن راقـديـهِ كـلـمـا جـاءنـي وذكَّـرنـيـه[٤٩]

قـلـت والـدمـع قـائِـلٌ لـيَ: إيـهِ! يـا فـقـيـدًا أعـاتـب الـمـوت فـيـه[٥٠]

---

[٤٣] الأنجاب: جمع نجب، وهو السخي الكريم.

[٤٤] استقل: ارتفع. مقلًّا: فقيرًا.

[٤٥] طاحت: سقطت.

[٤٦] الممض: الموجع المؤلم.

[٤٧] شرخ الشباب: أوله.

[٤٨] طاح: معناها هنا ذهب. من أساه: من حزنه. شظايا: قطعًا، وهو جمع شظية، وتطلق على كل فلقة من شيء.

[٤٩] راقديه: النائمين فيه.

[٥٠] إيه: كلمة يطلب بها استزادة الحديث.

ببكائي وهل يفيد عتابي؟!

رحتُ يومًا وقد مضت سنتان أتمشَّى بشارع «الْمَيْدان»

مَشْيَ حيرانَ خطوُه مُتدَانِ أثقلتهُ الحياة بالأحزان[٥١]

وسقته كأسًا كطعم الصاب[٥٢]

بينما كنت هكذا أتمشَّى عرضتْ نظرة فأبصرتْ نعشا

باديًا للعيون غير مغشَّى نقش الفقر فيه للحزن نقشا

فبدا لوح أبؤسٍ واكتئاب

قلتُ سرًّا، والنعش يقرب مني: أيها النعش أنت أنعشتَ حزني

للأسى فيك حالة ناسبتني إن بدا اليوم فيك حزن فإنِّي

أنا للحزن دائمًا ذو انتساب

رحت أَسعى وراءَه مذ تعدَّى مسرعًا في خطايَ لم آلُ جهدا[٥٣]

معْ رجالٍ كأنجم النعش عدًّا هم به سائرون سيرًا مجدًّا[٥٤]

فنراه يمر مرَّ السحابِ

مذ لَحَدْنَا ذاك الدفين وعدنا قلت، والدمع بلَّ مِنِّي رُدنا:[٥٥]

إن هذا هو الذي قد وعدنا فأبينوا مَن الذي قد لحدنا

فتصدَّى منهم فتى لجوابي

قال: إن الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقير

بقيت بعده بعيش عسير وبطرف باكٍ وقلب كسير

وقضت مثله بداءِ القُلاب

قلت: أقْصِرْ عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي

ثم ناجيت والضراعة ثوبي ربِّ رحماك ربِّ رحماك ربي[٥٦]

---

[٥١] متدانٍ: متقارب.

[٥٢] الصاب: شجر مر.

[٥٣] تعدى: تجاوز.

[٥٤] أي: عدد حاملي النعش كعدد أنجم بنات نعش، وهي سبعة.

[٥٥] الردن بضم الراء: أصل الكم.

[٥٦] الضراعة ثوبي: أي وأنا لابس ثوب الضراعة.

ربِّ رشدًا إلى طريق الصواب

ربِّ إن العباد أضعف أن لا يجدوا منك ربِّ عفوًا وفضلا
فاعْفُ عن أخذهم وإن كان عدلا أنت يا ربِّ أنت بالعفو أولى
منك بالأخذ والجزا والعقاب

قد وردنا والأرض للعيش حوضُ واحد كلنا لنا فيه خوض
فلماذا به مشوب ومحضُ؟ عِظَةٌ حكمة الإله، فبعض[٥٧]
في نعيم وبعضنا في عذاب

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نِعمَ اللَّه حيث ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعًا ونمتم بهناءٍ من بعد ما قد طعمتم
من طعامٍ منوَّع وشراب

كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه!
وبخلتم منها بحق الإلهِ أيها الموسرون بعض انتباه!
أفتدرون أنَّكم في تباب؟![٥٨]

---

[٥٧] مشوب: مخلوط. محض: خالص من الكدورة.

[٥٨] التباب: الخسران.

تنبيه النيام

أما آن أن يغشى البلاد سعودها ويذهب عن هذي النيام هجودُها؟
متى يتأتَّى في القلوب انتباهها فينجابَ عنها رَيْنها وجمودُها؟[١]
أما أسدٌ يحمي البلادَ غضنفرٌ؟ فقد عاث فيها بالمظالم سِيدُها[٢]
برئتُ إلى الأحرار من شرِّ أمَّةٍ أسيرة حكام ثقال قيودها
سقى اللَّه أرضًا أمحلت من أمانها وقد كان رُوَّاد الأمان ترودها[٣]
جرى الجور منها في بلادٍ وسيعة فضاقت على الأحرار ذَرعًا حدودها

* * *

عجبتُ لقومٍ يخضعون لدولةٍ يسوسهمْ بالموبقات عميدُها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها
إذا وُليَت أمرَ العباد طغاتها وساد على القوم السراة مَسودها
وأصبح حرُّ النفس في كل وجهةٍ يُردُّ مهانًا عن سبيل يريدها
وصارت لئام الناس تعْلو كرامها وعاب لبيدًا في النشيد بليدُها[٤]

[١] الرين: ما غطى على القلب بحيث يحجب عنه رؤية الحقيقة.

[٢] عاث فيها: أفسدها. السيد الذئب.

[٣] الرواد: جمع رائد، وهو الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكانًا ينزلون فيه، يقال منه: راد المكان يروده، يرتاده؛ بمعنى طلبه.

[٤] لبيد: عَلَمُ الشاعر المشهور.

فمـا أنـت إلا أيُّـهـا الـمـوت نـعـمـةٌ يعزُّ علـى أهـل الـحـفـاظ جـحـودهـا[٥]

* * *

ألا إنـمـا حـرِّيـة الـعـيـش غـادة مُنـى كل نـفـسٍ وصلُـهـا ووفـودُهـا
يُضـيء دجنَّاتِ الـحـيـاة جـبـيـنـهـا وتبدو المعالي حيث أتلع جيدها[٦]
لـقـد واصـلـت قـومًـا وخـلـت وراءهـا أنـاسًـا تـمـنَّـى الـمـوت لـولا وعـودهـا
وقد مرضت أرواحنا في انتظارها فما ضرَّهـا، وا لـهـفـتـا! لـو تـعـودهـا[٧]

* * *

بنـي وطنـي مـا لـي أراكـم صَـبـرْتـمُ على نُوَبٍ أعيا الـحُـصـاةَ عـديـدُهـا؟!
أمـا آدكـم حـمـل الـهـوان فـإنَّـه إذا حُـمِّـلـتـه الـراسـيـاتُ يـئـودهـا؟![٨]
قعدتم عن السعي المؤدِّي إلى العلا على حين يُزري بالرجال قعودها
ولـم تـأخـذوا لـلأمـر يـومًـا عـتـادَه فجاءت أمورٌ ساءَ فيكم عتيدها[٩]
ألـم تَـرَوُا الأقـوامَ بـالـسـعـي خـلَّـدت مـآثـر يـسـتـقـصـي الـزمـانَ خـلـودهـا
وسـاروا كـرامًـا رافـلـيـن إلـى الـعـلا بـأثـواب عـزٍّ لـيـس يـبـلـى جـديـدهـا

* * *

قد استحوذتْ، يا للخسار! عليكمُ شياطينُ إنس صال منكم مَريدها[١٠]

---

[٥] أهل الحفاظ: المحامون عن عوراتهم، والمدافعون دون أن يصل إليهم الضيم.

[٦] أتلع عنقه: مده متطاولًا.

[٧] تعودها: تزورها من عيادة المريض.

[٨] آدكم: أثقلكم. يئودها: يثقلها.

[٩] العتاد: العدة لأمر ما تهيئه وما أعد من سلاح ودواب وآلة حرب. العتيد: الحاضر المهيأ، يقول: لم تستعدوا للرقي فيما مضى، فجاءكم يوم ساءكم فيه حاضركم، ويعني بالحاضر ما كانت تقاسيه الأمة من جور الحكام واستبداد الطغاة، وهو يصلح لحالتنا الحاضرة أيضًا، ويكون حاضرنا السابق ماضيًا، وحريتنا الآن حاضر لنا، فإنها جاءتنا على غير استعداد منا لها بما أفسده الظالمون من نفوسنا فأسأنا استعمالها ولم نحسن فهمها بسبب ما يوحيه المتقهقرون إلى زعانف القوم وما يبثونه في نفوسهم من الشرور، تارة باسم الوطنية، أصلح الله الأحوال وجعل كيد الرجعيين في ضلال.

[١٠] المريد: الخبيث المتمرد الشرير.

وما اتَّقدت نار الحميَّة منكمُ ... لفقد اتحادٍ فاستطال خمودها[١١]
ولولا اتحاد العنصرين لمَا غدا ... من النار يذكو لو علمتم وقودها
إذا جاهلٌ منكم مشى نحو سُبَّةٍ ... مشى جمعكم من غير قصدٍ يريدها[١٢]
كأنَّكم المعْزَى تهاوَينَ عندما ... نزا فنزتْ فوق الجبال عتودها[١٣]
وما ثَلَّةٌ قد أهملتها رُعاتها ... بمأسدةٍ جاءت لعشر أسودها[١٤]
فباتت ولا راعٍ يحامي مراحها ... فرائسَ بين الضاريات تبيدها
بأضيعَ منكم حيث لا ذو شهامة ... يذبُّ الرزايا عنكمُ ويذودها[١٥]

* * *

أتطمع هذي الناس أن تبلغ المنى ... ولم تورِ في يوم الصدام زنودها[١٦]
فهل لمعتْ في الجو شعلة بارق ... وما ارتجست بين الغيوم رعودها؟[١٧]
وأدخنة النيران لولا اشتعالها ... لما تمَّ في هذا الفضاء صعودها
وإنَّ مياه الأرض تعذب ما جرت ... ويفسدها فوق الصعيد ركودها
وَمَنْ رام في سوق المعالي تجارةً ... فليس سوى بيض المساعي نقودها

[١١] أي إن نار حميتكم لم تتَّقد لأنكم لم تتحدوا، فإن اشتعال النار لا يكون إلا باتحاد العنصرين: الأكسجين والكربون.

[١٢] السبة: العار.

[١٣] نزا: وثب. العتود: الجدي الذي استكرش، أو هو ما رعى وقوي وأتى عليه حول؛ يريد بذلك أنه إذا قام قائم منا بأمر نتابعه عليه من غير أن نعلم ما هو ولا أن ندري أكانت عاقبته شرًّا أم خيرًا؟

[١٤] الثلة بفتح الثاء: الجماعة الكثيرة من الغنم، وأما الثلة بضم الثاء: فهي الجماعة من الناس. المأسدة: المكان الذي تكثر أو ترى فيه الأسود.

[١٥] يذب: يدفع، ومثله يذود.

[١٦] أورى الزند: أخرج ناره، والزند: العود الذي يقتدح به النار، والأسفل يقال له: زنده.

[١٧] ارتجست السماء: رعدت، وارتجس البناء: رجف وتحرك حركة سمع لها صوت.

سوء المنقلب

بـغـدادُ حـسـبـك رقـدةٌ وسُـبـاتُ أَوَمَـا تـمُـضُّـك هـذه الـنـكـبـاتُ؟![1]

وَلعتْ بك الأحداث حتى أصبحت أدواء خـطـبـك مـا لـهـنَّ أسـاةُ[2]

قلـبَ الـزمـانُ إلـيك ظـهـر مـجـنَّـهِ أفـكـان عـنـدك لـلـزمـان تِـراتُ؟![3]

ومـن الـعـجـائب أن يمسَّـك ضـره من حيث ينفع لو رعتك رعاة[4]

إذ مـن ديـالـةَ والـفـرات ودجـلـةٍ أمـسـت تـحـلُّ بـأهـلـك الـكـربـات

إن الـحـيـاة لـفـي ثـلاثـة أنـهـر تـجـري وأرضـك حـولـهـنَّ مـوات

قد ضلَّ أهلك رشدهم وهل اهتدى قـومٌ أجـاهـلُـهـم هـم الـسَّـروَات؟![5]

قـومٌ أضـاعـوا مـجـدهـم وتـفـرَّقـوا فـتـراهـمُ جـمـعًـا وهـم أشـتـات

لقد استهانوا العيش حتى أهملوا سـعـيًـا مـغـبَّـةُ تـركـه الإعـنـات[6]

يا صـابرين على الأمور تسومهم خسـفًـا عـلـى حـين الـرجـالُ أبـاةُ[7]

---

[1] السبات: النوم. تمضك: توجعك.

[2] الأحداث: النوازل. أدواء: جمع داء. أساة: أطباء.

[3] المجن: الترس، وقلب له ظهر المجن: أي صارحه بالعدواة، ترات: عداوات، وهي جمع ترة.

[4] رعاة: جمع راع.

[5] السروات: السادة والرؤساء.

[6] المغبة: العاقبة. الإعنات: الإذلال والإيقاع في الشدة وفي أمر يخاف منه.

[7] سامه الخسف: أذله وأهانه. أباة: لا يرضون الضيم والإهانة.

لا تهملوا الضرر اليسير فإنه | إن دام ضاقت دونه الفلوات[8]
فالنار تلهب من سقوط شرارةٍ | والماء تجمع سيله القطرات
لا تستنيموا للزمان توكلًا | فالدهر نزَّاءٌ له وثَبات[9]
فإلى متى تستهلكون حياتكم | فوضى وفيكم غفلةٌ وأناة[10]
تاللَّه إن فعالكم بخلافه | نزل الكتاب وجاءَت الآيات[11]
أفتزعمون بأن تَرْكَ السعي في | هذي الحياة توكلٌ وتُقاة؟![12]
إن صحَّ نقلكمُ بذاك فبيِّنوا | أو قام عندكم الدليل فهاتوا
لم تلقَ عندكمُ الحياةُ كرامةً | في حالةٍ فكأنكم أموات
شقيت بكم لَمَّا شقيتم أرضُكم | فلها بكم ولكم بها غمرات[13]
وجهلتُم النهج السويَّ إلى العلا | فترادفت منكم بها العثرات
بالعلم تنتظم البلاد فإنه | لرقيِّ كل مدينة مرقاةُ
إن البلاد إذا تخاذل أهلها | كانت منافعها هي الآفات
تلك الرُّصافة والمياه تحفُّها | والكرخ قد ماجت به الأزمات
سالت مياه الواديين جوارفًا | فطفحن والأسداد مؤتكلات[14]
فتهاجَم الماءانِ من ضفَتَيْهما | فتناطحا وتوالت الهجمات
حتَى إذا اتَّصلَ الفرات بدجلةٍ | وتساوت الوهَدات والربوات
زحفت جيوش السيل حتى أصبحت | بالكرخ نازلة لها ضوضاةُ
فسقت بيوت الكرخ شرَّ مُقيِّئٍ | منها فقاءت أهلَها الأبيات[15]

---

[8] الفلوات: الأراضي المتسعة.

[9] نزاء: وثاب.

[10] الأناة: الحلم.

[11] الفعال: بفتح الفاء، بمعنى الفعل.

[12] التقاة: التقوى.

[13] الغمرات: الشدائد.

[14] الأسداد: جمع سد. مؤتكلات: آكل بعضها بعضًا.

[15] شبه الماء الداخل إلى البيوت بما يشربه الإنسان من المقيئات، فكما يخرج الإنسان ما في جوفه بعد شرب المقيء، فكذلك البيوت أخرجت ما فيها من السكان بعد دخول الماء.

واستنقعت فيها المياه فطحلبت ... بالمكث ترغو تحتها الحمآت[١٦]
حتى استحال الكرخ مشهدَ أبؤسٍ ... تبكي به الفتيان والفتيات
طرقاتُه مسدودةٌ وديارهُ ... مهدومةٌ وعِراصه قذرات
يا كرخُ عزَّ على المروءَة أنَّه ... لجَج المياه عليك مزدحمات
فلئن أماتتكِ السيول فإنما ... أمواجهنَّ عليك ملتطماتُ

* * *

من مبلغُ المنصور عن بغداده ... خبرًا تفيض لمثلِهِ العبراتُ
أمست تناديه وتندب أربُعًا ... طمست رسوم جمالها الهبوات
وتقول: يا لأبي الخلائف لو ترى ... أركان مجدي وهي منهدمات![١٧]
لغدوت تنكرني وتبرح قائلًا ... بتعجُّبٍ: ما هذه الخَربات؟!
أين البروج بنيتهنَّ مشيدةً ... أين القصور علت بها الشرفات؟!
أين الجنان بحيث تجري تحتها الـ ... أنهارُ يانعة بها الثمرات؟!
أترى أبو الأمناء يعلم بعده ... بغداد كيف تروعها النكبات؟
لا دجلةٌ يا للرزيَّة دجلةٌ ... بعد الرشيد ولا الفرات فرات
كان الفرات يمدُّ دجلةَ ماؤه ... بجداولٍ تُسقى بها الجنات
إذ بين دجلة والفرات مصانع ... تفترُّ عن شنبٍ بها السنوات[١٨]
يا نهر عيسى أين منك مواردٌ ... عذبت وأين رياضك الخضلات؟[١٩]
ماذا دهى نهر الرفيل من البلى ... حيث المجاري منه مندرسات؟![٢٠]
إذ قصر عيسى كان عند مصبِّه ... وعليه منه أطلَّت الغُرفات[٢١]

---

[١٦] طحلبت: علاها الطحلب وهي خضرة تعلو الماء المزمن. الحمآت: جمع حمأة وهي الطين الأسود؛ أراد بها جثث الذين لم يستطيعوا الخروج من البيوت.

[١٧] يا لأبي الخلائف: هو نداء استغاثة.

[١٨] المراد بالشنب هنا: الخصب، والري والشنب في الأصل: هو الماء والرقة والبرد والعذوبة في الأسنان، ويقول: افتر المحبوب: بمعنى ضحك، وافتر عن أسنان كالبرد.

[١٩] الخضلات: المرتوية.

[٢٠] الرفيل: نهر يصب في دجلة بغداد.

[٢١] قصر عيسى: هو قصر عظيم في بغداد وكان مبنيًّا على شاطئ نهر الرفيل.

أم أين بركة زُلزل وزُلالها السلــ ــسال تسرح حوله الظبيات[٢٢]
يا نهرَ طابقَ لا عدمتك منهلًا أين الصَّراة تحفُّها الرَّوضات؟[٢٣]
أم أين كرخايا تمدُّ مياهه نهر الدجاج فتكثر الغلات؟
أم أين نهر الملك حين تسلسلت فيه المياه وهنَّ مطَّردات؟
قد كان تزدرع الحبوب بأرضه فتسحُّ فيه بفيضها البركات
أم أين نهر بطاطيا تأتيه من نهر الدجيل مياهه المجراة؟
وله فروع أصلهنَّ لشارع الــ ــكبش المجاري منه منتهيات
تنمو الزروع بِسقيه فغلاله كل العراق ببعضها يقتات
لهفي على نهر المُعلَّى إذ غدت لا تستبين جنانه النضرات
نهر هو الفردوس تدخل منه في قصر الخلافة شعبة وقناة
كالسيف مُنْصلتًا تضاحك وجههُ الــ أنوارُ وهْيَ عليه ملتمعات
إذْ نَهْر بِينٍ عند كلواذي به مُلد الغصون تهزُّها النسمات[٢٤]
وبقربه من نهر بُوقٍ دارة تنفي الهموم مروجها الخضرات
يا قصر باب التبر كنت مقرِّنًا والنفي يصدر منك والإثبات[٢٥]
أَيَّام تطلعك العدالة شمسها وترِفُّ فوقك للهدى رايات
أيام تبصرك الحضارة في العلا بدرًا عليك من الثنا هالات
أيام تنشدك العلوم نشيدها فتعود منك على العلومِ صلات
أيام تقصدك الأفاضل بالرجا فتفيض منك لهم جدًا وهِبات[٢٦]
أيام يأتيك الشكِيُّ بأمرِهِ فيروح عنك وما لديه شكاة
تمضي الشهور عليك وهي أنيسة وتمرُّ باسمةً بك الساعات

---

[٢٢] بركة زلزل: بركة في بغداد كان قد بناها رجل يقال له: زلزل، وكان مشهورًا بضرب العود حتى ضُرِبَ به المثل، وكان في أيام المهدي والهادي والرشيد.
[٢٣] نهر طابق: في بغداد يصب في نهر عيسى. الصراة: نهر على فرسخ من بغداد يأخذ من نهر عيسى.
[٢٤] نهر بين: نهر بالعراق. كلواذي: قرية قرب بغداد. ملد: جمع أملد، وغصن أملد: ناعم.
[٢٥] لعله باب التبن بالنون: وهي محلة كبيرة كانت ببغداد على الخندق.
[٢٦] الجدا: العطية.

ماذا دهاك من الهوان فأصبحت آثار عزك وهي منطمسات؟!
قد ضيَّعت بغداد سابق عزِّها وغدت تجيش بصدرها الحسرات
كم قد سقاها السيل من أنهارها ضرًّا وهنَّ منافع وحياة!
واليوم قلت: بجانبيها أرخوا دفق السيول، فماجت الأزمات

العادات

كلُّ ابن آدم مقهور بعادات لهنَّ ينقاد في كل الإرادات
يجري عليهن فيما يبتغيه ولا ينفكُّ عنهنَّ حتى في الملذات
قد يستلذ الفتى ما اعتاد من ضرر حتى يرى في تعاطيه المسرات
عادات كل امرئٍ تأبى عليه بأن تكون حاجاته إلا كثيرات
إني لفي أَسر حاجاتي ومن عجبٍ تعوُّدي ما به تزداد حاجاتي
كل الحياة افتقارٌ لا يفارقها حتى تنال غناها بالمنيات
لو لم تكن هذه العادات قاهرة لما أسيغت بحالٍ بنت حانات
ولا رأيت سيكارات يدخِّنها قوم بوقت انفرادٍ واجتماعات
إن الدخان لثانٍ في البلاءِ إذا ما عُدَّت الخمر أولى في البليَّات

* * *

وربَّ بيضاءَ قيدِ الأصبع احترقت في الكف وهي احتراقٌ في الحشاشات[1]
إنْ مرَّ بين شِفاه القوم أسودُها ألقى اصفرارًا على بيض الثنيَّات[2]
وليتها كان هذا حظُّ شاربها بل قد تفتُّ بفكيه المرارات

[1] أراد بالبيضاء: اللفافة من التبغ. وقيد الأصبع أي: مقداره.

[2] الشفاه: جمع شفة، الثنيات والثنايا: هي أربع أسنان في مقدم الفم، اثنتان من فوق واثنتان من أسفل، ومفردها ثنية.

عوائد عمَّت الدنيا مصائبُها ... وإنما أنا في تلك المصيبات
إن كلَّفتني السكارى شرب خمرتهم ... شربت لكن دخانًا من سيكاراتي
واخترت أهون شرٍّ بالدخان وإن ... أحرقت ثوبيَ منه بالشرارات
قلت: يا قوم تكفيكم مشاركتي ... إياكمُ في التذاذٍ بالْمُضِرَّات
إنِّي لأمتصُّ جمرًا لفَّ في ورقٍ ... إذ تشربون لهيبًا ملءَ كاسات
كلاهما حُمُقٌ يفترُّ عن ضررٍ ... يَسُمُّ من دمنا تلك الكريَّات
حسبي من الحُمُق المعتاد أهونهُ ... إن كان لا بدَّ من هذي الحماقات
يا مَنْ يدخِّن مثلي كلَّ آونةٍ ... لُمْني ألُمْكَ ولا ترضَ اعتذاراتي
إن العوائد كالأغلال تجمعنا ... على قلوبٍ لنا منهنَّ أشتات
مقيَّدين بها نمشي على حذرٍ ... من العيون فنأتي بالمداجاة
قد نُنكر الفعلَ لم تألفهُ عادتنا ... وإن علمناه من بعض المباحات
وربَّ شنعاءَ من عاداتنا حسُنت ... في زعمها وهي من أجلى الشناعات
عناكبُ الجهل كم ألقت بأدمغة ... من الأنام نسيجًا من خرافات!
فحرَّموا وأحلُّوا حسب عادتهم ... وشوَّهوا وجه أحكام الديانات
حتى تراهم يرون العلم منقصة ... عند النساءِ وإن كنَّ العفيفات
وحجَّبوهنَّ خوف العار، ليتهمُ ... خافوا عليهنَّ من عار الجهَالات
لم تحصِ سيئةَ العادات مقدرتي ... مهما تفنَّنتُ منها في عباراتي
فكم لها بدَعٌ سودٌ قد اصطدمتْ ... في الناس منهن آفاتٌ بآفات!
لو لم يكُ الدهرُ سُوقًا راج باطلُها ... ما راجت الخمر في سوق التجارات
ولا استمرَّ دخانُ التَّبغ منتشرًا ... بين الورى وهو مطلوبٌ كأقوات
لو استطعْتُ جعلتُ التبغ محتكرًا ... فوق احتقارٍ له أضعافَ مرات
وزدتُ أضعافَ أضعافٍ ضريبته ... حتى يبيعوه قيراطًا ببدرات[3]
فيستريح فقير القوم منه ولا ... يبلى به غيرُ مثرٍ ذي سفاهات

* * *

[3] البدرات: جمع بدرة، وهي عشرة آلاف درهم.

الحُرُّ مَن خرقَ العادات منتهجًا   نهج الصواب ولو ضدَّ الجماعات
وَمَنْ إذا خذل الناسُ الحقيقة عن   جهلٍ أقام لها في النَّاس رايات
ولم يخفْ في اتِّباع الحق لائمة   ولو أتتهُ بحدِّ المشْرفيَّات[٤]
وعاملَ الناس بالإنصاف مدرعًا   ثوب الأخوَّة من نسج المساواة
أَغْبى البريةِ أرفاهم لعادته   وأعقل الناس خَرَّاقٌ لعادات[٥]

---

[٤] المشرفيات: السيوف.

[٥] أرفاهم: اسم تفضيل من قولهم: رفأ الثوب.

بعد الدستور

سقوط كامل باشا

سقتنا المعالي من سُلافتها صِرفا ... وغنَّت لنا الدنيا تهنِّئنا عَزْفا[1]
وزفَّت لنا الدستور أَحرارُ جيشنا ... فأهلًا بما زفت وشكرًا لِمَنْ زفَّا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرًا ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ورحنا نَشاوَى العزِّ يهتف بعضنا ... ببعضٍ هتافًا يصعق الظلم والحيفا
ولاحت لنا حُرِّيةُ العيش عندما ... أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا
أتَتْ عاطلًا لا يعرف الحلي جيدُها ... ولا كحلت عينًا ولا خضَبت كفًّا
فجاءت بمطبوعٍ من الحسْنِ قد قضى ... على الشِّعر أن لا يستطيع له وصفا
فلم نرضَ غيرَ العلم تاجًا لرأسها ... ولا غير شَنْف العدل في أذنها شنفا[2]
ولم نكسُها إلا من العَرْف حُلَّة ... وهل يكتسي الديباج مَنْ يكتسي العُرفا[3]
نشرنا لها منَّا لفيفَ اشتياقنا ... ونحن أُناس نحسن النشر واللفَّا[4]
حللنا الحبى لما أتتنا كرامةً ... وقمنا على الأقدام صفًّا لها صفًّا[5]

[1] السلافة: أفضل الخمر، وهو ما تحلب وسال قبل العصر.
[2] الشنف: هو ما يعلق في الأذن من الحلي.
[3] العرف: المعروف.
[4] اللفيف: المجموع، ويطلق على ما اجتمع من الناس من قبائل شتى.
[5] الحبى: جمع حبوة، وهي ما يحتبي به الرجل من عمامة أو ثوب.

عـقـدنـا لـهـا عـقـد الـلِّـواء تـعـشُّـقًـا   فـكـنـا لـهـا إلـفًـا وكـانـت لـنـا إلـفـا
رفـعـنـا لـواء الـنـصـر يـهـفـو أمـامـهـا   ورحنا على صرف الزمان لها حِلفا
فـلـم تـرَ غـيـر الـرفـق فـيـنـا سـجـيَّـةً   وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفا

* * *

تـحـمَّـل أعـبـاءَ الـصَّـدارة كـامـلٌ   فـنـاءَ بـه مـا لـم يـخـفَّ ومـا خـفَّـا
طوى كشحه منها على غير لطفها   وأظهر من وجه الخِداع بها اللطفا[٦]
نـحـا أن يـتمَّ الدست فـيـهـا لـحـزبـهِ   علينا وظنَّ الأمرَ فيما نحا يخفى[٧]
وقـد فـاتـه أنَّـا أولـو ألـمـعـيَّـةٍ   بها نخطف الأسرار من قلبه خطفا
وأنَّـا نـرى مَـنْ قـد تـأبَّـط شـرَّه   بـعـين تـقدُّ الإبْط أَو تـخـلـع الـكـتـفـا
لـنـا فـطـنـة تـرمـي الـزمـان بـنـورهـا   فيبدو حجاب الغيب منه وقد شفَّا[٨]
رمـانـا بـشـزْر الـلـحـظ مـزورُّ طَـرْفِـهِ   فصحنا به أَن غُضَّ يا كامل الطرْفا
فـمـا نـحـن بـعـد الـيـوم مـهـمـا تـنوعت   عناصرنا من أمة تحمل الخسفا
مـددنـا إلـى كـف الإخـاء أكـفَّـنـا   نـصـافـحـه شـوقًـا فـمدَّ لـنـا الـكـفـا
فـطـاب لـنـا مـنـه الـعِـنـاق وضـمَّـنـا   إلـيـه فـقـبـلـنـاه مـن عـيـنـه ألـفـا
أذُلًّا وهـذا الـعـزُّ صـرَّح سـابـغًـا   علينا إذن فالعز أن ندرك الحتفا
إذا نـحـن قـمـنـا مُـحـنَـقـين رأيـتـنـا   نـدكُّ جـبـال الـظـلـم نـنـسـفـهـا نـسـفـا
ونـحـن إذا مـا الـحـرب أفـنـت جـيـادنـا   قتالًا ركبنا الموت في حربنا طِرفا[٩]
تـربَّـع فـي صـدر الـوزارة كـامـل   فخط من النقصان في وجهها حرفا
وأنـحـى عـلـيـهـا بـالـجـفـاء مـشـتَّـتًـا   نـجـاحًـا بـركـنـيـهـا الـركـيـنـين مـلـتـفـا
لـقـد أغـضـب الـدسـتـور فـعـلًا ونـيـة   وَمَنْ أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
قـد اسـتـوضَـحُـوه الأمـر والأمـر واضـحٌ   فـأعـيـاه إيـضـاحُ الـحـقـيـقـة فـاسـتـعـفـى

---

[٦] طوى كشحه عنها: أي أعرض عنها.

[٧] الدست: الحيلة والخديعة، ويطلق على ما يكون فيه الغلب في الشطرنج.

[٨] شف الثوب: لم يحجب ما تحته.

[٩] الطرف: الكريم من الخيل.

ولـم يـطـلـبِ الإمـهـالَ إلا لأنـهُ رأى عذره أَنْ لم يطل سبكه زيفا

كـذلـك مَـنْ صـاغ الـكـلام مـلـفَّـقًـا تمهَّل حينًا يكثر الخط والحذفا

وَمَنْ قال حقًّا قاله عن بديهةٍ ويحتاج للتفكير من موَّه الخلفا[10]

فيا أيها «الصدر» الجديد اتَّعظ به فإياك أن تطغى وأنْ تثنيَ العطفا[11]

ويا مجلس النواب سِرْ غير عاثرٍ إلى المجد لا تلقى كلالًا ولا ضعفا

ودع عنك مذموم التَّجافي فإنما لغير التجافي اختارك الشعب واستصفى

ألم ترَ أرجاء البلاد مَحولةً من العلم فاستمطر لها الدِّيَمَ الوُطفا[12]

بلاد جفاها الأمن فهي مريضةٌ فحقِّقْ لها من طبِّ رأيك أن تشْفى

فإن لأهليها عليك لذمةً ومثلك من راعي الذِّمام ومن وفَّى

وما أنت إلا أمة قد تقدمت أمامًا وقد خلَّت تقهقرها خلفا

ولا تنْسَ مغبرَّ العراق وأهله فإن البلاءَ الجمَّ من حوله احتفَّا

فدجلة أمست كالدُّجيل شحيحة فلا أنبتت زرعًا ولا أشبعت ظلفا[13]

وإن «الفرات» العذب أمسى مرنَّقًا به الماء يجفو أو به الماء قد جفَّا[14]

سَلِ «الحِلَّة» الفيحاء عنه فإنها حكت شهداء «الطفِّ» إذ نزلوا الطفا[15]

فيا ويلَ قوم في العراق قد انطوَوْا على الذل إذ أمست قلوبهمُ غُلفا

ولم يذكروا مجدًا لهم كان ضاربًا رُواقًا على هام الكواكب قد أوفى

وكانوا به شُمَّ العرانين فاغتدَوا يقاسون أهوالًا به تجدع الأنفا[16]

[10] الخلف: هو أن تعد عدة ولا تنجزها.

[11] أراد بالصدر الجديد: حسين حلمي باشا. العطف: الجانب، وثني العطف: كناية عن الإعراض والجفاء.

[12] محولة: مجدبة لا مرعى فيها ولا كلأ. الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون، بلا رعد ولا برق. الوطف: جمع وطفاء، وهي السحابة المسترخية لكثرة مائها.

[13] الدجيل: شعبة من نهر دجلة.

[14] مرنقًا: مكدرًا غير صافٍ.

[15] الحلة: قرية في طف دجيل بغداد. الطف: أرض من ضاحية الكوفة وفيها قتل الحسين بن علي عليه السلام.

[16] العرانين: جمع عرنين، وهو الأنف.

يـرجُّـون مـن أهـل الـقـبـور رجـاءهـم وَمَنْ يحمل الدَّبوس أو يضرب الدُّفَّا[17]

[17] يشير بهذا البيت إلى قوم تركوا النصوص الشرعية القاضية بالسعي والاعتماد على النفس، ولجئوا في طلب الخير والنصر إلى الأموات أو الدجالين الذين يحملون الدبابيس، ويضربون الدفوف والمزاهر؛ ادعاء أنهم من أهل البيت وخيرة رجاله، وما هم إلا أهل لهو وبطالة.

إيقاظ الرقود

إلى كم أنتَ تهتف بالنشيدِ وقد أعياك إيقاظ الرقودِ؟!
فلستَ وإن شددت عرى القصيد بمُجدٍ في نشيدك أو مفيد
لأن القوم في غيٍّ بعيدِ
إذا أيقظتَهم زادوا رقادا وإن أنهضتهم قعدوا وثادا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خُلقوا جَمادا!
وهل يخلو الجماد عن الجمود
أطلْت وكاد يُعييني الكلامُ مَلامًا دون وقعته الحسامُ
فما انتبهوا ولا نفع الملام كأنَّ القومَ أطفال نيام
تُهزُّ من الجهالة في مهود
إليكِ إليكِ يا بغدادُ عنِّي فإني لستُ منكِ ولستِ منِّي
ولكنِّي وإن كَبُر التجني يعِزُّ عليَّ يا بغداد أني
أراك على شَفا هولٍ شديد
تتابعتِ الخطوبُ عليكِ تتْرى وبُدِّل منكِ حُلْو العيش مُرَّا
فهلَّا تُنجِبين فتًى أغرَّا؟ أراكِ عقمتِ لا تلدين حُرا
وكنتِ لمثله أزكى ولودِ
أقام الجهل فيكِ له شهودا وسامكِ بالهوان له السُّجودا
متى تُبدين منك له جحودا فهلَّا عدتِ ذاكرةً عهودا
بهن رَشدْت أيام الرشيدِ؟

زمانَ نفوذُ حكمك مستمرٌّ زمانَ سحابُ فيضكِ مستدرٌّ
زمانَ العلمُ أنت له مقرٌّ زمانَ بناءُ عزك مُشْمَخِرٌّ
وبدرُ علاك في سعدِ السعودِ
برَحتِ الأوجَ ميلًا للحضيضِ وضقت وكنت ذات عُلًا عريضِ
وقد أصبحت في جسم مريضِ وكنتِ بأوجه للعزِّ بيضِ
فصرت بأوجهٍ للذلِّ سُودِ
ترقَّى العالَمون وقد هبطنا وفي دَرَك الهوان قد انحططنا
وعن سَنَنِ الحضارة قد شَحَطْنا فقَطْنا يا بني بغداد قَطْنا![1]
إلى كم نحنُ في عيش القُرودِ؟!
ألم تكُ قبلنا الأجدادُ تبني بناءً للعلوم بكل فنٍّ؟
لماذا نحن يا أسرى التأنِّي أخذنا بالتقهقرِ والتدنِّي؟!
وصرنا عاجزين عن الصعودِ
كأنْ زُحَلٌ يشاهدُ ما لدينا لذاك احمرَّ من حَنَقٍ علينا
فقال موجِّهًا لومًا إلينا: لوَ انِّي مثلكم أمسيتُ هيْنا
إذن لنضوتُ جلبابَ الوجود
رَكدتُم في الجهالة وهي تمشي وعِشتم كالوحوش أخسَّ عيش
أما فيكم فتًى للعز يمشي؟! تباركَ مَنْ أدار بناتِ نَعش![2]
وصفَّدكم بأصفاد الركودِ
حكيتم في توقُّفكم جُدَيًّا فصرتم كالسها شَعبًا خفيًّا[3]
ألا تجرون في مجرَى الثريَّا تؤمُّ بدَورها فلَكًا قصيًّا؟
فتبرزَ منه في وضع جديدِ

* * *

[1] شحطنا: بعدنا. قطنا: حاسبنا وكافينا.

[2] بنات نعش قسمان: كبرى وصغرى، وكل منهما سبعة كواكب، أربعة نعش وثلاثة بنات.

[3] الجدي: أحد البروج الاثني عشر وأصله غير مصغر. السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته.

حكومة شعبنا جارتْ وصارتْ   علينا تستبدُّ بما أشارت
فلا أحدًا دعته ولا استشارت   وكل حكومة ظلمت وجارت
فبشِّرها بتمزيق الجدُودِ
حكومتنا تميلُ لباخسيها   مُجَانِبةً طريقَ مُؤسِّسيها
فلا يَغرُرْكَ لينُ مُلابسيها   فهم كالنار تحرِقُ لامسيها
وتحسنُ للنواظر من بعيدِ
لقد غَصَّ «القصيمُ» بكل نذلِ   وأمسى من تخاصمهم بشغل[٤]
فريقا خُطَّتَيْ غيٍّ وجهل   كلا الخصمين ليس له بأهلِ
ولكن مَنْ لتنكيل المريد[٥]
إليهم أرسلت بغدادُ جُندَا   ليهلك فيه من عبثٍ ويُفدَى
لقصدي ابن الرشيد أضاع قصدَا   فلا يا ابن الرشيدِ بلغتَ رُشدا
ولا بلغ السعودَ ابنُ السعودِ
مشوا يتحركون بعزمِ ساكنْ   ورثةُ حالهم تبكي الأماكنْ
وقد تركوا الحلائلَ في المساكنْ   جنود أَرسلت للموت لكنْ
بفتك الجوع لا فتك الحديد
قد التفعُوا بأسمالٍ بَوالِ   مُشاةٍ في السهول وفي الجبال
يُجدُّون المسيرَ بلا نِعالِ   بحالٍ للنواظر غير حالِ
وزيٍّ غيرِ ما زيِّ الجنودِ
مشوا في منهجٍ جهلوه نهجا   يجوبون الفلا فجًّا ففجًّا[٦]
إلى حيثُ السلامة لا ترجَّى   فيا لهفي على الشبَّان تزجى[٧]
على عبثٍ إلى الموت المبيدِ!
وكلٌّ مُذ غدوا للبيت أَمَّا   فودَّع أهله زوجًا وأُما[٨]

[٤] القصيم: اسم محل.

[٥] المريد: بفتح الميم، هو الخبيث المتمرد الشرير.

[٦] فجًّا ففجًّا: أي طريقًا فطريقًا، وأصل الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

[٧] تزجى: تدفع.

[٨] أَمَّ: قصد.

وضــمَّ ولــيـدَه بـيـدٍ وشـمَّــا بكى الولد الوحيدُ عليه لمَّا
غدا يبكي على الولد الوحيدِ
تقول له الحليلةُ وهو ماشِ: رُويدًا لا برحت أَخا انتعاش!
فبعدَك مَنْ يحصِّل لي معاشي؟! فقال، ودمعه بادي الرشاشِ:
وكلـتـكـمُ إلـى الـربِّ الـودُودِ
عساكر قد قضوا عُريًا وجوعا بحيثُ الأرضُ تبتلع الجموعا
إلـى أن صـار أغنـاهـم ربُـوعـا لِفرط الجوع مرتضيًا قنوعا
بِقِدٍّ لـو أصـاب من الـجـلـودِ[٩]
هناك قضوا وما فتحوا بلادا هـنـاك بـأسـرِهـم نـفـدُوا نـفـادا
هناك بحيرَةٍ عدِموا الرشادا هـنـاك لـرَوعـهـم فـقـدُوا الـرقـادَا
هـنـاك عرُوا هـنـاكَ من الـبـرودِ
أنـاديـهـم ولـي شـجـنٌ مَـهـيـجُ وأذكـرهـم فـيـنـبـعـثُ الـنـشـيـج
ودمـعُ مـحـاجـري بـدمٍ مـزيـجُ ألا يـا هـالـكـين لـكـم أجـيـج[١٠]
ذكـا بـحـشـايَ مـحـتـدمَ الوقـودِ
سـكـنَّـا عـن جـهـالـتـنـا بـقـاعـا يجور بها المؤمَّر ما استطاعا
فـكـدنـا أن نـموت بـهـا ارتـيـاعـا وهـبـنـا أمـة هـلـكـت ضـيـاعـا
تـولـى أمـرهـا عـبـدُ الـحـمـيـد
أيـا حـريـة الـصحف ارحـمـيـنـا فـإنَّـا لـم نـزل لـك عـاشـقـيـنـا
متى تصلين كيما تطلقينا عِدينا في وصالكِ وامطلينا
فـإنـا مـنـك نـقـنـعُ بـالـوعـود
فأنت الروحُ تشفينَ الجروحا يُحَرَّج فقدك البلد الفسيحا
ولـيـس لـبـلـدةٍ لـم تـحـوِ روحـا وإن حوت القصور أو الصروحا
حـيـاةٌ تُـسـتـفـاد لـمـسـتـفـيـد[١١]

[٩] القد: بكسر القاف، هو القطعة من الجلد غير المدبوغ والنعل الذي لم يجرد عن الشعر.
[١٠] الأجيج: الالتهاب.
[١١] حياة مرفوع بليس؛ لأنه اسمها، وخبرها الجار والمجرور «لبلدة».

أقول، وليس بعضُ القول جِدًّا لسلطانٍ تجبَّر واستبدا
تعدَّى في الأمور وما استعدَّا ألا يا أيها الملكُ المفدَّى
وَمَنْ لولاهُ لم نكُ في الوجود

أَنِمْ عن أن تسوسَ الملك طرفا أقم ما تشتهي زمرًا وعزفا
أَطِلْ نكرَ الرعية، خلِّ عُرفا سُمِ البلدان مهما شئتَ خسفا
وأرسلْ مَنْ تشاء إلى اللحود

فدَتكَ الناس من ملكٍ مُطاعِ أبن ما شئت من طُرُق ابتداع
ولا تخشَ الإلهَ ولا تراعِ فهل هذي البلادُ سوى ضياع
ملكت، أو العبادُ سوى عبيدِ؟

تنعَّم في قصورك غير دارِ أعاش الناسُ أم هم في بوار؟
فإنك لن تطالب باعتذار وهَبْ أن الممالك في دمار
أليس بناء «يلدزَ» بالمشيد؟!

جميع ملوك هذي الأرض فُلْكُ وأنت البحر فيك ندًى وهُلكُ
فأنَّى يبلغوك وذاك إفكُ؟! لئن وهبوا النقودَ فأنت ملكُ
وَهُوبٌ للبلاد وللنقودِ

الصديق المضاع

علامَ حُرمنا منذُ حين تلاقيا أفي سفر قد كنت أم كنت لاهيا؟
عهدناك لا تلهو عن الخِلِّ ساعةً فكيف علينا قد أطلتَ التجافيا؟!
وما لي أراك اليوم وحدك جالسًا بعيدًا عن الخلان تأبى التدانيا؟
أنابك خطبٌ أم عراكَ تعشُّق؟ فإني أرى حُزنًا بوجهك باديا
وما بالُ عينيكَ اللتين أراهما تديران لحظًا يحمل الحزنَ وانِيا؟
وأيُّ جوًى قد عُدت أصفر فاقعًا به بعد أن قد كنت أحمر قانيا؟
تكلَّمْ فما هذا الوجومُ فإنني عهدتك غِرِّيدًا بشعرك شاديا
تجلَّدْ تجلَّدْ يا «سليمُ» ولا تكن بما ناب من صرف الزمان مباليا
ولا تبتئس بالدهر إن خُطوبه سحابة صيف لا تدوم ثوانيا

* * *

فقال ولم يملك بوادرَ أدمعٍ تناثرن حتى خِلتهنَّ لآليا
لقد هِجْتني يا أحمدُ اليوم بالأسى وذكَّرتني ما كنت بالأمس ناسيا
أتعجب من حزني وتعلَم أنني قريعُ تباريحٍ تُشيب النواصيا[1]
لقد عشتُ في الدنيا أسيفًا وليتني ترحَّلت عنها لا عليَّ ولا ليا

[1] القريع: الغالب في المقارعة.

وقد كنت أشكو الكاشحينَ من العِدا فأصبحت من جور الأخلَّاء شاكيا[٢]
وما رحتُ أستشفي القلوبَ مداويا من الحقد إلا عُدتُ عنها كما هيا
وداريتُ حتى قيلَ لي: متملِّقٌ وما كان من داءِ التملُّق دائيا
وحتى دعاني الحزمُ أن خلِّ عنهمُ فإن صريح الرأي ألا تداريا
ورُبَّ أخٍ أوقرتُ قلبي بحبه فكنتُ على قلبي بحبِّيهِ جانيا[٣]
أراد انقيادي للهوان وما درى بأنِّيَ حرَّ النفس صعبٌ قياديا
إذا ما سمائي جاد بالذل غيثها أبيتُ عليها أن تكون سمائيا
ألا فابكِ يا أحمدُ اليوم رحمةً ودعني وشأني والأسى وفؤاديا
فإنَّ أحق الناس بالرحمة امرؤ أضاع ودادًا عند مَنْ ليس وافيا
وما كان حظِّي وهو في الشعر ضاحكٌ ليظهر إلا في سوى الشعر باكيا
ركبتُ بحورَ الشعر رَهْوًا ومالجًا وأقحمتُ منها كلَّ هولٍ يراعيا[٤]
وسيَّرتُ سفْني في طِلاب فنونه وألقيتُ في غير المديح المَراسيا
وقلتُ: اعصني يا شعرُ في المدح إنني أرى الناس مَوْتى تستحق المراثيا
ولو رضيت نفسي بأمر يشينها لما نطقت بالشعر إلا أهاجيا
وكم قام ينعي حين أنشدت مادِحًا إليَّ الندى ناعٍ فأنشدت راثيا![٥]
وكم بشرَتني بالوفاء مقالة فلما انتهت للفعل كانت مناعيا!

* * *

فلمَّا بكى أمسكتُ فضل ردائه وكفكفتُ دمعًا فوق خدَّيه جاريا[٦]
وقلت له: هوِّن عليك فإنما تنوبُ دواهي الدهر مَنْ كان داهيا[٧]

---

[٢] الكاشح: العدو الباطن العداوة.

[٣] أوقرت: أثقلت.

[٤] الرهو: السير السهل. أقحمت يراعي: قذفته وأدخلته بشدة.

[٥] الندى: الكرم، يقول: إذا أنشدت مادحًا قام الناعي ينعى إليَّ الكرم؛ أي: يخبرني بموته، فأبدلت الرثاءَ بمدحي.

[٦] الفضل: الزيادة، وفضل الرداء: يريد به طرفه.

[٧] تنوب: تصيب. الداهي: العاقل، وصاحب الرأي الجيد. يقول: إن المصائب لا تصيب إلا العقلاء.

وما ضرَّ إن أصفيت ودَّك معشرًا من الناس لم يجنوا لك الوُدَّ صافيا
كفى مفخرًا أن قد وفيت ولم يفوا فكنت الفتى الأعلى وكانوا الأدانيا
لعلَّ الذي أشجاك يُعقب راحة فقد يشكر الإنسان ما كان شاكيا
ألا رُبَّ شرٍّ جَرَّ خيرًا وربما يجرُّ تجافينا إلينا التصافيا
فلو أنَّ ماء البحر لم يكُ مالحًا لرُحنا من الطوفان نشكو الغواديا[8]
ولولا اختلاف الجذْب والدفع لم تكن نجومٌ بأفلاكٍ لهنَّ جواريا
وكيف نرى للكهرباء ظواهرًا إذا هي في الإثبات لم تلْقَ نافيا
تموت القوَى إن لم تكن في تباينٍ ويحيينَ ما دام التباين باقيا
فلا تعجَبنْ من أننا في تنافرٍ ألم تر في الكون التنافر ساريا؟!
وهبهم جفوك اليوم بُخلًا بودِّهم ألم تَغنَ عنهم أن ملكت القوافيا؟
فطِرْ في سموات القريض مُرفرفًا وأطِلع لنا فيها النجومَ الدَّراريا
فأنت امرؤٌ تُعطي القوافيَ حقها فتبدو وإن أرخصتهنَّ غواليا
يجيبك عَفوًا إن أمرتَ شرودُها وتأتيك طوعًا إن دعوتَ العواصيا
فقال، وقد ألقى على الصدر كفَّهُ فشدَّ بها قلبًا من الوجد هافيا:[9]
لقد جئتني بالقول رطْبًا ويابسًا فداويت لي سُقمًا وهيَّجت ثانيا
فإني وإن أبدى ليَ القوم جفوةً أمنِّي لهم مما أحبُّ الأمانيا
وما أنا عن قومي غنيًّا وإن أكن أطاولُ في العز الجبالَ الرواسيا
إذا ناب قومي حادث الدهر نابني وإن كنت عنهم نازحَ الدارِ نائيا
وما ينفعُ الشعرُ الذي أنا قائلٌ إذا لم أكن للقوم في النفع ساعيا
ولستُ على شعري أرومُ مَثُوبة ولكنَّ نُصحَ القوم جُلُّ مَراميا
وما الشعرُ إلا أن يكون نصيحةً تُنشِّط كسلانًا وتنْهِض ثاويا
وليس سَريَّ القوم مَنْ كان شاعرًا ولكنْ سريُّ القوم مَنْ كان هاديا
فعلَّمهم كيف التقدمُ في العُلا ومن أيِّ طُرْقٍ يبتغون المعاليا
وأبلى جديدَ الغيِّ منهم برشدِهِ وجدَّد رشدًا عندهم كان باليا

[8] الغوادي: السحب الممطرة صباحًا.
[9] هافيًا: مضطربًا.

وسـافـر عنـهـم رائدًا خضْـب نـفـعـهـم   يشقُّ الطوامـي أو يجـوب الـمـواميا[10]
وإن أفسـدتـهـم خـطـةٌ قـام مـصـلـحًـا   وإن لـدغَـتْـهـم فِـتـنـةٌ قـام راقـيـا[11]

[10] رائدًا: طالبًا. الطوامي: أراد بها البحار، وأصلها من طما الماء والبحر؛ أي امتلأ. يجوب: يقطع. الموامي: جمع موماة، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
[11] الراقي: هو الذي يقرأ وينفث؛ دفعًا لأذية اللدغ.

بعد البين

لقد طوَّحتني في البلاد مُضاعَا طوائحُ جاءت بالخطوب تباعا
فبارحتُ أرضًا ما ملأتُ حقائبي سوى حبِّها عند البرَاح متاعا
عَتبتُ على بغداد عَتْبَ مودِّع أمضَّته فيها الحادثات قِراعا
أضاعتنيَ الأيام فيها ولو دَرَت لعزَّ عليها أن أكون مُضاعا
لقد أرضعتني كلَّ خَسْفٍ وإنَّني لأشكرها أن لم تُتمَّ رَضاعا
وما أنا بالجاني عليها وإنَّما نهضتُ خِصامًا دونها ودفاعا
وأعملتُ أقلامي بها عَربيَّة فلم تبدِ إصغاءً لها وسماعا
ولو كنت أدري أنها أعجمية تخدتُ بها السيف الجُراز يراعا[1]
ولو شئت كايلتُ الذين انطوَوْا بها على الحِقد صاعًا بالعداءِ فصاعا
ولكن هيَ النفس التي قد أبت لها طباعُ المعالي أن تسوءَ طِباعا
أبيت عليهم أن أكون بذلَّةٍ وتأبى الضواري أن تكون ضباعا
على أنني داريتُ ما شاء حقدَهم فلم يُجْدِ نفعًا ما أتيت وَضاعا
وأشقى الورى نفسًا وأضيعهم نُهًى لبيبٌ يُداري في نُهاه رعاعا
تركت من الشعر المديحَ لأهله ونزَّهت شِعري أن يكون قِذاعا[2]

[1] الجراز: القاطع.
[2] قذاعا: سفاهة ومشاتمة.

وأنشدته يجلو الحقيقة بالنُّهى ويكشف عن وجه الصواب قِناعا
وأرسلتهُ عفوًا فجاءَ كما ترَى قوافيَ تجتاب البلاد سِراعا

* * *

وقفت غداةَ البين في الكرخ وقفةً لها كربت نفسي تطير شعاعا[٣]
أودِّع أصحابي وهم محدِقون بي وقد ضِقْت بالبين المُشِتِّ ذراعا
أودِّعهم في الكرخ والطرف مرسل إلى الجانب الشرقيِّ منه شعاعا
وأدعم رأسي بالأصابع مُطْرِقًا كأن برأسي يا أمَيمُ صُداعا[٤]
وكنت أظن البينَ سهلًا فمُذ أتى شرَى البينُ مني ما أرادَ وباعا
وإني جبانٌ في فِراق أحبتي وإن كنت في غيرِ الفراق شجاعا
كأني وقد جدَّ الفِراق سفينةٌ أشالت على الريح الهَجوم شِراعا[٥]
فمالت بها الأرواح والبحرُ مائجٌ وقد أوشكت ألواحها تتداعى[٦]
فتحسبني من هِزَّةٍ فيَّ أفدعًا ترقَّى هِضابًا زلزلت وقِلاعا[٧]
فما أنا إلا قوْمة وانحناءة وسرٌّ أذاعتها الدموعُ فذاعا
رعى اللَّه قومًا بالرصافة كلما تذكرتهم زاد الفؤاد نزاعا[٨]
أبيت، وما أقوى الهجوم! بمضجع تصارعني فيه الهموم صِراعا
وألهو بذكراهم على السير كلما هبطت وِهادًا أو علوت يَفاعا[٩]
هم القومُ أما الصبر عنهم فقد عصى وأما اشتياقي نحوهم فأطاعا
لقد حكَّموني في الأمور فلم أكن لأنطقَ إلا آمرًا ومطاعا

[٣] كربت: كادت.
[٤] أدعم: أسند. أميم: أصلها أميمة، وهي تصغير أم؛ وحذفت تاؤها لأنها منادى مرخم.
[٥] أشالت: رفعت.
[٦] الأرواح: جمع ريح.
[٧] الأفدع: المعوج المفاصل كأنها قد زالت عن مواضعها، وهذا أقرب معانيه إلى مقصد الشاعر.
[٨] الرصافة: محلة في بغداد، ينسب إليها صاحب الديوان.
[٩] اليفاع: المرتفع من الأرض.

فلستُ أبالي بعد أن جدَّ بينهم زجرت كلابًا أم قحمت سِباعا[10]
سلام على وادي السلام وإنني لأجعل تسليمي عليه وداعا
له اللَّه من وادٍ تكاسل أهله فباتوا عِطاشًا حوله وجياعا
رآهم عبيدًا فاستبدَّ بمائه ولم يُجد بين المجدبات مشُاعا
جرى شاكرًا صنعَ الطبيعة إنَّها أبانت يدًا في جانبيه صَناعا
وما أنْسَ لا أنْسَ المياهَ بدجلةٍ وإن هي تجري في العراق ضياعا
ولو أنَّها تسقي العراق لما رَمَت به الشمس إلا في الجَنان شُعاعا
وما وجَدَت ريحٌ وإن قد تناوحت مَهبًّا به إلا قُرًى وضِياعا
سأجري عليها الدمعَ غير مضيع وأندب قاعًا من هناك فقاعا
وأذكر هاتيكَ الرِّباعَ بحسنها فَنِعْمَتْ على شَحط المَزارِ رباعا[11]

[10] بينهم: بعدهم. قحم المفازة: دخلها وطواها غير مبالٍ بها.

[11] الرباع: جمع ربع. شحط: بعد.

يقولون

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه ... يصدُّ ذويهِ عن طريق التقدُّمِ!

فإن كان ذا حقًّا فكيفَ تقدمت ... أوائله في عهدها المتقدِّمِ؟!

وإن كان ذنبَ المسلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟

هل العلم في الإسلام إلا فريضةٌ ... وهل أمَّة سادت بغير التعلُّمِ

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعُلا ... بصائرَ أقوام عن المجد نُوَّم

وحُلَّتْ له الأيام عند قيامه ... حُباها وأبدت منظر المتبسِّم[1]

فأشرق نور العلم من حَجَراتِهِ ... على وجه عصرٍ بالجهالة مظلم[2]

ودكَّ حصون الجاهلية بالهدَى ... وقوَّض أطنابَ الضلال المخيم

وأنشط بالعلم العزائم وابتنى ... لأهليه مجدًا ليس بالمتهدِّم

وأطلق أذهان الورى من قيودها ... فطارت بأفكارٍ على المجد حُوَّم

وفك إسار القوم حتى تحفزوا ... نهوضًا إلى العلياء من كل مَجثم

فخلَّوا طريقًا للبداوة مَجْهلًا ... وساروا بنهج للحضارة معلم

فدوَّتْ بمستنٍّ العلا نهضاتهم ... كزعزع ريحٍ أو كتيار عَيْلم

وعمًّا قليل طبَّق الأرض حكمهم ... بأسرعَ من رفع اليدين إلى الفم

---

[1] قوله حباها: جمع حبوة وهي ما يحتبي به الرجل من عمامة أو ثوب.

[2] قوله: من حجراته بفتحتين: أي من نواحيه، جمع حَجْرة، وهي الناحية.

وقد حاكت الأفكار عند اصطدامها تلألؤَ بَرق العارض المتهزمِ
ولاحت تباشير الحقائق فانجلت بها عن بَني الدنيا شكوك التوهُّم
وما ترك الإسلامُ للمرء ميزةً على مثلهِ ممن لآدم ينتمي
فليس لمثرٍ نقصُه حقَّ مُعدِمٍ ولا عربَيٍّ بعضُهُ فضلَ أعجم
ولا فخر للإنسان إلا بسعْيِهِ ولا فضل إلا بالتُّقى والتكرُّم
وليس التُّقى في الدين مقصورة على صلاة مُصلٍّ أو على صوم صُيَّم
ولكنها ترك القبيح وفعل ما يؤدي من الحسنى إلى نيل مَغنم
فتقوى الفتى مسعاه في طلب العلا وما خصت التقوى بترك المحرَّم
فهل مثل هذا الأمر يا لأُولي النهى يكون عثارًا في طريق التقدُّم
وإن لم يكن هذا إلى المجد سُلَّمًا فأيُّ ارتقاء بعدُ أم أيُّ سُلَّم!
ألا قلْ لِمَنْ جاروا علينا بحكمهمْ: رُوَيدًا فقد فارقتُمُ كل مَأثم
فلا تنكروا شمس الحقيقة إنَّها لأظهر من هذا الحديث المرجَّم
عَلوْنا وكنتم سافلين فلم نكن لِنُبدي إليكم جَفوةَ المتهكم
ولم نترك الحسنى أوانَ جِدالكمْ وتلك لَعمرِي شِيمة المتحلِّم
فلما استدار الدهر بالأمر نحوكم كشفتم لنا عن منظر متجهِّم
فلا تأمَنوا الأيام إنَّ صروفها كما هي إذ أودتْ بعادٍ وجُرْهمِ

في سبيل الوطن

إلى إخواننا المسيحيين

أما آن أن تُنسى من القوم أضغانُ فيُبنى على أسِّ المؤاخاة بُنيانُ؟
أما آن أن يُرمَى التخاذل جانبًا فتكسَبَ عزًّا بالتناصر أوطانُ؟
عَلامَ التعادي لاختلاف ديانةٍ؟! وإنَّ التعادي في الديانة عُدْوان
وما ضرَّ لو كان التعاون ديننا فتعْمُرَ بُلْدان وتأمنَ قُطَّان
إذا جمعتنا وحْدة وطنية فماذا علينا أن تَعدَّد أديان؟!
إذا القومُ عمَّتهم أمورٌ ثلاثة: لسان وأوطان وباللَّه إيمان
فأيُّ اعتقاد مانع من أخوَّةٍ بها قال إنجيلٌ كما قال قرآن؟!
كتابان لم ينزلهما اللَّه ربُّنا على رُسْله إلا ليسعد إنسان
فَمَنْ قام باسْم الدين يدعو مفرقًا فدعواه في أصل الدِّيانةِ بهتانُ
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة؟! إذن فاتِّباع الدين يا قومُ خُسران
ولكنَّ جهلَ الجاهلين طحا بهم إلى كل قول لم يؤيِّده برهان
فهاموا بتيهاءِ الأباطيل كالذي تخبَّطَهُ من شدة المسِّ شيطان

* * *

مَواطنكم يا قومُ أمٌّ كريمة تَدُرُّ لكم منها مدى العمر ألبان

ففي حِضنها مَهد لكم ومَباءَةٌ | وفي قلبها عطف عليكم وتحنانُ[١]
فما بالكم لا تُحسنون وواجبٌ | على الابنِ للأمِّ الكريمة إحسانُ
أصبرًا وقد أمسى العدوُّ يُهينها؟! | أما فيكُمُ شهمٌ على الأم غَيْران؟!
أجلْ إنكم تأبى الحياةَ نفوسكم | إذا لم يكن فيها على المجد عُنوانُ
ألستم من القوم الذين عَلاؤهم | تقاعَسَ عنه الدهرُ وانحطَّ كيْوان؟[٢]
نمتكم إلى المجد المؤثل تغلبٌ | كما قد نمتكم للمكارم غسان
فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت | تصافحكم فيه نِزار وعَدنانُ
أجِب أيها الندْب المسيحيُّ مُسلمًا | صفا لك منه اليومَ سرٌّ وإعلانُ
فلا تحرما الأوطانَ أن تتحالفا | يدًا بيد حتى تُؤَكد أيْمانُ
ألا فانهضا نحو العِدا وكلاكما | لصاحبه في المأزق الضَّنْكِ معوان
وقولا لِمَنْ قد لام: صَهْ وَيْكَ إننا | على كل حال في المواطن إخوان

* * *

فَمَنْ مُبلغُ الأعداءِ أن بلادنا | مأسد لم يطرُق ذَراهن سِرحان[٣]
وإنَّا إذا ما الشرُّ أبدى نيوبَهُ | رددناهُ عنا بالظُبا وهو خَزْيان
سنستصرخ الآساد من كل مَرْبِضٍ | فتمشي إلى الهيجاءِ شِيب وشُبَّان
أسود وغًى تأبى الحياة ذميمةً | وتلبس بالعزِّ الرَّدَى وهو أكفان
مقَاحيم تَصْلَى الْمَعمعان مُشيحةً | إذا احتدمتْ في حَومة الحرب نيران[٤]
وتكسو العراء الرَّحبَ مِسح عَجاجة | يمُجُّ بها السيفُ الردَى وهو عُريان[٥]
سننهض للمجد المخلِّدِ نهضةً | يقرُّ بها حَوران عينًا ولُبنان
وتعتز من أرض الشآم دِمشقها | وتهتز من أرض العراقين بَغْدان

---

[١] المباءة: المنزل.

[٢] كيوان: زحل بالفارسية، معرب.

[٣] مآسد: جمع مأسدة، وهي المكان الذي تكثر فيه الأسود. والذرا بفتح الذال: فناء الدار ونواحيها. والسرحان بالكسر: الذئب.

[٤] مشيحة: جادة مانعة لما وراء ظهرها.

[٥] المسح بالكسر: الكساء من شعر، وإضافته إلى عجاجة بيانية، أي: مسحًا عن عجاجة.

وتطرب في البيت المقدَّس صخرة وترتاح في البيت المحرَّم أركان
وتحسُنُ للعُرب الكرام عواقب فيَحمدها مُفْتٍ ويشكر مطران
ولو أنصفتنا ساسة الغرب لاغتدت دِمَشقُ لها من ساسة الغرب أعوان
ورقَّت قلوب للعراق وأَهله وأصغت إلى شكوى فلسطين آذان
ولكنهم رانت عليهم مطامع فأمسَوا وهم صُمٌّ عن الحق عُميان
لقد قيل: إن الغرب ذو مَدَنيَّة فقلت: وهل معنى التمدُّن عدوان؟
وأيُّ فَخار كائن في تمدُّن إذا لم يقم في الغرب للعدل ميزان
إذا كانت الأخلاق غير شريفة فماذا عسى تجدي علومٌ وعِرفان؟

* * *

بنفسيَ أفدي في العراق مَنابتًا يفوحُ بها شيحٌ ويَعْبَق حَوْذان[٦]
رياضٌ رعتها النائبات بأذؤبٍ من الجور فارتاعت ظباء وغزلان
لقد كان فيها الرند والبان زاهيًا فأصبح لا رَنْدٌ هناك ولا بان
وأصبح مرصودًا بها كلُّ منهل عليه من الترنيق بالظلم ثعبان[٧]
وظل ابنها عن كل حوضٍ مُحَلأً يحوم على سَلساله وهو عطشان[٨]
سأبكي عليها كلما هبَّت الصَّبا فمالت بها من حول دجلة أغصان
ومن ذرَفت آماقُه الدمعَ لؤلؤًا ذرفتُ عليها أدمعي وهيَ مَرْجان

[٦] الشيح: نبات طيب الرائحة، وكذا الحوذان.

[٧] الترنيق: التكدير.

[٨] محلأً: أي مطرودًا ممنوعًا عن ورود الماء.

بين تونس وبغداد

أنشدت في حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسي الأستاذ الكبير عبد العزيز الثعالبي، عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥.

أتـونِـس إنَّ فـي بـغـدادَ قـومًـا   تـرِفُّ قـلـوبـهـم لـك بـالـوِداد
ويـجـمـعـهـمْ وإيـاكِ انـتـسـابٌ   إلى مَنْ خصَّ مَنِطقَهم بضاد
وديـنٌ أوضـحـتْ لـلـنـاس قـبلًا   نـواصـعُ آيـه سـبـلَ الـرشـاد
فنحن على الحقيقة أهل قُربى   وإن قضتِ السياسة بالبعاد
ومـا ضَـرَّ الـبِـعـاد إذا تـدانـت   أواصـرُ مـن لـسـان واعـتـقـاد
وإن المسلمين على التآخِي   وإن أغرى الأجانب بالتعادي

* * *

أتونِس إن مجدكِ ذو انتماء   إلــى عُـلـيـا نِـزار أو إيـاد
لـنـا بـثـعـالـبيِّـك خـيـرُ مُـلْـقٍ   عـلـى أشـتـاتـنـا حـبـلَ اتـحـاد
وأكـبـرُ حـامـل بـيـد اعـتـزامٍ   لـحـبِّ بـلاده عَـلـمَ الـتـفـادي
وأسـمـى من سـمـا أدبًا وعِلمًا   وأفـصـحُ مَنْ تـكـلـم عن سداد
دع الـقـول الْـمُـرِيـب وقـائـلـيـه   وسل عنه المنابر والنوادي
تـجدْه خطيبها في كل خَطب   ومِدْرَهـهـا لـدى كل احـتـشـاد[1]

[1] المدره: المحامي المدافع عن القوم.

فتًى صَرُحت عزائمه وجلَّتْ عن الرَّوَغان في طَلَب المراد
تغرَّبَ ضاربًا في الأرض يبغي مَدًى من دونه خَرْط القتاد[٢]
فأوغلَ في الْمَفاوز والْمَوامِي وطوَّف في الحواضر والبوادي[٣]
وكان طوافه شرقًا وغربًا لغير تكسُّبٍ وسوَى ارتفاد[٤]
ولكن ساح لاستنهاض قوم حَكَوا بجمودهم صفة الجماد
يغار على العُروبة أن يراها مهدَّدة المصَالح بالفساد
فأنَّى سار كان له هدير يهُزُّ دَويُّه أقصَى البلاد
وكم قد قام في نادٍ خطيبًا بمُحكمة المقاصدِ والْمَبادي
تُنير بكهْربائيِّ المعاني أمورًا كن كالظلم الدَّآدي[٥]
تحلُّ من القلوب إذا وعتها مَحَل الْحُبِّ من شَغف الفؤاد
إلى أن جاء حاضرة نماها أبو الأمناء ذو الشرَف التِّلاد
فكان نزوله في ساكنيها نزولَ الماء في الْمُهَج الصوادي
فيا عبدَ العزيز أقم عزيزًا بحيث الأرض طيِّبةُ الْمَراد
يحيِّيك العراق برافِدَيهِ تحيَّةَ مخلص لك في الوِداد

[٢] خرط القتاد: قطع ورقه باليد، والقتاد: نبت ترعاه الإبل فتسمن عليه، ويصعب خرط ورقه لكثرة شوكه وقوته.

[٣] الموامي: جمع موماة، وهي الصحراء أيضًا.

[٤] الارتفاد: طلب الرفد، وهو العطاء، يريد أنه لا يبغي من تطوافه كسب مال.

[٥] الدَّآدي: جمع دأدأ بالفتح، أو دؤدؤ بالضم؛ وهي آخر ليلة في الشهر، وأصله: الدآدئ بالهمزة، ثم خفف.

في حفلة شوقي

أمارسُ دهرًا من جديديَ داهرا ... وما زال ليلي بالعراقين ساهرًا[1]
أبَى الحقُّ إلا أن أقوم لأجله ... على الدهر في كل المواطن ثائرا
وأن أتمادَى في جدال خصومه ... وأقرَع منهم بالبيان الْمُكابِرا
وإني لأهوى الحق كالطِّيب ساطعًا ... وكالريح هبَّابًا وكالشمس ظاهرا
ستبقى لنفسي في هواه سريرة ... إذا الدهر أبلى من بنيه السرائرا
وتكره نفسي أن أكون مخادعًا ... لأدرك نفعًا أو لأدفع ضائرا
ومن أجل مقتي للمخانيث أنكرَت ... يدي أن تحلِّي في الجِنان أساورا
وما العَجْزُ إلا أن أكون مُكاتمًا ... إذا ما تقاضتني العُلا أن أجاهرا
وما أنا من يُبْهمُ القولَ لاحنًا ... فيضمر فيه للجليس الضمائرا
ولولا طموحي في الحياة إلى العُلا ... سكنتُ البوادي واجتنبت الحواضرا

* * *

يقولون لي: في مصرَ للعلم نهضة ... تُفتِّق أذهانًا وتجلو بصائرا
وإنَّ بها للعلم قدرًا وحرمةً ... وإن بها للحقِّ عونًا وناصرا
وإنَّ لأهل العلم فيها نواديًا ... وإن لأهل الفضل فيها دساكرا

[1] يريد أنه أرقه أمر مهم، وهو رغبته في الدفاع عن الحق، وحبه لجدال خصومه ومنكريه الذين يزخرفون الباطل وينصرونه.

ألم ترَ أنَّ القوم في كل مَحْفِلٍ بها رفعوا للقائلين المنابرا؟!
وقد ضربوا وعْدًا لتكريم شاعر تملَّك صيتًا في الأقاليم طائرا؟!
هو الشاعر الفحل الذي راح شعره بإنشاده في البر والبحر سائرا
فلو قلتَ بعضَ الشعر في يوم حفْلهم تشُدُّ به منا لمصرَ الأواصرا!
فقلتُ: أجَل والشعر ليس بمعجزي ولن تعدَموا مني على الشعر قادرا
ألا إن شوقي شاعرٌ جِدُّ شاعرٍ يفوق الأوالي بل يَبزُّ الأواخرا
تملَّك حُرَّ الشِّعر فهو رقيقه وقام عليه بالذي شاء آمرا
إذا رام جَزلًا منه أنشد زاخرًا وإن رام سَهلًا منه أنشد ساحرا
فلا عجبٌ من أهل مصر وغيرهم إذا عقدوا منهم عليه الخناصرا
بنى لَهُمُ مجدًا رفيعًا بشعرهِ لذا جعلوا حسن الثناء وكائِرا[2]

* * *

ولكنني قد أنظر الحفلة التي تقام له ذا اليوم في مصر ساخرا
إذا احتفلت مصرٌ بشوقي فما لها تقيم على الأحرار في العلم حاجِرا؟!
فقد أَسمعتنا ضَجَّةً أمطرت بها عَليًّا وطه حاصبًا متطايرًا[3]
فما بالُ هذا عُدَّ في مصر مارقًا وما بال هذا عُدَّ في مصر كافرا؟!
إذا لم تكُ الأفكار في مصر حُرةً فليس لمصرٍ أن تكرِّم شاعرا
أيُرفع قدرُ العلم ينطق ناظمًا ويُوضع قدرُ العلم ينطق ناثرا؟!
ويُخْتَصُّ بالتبجيل مَنْ جاء منشدا ويقذف بالتجهيل مَنْ جاء فاكرا؟!
ألا إنَّ هذا الشعر ليس بطائل إذا كان عمَّا يبلغ العلم قاصرا
كما أنَّ هذا العلم ليس بنافعٍ إذا لم تكن فيه النفوس حرائرا
وتكريمُ ربِّ الشعر ليس بمفخَرٍ لِمَنْ كان عن حُرِّية الفكر جائرا
وإلا فعصر الجاهلية قبلنا له السبق في تكريم مَنْ كان شاعرا

[2] الوكائر: جمع وكيرة، وأصله الطعام يعمل عند الفراغ من بنيان الوكر، أو عند شرائه فيدعو إليه، استعاره الشاعر هنا لحفلة التكريم.

[3] علي: هو الأستاذ علي عبد الرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وطه: هو أستاذ الجيل؛ الدكتور طه حسين.

الأمة العربية: ماضيها وباقيها

هِممُ الرجال مَقيسةٌ بزمانها وسعادة الأوطان في عُمرانِها
وأساس عُمران البلاد تعاونٌ متواصلُ الأسباب من سُكانها
وتعاون الأقوام ليس بحاصلٍ إلا بنشر العلم في أوطانها
والعلم ليس بنافعٍ إلا إذا أجرَتْ به الأعمالُ خَيْلَ رهانها
إن التجارب للشيوخ وإنما أمَل البلاد يكون في شبَّانها
هذي لدى العرب الكرام مبادئٌ نزلت بها الآيات في قرآنها
والعُرْب أكبر أمَّةٍ مشهورة بفتوحها وعُلومها وبيَانها
كم قد أقامت للعلوم مدارسًا يعيا ذوو الإحصاء عن حِسبانها
وبَنتْ بأقطار البلاد مصانعًا تتحيَّر الأفكار في بُنيَانها
فالمجدُ مأثور بكل صراحة عن قَيْسها أبدًا وعن قَحْطانها
طُبعَت على حُبِّ العلاء فسعيها للمكرُمات يُعَدُّ من ديدانِها[1]
نهضت بماضي الدهر نهضتها التي خضعت لها الأفلاك في دَورانِها
حَسُنت عواقب أمرها حتى لقد بهرت بني الدنيا جلالة شانها
فهمُ الألى فتحوا البلاد ونشَّروا رايات مَعْدلة على قطَّانها
وهمُ الألى خضعتْ لهم أمم الورَى من تُرْكها طُرًّا إلى إسبانها

[1] الديدان بالفتح: الدأب والعادة.

والروم قد نزلت لهم عن ملكها والفرس عمَّا شِيد من إيوانها

* * *

يا أمَّة عاش البريةُ أعصرًا في عدلها رغَدًا وفي إحسانها
ثم انقضتْ تلك العصورُ فجاءها زمنٌ به انقادت إلى عبدانها
فنضتْ ملابسَ عزِّها وتثاقلت في الذل راسفة بقيد هَوانها

في إيلياء

إلى فاضلَيْها: النشاشيبي والسكاكيني

أرى الأيـام ظـامـئـة ولـيـسـت بـغـيـر دم الأنـام تـريـد ريًّـا
ولـو لـم تـنـوِ حـربًـا مـا تـبـدَّى بـهـا شـكـل الأهـلـة خـنـجَـريًّـا
ودلَّ عـلـى تـقـلـبـهـا انـقـلاب لِـجـرم الأرض حين غدا كُـريًّـا
وأصلدت الحقيقةُ في الليالي فـلـمـا يـقـتـدحْ زنـدًا ورَيَّـا[1]
نـفـضـتُ يديَّ من أبـنـاء دهـرٍ أهانوا الشهم واحترموا الزريَّا
وقـلَّ حـيـاؤهـم حـتـى رأيـنـا ظـنـيـنَ الـقـوم يـتَّـهـم الـبـريـا
وساد الجاهلون فلستُ أدري أعزِّي العلم أم أبكي الدُريَّا؟!
لـهـمْ عينٌ تراعي السرَّ يقظى وقـلـبٌ ظـلَّ فـي عـمَـهٍ كـريًّـا
تـقـلَّـدت الـسـيـوف رُعـاة مـعْـز وكانت قبل تحتمل الهِريَّا[2]
فجرد منهم الرعديدُ عضبًا وهزَّ أخو الجبانة سمهريَّا[3]
وكـم تـرِب تـجَـسَّـس لـلأعـادي فـأصـبَـحَ من تـجـسُّـسـه ثـرِيًّـا!
وسـاعٍ كـان يـسـرَحُ بـالـمـواشـي فـأمـطـى من سِـعـايـتـه شـريًّـا!
وإن لـسـاسـة الـدنـيـا لـقـلـبًـا قَـسـيًّـا فـي الـسـيـاسـة مَـرْمـرِيًّـا

---

[1] أصله: لم يور.

[2] الهريا: العصي، وهو جمع هراوة.

[3] العضب: السيف القاطع. والسمهري: الرمح الصلب الشديد.

قد اتخذوا الحسام لهم لسانًا فقالوا البطْلَ واختلقوا الفَريَّا
وكيف تُساس مملكةٌ بعدل إذا ما الحكم أصبح عسكريًّا؟

* * *

ألا ما بالُ دمعي ليس يرقا؟! كأنَّ بمقلتي عِرقًا صريًّا
إذا ذُكرَ العراق بكيتُ شجْوًا بدمعٍ طَمَّ سائله القَريَّا
وَلَمَّا سِرْتُ في جبلٍ وسهلٍ وكابدتُ السمائم والعريَّا
نزلت بإيلياء على كرامٍ وخِيمُ العيش عاد بهم مرِيًّا
فكدتُ بقربهم أنسَى بلادي وأسلو الطفَّ ثمَّةَ والغريَّا
ولم أرَ كالنشاشيبيِّ ندْبًا إلى العلياء مبتدِرًا جريًّا
فتًى سعت المفاخرُ وهي عَطشى إلى آدابه فأصبن رِيَّا
تجدَّد في العلاء فكان بِدعًا فعاش بمصرِه رجلًا طَريًّا
وأحرز في الورى شرفًا رفيعًا وصيتًا في العلا إسكندريًّا
ولم أرَ سيدًا كأبي سريٍّ ولا مثلَ ابنه ولدًا سَرِيًّا
هما متشابهان فعبقريٌّ من الآباء أنجب عبقريًّا
أبٌ في المجد أروعُ أحْوَذيٌّ نمَى للمجد أروعَ أحوذيًّا[٤]
إلى الشهم السكاكينيِّ أُهدي ثناءً لا يزالُ به حَرِيًّا
فتًى غرس المكارمَ ثم منها جنى ثمر العُلا غضًّا طرِيًّا
يعافُ مَعاشه إلا شريفًا ويأبى المجدَ إلَّا جوهريًّا

[٤] الأحوذي: الجاد في أمره، والحسن السياقة للأمور.

تجاه الريحاني

شكواي الخاصة

لهذا اليوم في التاريخ ذكر ... به الآناف يَفعَمهُنَّ طيبُ
ويحسن في المسامع منه صوتٌ ... له تهتز بالطرب القلوب
ففي ذا اليوم نحن قد احتفينا ... بريحانيِّنا وهو الأديب
فتًى كثرت مناقبه فأضحى ... له في كل مكرمة نصيب
نجالس منه ذا خُلقٍ كريم ... له بجليسه أثرٌ عجيب
وأقسم لو يجالسه سفيهٌ ... فَواقًا لاغتدى وهو الأريب[1]
كذاك يكون زهرُ الروض لَمَّا ... تمرُّ عليه ناسمة تطيب
ولم يُنسب إلى الريحان إلَّا ... وريحان الرياض له نسيب
له قلَمٌ به تحيا المعاني ... كما يحيا من المطر الجديب
وتُشرق في سماء الشعر منه ... كواكب ليس يُدركها مَغيب
لقد طارت بشهرته شَمالٌ ... كما طارت بشهرته جَنوب
وطبَّق صِيته الآفاقَ حتى ... تعرَّفه القبائل والشعوب
فديتك! هل تُصيخ؟ فإن عندي ... شَكاة لا تُصيخ لها الخطوب
إلى كم أستغيث ولا مغيث ... وأدعو مَنْ أراه فلا يجيب؟!

[1] فواقًا: أي قدر فواق، وهو مدة ما بين الحلبتين.

أقمتُ ببلدة مُلئتْ حُقودًا ... عليَّ فكل ما فيها مُريب
أمرُّ فتنظر الأبصار شزْرًا ... إليَّ كأنما قد مَرَّ ذيب
وكم من أوجهٍ تُبدي ابتسامًا ... وفي طيِّ ابتسامتها قُطوب!
سكنت الخانَ في بلدي كأني ... أخو سفَرٍ تقاذَفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه ... لأني اليوم في وطني غريب
وما هذا وإن آذى بدائي ... ولا هو أمره أمر عصيب
ولكني أرى أبناء قومي ... يدبر أمرهم مَنْ لا يُصيب
يُقدَّم فيهم الشرِّير دفعًا ... لشرَّته ويُحتقَر الأديب
فهذا الداء منتشِب بقلبي ... وفي قلب العُلا منه وجيب
فكيف شفاؤه ومتى يُرجَّى؟ ... وأين دواؤهُ ومَنِ الطبيب؟
وإن أَكُ قد شكوت فما شكاتي ... إلى ذي خُلَّةٍ شيء معيب
سأنصِبُ للهواجر حُرَّ وجه ... يعود إلى الشروق به الغروب
وأضرب في البلاد بغير مُكث ... أجوب من الْمَهامِهِ ما أجوب
إلى أن أستظلَّ بظلِّ قوم ... حياة الحر عندهمُ تطيب
وإلا فالحياة أمرُّ شيءٍ ... وخيرٌ من مرارتها شَعوبُ

بني الأرض

بني الأرض هل من سامع فأبثُّهُ حديثَ بصيرٍ بالحقيقة عالم؟
جُبلنا على حبِّ الحياة وإنها مخيفة أحلام أطافت بحالم
سعى الناس والأقدار مخبوءةٌ لهم وناموا وما ليل الخطوب بنائم
جرت سفن الأيام مشحونة بنا على بحر عيش بالردى متلاطِم

* * *

تأمَّلتُ في الأحياءِ طرًّا فلم أجد بهم باسمًا إلا على ألف واجم
وربَّ سعيد واحدٍ تمَّ سعدُهُ بألف شقيٍّ في المعيشة راغم
وما المرءُ إلا دَوْحةٌ في تنوفةٍ مُلوَّحةٌ أغصانها بالسمائم[1]
لها ورقٌ قد جفَّ إلا أقلُّه وعيدانها بين النُّيوب العواجمِ[2]
ولا بدَّ أن تُجْتثَّ يومًا جذورُها وتَقلعها إحدى الرياح الهواجم

* * *

أرى العُمر مهما ازداد يزداد نقصه إذن نحن في نقصٍ من العمر دائم
ولولا انهدامٌ في بناء جسومنا لما احتيج في تعميرها للمطاعم

[1] الدوحة: الشجرة العظيمة. التنوفة: المفازة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
[2] النيوب: جمع ناب، وهي السن التي خلف الرباعية. العواجم: الأسنان؛ لأنها تعجم المأكول.

لحى اللَّه بأساءَ الحياة كأننا نُكبَّلُ من حاجاتها بالأداهم[٣]
نروح كما نغدو نجاهد دونها أمورًا دعتنا لارتكاب الجرائم
فلو كنتُ في هذا الوجود مخيَّرًا وفي عَدمي لاخترته غير نادم[٤]
هل الموت إلا سالكٌ وحياتنا إليه سبيلٌ مستبينُ المعالم؟
وما زال هذا الدهرُ غضبانَ آخذًا على الناس من سيف المَنون بقائم[٥]
تبصَّر تجدْ هذي البسيطةَ منزلًا كثير اليتامَى عامرًا بالمآتم
وليس الذي آسى له فقد هالك ولكن ضياعُ المفجَعات الكرائم
أراملُ تستذري الدموع وحولها يتامى كأفراخ القطا والحمائم
وكائنْ ترى مخدومة في جلالها سعتْ حيث أبكاها الردَى سعيَ خادم![٦]
فليت المنايا حين قوَّضْن بيتها بدأن بها من قبل هدم الدعائم!

* * *

أرى الخيرَ في الأحياء ومْضَ سحابةٍ بدا خُلَّبًا والشرَّ ضربةَ لازم
إذا ما رأينا واحدًا قام بانيًا هناك رأينا خلفه ألفَ هادم
وما جاء فيهم عادلٌ يستميلهمْ إلى الحق إلا صدَّه ألف ظالم
جهِلت كجهل الناس حكمةَ خالق على الخلق طُرًّا بالتعاسة حاكم
وغاية جهدي أنني قد علمته حكيمًا تعالى عن ركوب المظالم

* * *

دأبت لنفسي في الحياة كأنني من العيش مُلقًّى في شُدوق الضراغم
يخاصمني منها على غير طائلٍ أناس فأُبدِي الصفحَ غير مخاصم
وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه حذارَ وقوعي في خبيث المطاعم

[٣] يقال: لحى الشجرة: بمعنى قشرها، ويستعمل اللحي بمعنى الشتم والسب مجازًا كما هنا. الأداهم: القيود.

[٤] اخترته: أي اخترت العدم.

[٥] قائم السيف: مقبضه.

[٦] كائن: بمعنى كم للتكثير.

وأترك ما قد تشتهي النفس نَيْلَه لما تشتهيه قِلة في دراهمي
وكم ليَ في بغدادَ من ذي عداوةٍ وما أنا في شيءٍ عليه بجارم![٧]
إذا جئت بالقلب السليم يجيئني بقلبٍ له من كثرة الحِقد وارم

[٧] جارم: مذنب.

الحمد للمعلم

إلى المعلم نخلة زريق

وليلٍ به قد بِتُّ أختلس الكرى وأرَّقت فيه النجم أن يتغورا[1]
تمطى على الآكام منه بغَيهبٍ تكاثَف حتى خِلته قد تحجَّرا
وكاد دُجاه يمكن الكفَّ لمسُهُ فلو سار سارٍ في دُجاه تعثَّرا
لقد بِتُّهُ والهمُّ مُعْتلِجٌ به إذا زاد طُولًا زدت فيه تضجُّرا
يقلِّبني فيه الجَوى وتهزُّني لواعج شوقٍ في الفؤاد تسعُّرا
أرى الزُّهْر فيه يضطربْنَ كخابطٍ بتيهاء يجتاب الدُّجَى متحيِّرا
كأنَّ نجوم الليل غَضْبى على الدُّجى تُردِّد لحظًا في الدُّجنة أشزرا
إلى أن بدا لي الصُّبح يحكي عمودُه لنخلة رأيًا بالذكاء مُنَوِّرا
فتى كنت قبل اليوم خُبِّرت فضله كبيرًا ومذ شاهدته كان أكبرا
له خُلُقٌ بادٍ إباءً ونخوةً وعقلٌ رزين بالعلوم تحضُّرا
ترى منه إن لايَنْتَهُ ذا دماثةٍ أديبًا وإن خاشنتَه فغَضَنْفرا
لقد علمت هذي المدارس فضله لَدُنْ كان للتدريس فيها تصدَّرا
تقضَّتْ له فيها ثلاثون حِجة بها قرَّط الآذانَ دُرًّا وجوهرا
وجهَّز بالآداب أبناء قطره أماليَ أملاها عليهم وقرَّرا

[1] يتغور: يميل للمغيب.

بـذلـك أحـيـا لـلأعـاريـبِ لـهـجـةً خـلا رَبعُـها من سـاكـنيـه وأقـفـرا
إذا استبهمتْ طُرْقُ الفصاحة مازَها بمـا فـي كـتـاب اللَّـه مـنـهـا تـقـرَّرا
لنـا اليوم جيش من تلاميذ علمه بـه الـجـهـل ولَّـى مـدبـرًا وتـقـهـقـرا
هم الجيش سدُّوا ثغرَ كلِّ جهالةٍ إذا اتخذوا فـي كل ثغر معسكرا
له الفضلُ في تعليمهم أفصحَ اللغا وغـرَّ الـقـوافـي والـكـلامَ الـمـحـبَّـرا
فـكـلُّ فـتـى مـنـهـم أديـبٌ نـقـيـمُـه لِـيـلـقـيَ درسًـا أو لـيـقـرع مِـنـبـرَا
لـك ابـنَ زُرَيْـقٍ مِـنَّـةٌ سَـرْمـديـةٌ سـيـذكـرهـا فـي دهـره مَـنْ تـذكـرا
إذا مـا سـمـعـنـا نـاطـقًـا بـفـصـاحـةٍ مـن الـنـاس أثـنـيـنـا عـلـيـك تـشـكُّـرا
كفى بالسكاكيني في القدس شاهدًا بما لك من فضل عميم على الورَى
فقد كان قبل اليوم تلميذَك الذي غـدا الـيـوم أسـتـاذًا كـبـيـرًا مـفـكِّـرا

عرس مصر

قالها لَمَّا أُقِيم في مصر عرس لكريمة مصري عند اقترانها بابن الداماد فريد باشا، وكان ذلك في أثناء حرب البلقان المعلومة.

أطربَتهمْ بلحنها الأنغامُ حين أدمت قلوبنا الآلامُ
فأقاموا مجالسَ الأنس حتى رقصَ العار بينهم والذَّامُ
أضحكوا أوجه السفاهة ضِحكًا قد بكت في خلاله الأحلام
إنَّ في مصر للكريمة عرسًا سوف تُعنَى بشرحه الأقلام
أوقدوا فيه للسرور سِراجًا عمَّ من نوره البلاد ظلام
ذاك عرس تَكشَّر اللؤم فيه عن نيوبٍ كأنهن سهام
وتغنَّت للقوم فيه قِيانٌ أنكر المهدُ صوتها والذمام
فلِعَين الحليم فيه بكاء ولثغر السفيه فيه ابتسام

* * *

أيها الْمُولمُون في مصر مهلًا إن إيلامكم لنا إيلام
أتغنِّيكم القيان بيوم قام في مأتمٍ به الإسلام؟!
لبست هذه البلاد حدادًا وتحلَّت بوشيها الأهرام
وجرت أعين الفرات دموعًا وجرى النيل ثغره بسَّام
أشمَاتًا بالمسلمين وقد دا رت عليهم بنحسها الأيام؟!
إذ رمتهم يد الزمان بخطب جَلَلٍ ما لنقضه إبرامُ
فهوت في مصارع الحكم منهم جثثٌ تملأ الفضاء وهام

وتـخـلَّـوْا عـن الـبـلاد وأبـقَـوا حُـرمـاتٍ تـدوسـهـا الأقـدام

* * *

يا بنـي مصر صَغْية لسؤال فـيـه عَـتـب لـكـم وفـيـه مَـلام
أتُناط الفتوخُ في خِنصر الكفِّ ازديـانًـا إن قـطَّـتِ الإبـهـام؟![1]
أدماء القتلى لديكم خِضابٌ أم أنين الجرحَى لكم أنغام؟!
أم تريدون أن تكونوا كقوم أسكرتهم بين القبور مُدام؟!
أم أصختم إلى الأغاريد كيلا تسمعوا كيف تنحَب الأيتام؟!
لست أدري وقد سمعت بهذا يقظة ما سمعته أم منام؟!

[1] الفتوخ: جمع فتخ، وهي حلقة كالخاتم.

من مضحكات الدهر

سأبدي لدهري ناجذَ المتضحِّك ... ولو كان يجري بالذي هو مهلِكي
فما أنا راجٍ بعد ذا اليوم خيرَه ... ولا خائفٌ من شره المتحرِّكِ
إذا الدهر لم يُعتب من الناس جازعًا ... فأضْيَعُ ما فيه شكاية مشتكي
على أنَّ ضِحْكي منه لا عن سفاهةٍ ... ولك كضِحكِ العَفِّ من متهتِّكِ
ولو سَبَرَ الناس الحوادث بالنهى ... لما حصلوا منها على غير مُضحِك
وما حادثات الدهر إلا خوابطٌ ... كعشواءَ تمشي مِشية المترهْوكِ[1]
وتنهض للإرقال في غير مَنهضٍ ... وتبرك أَحيانًا على غير مَبْركِ
وما حُكْم هذا الدهر إلا تحكُّمٌ ... كحكم فصوص النرد في نقل مُهرَك[2]
كأنَّا من الدنيا ببيت مقامرٍ ... حوى من سهام القَمْر كل مُدَمْلَك[3]
فمِن قامرٍ قد فاز باليَسر قِدحُه ... وآخر مقمور بقدح التصعلُك
وما الحِرَف اللاتي يجيد احترافها ... سوى شبَكٍ منصوبة للتملك

---

[1] المترهوك: المضطرب، الذي تراه كأنه يموج في مشيته.

[2] المهرك: واحد المهارك، وهو قطع مستديرة من خشب أو غيره يلعب بها في النرد.

[3] سهام القمر: قداحه التي يقارع بها في القمار. والمدملك: من السهام المخلق، أي: المسوى المملس، لما جعل أحكام الدهر في البيت المتقدم كأحكام كعاب النرد، ناسب أن يجعل الدنيا في هذا البيت بيت مغامرة، والناس فيها بين قامر ومقمور، وأوضح ذلك بالأبيات التالية.

وإنَّ طبيب القوم ناصبُ كِفَّةٍ ليصطاد فيها بالدواء الممصطك[٤]
ومن مضحكات الدهر حاملُ سُبَحة تُقبِّل جهلًا كفُّهُ للتبرُّك
وآخرُ تركيٌّ تعرَّبَ وادَّعى على عربي هُجنة المتترك[٥]
وتحديثُ غِرٍّ مطريًا عدل دولة برايتها رسم الصليب المشبَّك
وما الناس إلا خادعٌ أدرك المنى وآخر مخدوع لها غير مدرك
فلا تُبدِ من زير النساءِ تعجبًا ولا تغترِرْ بالزاهد المتنسك
فما دارت الأفلاك إلا وقطبها بحكم الهوى حب الكَعاب المفلِّك[٦]
وإن أبصرتْ عيناك يومًا حقيقةً تخالف ما قد قلتُه فتشكَّكِ
فإنك لم يُنبئك مثلُ مُجَرِّبٍ خبير ولم ينصحك مثل مُحنَّك
فهذا لعمرُ اللَّه رأيي فخذ به فقد فُزتَ منه بالجُذَيل المحَكَّك[٧]

[٤] الكفة: حبالة الصائد التي يصيد بها الظباء، وهي بضم الكاف وتكسر. والدواء الممصطك: المخلوط بالمصطكي.

[٥] حاصل معنى البيت أن من المضحكات تركيًّا تعرب، فصار يعير بالهجنة عربيًّا قد تترك.

[٦] الكعاب: كسحاب؛ الجارية الناهد. والمفلك بصيغة الفاعل واللام مشددة؛ التي استدار ثديها، يقال: فلكت الجارية: استدار ثديها كفلكة المغزل.

[٧] الجذيل المحكك: الذي يشتفى برأيه، والجذيل: تصغير جذل، وهو عود كانوا ينصبونه في العطن لتحتك به الإبل الجربى، ثم صار يضرب مثلًا للذي يستشفى برأيه.

الشارع الكبير ببغداد

نَكِّبِ الشارع الكبير ببغدا … دَ ولا تمْشِ فيه إلا اضطرارا
شارعٌ إن ركبتَ مَتْنَيْهِ يومًا … تَلقَ فيهِ السهول والأوعارا
تترامى سنابك الخيل فيه … إن تقحَّمن وَعْثه والخبارا
فهْي تحثو التراب فيه على الأو … جهِ حَثوًا وتقذف الأحجارا
لو ركبتَ البُراقَ فيه أو البَرْ … قَ نهارًا لما أمنت العثارا
تحسب العابرين فيه سُكارى … من هواء تنسَّموهُ غبارا
ساطعًا يملأ الفضا مستطيرًا … حاملًا في ذراته الأقذارا
مستجيشًا من الجراثيم جيشًا … مسبطرًّا عرمرمًا جرارا[1]
هو إن رُشَّ جاش وَحْلًا وإلَّا … جاشَ نقعًا على الوجوه مُثارا
تصهَرُ الشَّمس فيه أدمغة القو … م إذا هم تخبَّطوه نهارا
وإذا ما مشيت في جانبيهِ … فتجنَّبْ رصيفه المنهارا
وإذا ما أرسلت فيه إلى الأطـ … ـراف لحظًا أنكرته إنكارا
لا ترى فيه ما يسرُّك بالصنـ … ـعة حُسنًا ويبهج الأبصارا
بل ترى العين فيه كلَّ جدار … تكره العين أن تراه جدارا
فجدارٌ عالٍ وفي الجنب منه … متدانٍ تقيسه أشبارا

[1] مسبطرًّا: من اسبطر؛ أي امتد.

ودكاكينُ كالأفاحيص تمتـ ـدُّ يمينًا بطوله ويَسارا
أين هذا من الشوارع في الأمصـ ـار زانت بحسنها الأمصارا؟!
عبَّدوها ومهَّدوها فجاءت لا اعوجاجًا بها ولا إزورارا
وأعدُّوا بهنَّ كل رصيف يَحمَد السيرَ فوقه من سارا
وأقاموا لهم بها كلَّ صرح مشمخرٍّ بناؤه اشمخرارا
فعلى الجانبين كل بناء خِيلَ في الحسن كوكبًا قد أنارا
ثم لم يكتَفوا بذلك حتى غرسوا في ضِفافها الأشجارا
فوَقَتْهم ظلالُها وهَج الشمـ ـس وسرَّ اخضرارها الأنظارا
هكذا فلتكن شوارعنا اليو مَ وإلا فما عمرنا الدِّيارا

على الخوان

أكبَّ على الخوان وكان خِفًّا فلما قام أثقله القيام[1]
ووالى بينها لُقمًا ضخامًا فما مرئت له اللُّقم الضخام[2]
وعاجل بَلْعَهنَّ بغير مَضْغٍ فهن بفيهِ وضع فالتهام
فضاقت بطنه شِبَعًا وشالت إلى أَن كاد ينقطع الحزام
فأرسلتُ اللحاظ إليه شَزْرًا وقلت له: رويدك يا غلام!
أرَى اللقمات تأخذها حلالًا فتدخل فاك وهي به حرام
قد انتضَدَت بجوفك مفرداتٌ تخلَّل بينها الداءُ العُقام
أتزدرد الطعامَ بغير مضغٍ؟! على أيام صحتك السلام
فلا تأكل طعامك بازدرادٍ معاجلةً فيأكلَك الطعام
ألا إنَّ الطعام دواءُ داءٍ به ابتليت من القِدَم الأنام
فداوِ سَقامَ جوعك عن كفافٍ فإكثار الدواء هو السَّقام
وما أكل المطاعم لالتذاذٍ ولكن للحياة بها دوام
طعام الناس أعجب ما أحبوا فمنه حياتهم وبه الحِمام

---

[1] أكبَّ عليه: أقبل عليه ولزمه. وكان خفًّا بالكسر: أي خفيفًا.

[2] والى بينها: أي تابع بين اللقم. فما مرئت له: أي ما ساغت المغبة. لقمًا: تمييز للضمير المضاف إليه في قوله بينها.

يقودهمُ الزمان إلى المنايا وما غير الطعام لهم زمام
وأعجب منه أَن الناس راموا تنوُّعه ألا بئس المَرام!
إذا استعصى القَفار عليك أكْلًا كفاك من القَراح له إدام[٣]
حَذَارِ حَذَارِ من جَشعٍ فإني رأيت الناس أجشعها اللئام!
وأغبى العالمين فتًى أكولٌ لفطنته ببطنته انهزام
ولو أني استطعت صيام دهري لصمت فكان ديداني الصيام
ولكن لا أصوم صيام قومٍ تكاثر في فُطورهمُ الطعام
فإن وضح النهار طوَوْا جياعًا وقد نهموا إذا اختلط الظلام
وقالوا: يا نهار لئن تُجِعْنا فإنَّ اللَّيلَ منك لنا انتقام
وناموا مُتخمين على امتلاءٍ وقد يتجشَّئونَ وهم نيام
فقل للصائمين أداءَ فرضٍ: ألا ما هكذا فُرض الصيام!

[٣] القفار بالفتح: صفة لمحذوف؛ أي الخبز القفار، ويقال: خبز قفار: أي غير مأدوم. والقراح بالفتح: الماء الخالص.

تحية سركيس

أنشدها في حفلة أقيمت في القدس لتكريم الكاتب الشهير سليم سركيس، عند قدومه إليها زائرًا.

من فاضلٍ أكبرتُه قبل اللِّقا　　فَسجَرْتُ فيه من الثناء وطيسا

حتى إذا كان اللقاء وجدت ما　　يُعزى إليه من العُلا معكوسا

إلا الفتى سركيس؛ أي وتشرُّفي　　بلقائه، إلَّا الفتى سركِيسا

جالسته في القدس أولَ مرَّةٍ　　فأحسَّ قلبي من هواه رَسيسا

في مجلسٍ نظم الزمان بصدره　　عقدًا من الصيد الكرام نفيسا

إذ كان يسكرنا بخمر حديثه　　فيدير منه على الجلوس كئوسا

يحيي السرور الميتَ منك بنكتة　　فيُريك معجزة ابن مريم عيسى

وإذا أفاض من الحديث بحكمة　　خِلنا محدِّثنا أرسطاليسا

وإذا تحدَّث مازحًا فنكاته　　بالضحك تصفع من تراه عبوسا

لو يستدرُّ يد الشحيح بظرفه　　يومًا لجاد له وحَلَّ الكيسا

جالسته فَكه الكلام منافثًا　　أكرمْ بمثلك يا سليم جليسا!

فمجالس الأدباء أنت رئيسها　　أخلق بمثلك أن يكون رئيسا

أولست ربَّ مَجَلَّةٍ أدبية　　تُزري بأزهار الرياض طروسا

في كل شهرٍ بالفنون تزفُّها　　عذراءَ باهرة الجمال عَروسا

قد جئتَ في تحبيرها متنطِّسًا　　تشفي بنفث يراعِكَ المألوسا

تبدو الحقائق من خلال سطورها　　فتضيء في ليل الشُّكوك شموسا

لَمَّا قدمتَ القدس قصدَ زيارةٍ فمنحتَ وحشة أهلها تأنيسا
قمنا لفضلك يا سليمُ تجلَّةً نحني الظهور مُطأطِئين رءوسا

إلى البلاغ

أرسلها وهو في الآستانة إلى محمد باقر، لَمَّا أصدر جريدة البلاغ في بيروت.

أباقرُ لم تَدعْ للقوم عُذرًا بما أصدرت من حُجج البلاغِ
فقد صُغت النصائحَ خالصاتٍ فجاءت وهي فائقة المصاغِ
وأوضحت الحقائق رائقات لدى الأذواق طيِّبة المساغِ
ولكن أين من يُصغي ومن ذا نحاول منه قلبًا غير صاغِ؟
لقد حلم الأديم فليت شعري أينفع ما تريد من الدباغِ؟
ألست ترى بني الإسلام أمسوا حيارَى بين منتصف وباغِ؟
فقومٌ في مقاصِفهم وقومٌ يلوكون القفار بلا صِباغِ
وكم داعٍ رأوه لهم «مفيدًا» وما هو في «الحقيقة» غير لاغ
وكم صحفٍ لهم فغرَتْ حلوقًا لتمضغهم بأسنان شواغِ
وما أخذتهمُ نفثًا ولكن تضجُّ كأنها الإبل الرَّواغي
على أني وإن أبديت سُخطًا فما أدعوك فيه إلى الفراغِ
فلا تترك بلاغَك عن مَلالٍ فيفرحَ من مَلالك كل طاغِ
فقم في القوم مُنتضيًا يراعًا يفلِّق هام أرباب الرَّواغِ
وخاطبهمْ بشقشقةِ المنادي وآونةً بدندنةِ المنَاغي
فأنت فتًى إذا بلَّغت أمرًا تؤيِّدك البلاغة في البلاغ
وأنتَ وإن خُلِقتَ نحيف جسم تفوق سواك في كبر الدِّماغ

في حفلة الزهاوي

أرى بغداد من بعد اغبرارٍ زهت بقدوم شاعرها الزهاوي
زهت بكبيرها أدبًا وعلمًا زهت بطبيب عِلتها المداوي
وكادت مصر تسبقها فخارًا به لو ظلَّ وهو هناك ثاوي
ولكن عاد محتقبًا إليها فخارُ الأرض والشرف السماوي
فأهلًا بالحكيم وألفَ أهلٍ بِمَنْ لا زال مُرشدَ كل غاوي
وما الآداب في بغداد لولا يَراع جميلها إلا دَعاوي
إذا ما قال في بغداد شعرًا رواه له بأقصى الأرض راوي
تفرَّد في بديع الشعر معنًى فجَلَّ عن الْمُعادِل والمساوي
أعيذُك يا جميل الشعرِ من أن يسوءك نقدُ أرباب الْمَساوي
يداوون السقيم من المعاني بفهم كان أجدر بالتداوي
ألا لا تعجبن وهُمُ ذئاب إذا هم أفزعوك بصوت عاوي
لقد نقدوا قريضك نقد أعمى يدل على الضغائن في المطاوي
فأحمِ لهم حديد الشعر حتى تذيقَ نفوسهم حرَّ الْمَكاوي
فهم قوم يروْن الحلم عَجْزا إذا ما ناوءوك ولم تناوِ
ولا تضربهمُ إن شئت إلا بضغثٍ من نباتِ الشعر ذاوي
فهم مثل الذباب يطير ذعرًا بهزٍّ مِذبَّةٍ وهويٍّ هاوي
وليسوا مُحوجيك إلى معينٍ وهم ما بين مهزول وضاوي
فنفخٌ منك يجعلهم هباءً ويسقطهم إلى سفلى الْمَهاوي

وما احتاج القويُّ إلى مُعينٍ   إذا كان الضعيف هو الْمُقاوي

إلى صاحبة الحياة الجديدة

أرسلها إلى السيدة حبوبة صاحبة مجلة الحياة الجديدة في بيروت.

هَلُمَّ يا قومُ نسعى   إلى حياة سعيدَه
فإن فينا افتقارًا   إلى أمورٍ عديده
إلى اتحادٍ وسعيٍ   إلى المساعي الْمُفيدَه
إلى معاهدَ نُفْنيٍ   بها الشرور المبيده
إلى مدارس تعلو   على القصور الْمَشِيده
إلى عقولٍ كبار   إلى نفوس رَشيده
إلى جسوم نُقاوي   بها الخطوبَ الشديده
إلى صلاح نداوي   به فساد العقيده
وإن أريد اكتفاءٌ   بِكلْمةٍ عن قصيده
فكل ما نبتغيه   هو الحياة الجديده
هو الذي تدَّعيه   حبُّوبةٌ في الجريده
تلك الصحيفةُ تأتي   لنا بكل شريده
تلك المجلة تحوي   من كل عقد فريده
حبُّوبةُ استنشديني   إن شئتِ كل نشيده
فأنتِ خيرُ فتاةٍ   حميدة ومجيده
الشرق فيه قيود   وقد فككْتِ قيوده
وفيه داءُ جُمود   وقد شفيتِ جُموده

آراؤك الـغـرُّ فـيـه صـحـيـحـة وسـديـده
مَـن لا يُـريـد أمـورًا لـهـنَّ أنـت مُـريـدَه
إلا الـذي عـاش غِـرًّا وطـوَّق الأسرُ جِيدَهْ
فـذاك مـا عـاش إلا لـقـصـعـة وثـريـده

إلى المتعلم

أَخْصِ في العلم إن أردت كمالا ووصولًا إلى الفخار الأتمِّ[1]

وإذا رُمتَ في التعُّلم حِذقًا فاترك النفس والذي هي ترمي

واجتنب قسرها على ما أبته إن قسر الطباع أكبر ظلم

إنما الميل في الغرائز تيًّا ر ومن ذا يردُّ تيار يَمِّ

أطعم العقل ما اشتهاه من العلـ ـم وإلا استقأت من سوءِ هَضم

ليس في أرؤسِ الرجال دماغٌ هاضم في ذكائه كل علم

فمن النقص أن تحاول أن تضـ ـرب في كلِّ ذي العلوم بسهم

حسن فهم الأخصِّ أكثر نفعًا لذويه من قبح فهم الأعمِّ

وبُغاة العلوم مثل رماة الصـ ـيد فاعلم وليس مُنمِ كمُصْمي[2]

وإذا ما اشتغلتَ بالجد ساعا تٍ فهازل سُويعة واستجمِّ

وترفَّق إذا جُهدْتَ فإن الر فقَ يُذكي الفؤاد والعنف يُعمي

---

[1] قوله أخص: فعل أمر من أخصى طالب العلم، إذا تعلم علمًا واحدًا.

[2] قوله: «وليس منم كمصمي»، المنمي: اسم فاعل، من قولهم: أنمى الصياد الصيد؛ إذا رماه فأصابه ولم يقتله، ثم ذهب عنه فمات، والمصمي: اسم فاعل من قولهم: أصمى الصيد؛ إذا رماه فقتله مكانه وهو يراه، والمعنى أن طالب العلم كرامي الصيد، فإذا أخصى في العلم وأتقنه كل الإتقان، كان كالمصمي الذي ينتفع بصيده.

ولقد يبلغ العجول مداه بالتأني بلوغ خَضم بِقَضْم[3]
كل مَنْ كانت العلوم لديه جمّةً كان نفعه غيرَ جَمِّ
أيُّ فضلٍ لعالم غير بدْعٍ ليس في العلم يُرتجى للْمُهمِّ؟!
سار شوطًا لكلِّ علم ولكن لم يَنَل فيه غاية المستَتمِّ
هَبْه أبدى من العلوم نجومًا في ليالٍ من المشاكل دُهْم
أوَلَيس البدرُ التمام وإن كا ن وحيدًا يربو على ألف نجم؟!
كن قويًّا في كل ما تدَّعيه إنما الفوز للقويِّ الْمُلِمِّ
أيها العاجزُ الضعيفُ رُوَيدًا أَقْرَنُ الضأن فاتِكٌ بالأجمِّ[4]

[3] المراد بالخضم هنا: الأكل ملء الفم. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان قليلًا قليلًا، وقد ضمن هذا البيت المثل وهو قولهم: «قد يبلغ المخضم بالقضم»؛ أي الشبعة تبلغ بالأكل بأطراف الفم، أي الغاية البعيدة تدرك بالرفق.

[4] الأقرن من الضأن: الذي له قرنان. والأجم: الذي لا قرن له، والمعنى أن القوي فاتك بالضعيف لا محالة.

اليتيم المخدوع[1]

قضى والليلُ مُعتكرٌ بهيمُ ... ولا أهل لديه ولا حميم
قضى في غير موطنه قتيلًا ... تمجُّ دمَ الحياة به الكلوم[2]
قضى من غير باكيةٍ وباكٍ ... ومن يبكي إذا قتل اليتيم؟
قضى غَضَّ الشبيبة وهو عفٌّ ... مُطهَّرة مآزره كريم
سقاه من الردى كأسًا دهاقًا ... عَفافُ النفس والعِرضُ السليم[3]
تجرَّعها على طرَبٍ ولكن ... بكفِّ اليتم ليس له نديم
على حينَ الربابة في نواحٍ ... يساجلها به العود الرخيم
بحيث رقائق الألحان كانت ... بها الأشجان طافية تعوم
كأن ترنُّم الأوتار نعْيٌ ... وصمت السامعين لها وجوم

[1] السبب الذي دعا شاعرنا إلى نظم القصيدة، أن رجلًا يهوديًّا مطربًا من حلب اسمه «سليم» خدع غلامًا مسيحيًّا يتيمًا من أهلها، وأتى به من بغداد فأراد منه المنكر بعض أهلها، فأبت نفس الغلام الزكية الطاهرة ذلك، فجاءه يومًا وهو سكران والغلام في نادي طرب يضم المئات من الناس، وأطلق عليه الرصاص، فسقط ذلك اليتيم المخدوع على الأرض، فحمل إلى مستشفى الغرباء هناك، وقبض على الجاني وزج به في السجن، فنظم معروف الرصافي هذه القصيدة حاكيًا بها هذه الحادثة المؤلمة.

[2] الكلوم: الجروح.

[3] دهاقًا: ممتلئة.

فجاء الموتُ ملتفعًا بخزْيٍ ... وملءُ إهابه سَفَهٌ ولومُ[٤]
فأطلق من مسدَّسه رصاصًا ... به في الرَّمْي تنخرق الجسوم
فخرَّ إلى الجبين به «نعيمٌ» ... كما انقضَّت من الشُّهْب الرجوم[٥]
فبانَ مودِّعًا بعد ارتثاثٍ ... حياةً لا تُناط بها الوصوم[٦]
لئن لم تبكِ من أسف عليه ... سفاهتنا فقد بكت الحُلوم[٧]
ولو دَرَتِ النجوم له مصابًا ... بكتْه على ترفعها النجوم
عسى الشهباءُ تثأره فتُبدي ... إلى الزوراءِ ما يبدي الخصيم[٨]
ولم يقتله «إبراهيم» فيما ... أرى بل إن قاتله «سَليم»
أليس «سليمٌ» الملعون أغوى ... «نعيمًا» فهو شيطان رجيم
وأخرجه من الشهباء غِرًّا ... يتيمًا ما له أبدًا زعيم
وجاء به إلى بغداد حتى ... تخرَّمه بها قتل أليم
سأبكيه ولم أعبأ بلاحٍ ... وأندبُه وإن سَخط العُمومُ
ولمَّا أن ثوى ناديت أرِّخْ ... ثوَى قتلًا بلا مَهلٍ «نعيمُ»

---

[٤] الإهاب: الجلد قبل أن يدبغ.

[٥] الرجوم: ما يرجم به، مفردها رجم.

[٦] ارتث ارتثاثًا: بالبناء للمجهول؛ حمل من المعركة جريحًا. الوصوم: العيوب.

[٧] الحلوم: العقول.

[٨] الشهباء: حلب. والزوراء: بغداد.

ميت الأحياء وحي الأموات

تيقَّظْ فما أنت بالخالدِ ولا حادث الدهر بالراقدِ
فخلِّد بسعيك مجدًا يدومُ دوام النجوم بلا جاحد
وأَبْقِ لك الذكر بالصالحات وخلِّ النزوع إلى الفاسد[1]
وردْ ما يناديك عنه الصدورُ ألا دَرَّ درُّك من وارد![2]
وسر بين قومك في سيرةٍ تميت الحقود من الحاقد
فإن فتَى الدهر مَنْ يدَّعي فتأتي أعاديه بالشاهد
ولا تكُ مُرمًى بداءِ السكون فتصبح كالحجر الجامد
وكن رجلًا في العلا حُوَّلًا تفنَّن في سيره الراشد[3]
إذا اطَّردتْ حركات الحياة ومرَّت على نسَقٍ واحد
ولم تتنوَّع أفانينها ودامت بوجهٍ لها بارد
ولم تتجدَّد لها شَملَةٌ من السعي في الشرف الخالد
فما هي إلا حياة السَّوامِ تجول من العيش في نافدِ[4]

[1] النزوع: المَيل.

[2] الصدور عن الأمر: الرجوع عنه. در درك: أي أكثر خيرك، وأصل معنى الدر: اللبن.

[3] الحول: هو الشديد الاحتيال.

[4] السوام: الحيوانات السائمة.

* * *

وما يُرتجَى من حياة امرئٍ كمـاءٍ علـى سَـبـخـة راكد[٥]
وليس له في غضون الحياة سوى النفَس النازل الصاعد
يَغضُّ على الجهل أجفانه ويرْضى من العيش بالكاسد
فذاك هو الميتُ في قومهِ وإن كان في المجلس الحاشد
وما المرءُ إلا فَتًى يغتدِي إلى العلم في شَركٍ صائد
سعى للمعارف فاحتازها وصـاد الأنـيـسَ مـع الآبـد[٦]
وطـالـع أوجـه أقـمـارهـا بـعـيـنِ بـصـيـرٍ لـهـا نـاقـد
فأبدى الحقائق من طَيِّها وألقى القُيود على الشارد
إذا هو أصبح نادَى: البدارَ وشمَّر للسعي عن ساعد
فكان المجلِّيَ في شأوه بعزمٍ يشقُّ على الحاسد
وإن بات بات على يَقْظَةٍ بِطَرفٍ لنجم العُلا راصد
وأحدثَ مجدًا طريفًا له وأَضْربَ عن مجده التالد
وما الحمقُ إلا هو الاتكا لُ على شرَفٍ جاءَ من والد
فذاك هو الحيُّ حيُّ الفخار وإن لـحـدَتْـهُ يـد الـلاحـد

---

[٥] السبخة: الأرض ذات النز والملح.

[٦] الآبد: النافر.

نحن في بغداد

أيـا سـائـلًا عـنَّـا بـبـغـدادَ إنـنـا بـهـائـم فـي بـغـداد أعـوزهـا الـنَّـبْـتُ
علَتْ أمَّة الـغـرب الـسـماءَ وأشرقتْ علينا فظَلنا نَنظر القوم من تحتُ
وهم ركضوا خيلَ المساعي وقد كبا بنا فرَسٌ عن مِقنَب السعي مُنْبَتُّ[1]
فـنـحـن أنـاسٌ لـم نـزل فـي بَـطـالـةٍ كـأنَّـا يـهـودٌ كـلُّ أيـامـنـا سـبـتُ
خـضـعـنـا لـحـكـام تـجـور وقـد حـلا بأفواهها من مالنا مأكل سُحْتُ[2]
كما قامرَتْنا ساسةُ الأمر خِدعةً فتمَّ علينا بالخِداع لها الدسْتُ[3]
لماذا نخلف الموت جُبنًا فلم نقم إلى الذَّبِّ عنا من أمورٍ هي الموت؟![4]
إذا كنتُ لا ألقى من الموت موئلًا فهل نافعي أن خِفته أو تهيَّبتُ؟!
ولَلمَوتُ خيرٌ من حياة تشوبها شوائب منها الظلم والذل والمقتُ

---

[1] ركض فرسه: غمزه برجله ليعدو ويسرع. كبا: عثر. المقنب: جماعة من الخيل تجتمع للغارة. منبت: منقطع.

[2] السحت: المكسب الحرام.

[3] الدست: الخديعة، والدست أيضًا: هو الذي يكون فيه الغلب في الشطرنج، وهذا المعنى أقرب المعاني ليناسب معنى المقامرة.

[4] الذَّبُّ: المدافعة.

رقية الصريع

يا عدل طال الانتظار فعجِّلِ — يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبلِ
يا عدل ليس على سواك مُعَوَّلٌ — هلَّا عطفت على الصريخ المعْولِ!
كيف القرار على أمورِ حكومة — حادت بهنَّ عن الطريق الأمثلِ
في الملك تفعل من فظائع جَوْرها — ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل
ملأت قراطيسَ الزمان كتابةً — للعدل وهي بحكمها لم تعدلِ
أضحتْ مناصبها تُباع وتشترَى — فغدت تُفَوَّض للغنيِّ الأجْهلِ
تَعطى مؤجلة لِمَنْ يبتاعها — ومتى انقضى الأجل المسمَّى يُعزلِ
فيروح يشري ثانيًا وبما ارتشى — قد عاد من أهل الثراءِ الأجزلِ
فيظلَّ في دار الخلافة راشيًا — حتى يعود بمنصِب كالأوَّلِ
سوق تباع بها المراتب سميت — دار الخلافة عند مَنْ لم يعقلِ
أبت السياسة أن تدوم حكومة — خصت برأي مقدَّسٍ لم يسألِ
مَثَل الحكومة تستبدُّ بحكمها — مَثَل البناء على نقًا متهيِّلِ[1]
يا أمةً رقدت فطال رُقادها — هبِّي وفي أمر الملوك تأمَّلي
أيكون ظل اللَّه تارك حكمه الـ — ـمنصوص في آي الكتاب المنزل؟
أم هل يكون خليفة لرسوله — مَنْ حاد عن هدي النبيِّ المرسل؟!

---

[1] نقًا: القطعة من الرمل. متهيل: متصبب.

كم جاء من مَلِكٍ دهاكِ بجوره ولواك عن قصد السبيل الأفضل![٢]
يقضي هواه بما يسومك في الورى خسفًا وينقِم منك إن لم تقبلي
ويروم صبرك وهو يسقيك الردى ويريد شكرك وهو لم يتفضَّل
وقد استكنْت له وأنت مُهانة حتى صبرتِ لفتكه المستأصل
بات السعيدَ وبتِّ فيه شقيَّةً تُستخدمين لغيِّه المسترسِل
تلك الحماقة لا حماقة مثلها حُمقًا فهل هو من صحيح تعقُّل
إن الحكومة وهي جمهورية كشفَتْ عماية قلب كلِّ مُضلِّل
سارت إلى نجح العباد بسيرة أبدت لهم حُمق الزمان الأول
فسموا إلى أوج العلاءِ ونحن لم نبرحْ نسوخُ إلى الحضيض الأسفل[٣]
حتى استقلوا كالكواكب فوقنا تجلو الظلامَ بنورها المتهلل
وعَلوا بحيث إذا شَخصنا نحوهم من تحتهم ضحكوا علينا من علِ
لبِسوا ثياب فخارهم مَوشية بالعزِّ وهي من الطراز الأكمل
نالوا وصال مُنى النفوس وإنها حرية العيش الرغيد المُخضل[٤]
حتى أقيم مجسَّمًا تمثالُها بين الشعوب على بناءٍ هَيكل
تمثال ناعمة الشمائل وجهها تزداد نورًا منه عينُ المجتلي
أفبعد هذا يا سَراة مواطني نرضى ونقنع بالمعاش الأرذل؟!
الغوث من هذا الجمود فإنه تاللَّه أهونُ منه صُمُّ الجندل[٥]
قد أبحرت شمُّ الجبال وأجبلت لجج البحار ونحن لم نتبدل
ما ضرَّكم لو تسمعون لناصحٍ لم يأتِ من نسج الكلام بهلهل[٦]
حتَّام نبقى لُعبة لحكومة دامت تجرِّعنا نقيع الحنظل؟!
تنحو بنا طرق البوار تحيُّفًا وتسومنا سوءَ العذاب الأهول

---

[٢] لواك: صرفك. قصد السبيل: أي السبيل المستقيمة.

[٣] نسوخ: نغوص.

[٤] المخضل: الندي.

[٥] الجندل: الحجارة، مفردها: جندلة.

[٦] الهلهل: الثوب الرديء النسج.

هذا ونحن مُجَدَّلون تجاهها كالفأر مرتعدًا تجاه الخَيطل[٧]

ما بالنا منها نخاف القتل إن قمنا! أما سنموت إن لم نُقتل؟!

يا عاذلًا فيما نفثتَ من الرُقى وعزمت فيه على الصريع المهمَل

انظر لصرعة من رَقيت وطولها فإذا نظرت فعند ذلك فاعذُلِ

[٧] مجدلون: مطرحون أرضًا. الخيطل: السنور، ويطلق على الكلب أيضًا.

مثنيات شعرية

أشرُّ فعل البرايا فعل منتحر وأفحش القول منهم قول مفتخر
إن التمدُّح من عُجْبٍ ومن أشرٍ والمرءُ في العجب ممقوت وفي الأشر[1]

* * *

يا راجيَ الأمر لم يطلب له سببًا كيف الرماية عن قوس بلا وتر؟!
ليس التسبب من عجز ولا خوَرٍ وإنما العجز تفويضٌ إلى القدرِ

* * *

دع الأناسيَّ وانسبني لغيرهمِ إن شئتَ للشاءِ أو إن شئت للبقر
فإن للبشر الراقي بخلقته مَن قد أنِفت به أني من البشرِ

* * *

أَلْبِسْ حياتَك أحوال المحيط وكن كالماء يَلبس ما للظَّرف من جُدرِ
وإن أبيت فلا تجزع وأنت بها عارٍ من الإنس أو كاسٍ من الضجر

* * *

إن رمتَ عزًّا على فقر تكابده فاستغْنِ عن مال أهل البذخ والبطر
فإنَّما النفس ما لم تَنْأَ عن طمعٍ فريسة بين ناب الذل والظفر

---

[1] الأشر: البطر.

* * *

إذا نظرتَ إلى الجزئي تصلحه فارقبه من مَرقب الكليِّ في النَّظر
فإنَّ نفعك شخصًا واحدًا رُبَمَا يكون منه عموم الناس في الضرر

* * *

قد يقبح الشيءُ وضعًا وهو من حسن كالنعش يُدْهِشُ مَرأًى وهو من شجر
فالقبح كالحسن في حكم النُّهى عَرَضٌ وليس يثبت إلا عند معتبر[٢]

* * *

لا تعجبنَّ لذي عقل يروح به لَينتج الشرُّ خيرًا غير منتظَر!
فإنما لمعات الخير كامنة بين الشرور كمون النار في الحجر

* * *

سبحان مَنْ أوجد الأشياء واحدةً وإنما كثرة الأشياء بالصُّور
هَبْ منشأ القوم يبقى مبهمًا أبدًا فهل ترى فيه عقلًا غيرَ منبهِر؟

* * *

الحب والبغض لا تأمن خِداعهما فكم هما أخذا قومًا على غرَر!
فالبغض يبدي كُدورًا في الصفاءِ كما أن المحبة تبدي الصفو في الكدر

* * *

وأشنع الكذب عندي ما يمازجه شيءٌ من الصدق تمويهًا على الفكر
فإن إبطال هذا في النُّهى عَسِرٌ وليس إبطال محْض الكذب بالعَسِر

* * *

قالوا: عشقتَ معيبَ الحسن! قلت لهم: كفُّوا الملامَ فما قلبي بمنزجِر
ما العشق إلا العمى عن عيبِ مَن عشِقتْ هذي القلوب ولا أعني عَمى البصر

[٢] النهى: العقل.

* * *

قالوا: ابنُ مَنْ أنت يا هذا؟ فقلت لهم: أبـي امـرؤٌ جَـدُّه الأعـلـى أبـو الـبـشـر

قالوا: فهل نال مجدًا؟ قلت: وا عجبي! أتـسـألـونـي بـمـجـدٍ لـيس مـن ثـمـري؟!

* * *

لا دَرَّ درُّ قـصـيـدٍ راح يـنـظـمـه مَنْ ليس يعرف معنى الدَّر والدُّرَر[٣]

يـبـكـي الـشـعـور لـشـعـر ظـل يـنـقـده مَـنْ لا يـفـرق بـيـن الـشِّـعـر والـشَّـعَـر

* * *

قـالـت «نَـوار» وقـد أنـشـدتـهـا سَـحـرًا: مِمَّنْ تعلمت نفْثَ السحر في السحَر؟

فقلت: من سحر عينيك الذي سحرت بـه الـمـشـاعـر مـن سـمـعٍ ومـن بـصـرِ

[٣] الدر بفتح الدال: هو اللبن.

إلى المتقاعدين من ضباط الجيش

عقل وتجربة وجدٌّ زائدُ ... هذي صفاتٌ حازها المتقاعد
جعلوا التقاعد للجنود كرامة ... كي يستريح من الجهاد مجاهد
ليس التقاعد للرجال بطالةً ... إن البطالة للرجال مفاسد
لكنه عمل جديد نافع ... عما تقوم به الحكومة حائد
بالسعي تزدهر الحياة وإنما ... لون الحياة بغير سعيٍ كامد
إن الحياة ليقظة فعَّالة ... فالراقد الكسلان فيها بائد
لن تبلغ العلياءَ في ساحاتها ... هِممٌ مثبطة وعزم راقد
انظر تجد شُعَبَ الحياة كثيرة ... فيها من السعي الحثيث مشاهد
فكأنَّ أشغال الحياة مراجل ... والسعي نارٌ والبلاد مواقد
يا أيها المتقاعدون ألا اتَّقوا ... نقدًا يصول به عليكم ناقد
علمت تجاربكم وأيقن رأيكم ... أنَّ الحياة تعاونٌ وتعاضد
فاستمسكوا بعُرى المودة بينكم ... كيلا يكون تباغض وتحاسد
كونوا جميعًا في الحياة كأنكم ... رجل — إذا دهت الدواهي — واحد
في الحرب طاب لكم جِلادٌ فلتطبْ ... في السلم أعمال لكم ومقاصد
تركت أكفكمُ السيوف وعندها ... منكم أشد من السيوف سواعد
كل الحياة معارك لكنما ... فيها سلاح المرءِ جُهد جاهد
ولربما كانت سلاحًا نافذًا ... عند اللئام دسائس ومكايد
فأتوا من الأعمال ما هو صالحٌ ... للناس فيه مصالح وفوائد

وتتبعوا سُبلَ الحَياة ولا يكن	منكم إلى غير المكارم قاصد
وتصرَّفوا في أمرها بمهارةٍ	وذروا السيوف فإنهن جوامد
ما عاب من سَلَّ المهنَّد أنه	للسيف من بعد التجالد غامد

دار تربية الطفل

أيَّ قدْسٍ يضمُ هذا البناءُ! حَسدتْ أرضَه عليه السماءُ
إن يكن فوق هذه الأرض شيءٌ فيه قدْسيَّة فهذا البناء
هو من هذه البنيَّات لكن شَرُفت بالمقاصد الأشياء
كلما قد رأيته تتجلى ليَ من تحت أسِّهِ العلياء
هو بكر في ذي البلاد وللأطـ ـفال فيه حماية عَذراء
لم نكن قبل ذا نُفكِّر فيما فكَّرت فيه قبلنا الرُّحماء
كان للبؤس في المواطن لفح من سَموم تذوي به الرضعاء
ربَّ طفل أودت به قلة الدَّر على أن أمَّه ثدياء
أمُّه من أبيه آمت فأمست ينهك البؤسُ جسمَها والشقاءُ
فحكى شخصها الخيالة إذ لا حَ ذبول بجسمها وارتخاء
فهْو إن لم يعش فموتٌ مُريح وهو إن عاش عاش فيه الداء
هكذا كانت المواليد تحيا ولها من حياتها إفناء
ومن اللؤم أن ترى عندنا الأطـ ـفال تفنى لأنهم فقراء
لا غذاءٌ في جوفهم لا كساءٌ لا وِطاء من تحتهم لا غِطاء
إنهم غير مُعربين ومن حسـ ـن السجايا أن تُرحمَ العجماء
عَلَّ مَنْ لو يعيش منهم لأضحى فيه للناس مأمل ورجاء
ربَّ مَنْ مات منهم مات مَعْهُ شرفٌ باذخ لنا وعلاء
ليس موت الأطفال هيْنًا فقد ينـ ـبغ منهم نوابغ أذكياء

إنما هم كمثل أصداف بحر لست تدري: دُرٌّ بها أم خَلاء؟
ولعلَّ الطفل الذي مات منهم مات عقل بموته ودهاء
شأن هذا البناء شأن عظيم لم تطاوله في العلا الجوزاء
كلما قد رأيته لمعت لي فيه من تحت أسِّه العلياء
ولقد دلَّ أن مَنْ شيدوه سادة في طباعهم كرماء
شكر اللَّه سعيَهم من رجال بلغوا من فخارهم ما شاءوا
سوف يبقى لهم على الدهر ذكرٌ فيه حمد لهم وفيه ثناء

خزانة الأوقاف

للمسلمين على نزُورة وَفْرهم ... كنز يَفيض غنًى من الأوقاف

كنزٌ لو استشفَوا به من دائهم ... لتوجَّروا منه الدواء الشافي

ولو ابتغَوا للنشء فيه ثَقافة ... لتثقفوا منه بخير ثِقاف

ولو ارتقَوْا بجناحه في عصرهم ... لأطارهم بقوادمٍ وخوافي

لكنهم قد أهملوه وأعملوا ... في جانبيه عواملَ الإتلاف

فإذا نظرت رأيت ثمة أرضه ... تجري الرياح بها وهن سوافي

قد تابعوا الموتى عليه وما وقَوا ... أهل الحياة به من الإجحاف

وقفوا به عند الشروط لواقفٍ ... وتغافلوا عن حكمة الإيقاف

تركوا له في العصر نفعًا ظاهرًا ... وتعاملوا فيه بنفع خافي

لم يستجدوا فيه شيئًا واكتفَوْا ... في كل حال منه بالسَّفساف

قل للذين تقيَّدوا بشروطه ... ماذا التوقُّفُ عند رسم عافي؟

غرسوه غرسًا مثمرًا لكن جرت ... غِيَرُ الزَّمان فعاد كالصفصاف

هل بين شرط الواقفين وبين ما ... نَفع العموم تناقض وتنافي؟

أنريد أن يقفو الزمان أمورنا ... وأمورنا هي للزمان قوافي؟

الأرض مسجدنا ففيم مَسَاجدٌ ... أمست تعد اليوم بالآلاف

كان الصلاة بمسجد وبغيره ... في الحكم واحدة لدى الأسلاف

هلَّا جُعلنَ مدارسًا فياضة ... من كل علم بالزلال الصافي!

ينتابها أبناؤكم كي يأخذوا ... من كل فنٍّ بالنصيب الوافي

فيفيض فيض العلم حتى يرتوي ... منه بنو الأمصار والأرياف
إن لم يكن شرف البلاد محصَّنًا ... بالعلم كان مهدَّدَ الأطراف
وإذا النفوس تسافلت من جهلها ... لم يُعْلها شممٌ على الآناف
هذي الخِزانة أنشئت فبناؤها ... للأمر فيه تدارك وتلافي
أيظنُّ ذو عقل بأن بناءها ... أمر لشرط الواقفين مُنَافي
تاللَّه ليس بِمُنكِرٍ تشييدَها ... إلا امرؤ خالٍ من الإنصاف
أحيُوا بها عصرَ العلوم لدولة ... خلفاؤها من آل عبد مناف
عصر الرشيد أبي الخلائف إذ غدت ... بغدادُ رافلةً بمجدٍ ضافي
في عهد فيصلنا المعظم أنشئت ... عَلَمًا يشير لأشرف الأهداف
فإذا هتفتُ بحمده وبشكره ... ردَّ الصدى بنيانها لهتافي
ناديت طلَّاب العلوم مؤرخًا ... حُجُّوا بناء خزانة الأوقافِ

التعصب الوطني للأدب

من جَوْر مصر على العروبة أنها تتعمدُ التمصيرَ في آدابها
وتحيد عن آداب كلِّ قبيلة لم تنتحلها مصر في أنسابها[١]
فترى بمصر تعصُّبًا لأديبها متواليَ النزغاتِ في أعصابها[٢]
فاذكر أولي الآداب من غير الألى في مصر يغضبْ منك أهل جَنابها
وأَشِدْ بمن في غيرِ مصرَ مُنوِّهًا ما إن ترى فيها لقولك آبِها
تحفى بمنشدها القريب وتدعي أن لن يكون له البعيد مشابها
فالشاعر المصريُّ فيها فاضل وسواه مفضول وإن يكُ نابِهَا
وكأنما أمست مواهب ربنا مقصورة فيها على كُتَّابها
هذا لعمر اللَّه جَوْر عدَّهُ من فرْطِ ضَلَّتها أولو ألبابها
آدابُ كل مَعاشرٍ كعلومهم جَلَّت عن الأوطان في استنسابها
للعلم والآداب في كل الورى دار محرمة إجافةُ بابها[٣]
من أين كانت مصرُ في أقباطها كمواطن الأعراب في إعرابها؟
أبتِ العروبةُ أن يفوق هزَارَها صُرَدٌ زَقى في مصر زقْيَ غرابها[٤]

[١] تنتحلها: تدعيها.
[٢] النزغات: جمع نزغة، وهي الميل مع الهوى.
[٣] إجافة الباب: إغلاقه.
[٤] الصرد: طائر. وزقى: صاح وصوت.

عتاب وولاء

أقيم راية تحميدي وشكراني للشاعر الصادق الإحساس نعمان
أقيمها رمز تعظيم على نشر من القريض رفيعٍ ليس بالداني
للشهم ذي الأدب الزاكي بمحتده فرع الذُّؤابَة منٍ علياء عدنان
من جاءني بقوافٍ جدُّ زاهيةٍ كمثل أزهار روض ذات ألوان
قد زانهنَّ بوشيٍ من بدائعه حتى اتَّسقْنَ بأنغامٍ وأوزان
لما شدوْنَ بموسيقى براعته مازَجْن في الشدو ألحاناً بألحان
ينوط بالسمع من ألفاظها دررًا ويزدهيك من المعنى بأفنان
لقد فعلن بنفسي حين أنشدها ما يفعل الماء في أحشاء ظمآن
فقلت، والنفس تطفو في مسرَّتها حينًا وترسب أحيانًا بأحزان
يا شاعرًا تطرب الدنيا نشائده كيف ابتدعت نشيدًا هاج أشجاني؟!
أنشدتنيه رُقًى تحكي بروعتها حسن الفرائد في أسلاك عقيان
شعر يفيض شعورًا قد نكأتَ به قرحًا بقلبي قديمًا كان أدماني
إن كان بالشَّجَن الماضي يذكِّرني فإِنه عن شجون اليوم سلَّاني
هذا لعمرك شعر قد سررت به وإن يكن هاج بي شجوًا فأبكاني

* * *

إليك أرسل يا نعمان قافيةً تنبيك عن شغفي في حبِّ أوطاني
أُشربتُ حبَّ بلادٍ ما نشأت بها إلا لأدفع عنها كل عدوان
أخلصت حبِّي لها حتى نسيت به نفسي وأهلي وأحبابي وخلاني

يا موطنًا لست منه في موادعة عِشْ بعد موتيَ عيشَ الوادع الهاني
فكل مَنْ فيك تغنيني سعادتهم وكل أبنائك الأعداء إخواني
إن سرَّكَ الدهر يومًا سرني وإذا آذاك بالمزعجات الدهر آذاني
ما ضرَّني أنَّ كل الناس تحقرني إن كنت أنت جليل القدر والشان
وليس ينفعني عزٌّ ولا شرف إن لم تكن أنت ذا عزٍّ وسلطان
لو ملَّكونيكَ عن قهرٍ بلا ثقة ما كت غير ظلومٍ فيك خوَّان
آليتُ منذ بلغت الحلم في وطني أن لا أقابلَ نعماه بكفران
وأن أكونَ له عونًا أؤازرُه بالنصر أول أنصار وأعوان
إني وإن لم أوفَّق في تحرره بنيت للمجد فيه خير بنيان
لولا التعاون بين الناس ما شرفت نفسٌ ولا ازدهرت أرض بعمران
لولا التعادي الذي تشقى الوحوش به ما كان أفضل منها كل إنسان
يا قوم إني من الدنيا ضحيتكم فقربوا من حياتي كل قربان
واستنصروا اللَّه وادعوه لينقذكم مما بكم حل من هونٍ وخسران
لا تحسبونيَ منكم جازعًا ضجرًا وإن يكن شظفي في العيش أصواني
إني ألفت على الأيام مخمصتي فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان
تختار نفسي الطوى بالعز قانعة وتترك القصف في ذلٍّ لِمِبْطان
أعيش عيشة «غندي» وهو ذو جِدةٍ في الهند يمشي وئيدًا شبه عريان
العز أعظم للإنسان من شبع والذل أقتل من جوع لجوعان
فالذل يقتل نفسًا منه باقيةً والجوع يقتل منه جسمه الفاني
وما الطعام بمأكولٍ للذته وإنما هو تقويم لأبدانِ
وفي القفار غنًى للمستقيت به عن المطاعم تخليطًا بألوان
وكل ما يملك الإنسان عاريةٌ يزول عنه ولو من بعد أحيان
وإنَّ ذِكرَ الفتى بعد الممات بما يحيي الثناءُ عليه عمرَه الثاني

* * *

يا لاهِجينَ بشتمي في مجالسهم ناموا على الأمن في أحضان غفراني
لولا ترفُّع نفسي في سفاهتكم أُحْرِقْتُمُ من لظى هجوي بنيران
جادلتموني فما أحسنتموا جدلي حتى بذيتُمْ بذاءَ الماجن الخاني

وخضتم الباطل المبدي بنعرته شتى الأقاويل من زور وبهتان
ومن عناء الليالي أن يجادلني مَنْ ليس يقرع بالبرهان برهاني
بل يترك القول من عجزٍ ومن خوَرٍ إلى التقوُّل عن زهو وطغيان
تأبى المروءة إلا أن أخالفكم فالغش ديدانكم والنصح ديداني
وإن لي في إبائي كلَّ شائنةٍ عزمًا يؤيده باللّٰه إيماني
ولا أريد قصاصًا من شتائمكم بل أتبع العفو عنها بعض إحسان
تلكم سجيَّة حرٍّ النفس يذكرها عني الأخلاء من شيبٍ وشبان
يا منتمين إلى عرب وهم عجمٌ من كل أحمر هيَّان بن بيَّان
سمج الملامح في عثنونهِ صهب مستعجم القول جافي الطبع مرطان
كيف استويتم صقورًا في مجاثمكم ولستمو في السجايا غيرَ غربان؟
وما بكم غير قرد في جبلَّتهِ وإن يكن جاء في مسلاخ إنسان
إذا تسمَّيتمو عربًا فلا عجبٌ في أن يُسمَّى ابن آوى باسم سرحان
تستنثرون صغارًا في معاطسكم وتشمخون إلى آفاق كيوان
ورب مستكبر منكم تُتَلْتِلُهُ أيدي الأجانب تلَّ الجارمِ الجاني
فيستكين لهم حتى يكلمهم في رعدة بلسان الخائف العاني
كم تظهرون عفافًا في تدينكم وتضمرون ضمير الفاجر الزاني
لو كان في الجنِّ شيء من خباثتكم لعاذ باللّٰه من كل شيطان
هذي قوافٍ دعاني أن أبوح بها شعرٌ أتى من زكيٍّ النفس نعمان
ذاك الأديب الذي باهى بسيرته كل الكواكب من قاصٍ ومن دان
وباهرَتْ في مساعيه مكارمه أهل المكارم من أبناء عدنان
أكرم به يافعًا شرخ الشباب به ريَّان من شرفٍ بالمجد مزدان!

مناجاة وشكوى

أقول لربِّ الشعر مَهدي الجواهر: إلى كم تناغي بالقوافي السواحر؟

فترسلَها غُرًّا هواتفَ بالعُلا   يُزَوَّدُ منها سمعَه كلُّ شاعر

وتشدو بها والقومُ صُمٌّ عن العلا   فلم تَلقَ إلا غير وَاعٍ وذاكر

أترجو من الحسَّاد عَونًا وناصرًا   فتدعوَ منهم خاذلًا غيرَ ناصر

كأنك لم تبصرْ سوادَ قلوبهمْ   فهل أنت مغرور ببيض المسَافِر؟

روَيْدَك! إن القوم ليسوا كما ترى   لدى كل ذي علم بما في السرائر

فلا تغتررْ منهم ببادٍ فإنما   ظواهرهم منقوضة بالضمائر

رمتهم يدُ الأيام من جشع بهم   ومن بطرٍ فيهم بداءِ الضرائر

بداءين قتَّالين حمَّت نفوسهم   فساد السجايا وانمساخ العناصر

وقد فَرَّقتْ أهواءهُمْ في بلادهم   أنانيَّة حَلَّتْ عقود الأواصر

لذاك ترى كُلًّا يعيش لنفسه   على عكس عيشٍ عند أهل الحواضر

إذا جئتهم أبدوا إليك بشاشة   وحسنَ ابتسام من ثغورٍ مواكر

وإن غِبتَ عنهم أوسعوك مَذَمَّةً   كأنْ لَمْ يَبُثُّوا منك قِيلًا لزائر

وقد ينكرون العار فيهم تجاهلًا   فيَلْقونهم بالمنظَر المتخازر

فدَعْهُمْ وما هم فيه من جاهليةٍ   يَدجُّون منها في الدَّياجي الكوافر

فسوف تراهم من تمادي ضلالهم   يعودون في العقبى بصفقة خاسر

ونزِّه بليغ الشعر عنهم بتركه   لكل كذوب بينهم متشاعر

سكبتُ بحورَ الشعر قبلك خائضًا   لعمرُك منها كلَّ طامٍ وزاخر

وسَيَّرتُ من غُرٍّ القوافي بلجِّها ... قصائدَ سارت كالسفين المواخر
بكيت بها المجدَ المضاعَ بأدمعٍ ... من الشعر شرْوَى اللؤلؤ المتناثر
ونحتُ على الماضي الذي كان زاهرًا ... مناحة رَبَّات الحِجال الحرائر
فلم أُلفِ إلَّا مُنكرين مكانتي ... يَحيدون عنِّي كالوحوش النوافر
كما راعني منهم تماسيحُ خِسَّةٍ ... تريد ازدرادي بالحلوق الفواغر
فقابلتهمْ بالصفح عنهم ترفُّعًا ... وأعرضت عن شتم السَّفيه المُهاتِر
أنا النوم من هذي الحياة على شَفا ... أشارف منه مَرْقدي في المقابر
سأرحل عنهم عائذًا من شرورهم ... بربٍّ كريم قابِل التَّوْب غافر

في حفلة الميلاد النبوي

وضح الحق واستقام السبيلُ   بعظيمٍ هو النبيُّ الرسول
قام يدعو إلى الهدى بكتابٍ   عربيٍّ قرآنه ترتيل
طالبًا غايةً من المجد قصوى   صدَّه عن بلوغها مستحيل
ووصولًا إلى مقامٍ رفيع   عزَّ مَن قبله إليه الوصول
همة دونها الكواكب نورًا   واعتلاء يعلو به ويطول

* * *

جرَّد اللَّه منه للحق سيفًا   كل ضدين حده والفلول
فيه عزم للمهلكات قحوم   واصطبار للنائبات حمول
ودهاء لو ماكرته دواهي الد   هر طرًّا لاغتالها منه غول
تدلهمُّ الخطوب والرأي منه   في دجاها كأنه قنديل
كلُّ أوصافه الجليلة بِدْعٌ   فهو من عبقريةٍ مجبول

* * *

أطلق الناس من تقاليد جهل   كل فرد منهم بها مغلول
وشفاهم بهديه من ضلال   كل فرد منهم به معلول
أنهض القوم للعلاء وكانت   في دنا القوم رقدة وخمول
فاستقالت به على الدهر يقضي   هممٌ يعربية وعقول
تلك في الدين نهضة هي للعقـ   ـل انتباه وللهدى تأثيل

نهضة عالمية في وغاها من أمام البعير فرَّ الفيل
هنَّ كالبرق سرعة والتماعًا كل أفق بفضلها مشمول
خضعت فارسٌ لها عن صغار وتداعى إيوانها المستطيل
وإلى اليوم قام في الهند منها أثر مثل طودها لا يزول
يعرف النيل فضلها وعلاها من قديم ويشهد الدردنيل
وبها الأرض والسموات ترضى وتقر التوراة والإنجيل

* * *

غير أنَّا عن نهجها اليوم حدنا واستحلنا وكل حال تحول
حيث عدنا وفي النهوض قعود ورجعنا وفي الصعود نزول
واختلفنا في الدين حتى افترقنا فرقًا لا يسيغها المعقول
والتزمنا الفروعَ منه فضاعت بالتزام الفروع منه الأصول
كلٌّ حزب بما لديه فخور وَلِمَنْ هم مخالفوه خذول
بدَعٌ في حياتنا منكرات غضب اللَّه فوقها مسدول

* * *

حالة ساءت الرسول وساءت كلَّ آي بها أتانا الرسول
لو رآنا والشر فينا كثير مستفيض والخير نزر قليل
وثغور الضلال مبتسمات ووجوه الهدى عليها محول
والدعاوى في الحق منا كبار طال فيها التزمير والتطبيل
نعبد اللَّه والعبادة لحنٌ عند بعض وعند بعض عويل
ونحجُّ القبور كالبيت حجًّا يكثر المسح فيه والتقبيل
ونعد الركوع للقبر حِلًّا وهو في الدين ما له تحليل
ونزجِّي إلى القبور نذورًا فضحايا مسوقة وحمول
ونقول التوحيد قولًا وكلٌّ هو للشرك عامد وفعول
قال مستنكرًا لما نحن فيه: ما بهذا قد جاءني جبريل
أين دين التوحيد منكم وأيـ ـن الأوْبُ للَّه وحده والقفول؟
أنا حرمت كل ما كان فيه شبه للأصنام أو تمثيل
كل مَنْ قال منكم: إن هذا هو دين الإسلام فهو جهول

لِـمَ لَـمْ تـحـفـظـوا أُخـوَّةَ ديـنٍ   جاءكم ناطقًا به التنزيل؟
كان حبل الإخاء فيكم وثيقًا   كيف أمسى وعقده محلول
لست منكم بيائسٍ بل نهوضٌ   مـنـكـمُ بـعـد فـتـرة مـأمـول
فاجمعوا الشمل ناهضين فإن الـ   ـكفر في الدين عجزكم والخمولُ

إلى العمال

كلُّ ما في البلاد من أموال ليس إلا نتيجة الأعمال
إن يطب في حياتنا الاجتماعيـ ـة عيشٌ فالفضل للعمال
وإذا كان في البلاد ثراء فبفضل الإنتاج والإبدال
نحن خلق المقدَّرات وفيها لا حياة للعاطل المكسال
عندنا اليوم في الحياة نظام قد حوى كل باطلٍ ومحال
حيث يسعى الفقير سعي أجيرٍ لغني مستأثرٍ بالغلال
فترى المكثرين في طيب عيشٍ أرغدته لهم يد الإقلال
وترى الغائصين في البحر أمسى لسواهم ما أخرجوا من لآلي
وترى المعسرين في كل أرض كعبيد والموسرين موالي
أكثر الناس يكدحون لقوم قعدوا في قصورهم والعلالي
واحد في النعيم يلهو وأَلفٌ في شقاءٍ وأبؤسٍ واعتلال
حالةٌ في معاشنا أسلكتنا طرقات المخاتل المحتال
فترانا بعضًا لبعض لبسنا من خياناتنا مسوح الثَّعال
تلك عادٌ مستهجَنات ورثنا ها قديمًا من العصور الخوالي
فإلى كم نشقى وحتامَ نبقى هكذا في عَمايةٍ وضلال؟!
إنما الحق مذهب الإشتراكيـ ـة فيما يختصُّ في الأموال
مذهب قد نحا إليه أبو ذرٍّ قديمًا في غابر الأجيال
ليس فضل الزكاة في الشرع إلا خطوة نحو مبتغاه العالي

مـبـدأ ذو مـقـاصـد ضـامـنـات   مـا لأهـل الـحـيـاة مـن آمـال
موصلات إلى السعادة في العيـ   ـش هوادٍ إلى طريق التعالى
ليس للمرء أن يعيش بلا كدٍّ   وإن كـان مـن عظـام الـرجـال
كل مجدٍ يُبنى على غير سعيٍ   فـهـو مـجـدٌ مـهـددٌ بـالـزوال
ليس قدر الفتى من العيش إلاَّ   قـدر إنـتـاج سـعـيـه الـمـتـوالـي
مــا رءوس الأمــوال إلا أداة   لـلـمـسـاعـي كـالـحـبـل لـلأحـمـال
مثل شدِّ الأحمال شدُّ المساعي   ودنـانـيـرهـا لـهـا كـالـحـبـال
صاحِ ماذا تجدي الدنانير لولا   هـمـم الـدائـبـين فـي الأشـغـال؟!
أفـتـأَتـي مـن الـطـعـام بـديـلًا؟!   أفـتـغـنـي عـن كـسـوةٍ ونـعـال؟!
حـاجـة الـمـرء أَكـلـة وكـسـاءٌ   وسوى ذاك بسطة في الكمال
إن لـلـعـيـش حـومـةً فـي وغـاهـا   لا تـحـقُّ الـحـيـاة لـلـبُـطَّـال
إنـهـا مـثـل حـومـة الـحـرب مـا دا   رت رحـاهـا إلا عـلـى الأبـطـال
وسوى الحذق ما بها من سلاحٍ   وسـوى الـكـدِّ مـا بـهـا مـن قـتـال
بطل الحرب مثله بطل السعـ   ـي ومنه الأعمال مثل الصيال
ونشاط منه ببيض المساعي   مـثـل إشـراعـه لـسـلِّ الـعـوالـي
أيـهـا الـعـامـلـون إنَّ اتـحـادًا   بينكم مُرخِصٌ لكم كلَّ غال
ما لعيش تشقَون فيه سقامًا   بـسـوى الاتـحـاد مـن إبـلال
فليكن بعضكم لبعض نصيرًا   ومـعـيـنًـا لـه عـلـى كـل حـال
وإذا قـلـت: إنـكـم أنـتـم الـنـا   س جـمـيـعًـا فـلا أكـون مـغـال
فاعملوا دائبين غير كسالى   وارقبوا ما به ستأتي الليالي
ثم قولوا معي مقالًا رفيع الصـ   ـوت: فـلـتَـحْـيَـا زمـرةُ الـعـمَّـالِ



خواطر شاعر

تجاه شاعرية الريحاني

لعمرُك ما كلُّ انكسارٍ له جبْرُ — ولا كلُّ سرٍّ يُستطاع به الجَهرُ
لقد ضربت كفُّ الحياة على الحِجا — سِتارًا فَعِلْمُ القوم في كنهها نزْر[١]
فقمنا جميعًا من وراءِ سِتارها — نقول بشوقٍ: ما وراءَك يا ستْر؟
حكتْ سَرحة فنواءَ نُبصر فرعَها — ولم ندر منها ما الأنابيشُ والجِذْر[٢]
وقد قال بعضُ القوم: إن حياتنا — كلَيْلٍ وإن الفجر مطلعهُ القبرُ
فإن كان هذا القول فيها حقيقةً — فيا شدَّ ما قد شاقني ذلك الفجْر
وروح الفتى بعد الردَى إن يكن لها — بقاءٌ وحسٌّ فالحياة هي الخُسْر
وإن رَقِيتْ نحو السماء فحبَّذا — إذا أصبحت مأوًى لها الأنجمُ الزهْر

* * *

وأعجب شأن في الحياة شعورُنا — وأعجب شأنٍ في الشعور هو الحِجْر[٣]

---

[١] يقول بهذا البيت والذي بعده: إن لنا من حياتنا سترًا مسدولًا على عقولنا، فليس لنا من العلم بما وراء ستر الحياة إلا النزر اليسير، ولكن عندنا شوق كبير إلى معرفة ما وراء الحياة.

[٢] السرحة: الشجرة العظيمة. وفنواء: كثيرة الأفنان، واسعة الظل. وأنابيش: أصول الشجرة تحت الأرض، واحدها: أنبوش. بَيَّن في البيتين السابقين جهلنا بما بعد الحياة، أي: بمنتهاها، وبيَّن بهذا البيت جهلنا بما قبلها.

[٣] الحجر، بكسر فسكون: العقل.

وللنفس في أفق الشعور مخايلٌ إذا بَرقت فالفكر في برقها قطْر
وما كلُّ مشعور به من شئونها قديرٌ على إيضاحه المنطِقُ الحرُّ
ففي النفس ما أعيا العبارة كشفهُ وقصَّر عن تبيانه النظمُ والنثر
ومن خاطرات النفس ما لم يقُمْ به بيانٌ ولم ينهض بأعبائه الشعر
ويا رُبَّ فكر حاك في صدر ناطقٍ فضاق من النطق الفسيح به الصدر
ويا ربَّ معنًى دقَّ حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينُها الخُزر[4]
أرى اللفظ معدودًا فكيف أسومُه كِفاية معنى فاقد العد والحصر؟![5]
وأفق المعاني في التصوُّر واسعٌ يتيه إذا ما طار في جوِّه الفكر
ولولا قصور في اللُّغا عن مرامنا لما كان في قول المجاز لنا عذر
ولست أخصُّ الشعر بالكَلِم التي تُنظَّم أبياتًا كما تنظم الدُّر
وذاك لأنَّ الشعر أوسع من لُغًا يكون على فعل اللسان لها قصْر
وما الشعر إلا كل ما رنَّح الفتى كما رنَّحت أعطافَ شاربها الخمر
وحرَّك فيه ساكنَ الوجد فاغتدى مَهِيجًا كما يستنُّ في المَرح المُهر
فمن نفثاتِ الشعر سجعُ حمامة على أيْكةٍ يُشجي المشوقَ لها هدر[6]
ومن شذَراتِ الشعر حومُ فراشةٍ على الزهر في روض به ابتسم الزهر
ومن ضَحكات الشعر دمعة عاشقٍ بها قد شكا للوصل ما فعل الهجْر
ومن لمعات الشعر نظرةُ غادةٍ بنجلاء تسبي القلب في طرفها فتر[7]
ومن جَمرات الشعر رنَّة ثاكلٍ مُفجَّعة أودَى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيعُ مطربٍ تعَاوَرَ مجرى صوته الخفضُ والنبْر
وإنَّ من الشعر ائتلاقَ كواكبٍ بجُنح الدجى باتت يضاحكها البدر

---

[4] تخاوصت: أي غضت من بصرها شيئًا. والخزر: جمع خزراء، وهي العين الصغيرة الضيقة، ومعنى البيت: أن من المعاني ما يدق حتى تقصر عن بيانه الألفاظ.

[5] أسومه: أي أكلفه. يقول: إن الألفاظ متناهية، والمعاني غير متناهية، فكيف يحيط المتناهي بغير المتناهي.

[6] الهدر: صوت الحمام.

[7] نجلاء: عين واسعة.

وإن لـريـحـانـيِّـنـا شـاعـريـةً		من الشعر فيها ما يقال هي الشعر
وما الشعر إلا الروضُ أما أمينُنا		فريحانة، والخلق منه هو النشر
وإن لم يكن شعري من الشعر لم يكن		لَعَمْرُ النهَى للشعر عند النهى قدْر[8]

[8] النهى: جمع نهية، وهي العقل.

وجه ابن آدم

لِلَّـهِ سِرٌّ فـي الأنـام مُطلسمُ حار الفصيحُ بوصفه والأعجم
بَرأَ ابن آدمَ وهو إن لم تلقَه في الخَلق أقدمَ فهو فيه مُقَدَّم
وإذا نظرنا في العجائب نظرة ظهر ابن آدم وهو منها الأعظم
أما العجيبُ من ابنِ آدمَ فهو ما نسق الكلام به إذا نطق الفم
والوجه أعجبُ ما رأيت وإنه ليَحار في سَحْنائه المتوسِّم
هـو مـن طِـراز الـلَّـه إلا أنـه بسرائر النفس الحديثة مُعلم
أما الحواجب فهي فيه كواشف والعين فيه عن الضمير تترجم
ولربَّ خافيةٍ يكتِّمها الفتى والوجه منه بسرِّها يتكلم
كلٌّ يشير إلى السريرة وجههُ فكأنه بضميره مُتلثم
فالوجه فيه من القَرونة مَسحَة للخافيات بها وضوحٌ مُبهم[1]
صرَع النهى فالوهم فيه تيقُّن تحت الملامح واليقين توهُّم[2]
ولربَّ وجهٍ في تبسمه البكا ولربَّ وجهٍ في البكاء تبسم
والأنف في وجه ابن آدم زينةٌ فالوجه لولا أنفه متجهِّم

[1] القرونة: النفس، ومعنى قوله: «وضوح مبهم»؛ أنك ترى ما يخفيه الإنسان واضحًا في وجهه، ولكنه مع ذلك لا يزال مبهمًا عنك إذ لا تعلمه يقينًا.

[2] المراد بكونه صرع النهى: أنه غلبها، والضمير في صرع يعود إلى الوجه.

كالهُدْب في شُفر العيون فإنه لولاه تنشتر العيونُ وتسجُم[٣]

* * *

إن الوجوه صحائف مطموسة يمحو كتابتها ويثبتها الدم

بيناك تقرأ حرفها متفهمًا يبدو تحرُّفها فلا تتفهم

فالعقل فيها عالِمٌ متجاهلٌ طورًا وطورًا جاهل متعلم

إني أرى هذي الوجوه نواطقًا بالسر لكن نطقهن مجمجَم

وأرى لِحاظ عيونها متحدِّثًا عنها ولكن الحديث مرجَّم

فكأنَّنِيَ البدويُّ يسمع راطنًا وكأنما هي أعجميٌّ طِمطمُ[٤]

* * *

ولربَّ وجهٍ يستبيك بحسنه فتروحُ منه وأنت صَبٌّ مُغرَم

يبدو إليك وأنت خلوٌ من هوًى ويصدُّ عنك وأنت فيه مُتيَّمُ

وإذا تغيَّب فالبدور مضيئة وإذا أضاء فكل بدْرٍ مظلم

للَّه في وجه ابن آدمَ حكمةٌ يعنو السَّفيهُ لها وَمَنْ يتحلَّمُ

[٣] الهدب: شعر أشفار العينين. وتنشتر: أي تكون شتراء، أي: ذات شتر، وهو انقلاب الجفن من أعلى وأسفل أو انشقاقه أو استرخاؤه. وتسجم: أي تسيل الدمع.

[٤] راطنًا: متكلمًا بالأعجمية، وأعجمي طمطم: في لسانه عجمة لا يفصح.

ما وراء القبر

متى تطلق الأيام حرِّية الفكرِ   فينشطَ فيها العقل من عُقْلة الأسر[1]

ويصدعَ كلٌّ بالحقيقة ناطقًا   ويترك ما لم يدرِ منها لِمَنْ يدري

أرانا إذا رمنا بيان حقيقةٍ   عُزينا معاذَ اللَّه فيها إلى الكفر

جهِلنا أشدَّ الجهل آخر عمْرِنا   كما قد جهلنا قبله أولَ العمْر

هما ساحلا بحرٍ من العيش مائجٍ   ففي أيِّ أمر نحن بينهما نجري

ومن أين جئنا أم إلى أين قَصدُنا؟   وفي أي ليلٍ من تشكُّكنا نسري؟

كأنَّا أتينا والمعيشة لُجَّة   لنعبُرَ والأعمار جسر إلى القبر

وماذا وراء القبر مما نريدهُ؟   وهل من مدًى بعد العبور على الجسر؟[2]

تسائلني نفسي وللموت صولة   ألا هَلْ لكسر الموت ويحك من جَبْر؟

لعلَّ حياة المرء ليلٌ ستنجلي   غياهبه من سكرة الموت بالفجر

فإن كان ذا حقًّا فإن حياتنا   كما قيل: سِترٌ والرَّدى كاشف الستر

وقد قيل: إن الروحَ تبقى فهل لها   عروج إلى الأعلى، إلى الأنجمِ الزهرِ؟

وهل تعرف الجثمان بعد عروجها   فتمكثَ منه في السماء على ذكر؟

إذا أرضُنا كانت سماءً لغيرها   فما من عُروجٍ بل نزولٌ إلى القعر

[1] عقلة: ما تعقل به الرِّجْلُ وتقيد.

[2] المدى: الغاية.

وهل عَرَجَت أرواحُ مَنْ في عُطاردٍ إلى الأرض أم هذا الكلامُ من الهذْر؟
خيال به رُحنا نعلِّل أنفسًا هَزأنَ به لمَّا رَجَعْنَ إلى الحِجر[٣]
وشبَّه بالنهر الحياةَ معاشرٌ فمنبعُه في رأيهم قِدَم الدهر
ولكنهم أعيا عليهم مَصبُّه وإن رجموا بالظنِّ في منبع النهر
فيا ليت شعري أين ينصبُّ جاريًا! أعَوْدًا لبدءٍ أم إلى غايةٍ يجري؟
لعمرُكَ ما هذي الحياة وما الذي يُراد بنا فيها من الخير والشر؟
نحاول علمًا بالحياة وإنَّ ذا منوطٌ إلى ما ليس يُدرَكُ بالفكر
ونسلكُ منها في مَجاهلَ قفرةٍ فنخرج من قفْرٍ وندخل في قفر
على أننا نمضي إلى أمر ربِّنا كما أننا آتون من ذلك الأمر

[٣] الحجر: العقل.

لو

لو أسكرَ الإنسان باطلُ أمره لم تلقَ غير مُعَرْبِدٍ سَكرانِ[١]

لو قاس كلٌّ فتى سواه بنفسه فيما أراد لما تعادى اثنان

لو أنصف الخصمان ما اصطاد الرُّشا أهلُ القضا مما ادَّعى الخصمان[٢]

لو أخلص الإنسان في إحسانه لم يرْجُ أن يُجزى على الإحسان

لو لم يَشُكَّ بربِّه متفلسفٌ في الدِّين لم يحتجَّ بالبرهانِ

لو أنَّ عقل المرء يغلب حبه للنفس لم يلجأ إلى الأديان[٣]

لولا جمود في الشرائع مُهلِكٌ لتغيَّرت بتغيُّر الأزمان

لو كان قصد الدين غير سعادة الدُّ نيا لكان الكفر كالإيمان[٤]

لو أخلص الرجل التقيُّ بدينه ما كان ذا طمع بحور جِنان

لا خير في تقوى امرئٍ لو لم يخفْ نار الجحيم للجَّ في العصيان

لو كان أمر الحج معقولاً لما كان استلام القوم للأركانِ

---

[١] يريد: لو كان الباطل منكرًا كالخمر لرأيت الناس كلهم سكارى.

[٢] هذا البيت قريب في معناه من القول المشهور: «لو أنصف الناس لاستراح القاضي.» غير أن معنى البيت: لو أنصف الناس لما فسدت أخلاق القضاة.

[٣] معنى البيت: أن حب النفس هو الذي يدفع الإنسان إلى التمسك بما تقوله الأديان من الحياة الأخرى؛ لأنه يحب الخلود لنفسه.

[٤] أنه لو صح ما يقوله هؤلاء، من أن غاية الدين أخروية محضة؛ لتساوى الكفر والإيمان في الدنيا.

لو حكَّم العقلَ الحجيجُ بحجهم ... أبوا الطواف بتلكُمُ الجُدْران
لو أخلص الغزَّى بنصرة دينهم ... ما حلَّ سبيُ حرائر النسوان
كذبت قريشٌ لو تقادَم عهدُها ... في المجد ما خدعتْ أبا غَبشان[٥]
لو كان للشيطان مَعْنًى غير ما الـ ... إنسانِ ما آمنتُ بالشيطان
لو يجعل الناس التعاون دأبهم ... لتمتعوا بسعادة العُمْران
لو أن أخلاق الرجال تهذَّبتْ ... لتكشَّفت حُجُبٌ عن النسوان
ومحبة الأوطان لولاها لما ... عرف الأنامُ عداوة الأوطانِ[٦]
لو كان خيرٌ في المجرة لم يكن ... في الأرض شرٌّ دائم الغليَان
لم تمَّ في فلك الثريَّا سعدُها ... لم تُمنَ بالعيُّوق والدَبَرانِ
لو لم يكن فَزعًا سُهَيلٌ لم يَبت ... في أفْقه متتابع الخَفَقان

[٥] قوله أبا غبشان: هو رجل من خزاعة كان يلي سدانة الكعبة قبل قريش، فأسكره قصي واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر، ثم أفاق نادمًا، فضرب به المثل في الحمق والندم وخسارة الصفقة.

[٦] أراد بمحبة الأوطان هنا: المحبة السياسية، التي يتخذها صاحب السياسة ذريعة إلى تهييج الشعوب إلى الحروب، ولا شك أن هذه المحبة هي أساس العداوات الوطنية بين الأمم قاطبة.

حقيقتي السلبية

أُحبُّ صَراحتي قولًا وفعلًا   وأكره أن أميل إلى الرياءِ

فما خادعتُ من أحدٍ بأمر   ولا أضمرتُ حَسْوًا في ارتغاءِ

ولست من الذين يَرون خيرًا   بإبقاء الحقيقة في الخفاءِ

ولا ممَّن يرى الأديان قامتْ   بوحْي مُنزلٍ للأنبياء

ولكنْ هنَّ وضعٌ وابتداعٌ   من العُقلاءِ أرباب الدهاء

ولست من الأُلى وَهمُوا وقالوا: بأَنَّ الروح تعرُج للسماء

لأن الأرض تسبحُ في فضاءٍ   وما تلك السماء سوى الفضاء

ولست من الذين يرون فخرًا   لمفتخر بإهراق الدماء

ولا ممن قد ارتبطوا بماضٍ   فعاشوا ينظرون إلى الوراء

ولا ممن يرى للناس حُكمًا   سِوى الحكام أرباب القضاء

ولا ممن تودَّد في حضورٍ   وعند الغيب جاهرَ بالعداء

ولا ممن يرى الأنسابَ مِمَّا   يَمُتُّ به الأنام إلى العَلاء

ولا ممَّن إذا وبئوا استعاذوا   بتمتمة الدعاء من الوبَاء

ولا من معشر صَلوا وصاموا   لِما وعدوه من حسن الجزاء

ولا ممَّنْ يرون اللَّه يجزي   على الصلوات بالحُور الوضاء

ولا ممن يرى الأشياء تفنى   بحيث تكون من عَدَمٍ هواء

ولكن هُنَّ في جمع وفَرْقٍ   تبدَّلُ منهما صُوَرُ البقاء

ولست من الذين يرَون فضلًا   كبيرًا للرجال على النساء

ولـكـن دالـت الأيـام حـتـى   تـــهـــاون هـــؤلاء بـــهـــؤلاءِ

حياة الورى

حياة الورى جِسرٌ مَديد وإنما عليه الورى يمشون مشية عابر

وللموت كسرٌ ليس يمكن جَبره بلفٍّ ضِماد أو بشدِّ الجبائر

وقتل الردى قتْلٌ جُبارٌ فلم تكن لِتدرك فيه ثأرَها نفسُ ثائِر[1]

فإن مَنايانا سهامٌ عوائر وكيف اثِّئارٌ في السِّهام العَوائر؟![2]

أرى الناس طُرًّا في الردى غير أنهم ثوَوا بين مقبورٍ هناك وقابر

وما الموت إلا هُوَّة أدلجَ الوَرى إليها بمسودِّ الدجنَّةِ كافر[3]

فهم أبدًا يسَّاقطون لقعرها تساقط عُمْيٍ في عِماق الحفائر

أرَى كلَّ حي في الحياةِ ممثِّلًا رواية رؤيا من كتاب المقادِرِ

رواية رؤيا قد جرت في ديارنا فجائعها حتى انتهت في المقابر

لقد قدم الموت الحياة أمامه نذيرًا، ومن يُنذر فليس بغادر

فلا عَجبٌ أنَّا نرى كلَّ ساعة أكفَّ المنايا داميات الأظافرِ

---

[1] القتل الجبار: الذي لا دية معه.

[2] السهم العائر: الذي لا يُعْلَم مَنْ رماه.

[3] الإدلاج: السير في الدلجة، وهي الليل كله؛ أي وقت السحر.

حبذا النوم

إلى صاحبة مجلة «الفجر»

قل لنَجْلا — نجلا أبي اللمْع — إني عـاشـقٌ نـورَ فـجـرهـا الـوضـاحِ
هـو لـلـعـلـم خـيـر فـجـرٍ تـجـلَّـى مـسـتـنـيـرًا بـأشـهـر الأوضـاح
وصرير الأقلام في الطِّرس منه كـصـيـاح الـديـوك فـي الإصـبـاح
كم تصفَّحت فيه من صفحات عَـطـرتـنـي بـنـشـرهـا الـفـيَّـاح
فكأني في النفس والطرس منها نـاظـر فـي بـنـفـسَـج وأقـاحـي
ثـم إنـي قـرأت فـيـه لأسـمـا كـلـمـات بـديـعـة الإفـصـاح
أيـقـظـتـنـا بـهـا إلـى أنَّ فـي الـنَّـو م ارتـيـاحًـا لـنـا وأيَّ ارتـيـاح!
صدقت في الذي تقول ففحوَى قـولـهـا فـي غِـنًـى عـن الإيـضـاح

* * *

حـبَّـذا الـنـومُ فـهـو لـلـروح رَوْح مـن عـنـاء الـهـمـوم والأتـراح
وهـو تـجـديـد قـوة ونـشـاط لـلـجـسـومٍ روازح أطـلاح
حبذا النومُ ترتقي النفس فيه عـالـمًـا فـوق عـالـم الأشـبـاحِ
«تِلِفُونٌ» به إلى الغيب نُصغي و«تـلـسـكـوبُـنـا» إلـى الأرواح
حـبـذا الـنـومُ إنـه شـرَكٌ يـمـ ـتدُّ في الجسم لاصطياد ارتياح
فهو للنفس من مراقي المعالي وهو للجسم من دواعي الصلاح
حبَّذا النومُ فهو كالزيت للرو ح بـه تـسـتـضـيءُ كـالـمـصـبـاح
وهـو مِـعـراجـنـا إلـى أفـق غـيـب لـن تَـنـاهـى أبـعـاده والـنـواحـي

حـبـذا الـنـومُ واصـلًا بـيـن حـيٍّ ذي ثَـــواءٍ ومـــيِّـــتٍ ذي بَـــراح
حبذا النوم جامعًا بين معشو قٍ مـقـيـم وعـاشـق ذي انـتـزاح
إن لـلـنَّـوم لـذَّةً هـي فـي الأنـــ ــفـس أشـهَـى من لـذة الأفـراح
أدركْتها النفوس بالفعل واستغـ ــنـت بـإدراكـهـا عـن الإيـضـاح
أيـهـا الـقـومُ إنَّ لـلـنـوم سـلـطـا نًـا قـويًّـا لا يُـتَّـقـى بـسـلاح
نـافـذ الـحـكـم والـقـضـاء عـلـى الإنـــ ــسـان فـي حـزنـه وفـي الأفـراح
وعلى الأسْد وهي في الغاب تدأى وعـلـى الـطـيـر وهـي فـي الأدواح[1]

[1] دأى له يدأى دأيًا ودأوًا: إذا ختله، والذئب يدأى للغزال، وهي مشية شبيهة بالختل.

بين الروح والجسد

أرى للروح بالبدَن اتصالًا خفيًّا لا تَبين له رسومُ
تطيف به الهواجسُ شاعرات وتعجز عن حقيقته الفهوم
فإنَّ الروح للجثمان تِلْوٌ به منها ومنه بها وسُوم
فإنَّ كلاهما هذا بهذا كذلك تمَّ أمرهما القويم
فلا جسدٌ يقوم بغير روح ولا روح بلا جسد تقومُ
هما متلازمان فما لكلٍّ بغير قرينه أبدًا لزوم
لذلك كانت الأرواح منا بحيث تَهِي إذا وهَتِ الجسوم
ولست أظنُّ أن الروح تبقى إذا مُحيتْ من الجسد الرسوم
ورُبَّتما يكون لها دوامٌ ولكن غيرَ شاعرةٍ تدوم
وما هبطت من الخضراء لكن من الغبراءِ أنبتها الحكيمُ[1]

* * *

وأما هذه الأجسام منا فتبنيها المآكل والطعوم
وترويها المشارب والمحاسي وتذويها اللوافح والسموم
ويوهنها التقشُّف والتضني ويُحسنها التتَرُّف والنعيم
وبعض من مطاعمنا غذاء تحاك على العظام به اللحوم

[1] الخضراء: السماء. والغبراء: الأرض.

وبعضٌ من مطاعمنا وَقودٌ تديم به حرارتها الجسوم
له في جوف آكله احتراقٌ تكون رمادَه فيها الشحوم

* * *

وللأرواح كالأجساد زادٌ به تنمو المشاعر والحلوم
هو النغَم الرقيق من المثاني هو الأدب الرفيع، هو العلوم[2]
فإن الروح تغذوها الأغاني ويجلو هَمَّها الصوتُ الرخيم
ويصقلها الجمال إذا رأته وتصدِئها القبائح والهموم
فلا تنفر بسمعك من غناء به غنتك شادية بَغوم[3]
ولا تترفعنَّ عن الملاهي ولو شهدت برفعتك النجوم
وكنْ في المطربات فتًى طروبًا فإن الناس أطربها الكريم
وقف عند الحدود فلا تُعدِّ إلى ما ليس يحمده الحليم
ولا تشتطَّ في طرَبٍ ولهْوٍ فكل مُقارف شططًا ذميم
فإنْ وافقتني وجريت جَرْيي وإلا فاتكَ الطبعُ السليم

[2] المثاني: جمع مثنى بوزن مفعل، وهو ما يثنى ويكرر من الكلام في الغناء أو الإنشاد.

[3] بغوم: صيغة مبالغة من البغام، وهو صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

من نواميس الحياة

كلٌّ شيءٍ من عالم الذَّراتِ كلٌّ شيءٍ في كونه كالنباتِ
كل شيءٍ في بدئه من صغير ثم ينمو في ذاته والصفات
هكذا تكبر الصغار وتقوى في نواميس حادثات الحياة
هكذا ترسل الأصول فروعًا عاليات يأتين بالثمرات

* * *

إن للفلس في الثراء محلًّا كمحل الجذور في الدوحات
إن أصل الثراء فلسٌ وهل سا لت سيول إلا من القطرات؟!
هو في قدره حقيرٌ ولكن جمعه موصل إلى العظمات
يتساوى فيه السخيُّ وذو البخـ ـل ورب الإقلال والمثراة
هو هَيْنٌ على الذي قال: هاكُم حين يعطيه للذي قال: هات

* * *

إن ترد غرس نخلةٍ من ثراء فسوى الفلس ما لها من نواة
فاقتصد في موارد العيش فلسًا كل يوم من طائل النفقات
واجعل الفلس فوق فلس تجده مسعدًا مسعفًا على الخيرات
واقصد الخير في اقتصادك حتى لا يئول الثراء للآفات
ليس حسن الأعمال في الناس إلا حسن ما يضمرون من نيات
فدع الفعلَ كيف كان — حميدًا أو ذميمًا — وانظر إلى الغايات

حسنات الأنام إن لم تكن ذا   ت عموم ضرب من السيئات
يا شباب العراق هبُّوا إليه   وتوخَّوا بجمعه البركات
إن تكونوا اعتزمتم الأمر فيه   فالبَدار البَدار قبل الفواتِ

الوصفيات

أنا والشعر

أرى الشعر أحيانًا يجيش بخاطري ويَبْذُل ما قد عزَّ لي من مَصونهِ
ويسكن أحيانًا فأشجى وإنما تحرُّك شجوي ناشئ من سكونه
وقد أتوخَّى الهزْلَ منه مُجاريًا لدهر أراه مُوغلًا في مُجونهِ
ولكنَّ نفسي وهي نفسٌ حزينةٌ تميل إلى المُشجي لها من حزينهِ
وقد علم الراوون شعري بأنهم إذا أنشدوه أطربوا بلحونه
وإني إذا استنبطته من قريحتي شفيت صَدَى الراوي ببرد معينه[1]
وإني على علم طويتُ سهولَه ولم أتحيَّر خابطًا في حزونهِ
وإني لمَحَّاصٌ له بسليقةٍ أبتْ غَثَّه واستوثقت من سمينه[2]
وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري إذا كان في طوعي اختشاب متينه؟![3]
ألا لا اهتدتْ للشعر يومًا هواجسي إذا هي لم تنزع إلى مستبينهِ
ولا غُصتُ في بحر القريض مخاطرًا إذا لم أفز من دُرِّهِ بثمينهِ

[1] الصدى: العطش. والمعين: الماء الظاهر.

[2] الغث: المهزول، ضد السمين.

[3] الاختشاب: افتعال من خشب الشعر يخشبه، من باب ضرب؛ أي: يمره كما يجيئه ولم يتأنق فيه، ولا تعمَّل له.

على أنَّ لي طبعًا لبيقًا بوشيِهِ نـزُوعًا إلـى أبـكـارِهِ دون عُـونـه[٤]
إذا انتظمت أبياتُه في قصائدي ترى كل بيت ممسكًا بقرينـهِ
وما كان دَوحُ الشعر يومًا لنجتَني بغير اليد الطولى ثِمار غصونه
ولـم يـسـتـقـد إلا لـذي ألـمـعـيَّـةٍ يكون كرأي العين رَجم ظنونه[٥]
وإنـيَ قـد مـارسـتـه بـفـطـانـةٍ يـلـوح سـنـاهـا غُـرَّة فـي جـبـيـنـهِ

* * *

لعمرُك إن الشعر صمصام حِكمةٍ وأن الـنـهـى مـعـدودةٌ من قُـيـونـه[٦]
إذا جنني ليلُ الشكوك سَلْلتهُ عـلـيـه فـفـرَّاهُ بـفـجـر يـقـيـنـه[٧]
وما الشعر إلا مؤنسِي عند وحشتي ومُسلي فؤادي عند ورْي شجونه
تـقـوم مَـقـامَ الـدمـع لـي نـفَـثـاتـه إذا الـدهـرُ أبـكـانـي بـريـب مَـنـونـه
وأجـعـلـه لـلـكـون مِـرآةَ عِـبـرةٍ فـيـظـهـر لـي فـيـهـا خـيـال شـئـونـه
فأبصرُ أسرار الزمان التي انطوت بما دار في الأحقاب من مَنْجنونه[٨]
ولـلـشـعـر عـينٌ لـو نـظـرت بـنـورهـا إلى الغيب لاستشففتْ ما في بطونه
وأذن لو استصغيتها نحو كاتمٍ سـمـعـت بـهـا مـنـه حـديـث قرُونـه[٩]

* * *

ولـيـلٍ إلـى شِـعـراه أرسـلـت فـكـرتـي رسـولًا بـشـعـري حـامـلًا لِـرقـيـنـه[١٠]

[٤] العون: جمع عوان، وهي من إناث الحيوان ما كانت وسطًا في السن بين الفارض: وهي المسنة، والبكر: وهي الصغيرة، يقال: امرأة أو فرس أو بقرة عوان.
[٥] استقاد له الأمر: ذل وانقاد.
[٦] الصمصام: السيف. والنهى: [جمع] نهية، وهي العقل.
[٧] فراه: بتخفيف الراء وتشديدها؛ مزقه.
[٨] المنجنون: الدولاب، يستقى به الماء لإرواء الأرض.
[٩] القرون: النفس.
[١٠] الرقين: الكتاب المزين.

سلِ الليل عني نَسرَه وسماكهُ ونجمَ سُهاه والجُدَيِّ خَدينهِ[11]
فكم بتُّ في نهر المجرَّةِ في الدجى من الشعر أجري مُنشئات سفينه
هو الشعر لا أعتاضُ عنه بغيره ولا عن قوافيه ولا عن فنونهِ
ولو سَلبتنيه الحوادث في الدُنا لمَا عشت أو ما رُمْتُ عيشًا بدونه
إذا كان من معنى الشعور اشتقاقهُ فما بعده للمرء غير جنونهِ

[11] النسر والسماء والسها والجُدَي — تصغير جدي: أسماء نجوم، يريد بسؤالها عنه أنه طالما سهر في صنع الشعر مراعيًا هذه النجوم، فبينها وبينه ألفة وصحبة.

الغروب

قالها سنة ١٨٩٤ وقد وصف فيها ما شاهده في الأعظمية عيانًا من منظر الغروب.

نـزلـت تـجـرُّ إلـى الـغـروب ذيـولا صـفـراء تـشـبـه عـاشـقًـا مَـتـبـولا
تـهـتـزُّ بـيـن يـد الـمـغـيـب كـأنـهـا صـبٌّ تـمـلـمَـل فـي الـفـراش عـلـيـلا
ضـحـكـت مـشـارقـهـا بـوجـهـك بُـكـرةً وبـكـت مـغـاربُـهـا الـدمـاء أصـيـلا
مذ حان في نصف النهار دلوكها هبطت تزيد على النزول نزولا[1]
قـد غـادرت كـبـدَ الـسـمـاءِ مـنـيـرةً تـدنـو قـلـيـلًا لـلأفـول قـلـيـلا
حتى دنت نحو المغيب ووجهها كالورْس حال به الضياء حُئولا[2]
وغدت بأقصى الأفق مثلَ عَرارة عطِشت فأبدت صفرةً وذبولا[3]
غَرَبت فأبقت كالشُّواظ عَقيبها شـفـقًـا بـحـاشـيـةِ الـسـمـاء طـويـلا
شـفَـقٌ يـروع الـقـلـبَ شـاحـب لـونـه كالسَّيف ضُمِّخ بالدِّما مسلولا
يـحـكـي دمَ الـمـظـلـوم مـازَجَ أدمـعًـا هـمـلـت بـهـا عـيـن الـيـتـيـم هـمـولا
رقـت أعـالـيـه وأسـفـلـه الـذي في الأفق أُشبِعَ عُصفرًا محلولا[4]

[1] دلوك الشمس والنجوم: زوالها على الاستواء، ويستعمل في الغروب أيضًا.
[2] الورس: نبت أصفر، يزرع باليمن وتصبغ به، أو هو صنف من الكركم.
[3] العرارة: واحدة العرار، وهو نبت طيب الريح، قيل: هو النرجس البري.
[4] العصفر: نبت أصفر، يصبغ به.

شفقٌ كأن الشمس قد رفعت به ... رُدنًا بذوبِ ضيائها مبلولا[٥]
كالخود ظلَّت يوم ودَّع إلفها ... ترنو وترفع خَلفه المِنديلا[٦]
حتى توارت بالحِجاب وغادرت ... وجه البسيطة كاسفًا مخذولا
فكأنَّها رَجلٌ تخرَّم عِزَّه ... قرع الخطوب له فعاد ذليلا
وانحطَّ من غُرف النباهة صاغرًا ... وأقام في غار الهوان خمولا

* * *

لم أنسَ قرب «الأعظميَّة» موقفي ... والشمس دانيةٌ تريد أفولا
وعن اليمين أرى مُروج مُزارعٍ ... وعن الشمال حدائقًا ونخيلا
وتروع قلبي للدَّوالي نعرةٌ ... في البين يحسِبها الحزين عَويلا[٧]
ووراء ذاك الزرع راعيَ ثلة ... رجعت تؤُمُّ إلى المراح قفولا[٨]
وهناك ذو برذونتين قد انثنى ... بهما العشيَّ من الكراب نحيلا[٩]
وبمنتهى نظري دخان صاعد ... يعلو كثيرًا تارةً وقليلا
مدَّ الفروع إلى السماء ولم يزل ... بالأرض متصلًا يمدُّ أصولا
وتراكبت في الجوِّ سُودُ طباقهِ ... تحكي تلولًا قد حملن تلولا
فوقفتُ أرسل في المحيط إلى المدَى ... نظرًا كما نظر السقيم كليلا
والشمس قد غرَبت ولما ودَّعَتْ ... أبكت حُزُونًا بعدها وسهولا
غابت فأوحشتِ الفضاء بكدرة ... سَقِم الضياء بها فزاد نحولا
حتى قضت رُوح الضياء ولم يكن ... غير الظلام هناك عزرائيلا
وأتى الظلامُ دُجنَّة فدجنَّة ... يُرخي سدولًا جمَّةً فسدولا
ليل بغيهبه الشخوصُ تلفعت ... فظَلِلتُ أحْسِب كلَّ شخصٍ غولا
ثم انثنيت أخوض غمر ظلامه ... وتخِذْت نجم القطب فيه دليلا

[٥] الردن: أصل الكم.

[٦] الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة، والجمع خودات، وخود بضم الخاء في الأخير.

[٧] الدوالي: جمع دالية، وهي الناعورة تديرها البقرة، والنعرة بالفتح: المرة من نعر إذا صوت.

[٨] الثلة: القطيع من الغنم. والمراح: المكان تروح إليه الدواب وتأوي إليه بعد المراعي.

[٩] الكراب مصدر كرب الأرض كربًا وكرابًا: قلبها للحرث، وأثارها للزرع.

إن كان أوحشني الدجى فنجومه بعثت لتؤنسني الضياءَ رسولا
سبحان من جعل العوالم أنجمًا يسبحنَ عرضًا في الأثير وطُولا
كم قد تصادمتِ العقول بشأنها وسعت لتكشف سرها المجهولا
لا تحتقرْ صِغَر النجوم فإنما أرقى الكواكب ما استبان ضئيلا
دارَتْ قديمًا في الفضاء رَحى القوى فغدا الأثير دقيقها المنخولا
فاقرأ كتاب الكون تلْقَ بمتنه آيات ربك فُصِّلتْ تفصيلا
ودع الظُّنون فلا وربِّك إنها لم تغنِ من علم اليقين فتيلا

ليلة في ملهى

لما كان الرصافي في الآستانة سنة ١٨٩٨ أخذه جماعة من فضلاء فلسطين، معهم الأستاذ خليل السكاكيني، إلى مرقص من مراقص الآستانة في إحدى الليالي، واقترحوا عليه أن يصفه، فقال هذه القصيدة:

طرب الشعر أن يكون نسيبا ... مذ أجالت لنا القوامَ الرَّطيبا
وتجلَّت في مسرح الرَّقص حتى ... أرقصت بالغرام منا القلوبا
أقبلت تنثني بقدٍّ رَشيقٍ ... ألبسته البردَ القصير قشيبا
قصَّرتْ منه كمَّه عن يديها ... وأطالت إلى النهود الجيوبا[١]
حبسَ الخصرَ حيث ضاق ولكن ... أطلق النحرَ باديًا والتريبا
هو زيٌّ يزيد في الحسن حسنًا ... من تزيَّا به، وفي الطيب طيبا
خطرت والجمال يخطر منها ... في حشا القوم جيئة وذُهوبا
وعلى أروُسِ الأصابع قامت ... تتخطَّى تبخترًا ووثوبا
يعبس الأنسُ أن تروح ذهابًا ... ويعيد ابتسامة أن تئُوبا
فَهْي إن أقبلت رأيت ابتسامًا ... وهي إن أدبرت رأيت قطوبا
نحن منها في الحالتين ترانا ... نرقب الشمس مطلعًا ومغيبا
تضحك الجوَّ في الصباح طلوعًا ... ثم تبكيه في المساء غروبا

[١] المراد بالجيب هنا فتحة الطوق، من عند الرقبة إلى ما بين الثديين.

أظهرت في المجال من كل عضوٍ لعبًا كان بالقلوب لعُوبا
حَيَّرتنا لما أرتنا عجيبًا فعجيبًا من رقصها فعجيبا
شابَهت عطفةَ الغصون انثناءً وحكت خطرةَ النسيم هبوبا
تلفِتُ الجيد للرجوع انصياعًا كفطيم رأى على البعد ذيبا
تثب الوثبة الخفيفة كالبر ق صُعودًا في رقصِها وصبوبا[٢]
حركات خلالها سكنات يقف العقل بينهنَّ سليبا
وخطًا تفضح العُقود اتِّساقًا نظمتها تسرُّعًا ودبيبا
بَسمت كوكبًا ومرَّت نسيمًا وشدَتْ بلبلًا وفاهت خطيبا
لو غدا الحسن شاعرًا ينظم الحبَّ قريضًا أبدى بها التشبيبا
هي كالشمس في البِعاد وإن كا ن إلينا منها الشعاع قريبا
عمتِ الناسَ بالغرام فكلٌّ قد غدا عاشقًا لها ورقيبا
زَهرةٌ تبهج النواظر حسنًا ورُواءً وتُنعش الرُّوح طيبا
هي دائي إذا شكوت من الدا ءِ وطِبِّي إذا أردت طبيبا
وأتت بعدها من الغيد أخرى يقتفي إثرَها الجمال جنيبا
فأرتنا من الجبين صباحًا ومن الخدِّ كوكبًا مشبوبا
حملت بندُقيةً صوَّبتها نحو مُستهدِفٍ لها تصويبا
واستمرَّت رميًا بها عن بنانٍ لطفه ضامن له أن يصيبا
تحسن الرمي تارة مستقيمًا وإلى الخلف تارة مقلوبا
وانكبابًا إلى الأمام وإقعَا سًا كثيرًا إلى الوراءِ عجيبا
وهْيَ في كل ذا تصيب الرمايا مثلما طرفها يُصيب القلوبا
لو أرادت رمي الغيوب وأغضت لأصابت خفيَّها المحجوبا

* * *

مشهد فيه للحياة حياة تترك الوالهَ الحزين طَروبا
قد شهدناه ليلةً جعلتْنا نحمدُ الدهر غافرين الذنوبا

[٢] صبوبًا: انحدارًا.

بين رهطٍ شُمِّ العرانين ينفى الـ ـهَّم عنِّي حديثُهم والكروبا[3]
كرمُوا أنفسًا وطابوا فِعالًا وسمَوا محتدًا وعفُّوا جُيوبا
كل ذي نجدةٍ تراه لدى الفعل كريمًا وفي المقال أديبا
تلك والله ليلةٌ لست أدري في بلادي قضيتها أم غريبا
كدتُ أنسى بها العراق وإن أبقى ندوبا بمهجتي فندوبا
يا سواد العراق بَيَّضَك الدهـ ـر فأشبهتَ مقلَتي يعقوبا
شَمَلَت ريحك العقيمُ وقد كا نت لقوحًا تهُب فيك جنوبا
أين أنهارُك التي تملأ الأر ض غِلالًا بسيحها وحبوبا؟[4]
إذ حَكت أرضك السماء نجومًا ماحِياتٍ أنوارهنَّ الجُدوبا
لهف نفسي على نضارة بغدا دَ استحالت كدُورةً وشحوبا
أين بغدادُ وهْي تزهو علومًا وزروعًا وأربعًا ودرُوبا؟!
أقفرَت أرضها وحاق بها الجهـ ـل فجاشت دواهيًا وخطوبا

[3] أشم العرنين: مرتفع قصبة الأنف؛ كناية عن الإباء والشمم وعلو النفس.

[4] السيح: النهر يسيح ماؤه على وجه الأرض؛ أي يسيل.

في القطار

قالها لما ركب القطار من الآستانة إلى سلانيك سنة ١٨٩٨.

تذكَّرت في أوطَانيَ الأهل والصحبا فأرسلت دمعًا فاض وابله سكبا
وبتُّ طريد النَّوم أختلس الكرَى بشاخص طرف في الدجى يرقب الشُّهبا
كئيب كأن الدهر لم يلقَ غيره عدُوًّا فآلى لن يهادنه حربا
يقِلُّ كروبًا بعضها فوق بعضها إذا ما رمى كربًا رأى تحته كربا
وإني إذا ما الدهرُ جرَّ جريرةً لتأنفُ نفسي أن أكلِّمه عَتْبا
وقد علم القوم الكرام بأنني غلامٌ على حب المكارم قد شبَّا
وأنِّي أخو عزم إذا ما انتضيتهُ نَبا كلُّ عضب عنه أو أنكر الضربا[١]
وأنِّي أعاف الماء في صفوه القَذى وإن كان في أحواضه باردًا عذبا
ولكنَّ لي في موقف الشوق عبرة تساقط من أجفاني اللؤلؤ الرطبا
إذا ضربت أوتارَ قلبي شجُونه بدت نغمات ترقِص الدمع مُنصبَّا

* * *

وقاطرة ترمي الفضا بدخانها وتملأ صدر الأرض سيرها رعبا
لها مَنخر يبدي الشواظَ تنفسًا وجوف به صار البخار لها قلبا

[١] يقال: انتضى سيفه: إذا سله من قرابه، وقد شبه عزمه بالسيف، ونبا السيف عن الضريبة: رجع ولم يقطع.

تـمـشَّـت بـنـا لـيـلًا تـجـرُّ وراءهـا قطـارًا كصف الدَّوح تسحبه سحبا
فَطَوْرًا كعصف الريح تجري شديدةً وطَـوْرًا رُخـاءً كـالـنـسـيـم إذا هـبَّـا
تساوى لديها السهلُ والصعبُ في السُّرى فما استسلهت سهلًا ولا استصعبت صعبا
تـدكُّ مُـتـون الـحَـزن دكًّـا وإنـهـا لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
يـمر بـهـا الـعـالـي فـتـعـلـو تـسلُّـقًـا ويـعـتـرض الـوادي فـتـجـتـازه وثـبـا
وتـخـتـرق الـطـودَ الأشـم إذا انـبـرى وقـد وجدت مـن تـحـت قُـنَّـتـه نـقـبـا
يـرنُّ بـجـوف الـطَّـوْدِ صـوت دَويِّـهـا إذا ولـجَـت فـي جـوفـه الـنـفـقَ الـرحـبـا
لـهـا صـيـحـة عـنـد الـوُلـوج كـأنـهـا تـقـول بـهـا: يـا طـودُ خَـلِّ لـيَ الـدربـا
وتـمـضـي مُـضـيَّ الـسـهـم فـيـه كـأنـمـا تـرى أفـعـوانًـا هـائـجًـا دخـل الـثـقـبـا
تـغـالِـب فـعـل الـجـذب وهـي ثـقـيـلـةٌ فـتـغـلـب بـالـدفـع الـذي عـنـدهـا الـجـذبـا
طـوت بـالـمـسـيـر الأرض طـيًّـا كـأنـهـا تسابق قرصَ الشمس أن يُدرك الغربا
ومـا إن شـكـت أيـنًـا ولا سـئـمتْ سُـرًى ولا استهجنت بعدًا ولا استحسنت قربا[٢]
عـشـيـةَ سـارت مـن فَـروُقَ تـقـلُّـنـا وتقذِف من فيها بوجه الدجى شهبا[٣]
فـمـا هـي إلا لـيـلـةٌ ونـهـارُهـا وما قد دعونا من سلانيك قد لبَّى[٤]
فـجـئـنـا ولـم يُـعْـي الـسـفـارُ مـطـيـنـا كأن لم نكن سفرًا على ظهرها ركبا[٥]

* * *

تـعـاليتَ يـا عـصرَ الـبـخـار مـفـضـلًا على كل عصر قد قضى أهله نحبا
فـكـم ظـهـرت لـلـعـلـم فـيـك مَـعـاجِـزٌ بـهـا آمـن الـسـيـفُ الـذي كـذَّب الـكُـتـبـا
تـظـاهـرتَ مـن فـعـل الـبـخـار بـقـوَّةٍ يذلِّل أدنى فعلها المَطلبَ الصعبا[٦]
وأُقـسـمُ لـولا الـكـهـربـاءة فـوقَـه لقلت: على كل القوى تِهْ به عُجْبا!
هـو الـعـلـم يـعـلـو فـي الـحـيـاة سـعـادةً ويـجـعـلُـهـا كـالـعـلـم مـحـمـودة الـعُـقـبـى

[٢] الأين: التعب والكلال.
[٣] فروق: اسم القسطنطينية.
[٤] سلانيك: بلد باليونان.
[٥] السفار: السفر.
[٦] تظاهرت بقوة: استعنت بها وتقويت.

فكلُّ بلاد جادها العلمُ أمرعت رُباها وصارت تنبتُ العزَّ لا العُشبا
متى ينشئ الشرقُ الذي اغبرَّ أفقُه سَحابة علمٍ تمطرِ الشَّرف العذبا
فإن دَبور الذل ألوتْ بعزِّه وكادت سَموم الجهل تحرقه جدبا[٧]
تبصَّر إذ دارت رحى الشرق هل ترى سوى الجهل في أثناء دورتها قُطْبا

[٧] الدبور: ريح الجنوب، وهي حارة.

الأرملة المرضعة

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها! تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أَثوابُها رثَّةٌ والرِّجْلُ حافيةٌ والدمع تذْرفه في الخدِّ عيناها
بكت من الفقر فاحمرَّت مدامعها واصفرَّ كالوَرْس من جوعٍ مُحياها[1]
مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أفجعها والفقر أوجعها والهمُّ أنحلها والغمُّ أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآهُ مقرونٌ بمرآها
كرُّ الجديدين قد أبلى عباءَتها فانشقَّ أسفلها وانشق أعلاها
ومزَّق الدهرُ — ويلُ الدهرِ — مِئزرها حتى بدا من شقوق الثوبِ جَنباها
تمشي بأطمارها والبرد يَلسعها كأنه عقربٌ شالت زُبانَاها[2]
حتَّى غدا جسمُها بالبردِ مرتجفًا كالغُصن في الريح واصطكَّت ثناياها

* * *

تمشي وتحمل باليُسْرى وليدَتها حَمْلًا على الصَّدْر مدعومًا بيُمناها
قد قمَّطتها بأهدام ممزَّقةٍ في العين منشرها سَمج ومَطواها
ما أنسَ لا أنسَ أني كنتُ أسمعها تشكو إلى ربها أوصابَ دنياها

[1] الورس: نبت أصفر يصبغ به.
[2] شالت: ارتفعت. والزبانة: الذنب.

تقول: يا ربُّ لا تترك بِلا لبنٍ هذي الرضيعة وارحمني وإياها
ما تصنع الأم في تربيب طفلتها إن مسَّها الضرُّ حتى جفَّ ثدياها[٣]
يا ربُّ ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فَقْدُ الغيث أظماها
ما بالها وهْي طول الليل باكيةٌ والأمُّ ساهرة تبكي لمبكاها
يكاد ينقدُّ قلبي حين أنظرها تبكي وتفتح لي من جوعها فاها
ويلُمِّها طفلةً باتت مروَّعة وبتُّ من حولها في الليل أرعاها![٤]
تبكي لتشكوَ من داءٍ ألمَّ بها ولست أفهم منها كُنهَ شكواها
قد فاتها النطق كالعجماء أرحمها ولست أعلم أي السقم آذاها
وَيح ابنتي إنَّ ريبَ الدهر روَّعها بالفقر واليتم، آهًا منهما آها!
كانت مصيبتها بالفقر واحدةً وموت والدها باليُتم ثنَّاها

* * *

هذا الذي في طريقي كنت أسمعه منها فأثَّر في نفسي وأشجاها
حتى دنوت إليه وهْي ماشيةٌ وأدمعي أوسعت في الخدِّ مجراها
وقلت: يا أُختُ مهلًا إنني رجلٌ أشارك الناس طُرًّا في بلاياها
سمعت يا أُخت شكوى تهمسين بها في قالةٍ أوجعت قلبي بفحواها
هل تسمح الأخت لي أني أشاطرها ما في يدي الآن أسترضي به الله
ثم اجتذبت لها من جيب ملحفتي دراهمًا كنت أستبقي بقاياها[٥]
وقلت: يا أُخت أرجو منك تكْرمتي بأخذها دونما مَنٍّ تغشَّاها
فأرسلتْ نظرة رعشاء راجفة ترمي السهام وقلبي من رماياها
وأخرجَت زفَراتٍ من جوانحها كالنار تصعد من أعماق أحشاها
وأجهشت ثم قالت وهي باكية: واهًا لمثلك من ذي رقَّة واها!
لو عَمَّ في الناس حِسٌّ مثل حسِّك لي ما تاه في فَلَوات الفقر مَن تاها

[٣] تربيب: تربية.
[٤] ويلمها: أصله ويل لأمها.
[٥] ملحفتي: الرداء الذي أرتدي به فوق ملابسي.

أو كان في الناس إنصافٌ ومرحمة　　لم تشكُ أرملة ضَنكًا بدنياها

* * *

هذي حكاية حالٍ جئت أذكرها　　وليس يخفى على الأحرار مَغزاها
أَولى الأنام بعطف الناس أرملةٌ　　وأشرف الناس مَن في المال واساها

عهد الصبا أو نهر الحياة

عـهـد الـصِّـبـا سَـقـيًـا لأيـام الـصـبـا أشـبَـهُ شـيءٍ بـأزاهـيـر الـربـا
إن الـصـبـا كـالـورد فـي نـضـرتـه وعُـمْـره والـلـون مـنـه والـشَّـذا
واهًا على شَرْخ الشباب المشتهى خـلَّـف ذاكـره بـقـلـبـي ومـضـى!
لـقـد ذوَى غـصـن حـيـاتـي بـعـده وكـان ريَّـان الـتَّـصـابـي والـمُـنـى
أطـيـب عـيـش الـمـرء فـي شـبـابـهِ فـإن تـولَّـى فـهـو هـيـشٌ مُـزْدرى

* * *

إنَّ حـيـاة الـمـرء مـا عـاش تُـرى أحـوالُـهـا مـخـتـلـفـاتٍ فـي الـرُّؤى
كـالـنَّـهَـرِ الـجـاري الـذي تـغـيَّـرتْ أوضـاعـه فـي الأرض كـلَّـمـا جـرى
فهو لدى المنبع ضحْضاحٌ وفي مَـصَـبِّـه تـلـقـاه بـحـرًا قـد طَـمَـا[1]
بيناه يجري في الثرَى مُنعطفًا إذا بـواديـه تـمـطَّـى واسـتـوى
طـورًا كـأسـيـاف الـوغَـى مُـنْـحـنـيًـا فـي الأرض يـنـسـاب وطـورًا كـالـقـنـا
وربـمـا عـادت مـجـاريـه بـه راجـعـةً مـن حـيـث جـاءَ الـقـهـقَـرى
وربـمـا صـادف غـوْطًـا فـانـهـوى فـيـه وقـد خـرَّ خـريـرًا ورغـا[2]
والـمـاءُ فـيـه قـد يُـرى مـنـبـسـطًـا وتـارةً مـنـزويًـا فـوق الـثـرى

[1] ضحضاح: ليس عميقًا.

[2] غوطًا: أرضًا منخفضة. ورغا البعير: صوت.

وتــارة تــلــقــاه فــي مَــشــجَــرةٍ   يجري وأخرى بين أصلاد الصفا[3]
حــتــى إذا أبــحــر مــجــراه بــه   كان إلى الدأماءِ منه المنتهى[4]
وهــكــذا أنــهــار أعــمــار الــورى   تجري فتنصبُّ إلى بحر الرَّدَى

* * *

وإنــمــا الــعــمــر شــبــابٌ فــإذا   زال فــحــزن وشــقــاءٌ وضــنَــى
ما كان أحلى العيشَ لو أنَّ الفتى   لم يجدِ الشيبُ إليه مُخْتطَى[5]
ليت الفتى كالبدر في النشأة إذ   عـاد هـلالًا كـل شـهـر فـنَـمـا!
أو لـيـتـه كـالـشـجـر الـنـابـت إذ   يورق في الصيف ويَعرَى في الشتا!
أو ليت هـذا الـشـيـب إن كـان ولا   بُدَّ من الـشـيـب أتـى قبل الـصـبـا
شـبـيـبـة الإنـسـان مِـرآة الـمُـنـى   بـدائـع الآمـال فـيـهـا تُـجـتـلـى
والـمـرء فـيـهـا إنْ تـمـرأى راجـيًـا   أبـدت لـه مـبـتـسمًا ثـغـر الـرجـا
ويـحَ شـبـابٍ فـتـك الـشـيـب بـه   إذ لاح كـالـسـيـفِ عـلـيـه مُـنـتـضـى
بُـردانِ: هــذا مــن وقــارٍ ونُــهــى   حِـيـك، وهـذا مـن تـصَـابٍ وهـوَى
لـكـن وقـارُ الـشـيْـب لا يـعـدِل مـا   فـي طـيِّـهِ مـن لـوثـةٍ ومـن وَنـى

* * *

يـا مُـسـلـيًـا ذا الشَّـيـب عـن شـبـابـهِ   بـأنَّ وخْـطَ الـشـيـب أزهـارُ الـنُّـهـى
أَقـصِـرْ هَـذاذيـكَ عـن الـقـول فـلا   يُـقــاس ذَيَّــالِـكَ تــالــلــه بــذا[6]
ومـا الـصـبـا بـمـانـعٍ مـن الـحِـجـا   بل هو في الشيخ يكون والفتى
وليس من أصبح يمشي الخيزَلى   في مَعرِض السبق كماشي الهيذبَى[7]

---

[3] مشجرة: أرض كثيرة الشجر. أصلاد: جمع صلد، وهو الصخر الجلمد. والصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس.

[4] أبحر مجراه: اتسع كالبحر. والدأماه: البحر.

[5] مختطى: مصدر ميمي من اختطى، بمعنى خطا.

[6] هذاذيك: مشي هذاذ، أي: هذًّا بعد هذٍّ، والهذ: القطع، يريد: كف عما تقوله واقطعه ولا تعد إليه.

[7] الخيزلى: مشية تخاذل وتراجع وتفكك. والهيذبى، والهيدبى: ضرب من مشية الخيل سريعة. استوحى الشاعر هذا المعنى من المتنبي الذي فضَّل ابنة البادية على ابنة الحاضرة فقال:

وما إياة الشمس في تطفيلها مثلَ إياة الشمس في رأد الضحى[٨]
وهل يطيب العيش للهمِّ الذي إن همَّ بالنهضة خانته القُوَى؟![٩]
يَبيتُ طول الليل في مضجعِه مستأنس السَّعلة وحشيَّ الكرَى
وإنَّ ظهر الأرض يستثقل مَن أَمْسى يَدِبُّ فوقها على العصا

ألا كلُّ ماشيةِ الخَيزلى فِدى كلِّ ماشيةِ الهَيْذبَى

[٨] إياة الشمس: شعاعها. والتطفيل: وقت الأصيل. ورأد الضحى: ارتفاعه ورونقه.
[٩] الهم: الرجل المسن البالي، جمعه أهمام.

السفر في التومبيل

وفَدْفَدٍ قائم الأعماق متسعٍ طوَيت أجوازه طيَ المكاتيبِ[1]
بتومْبيلٍ جرى في الأرض منسرحًا كما جرى الماء من سفح الأهاضيب
ينساب مثل انسياب الأيم تحمله عواملٌ عَجِلاتٌ من دَواليب[2]
كأنَّها وهْي بالمطَّاط مُنعَلةٌ تمشي بأخفاف أنواقٍ مَطاريب
يمرُّ كالريح لم تسمع لأرجله سوى حفيفٍ كنفْخٍ في الأنابيب
وتنكر الخيل إن جارته في سَننٍ ما تعرف الخيل من حُضرٍ وتقريب[3]
تظلُّه قُبَّةٌ فيه منجَّدة قد زانها حُسْنُ تنجيدٍ وتقبيب
يَخالُ من حلَّ فيها نفسه ملكًا يُزهَى بتاجٍ على الفَوْدين معصوب
رَكِبتُه وبياضُ الصبح تحسِبه صدرَ المليحة مكشوف التلابيب
والبدر في الأفق الغربيِّ ممتقع يرنو إلى الفجر في ألحاظ مرعوب
وللنجوم بقايا في جوانبه كالعِقد منفرطًا من جيد رُعبوب[4]
وللنسيم هبوبٌ في مدارجهِ ما ينعش الروح من نشرٍ ومن طيب

---

[1] الفدفد: الفلاة الواسعة لا شيء بها. والأجواز: جمع جوز، وهو وسط الشيء.

[2] الأيم: الحية.

[3] الحضر: السير السريع. والتقريب: ضرب من السير بطيء.

[4] الرعبوب: الشابة الممتلئة الحسنة الناعمة.

فطار من غير تحليقٍ براكبه بل مرَّ يمطر مطرًا فوق مَلحوب[٥]
وسار سيرًا دِراكًا ملءَ مَهْيعه كالويل يتبع شُؤبوبًا بشؤبوبِ[٦]
فكنت أبصر حولي الأرض جاريةً كمثل تيَّار بحرٍ وهو يجري بي
يلوح فصل الربا وصْلًا فأحسبها من سرعة المَرِّ قد صُفَّت بترتيب
ما زال يجتاز بي ما في البسيطة من سهلٍ ومن جَبَلٍ عالي الشناخيب[٧]
حتى بلغتُ به أقصى مدًى عجزتْ عنه العِتاقُ من الجُرد السراحيب[٨]
وكم عَلا بيَ أنشازًا تسلَّقها وشابَ في السير تصعيدًا بتصويب[٩]
لا يعرف الأينُ منه أينَ موقِعه ولو يواصل إدلاجًا بتأويب[١٠]
وكيف يتعب من لا حِسَّ يتبعه ولا يسير على ساقٍ وظنبوب[١١]
وإنما هو يجري في مسالكه دفعًا بقوة غازٍ فيه مشبوب

* * *

جرَّبته هابطًا أجزاعَ أودية وطالعًا في الثَّنايا والعراقيب[١٢]
وملهِبًا في سهول الأرض ينهبها نهبًا ويخلط ألهوبًا بألهوب[١٣]
فكان أسبقَ مركوبٍ لغايته وكنت أقرب طَلَّابٍ لمطلوب
تلك المطية لا عوجاء يذكرها أديب ذبيانَ من عَيرانة النيب[١٤]
لو امتطاها لبيدٌ قبلُ تاه بها على الحواضر قِدمًا والأعاريب

---

[٥] الملحوب: الطريق الواسع.

[٦] دراكًا: متتابعًا. والمهيع: الطريق. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

[٧] الشناخيب: جمع شنخوب وشنخابة وشنخاب، وهو رأس الجبل.

[٨] السراحيب: جمع سرحوب، وهي الفرس الطويلة الجسم.

[٩] أنشازًا: جمع نشز بالتحريك، وهو المرتفع من الأرض.

[١٠] الإدلاج: سير الدلجة في الليل. والتأويب: السير بالنهار.

[١١] الظنبوب: مقدم عظم الساق.

[١٢] الأجزاع: جمع جزع، بكسر الجيم، وهو حيث ينجزع الوادي والطريق، أي: ينعطف.

[١٣] الألهوب: العدو الشديد تنتهب منه الأرض الصلبة، فيخرج منها الشرر.

[١٤] أديب ذبيان: هو النابغة الذبياني. والعيرانة: الناقة تشبه العير — وهو حمار الوحش — في وثاقة خلقها وقوتها. والنيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.

ولم يَهم لو رأى ابن العبد منظرها   من وصف عوجائه في كل أسلوب[١٥]
ولا أطال ابنُ حُجْرٍ وصف منجردٍ   عالي السراة كُمَيت اللون يَعبوب[١٦]

[١٥] ابن العبد: هو طرفة بن العبد، وعوجاؤه: ناقته التي وصفها في معلقته.

[١٦] ابن حجر: هو امرؤ القيس. والمنجرد: القصير الشعر. والسراة: الظهر. والكميت: الأحمر. واليعبوب: الجواد البعيد الغاية في الجري.

من ويلات الحرب

مرت تقول: ألا يا ربِّ خُذ روحي كي أستريح بموتي من تباريحي[1]
مهزولة الجسم من فقرٍ ومن نَكَدٍ مُصفرَّةَ الوجه من هَمٍّ وتتريح
باتت بغير عَشاء وهي طاوية وأصبحت وهي غَرْثى دون تصبيح[2]
ضنك المعيشة أضوى جسمها فبدت شروى خيال بطرف العين ملموح[3]
وأذبلتها هموم النفس ناصية فصوَّحت وجنتيها أي تصويح[4]
وَيْلُمِّها عيشةً نكداء يابسة لم تبقِ من جسمها غير الألاويح![5]
في طرفها نظرٌ وانِ تُردِّده لَمْح المريض إذا ما جاد بالروح
تلفعت بدريس من تَخرُّقِه تخال طرَّته بعضَ التقازيح[6]

---

[1] التباريح: كلف المعيشة في مشقة.

[2] التصبيح: هنا بمعنى الغداة؛ أي ما يؤكل صباحًا.

[3] شروى: بمعنى مثل؛ أي مثل خياله.

[4] التصويح: التجفيف؛ أي جففت وجنتيها.

[5] الألاويح: جمع ألواح، جمع لوح، فهو جمع الجمع، وألواح الجسد: عظامه العراض، والمعنى: لم يبقَ في جسمها غير العظام، يقال للمهزول: لم يبقَ منه إلا الألواح.

[6] التقازيح: جمع التقزيح، وهو رأس نبت أو شجرة يتشعب كبرثن الكلب؛ أي تخال جانب ثوبها المنخرق كرأس هذا النبت المتشعب شعبًا.

فكم ترى العينُ خَرقًا غير مرتقع في جانبيه وفتقًا غير منصوح[٧]
تمشي انخزالًا بعبء الفقر مُثقلة كظالعٍ في الطريق الوعر مكسوح[٨]
خارت قواها فمارت في تخذُّلها يكاد يسقطها هَبٌّ من الريح

* * *

لمَّا دنوت إليها كي أسائلها والقلب في خطَرانٍ كالأراجيح
تأوَّهت آهةً حمراءَ داميةً تشفُّ عن كبدٍ بالهمِّ مجروح
وأجهشت ثم أرخت من محاجرها عِنان دمع على الخدين منضوح
وأعرضت وهي لم تنبس سوى نظر يغني الألِبَّاء عن نطق وتصريح
فرُحتُ من عجبي منها ومن جزعي أبكي لها بين ترجيعٍ وتسبيح
من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح
ولا يقوم بعبء المجد مضطلعًا من لا يقوم إلى إنهاض مفدوح[٩]
وما السعادة في الدنيا بحاصلةٍ إلا بإسعادِ أطلاح مرازيح[١٠]
إن المروءة شيءٌ لا تناوشه إلا سواعد أجواد مساميح
أرى كنوز المعالي ما لِأَقْفُلِها غيرُ السماح لعمري من مفاتيح
والعيش غيهبُ آمالٍ وليس لنا سوى التعاون فيه من مصابيح

* * *

قامت قيامةُ أهل الغرب فانبعثت هَزاهِزٌ بينهم عمَّت بني نوح[١١]
واستفحلت فتنة عمياء جائحةٌ تمخَّضت في دم في الأرض مسفوح
وقامتِ الحرب باللأواء شاملة كل البسيطة حتى الأبحر الفيح[١٢]

---

٧ منصوح: أي مخيط، من نصح الثوب إذا خاطه.

٨ الظالع: الذي يغمز في مشيه؛ أي يميل من رجله، وكذلك المكسوح، يقال: جمل مكسوح: إذا كان به ظلع شديد.

٩ المفدوح: المثقل.

١٠ أطلاح: جمع طلح، وهو المُعنَّى والمهزول، وكذلك مرازيح.

١١ الهزاهز: الفتن التي تهز الناس.

١٢ اللأواء: الشدة والمجاعة. والفيح: جمع أفيح، يقال: بحر أفيح؛ أي واسع.

والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها ... مُحمرَّةَ اللُّوح أو مُغبرَّةَ السوح[١٣]
ضاقت على الناس وانسدَّت مسالكها ... فعاد كل طريق غير مفتوح
والحرب أغنت أناسًا غِنيةً عجَبًا ... وآخرين رمتهم بالمجاليح[١٤]
ومعشرًا أسكنتهم في الذرا غُرَفًا ... ومعشرًا بطنَ ملحود ومضروح[١٥]

* * *

أما التي أوجعت قلبي بمنظرها ... وأوهنته بتبضيعٍ وتقريح
فغادة عضَّت الحربُ الضرُوسُ بها ... عضًّا بناب حديد غير مرضوح[١٦]
أمست تكابدُ من فقرٍ ألمَّ بها ... آلامَ عيشٍ بشيع الطعمِ مذروح[١٧]
ترنو إلى الناس بالشكوى فتحسبها ... ظمآن يشكو لآلٍ حُرقة اللُّوح[١٨]

[١٣] اللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض. والسوح: جمع ساحة؛ احمرار اللوح، واغبرار السوح: كناية عن وقوع القحط والجدب.

[١٤] المجاليح: السنون التي تذهب بالمال، وهي ذات القحط والجدب.

[١٥] الملحود والمضروح: القبر.

[١٦] مرضوح: مكسور.

[١٧] مذروح: مسموم.

[١٨] الآل: السراب. واللوح: بضم اللام هنا، بمعنى العطش، والمعنى أنها تشكو إلى الناس بلا فائدة كشكوى الظمآن إلى الشراب.

على جسر مود

قالها يصف بها ليلة مقمرة وهو على جسر مود بغداد.

لا تبكِ أَرْبُعَهُمْ ولا الأطلالا | واربأْ بحبِّك أن يكون خيالا
واتركْ سؤالكَ للرسوم فإنها | مما يزيدك بالسؤال ضلالا
وانظر إلى حسن الطبيعة إنه | حُسن يفيدك في الحياة كمالا
حسن يقيِّد من رآه بحبه | ويفكُّ من أفكاره الأغلالا
ويطير في جوِّ السرور مُرَفرفًا | بالمشتكين كآبة وملالا
أوَما ترى البدرَ المنير إذا بدا | يكسو الدُّجى من نوره سربالا

* * *

ولقد وقفت بجسر مُودَ عشيةً | والبدر في أفق العلا يتلالا
والليل يلبس من سناه مطارِفًا | منها يجرُّ بدجلة أذيالا
أما النسيم فقد جرى متعطرًا | وحكى بطيب هُبوبهِ الآمالا
وجبين دجلة قد صفا متألقًا | فحكى السماء محاسنًا وجمالا
فحسبت نفسي في السماء مُشاهدًا | تحتي بدجلة للسماء مثالا
ورأيت من فوقي السَّماء حقيقة | ورأيت من تحتي السماءَ خيالا
فكأنما الجسر الذي أنا فوقه | قد مدَّ في جوِّ السماء مثالا
وكأنما أنا في السماء محلق | طَورًا أسفُّ وتارةً أتعالى

* * *

لـلـه مـا شـاهـدتـهُ مـن مَـنـظـرٍ　　يدع الـكـئـيـب كـشـارب جِـريـالا![1]
حُـفَّـتْ جـوانـبـه بـكـل بـديـعـةٍ　　فـزهـا جـمـالًا واسـتـقـلَّ جـلالا
حتى نخيلُ الجانبين جميعها　　قـامـت لـه بـحـفـاوةٍ إجـلالا

[1] الجرْيال: من أسماء الخمر.

على البسفور

وقفتُ على البوسفور والريح عاطف ... ولـلـدَّوح ظـل دونـه مـتـقـلِّـصُ
وفي البحر مجرى موجة إثرَ موجةٍ ... كجري طموح الخيل إذ يتوقص[١]
ويُـزبـد أعـلـى الـموج حـتـى كـأنـه ... هضابٌ إلى أطرافها الثلج يخلص
كـأنَّ ريـاح الـجـو عـنـد هـبـوبـهـا ... تغنِّي وهذا الموج في البحر يرقص
كذا حادثات الدهر تمضي رواقصًا ... بها العيش يصفو أو بها يتنغَّص
وفـي كـل يـوم لـلـزمـان عـجـائـبٌ ... بها الناس تغلو أو بها الناس ترخص
وأعـجـب مـا فـي الـدهـر أن هـبـاتـهِ ... تـزيـد لـمـن فـيـه الـمـروءة تـنـقـص
وربَّ أفــيــكٍ جــاء يــمــذُق وُدَّه ... ويُظـهـر إخلاصًا وما هو مخلص[٢]
ولـكـنـه فـي ودِّه الـثـعـلـب الـذي ... يـروغ أو الـكـلـب الـذي يـتـبـصـبـص
تـعـالـيـتُ عـن تـبـكـيـتـه إذ رأيـتـه ... جـهـولًا عـلـى عـلاتـه يـتـعـنـفـص
وقـلـت لـه: لا تـدنُ مـنـي فـإنـنـي ... بـغـيـضٌ إلـيَّ الـكـاذب الـمـتـخَـرِّص
وإنك عارٍ من سوى العار فابتعد ... فـإنـي بـأثـواب الـعـلا مـتـقـمِّـص
حَرَصت على تكريم محضر صاحبي ... وإني على ذا في المغيب لأحرص
ومـا غـرنـي ذو ظـاهـر مـتـودِّدٍ ... إذا كـان فـيـه بـاطـنٌ مـتـلـصِّـص

---

[١] يتوقص: يثب في عدوه وهو يقارب الخطو.

[٢] أفيك: كاذب. ويمذق: يخلط.

ويا رُبَّ وجهٍ لم يَرقْني بياضُه ... فلمَّا دنا مني إذا هو أبرص
فيا شعراء القوم كفُّوا وَغَاكمُ ... فشرح العلا في بعض شعري مُلخص
دعوا كشف مكنون الصدور لفطتني ... فإني بذا من دونكم متخصص
ذكاء لو اجتزتُ الجدار بنوره ... لشف لعينيَّ الجدارُ المجصَّص
ولست على الأعقاب في الرأي ناكصًا ... إذا كان للمستضعفِ الرأي منكص
على أن لي في معرض الشكِّ ربصةٌ ... ورُبَّ يقينٍ ناله المتربص
إذا أنا لم أنكر على الدهر جورَهُ ... فلا وطئت بي موطئَ العز أخمصُ

إلى غرة آل سعدون

أعبدَ المحسن السعدونَ إني أراك مَناطَ أسباب الرجاء
وأبصر من فعالك بَدْرَ تَمٍّ يلألئ من فخارك في سماء
لذلك قد أتيتُ إليك أشكو رثاثة بزتي وبلَى كسائي
فقد رقَّتْ ثيابي اليوم حتى تكاد تذوب من مسِّ الهواء
غدت شفَّافةً حتى كأني لبست بهنَّ أثواب الرياء
وليس العُرْي من ثوبٍ معيبًا لكاسي النفس من حُلل الإباء
وما ضرَّ المهنَّدَ فقدُ جفنٍ إذا ما كان محمود المَضاء[1]
فإن لم تدرك الأيام عُريي بثوبٍ منك يا غَمرَ الرداء[2]
لبست قرار بيتي في نهاري ولم أخلعه إلا في المساء
فإن جاء المساء لبست منه ظلامًا ما تمزق بالضِّياء
وصرت أجول كالخُفَّاش ليلًا وألجأ في النهار إلى الضراءِ[3]
ولست أريد ثوبًا أتْحميًّا ولا من زِيِّ أرباب الثراء[4]
ولكن بِزَّةَ البدَويِّ أبغي فمن ثوبٍ عليَّ ومن عَباء

[1] الجفن: قراب السيف.

[2] غمر الرداء: واسع العطاء.

[3] الضراء: الشجر الملتف في الوادي.

[4] الأتحمي: الثوب الصفيق المتين النسيج.

ومن كوفية صَحِبت عِقالًا يكون الرأس منها في غطاء
فذا زيٌّ يتمُّ به رجوعي إلى عيشٍ بسيط ذي هناء
وما صيَّرتُ ملبوسي خفيفًا لأني خفت من ثِقَل الغطاء
وكيف وأنت أكرم من حباني بأكرم ما رجوت من الحباء؟!
ولكني رغبتُ عن اكتساءٍ يطول به من الدنيا عَنائي
وكيف يكون مطلوبي حقيرًا وأنت أجلُّ مَن تحتَ السماء؟!
وهل أنا غيرُ عبدٍ أنت منه خَصصتَ أبا عليٍّ بالولاء؟!
لأتَّخذنَّ إخلاصي وصدقي لكم من كل موبقة وقائي
وأجعل ما حييت جميلَ شكري لما أسديت من نعم غذائي
ولست أرى الحياة تطيب إلا بحسن تجمُّلي لك والثناء
وأعلم أن ما أشكو إليكم يسرُّ الماردين على عدائي
ويشمِت بي الذين لهم نفوس مَرضن من العيوب بكل داء
ولم يشمت بأحرار البرايا سِوى لؤمائهم والأدنياء
ولكن هوَّنَ البرَحاءَ أني شكوت إلى جديرٍ باشتكائي
شكوتُ إلى فتًى جَمِّ المزايا كبير النفس منفرد السناء
فتًى يوليك عند البؤس خيرًا ولا ينساك في حال الرخاء
رحيبُ الباع مؤتلق المحيَّا أصيلُ الرأي وقَّاد الذكاء
صريح في مقاصده إذا ما أسرَّ القومُ حسوًا في ارتغاء[٥]
زكت أخلاقه فصفتْ ورقَّت فهنَّ لكل مَكرمةٍ مَرائي
تلاقي الزائرين ببشر وجهٍ تجلَّل بالمروءة والحياءِ
إذا رَأسَ البلادَ أبو عليٍّ فقد وضحت بها طرق العلاءِ
وإن وليَ الوزارة وهو أهلٌ فيا حسن السياسة والدَّهاءِ

[٥] الحسو: الشرب. والارتغاء: شرب الرغوة، وهذا مثل معناه أنه يظهر أنه يشرب الرغوة، وهو يحسو اللبن الذي تحتها، يضرب لمن يظهر غير ما يبطن.

الوسام وفخامة رئيس الوزراء

حَسُنَ الوسام بصدر عبد المحسن وبدا عليه كزهرةٍ من سوسنِ
صدر به كمنتْ سرائر مجدهِ فاستعصمت منه بأشرف مكمَن
واستأمنته المكرُمات فأصبحت من كل شائنةٍ بأكرم مأمَن
لاح الوسام بأفقِ صدرك لامعًا كالنجم في الأفق السعيد الأيمن
هو للعلا من فوق صدرك شارة أكرم بصدرك للعلا من معدن!
شرف حُبيتَ به فكان مسرة للمخلصين وحسرةَ المتخوِّن
جعلته لَندنُ للعراق كرامة إذ أكرمتك به سياسة لَندن
ليكون فيك علامة منها على ما تبتغيه من اعتزاز الموطن
فافخر به كل الفَخار وسِر بنا ما شئت سيرَ حضارة وتمدُّن
تتناسب الأشياء معْ أَصحابها شرفًا فيعظم حسنها في الأعين
وكذاك صدرك والوسامَ كلاهما ذو نسبة في المجد ذات تفنُّن
فكلاهما عنوان مجد قرينه فاعجب لحسن مُعَنون بمعنون
يا أصدق الوزراء معرفة بما يَهدي البلاد إلى المآب الأحسن
سر بالبلاد إلى معالم عزها وابلغْ بهنَّ مَدى الرقيِّ الممكن
إنا لنرجو للعراق وأهله بك يا أصيلَ الرأي فضلَ تحسُّنِ

نحن

في يوم حادثة الرئيس

شاعَ كالبرق في العراقيْنِ يومًا　　خَـبـرٌ أتـرعَ الـقـلـوب كـآبـهْ
خَبرٌ قُطرنا العراقيُّ قد زُلـــ　　ـزل منه حتى خشينا انقلابه
شـاع أنَّ الـرئـيـس أهـوى إلـيـه　　ذو اعـتـداءٍ بـمُـديـة فـأصـابـه
إذ رماه بطعنةٍ منه في الزِّنــ　　ـد وأخرى في رأسه والذُّؤابه
فهوى يخبط الصعيد صَريعًا　　بـدمـاءٍ قـد ضَـرَّجـتْ أثـوابـه
خبر صاح عنده الناس يا لله　　لـلـمـجـد والـنـدَى والـنـجـابـه
واستمر الكرَام يرجون أن لو　　حـقَّـقَ الـلـه خُـلـفـه وكـذابـه
ويقولون: من أصيب؟ أعبدُ المحــ　　ــسن العبقريُّ ليثُ الغابه؟!
أسـلـيـل الـداوديِّ مـن آل سـعـــ　　ـدونَ أربُّ الشمائل المستطابه؟!
ويْحَكُمْ ما الذي تقولون للنا　　س أجدٌّ مقالكم أم دُعابه؟!
إن يكن صَحَّ ما تقولون، لا صحَّ　　فـقـدنـا مـن الـعَـلاء لُـبـابـه

* * *

ثـم مـرت سـوَيـعـةٌ فـتـولـت　　سُحُب الغمِّ والأسى مُنْجابه
إذ علمنا أن الرئيس بحالٍ　　غـيـرِ قـتَّـالـة ولا ريَّـابـه
وعلمنا الخطب الذي أكبروه　　غيرَ خطبٍ وإن يكن ذا غرابه
بـيـدَ أن الـذيـن هـم أكـبـروه　　أرجفوا نافخين في الشبَّابه
فـإذا كـل مـا جـرى هـو هـذا　　أسَدٌ قد عدتْ عليه ذبابه

فهنيئًا لا للرئيس ولكنْ   للمعالي وللنهى والنَّجابَهْ

في ملعب كرة القدم

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم كرة تُراضُ بلعبها الأجسامُ
وقفوا لها متشمِّرين فألقيت فتعاورتها منهم الأقدام
يتراكضون وراءها في ساحةٍ للسُّوق مُعترك بها وصِدام
رَفسًا بأرجلهم تساق وضرْبُها بالكف عند اللاعبين حَرام
ولقد تحلِّق في الهواء وإن هوت شرعوا الرءوس فناطحتها الهام
وتخالها حينًا قذيفة مدفَعٍ فتمرُّ صائتةً لها إرزام
ولربما سقطت فقام حيالَها للضرب عَبل الساعدين همام
فتخالها وتخاله كفريسةٍ سقطت فزمجر دونها الضرغام
لا تستقر بحالة فكأنها أمَلٌ به تتقاذف الأوهام
تنحو الشمالَ بضربة فيردُّها نحو الجنوب مُلاعب لطَّام
وتمر واثبة على وجه الثرَى مَرًّا كما تتواثب الآرام
وتدور بين اللاعبين فمُحْجم عنها وآخر ضارب مِقدام
وكأنها والقوم يَحْتَوِشونها قلْب عليه تَهَاجَمُ الآلام
راضوا بها الأبدان بعد طِلابهم علمًا تراض بدرسه الأفهام
أبناء مدرسة أولاءِ وكلهم يَفَعٌ مَرير المرفقين غلام

* * *

لا بدَّ من هَزل النفوس فجِدُّها تعَبٌ وبعضُ مُزاحها استجمام

فإذا شغلت العقل فَالْهُ سُويعةً فاللهو من تعب العقول جِمام[1]
والفكر منهكة فباستمراره تهِن العقولُ وتهزَل الأجسام
إن الجسوم إذا تكون نشيطة تقوى بفضل نشاطها الأحلام
هذي ملاعبهم فجسمك رُضْ بها واسلك مسالكهم عَداك الذام[2]

[1] جمام: راحة.
[2] الذام: العيب.

الإحسان

أنشدت في حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية في بغداد، وأنفق في بنائها حضرة المحسن الكبير مناحيم صالح دانيل من أشراف الملة الموسوية وأغنيائها في بغداد، وذلك سنة ١٩٢٨.

لو كنتُ أعبد فانيًا في ذي الدُّنا ... لعبدتُ من دون الإله المحْسِنا
وجعلت قلبي مسجدًا لتعبدي ... سِرًّا وفُهت له بشكريَ مُعلنا
كي لا أكون مُرائيًا بعبادتي ... ولكي أكون بشكره متفننا
في مُجتنى غَرس الخليقة لم أجد ... غرسًا سوى الإحسان حلو المجتنى
هو في الخليقة ذو عجائب سِرُّها ... أعيا اللبيب وأعجز المتفطِّنا
بيناه يغدو للنفوس مُقيَّدًا ... بالحب يطلق بالثناءِ الألسنا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم ... ويرد بغض المبغضين تحننا
كم بلَّ نائرة فأطفأ نارها ... من بين مُشترك الصوارم والقنا
ما لاح كوكبه بمَوْهنِ غُمَّة ... إلا أعاد ضُحى سناهُ المَوهِنا[1]
ما إن تظلَّلَ موطنٌ بظلالهِ ... إلا أعزَّ الله ذاك الموطِنا
نفحاته تمحو معايب أهله ... من حيث تُعمي عن رؤاها الأعينا
لم أدرِ والآثار منه كثيرة ... في الغرب لِم نزَرتْ وقلَّت عندنا

[1] الموهن: الساعة بعد منتصف الليل.

أفنحن نجهله وقد علم الورى　　في الشرق نشأته ربيبًا بيننا
أوَما أمرنا في عظات كتابنا　　بالعدل والإحسان أن نتديَّنا

* * *

ويسرُّني أني أشاهد موطني　　قد نال من بركاته بعض المُنى
وإذا استريب بما أقول فشاهدي　　هذا البناء ومَن حماه ومن بنى
قد شِيدَ للأيتام مأوًى واهيًا　　يُهتمُّ بالأيتام فيه ويُعتنى
ليكون فيه شفاؤهم من جهلهم　　ومن الظما ومن الطوى ومن الضنى
جاد ابن «دانيل» الكريم لذا البنا　　بالمال مشتريًا به كل الثنا
فاستوجب الحمد الذي كلماته　　مستغرقات بالثناء الأزمنا
فَلْنُكْنهِ بأبي اليتامى بعد ذا　　إذ لا يخاطب مثله بسوى الكُنى
رجلٌ علمنا اليوم من إحسانه　　أن ليس للإحسان دين في الدُّنا
لا يَحسنُ الإحسان إلا هكذا　　قد صار طبعًا في النفوس وديدنا
والمال إن جادت به يدُ محسنٍ　　حَسَن وإلا فهو بئس المقتنى
سَعد امرؤ بذل الفواضل للوَرى　　عَفوًا وعوَّد نفسه أن يُحسِنا
والجهدُ مني ها هنا هو أنني　　أدعو إلى الإحسان من حَضَروا هنا

الجرائد وما كانت عليه في الآستانة

إذا شئت أن تسري بكافرةِ الصُّوى — يدوِّي بقطريها هزيمُ الرواعدِ[1]
وتذهبَ مِحيار الظلام تخبطًا — وتعْثر في ظلماتها بالجلامد
وتمشي فما تدري إلى قعر هُوَّةٍ — تروح بها أم للمَدَى المتباعد
فطالع أراجيف الجرائد إنني — أرى الويل كل الويل بين الجرائد
جرائد في دار الخلافة أضرمت — لهيب خلافٍ بينها غير خامد
ولم يكفها هذا الخلاف وإنما — أطافت بنقص في الحقيقة زائد
فما بين مكذوب عليه وكاذب — وما بين مجحود عليه وجاحد
ترى في فَرُوقَ اليوم قرَّاء صُحْفِها — فريقين من ذي حجة ومعاند
جِدال على مَرِّ الجَديدين دائم — بتفنيد رأي أو بتزييف ناقد
فذائد سهم عن رَميٍّ يردُّه — وآخر رامٍ سهمه نحو ذائد[2]
وهذا إلى هذي وذاك لغيرها — من الصحف يدعو آتيًا بالشواهد
وما هي إلا ضجَّة كل صائت — بها مدَّ للدنيا حِبالة صائد
أضاعوا علينا الحقَّ فيها تعمدًا — وعُقبى ضياع الحق سُود الشدائد
ولم أرَ شيئًا كالجرائد عندهم — مبادئه منقوصة بالمقاصد

[1] كافرة الصوى: كناية عن الصحراء التي لا علم فيها يهتدى به. ويدوِّي: يكون له دوي.
[2] الذائد: المدافع عن الشيء. والرمي: الرَّامي.

يقولون: نحن المصلحون، ولم أجد　　لهم في مجال القول غيرَ المفاسد
وكيف يَبين الحقُّ من نفثاتهم　　وكلٌّ له في الحق نفثة مارد
فإياك أن تغترَّ فيهم فكلُّهم　　يجر إلى قرصيه نار المواقد
وكن حائدًا عنهم جميعًا فإنما　　يَضلُّ امرؤ عن غيِّهم غيرُ حائد
على رِسلكم يا قوم كم تُسمعوننا　　مقالة محقود عليه وحاقد
ألا فارحموا بالصفح عن نهج صُحْفِكم　　فقد أوردتنا اليوم شر الموارد
وما الصحف إلا أَن تدور بنهجها　　مع الحق أنَّى دار بين المعاهد
وأن تنشرَ الأقوالَ لا عن طَماعةٍ　　فتأتي بها مشحونة بالفوائد
وألا تُعاني غيرَ نشر حقائق　　وتنوير أفكار وإنهاض قاعد
أتبغون في تلفيقها نفع واحد　　وتُغضون عن إضرارها ألف واحد؟!
ألا إن صحف القوم رائد نجحهم　　وما جاز في حكم النُّهى كذب رائد
لَعَمْريَ إن الصحْف مِرآة أهلها　　بها تتجلَّى رُوحهم للمشاهد
كما هي ميزانٌ لوزن رقيهم　　وديوان أخلاق لهم وعوائد
ألا تنظرون الغرب كيف تسابقت　　به الصحف في طُرْقِ العلا والمحامد؟!
بها يهتدي القراء للحق واضحًا　　كما يهتدي الساري بضوء الفراقد
ولكن أبى الشرق التعيشُ تقدمًا　　مع الغرب حتى في شئون الجرائد
فلا تحمِلوا حِقدًا على ما أقوله　　فإني عليكم خائفٌ غير حاقد
وما هي إلا غيرةٌ وطنية　　فإن تجدوا منها فلست بواجدِ

وقفة في الروض

نـاح الـحـمـام وغـرَّد الـشُّـحـرورُ   هـذا بـه شـجَـنٌ وذا مـسـرورُ
في روضةٍ يُشجي المشوق ترقرق   لـلـمـاء فـي جـنـبـاتـهـا وخـريـر
مـاءٌ قد انعكس الصفاء بوجهه   وصَـفَـا فـلَاحَ كـأنَّـه بـلَّـور
قد كاد يمكن عند ظنِّي أنه   بالماس يُوشَر منه لي مَوشور[1]
وتسلسلت في الروض منه جداولٌ   بـيـن الـزهـور كـأنـهـنَّ سـطـور
حيث الغصون مع النسيم مَوائل   فـكـأنـهـنَّ مـعـاطـف وخُـصـور

* * *

مـاذا أقـول بـروضـةٍ عن وصـفـهـا   يَعيا البيانُ ويَعجز التعبير؟!
عُـنـيَ الـربـيـعُ بـوشـيـهـا فـتـنـوَّعـتْ   لـلـعـيـن أنـوار بـهـا وزهـور
مَثَلت بها الأغصان وهي منابر   وتلت بها الخطباء وهي طيور
مـتـعـطـر فـيـهـا الـنـسـيـم كـأنـمـا   جَيْبُ النسيم على الشذا مَزْرور
للنرجس المطلول ترنو أعين   فـيـهـا وتـبـسـم لـلأقـاح ثـغـور
تخذت خزاماها البنفسج خدْنَها   وغـدا يـشـيـر لـوردهـا الـمـنـثـور
وكأن محمرَّ الشقيق وحوله   في الروض زَهر الياسمين يمور

[1] شبه الماء في البيت الذي قبل هذا بالبلور، ثم زاد في هذا البيت أنه بلور، وأنه يمكن أن يقطع منه بالماس موشور، وهو قطعة مستطيلة ذات أضلاع.

شمع توقد في زجاج أحمر فغدا حواليه الفَراش يدور
وتروق من بعد بها فوارة في الجو يدفقُ ماؤها ويفور
يحكي عمودُ الماء فيها آخذًا صُعُدًا عمودَ الصبح حين ينير
ناديت لمَّا أن رأيت صفاءه والنور فيه مغلغِلٌ مكسور
هل ذاك ذوْبُ الماس يجمد صاعدًا أم قد تجسَّم في الهواء النُّور
تتناثر القطَرات في أطرافها فكأنما هي لؤلؤٌ منثور
ينحلُّ فيها النور حتى قد ترى قوس السحاب لها بها تصويرُ
كم قد لبست بها الضحى من روضة فيها علتْني نضرةٌ وسرور
فأجَلْت في الأزهار لحظ تعجُّبي ولفكرتي بصفاتهن مُرور
فنظرتهن تحيُّرًا ونظرنني حتى كلانا ناظر منظور
فكأن طرف الزهرِ ثمة ساحر لمَّا رَنا وكأنني مسحور
إن الزهور تُكنهنَّ براعمٌ مثل العلوم تجنُّهنَّ صدور[2]
وتضوُّع النفحات منها مثله تبيينُها للناس والتقرير
وبتلك قلب الجهل مصدوع كما ثوب الهموم بهذه مطرور
والزهر ينبته السحاب بمائه كالعلم يُنبت غرسَه التفكير
إن كان هذا في الحدائق بهجة يزهو فذلك في النهَى تنوير
أو كان هذا لا يدوم فإنَّ ذا ليَدوم ما دامت تكرُّ عصورُ

[2] تجنهن: تسترهن وتحفظهن.

ما رأيت في بك أوغلي

قالها عندما ذهب إلى حي بك أوغلي في الآستانة سنة ١٨٩٨ وقد كان إذ ذاك معممًا، وذلك قبل أن يستبدل الطربوش.

ذهبتُ لحيٍّ في فَرُوقَ تزاحمتْ — به الخلقُ حتى قلتُ: ما أكثرَ الخلقا!
ترى الناس أفواجًا إليه وإنَّما — إلى التَّلَعات الزهْر في دَرَجٍ ترْقى
يضيء به ثغر الحضارة باسمًا — بلامعِ نورٍ علَّم السحبَ البرقا
رأيت مبانيه وجلْتُ بطُرقه — فما أحسن المبنى وما أوسع الطرْقا!
فكم فيه من صرح ترى الدهر مُتْلِعا — يمدُّ إلى إدراك شرفته العنقا[1]
قصور عَلت في الجوِّ لم تلْقَ بينها — وبين النجوم الزُّهر في حسنها فرقا
هنالك للأرضين أفق بروجُه — تُضاحك أبراج السموات والأفقا
بروجٌ ولكن شارقاتُ شموسها — تدور بأُفْقٍ يجمع الغرب والشرقا
بحيث ترى حُمر «الطرابيش» خالطت — «برانيط» سودًا كالسلاحف أو وُرْقا[2]
وتلقى الوجوه البيض حُمرًا خدودها — وتلقى العيون السودَ والأعينَ الزرقا
خدودٌ جرى ماء الشبيبة فوقها — ففيه عقول الناظرين من الغرقى
محاسن كالأزهار قد طلَّها الهوى — وهبَّ نسيم العشق من بينها طلْقا

[1] المتلع: الذي يمد عنقه؛ ليرى شيئًا عاليًا أو بعيدًا.

[2] الورق: جمع أورق أو ورقاء، وهي التي لونها لون الرماد، مع حمرة خفيفة.

فمن ذاتِ دَلٍّ أعجز الشعرَ وصفُها … وإن كان فيها الشعر ممتلئًا عِشقا
ومن ذي دلال رنَّح الحسنُ عِطفه … إلى أن رجا من حسنه عِطفه الرفقا

* * *

وكم مسرحٍ فيه الحسان تلاعبت … تُمثِّلُ كيف الناسُ تسْعَد أو تشقى
حِسان علت في الحسن خُلْقًا وخِلْقَةً … وهل خِلقة تعلو إذا سفلت خُلقا
تُمثِّل ما قد مرَّ منا وما حلا … وما جلَّ من أمر الحياة وما دقَّا
فتُلقي دروسًا لو وعتها حياتنا … لبُدِّل كِذْبٌ في سعادتها صدقا
إذا مثلت شكوى الحزين بكت لها … عيونُ البلايا والزمانُ لها رقَّا
وإن صوَّرَت حقًّا هوَى كل باطل … على رأسه حتى تجدَّل مُندقَّا[3]

* * *

وماذا ترى فيه إذا زُرتَ حانةً؟! … ترى الأنس يشدو في فمٍ يجهل النطقا
سَكوتٌ على قرع الكئوس مُغرِّد … بلحن سرور يترك الهم منشقَّا
عليهم سحاب الاحتشام يُظللهم … متى هُم أرادوا سَحَّ من قُبُلٍ وَدْقا
أوانس قد نادمنَ كل غُرانقٍ … فمنهن من تَسقي ومنهنَّ من تُسقى[4]
فمن ذا يراهم ثم لم يك واغلًا … عليهم وإن أمسى يُعدُّ الفتى الأتقى
ألستُ بمعذورٍ إذا أنا زرتهم … وساجلتهم شوقًا؟! فقل ويحك الحقا
فقد لامني لمَّا رآني بحبهم … فتًى منه قحف الرأس ممتلئٌ حمقا
فقال: أفي الحيِّ الذي شاع فسقه … تجولُ ألم تمنع عمامتك الفسقا؟!
فقلت: أجل إن العمائم عندنا … لتمنع في لوثاتها الفسق والرزقا[5]
ولكنني ما جئتُ إلا توصلًا … لذكرى شقاءٍ في العراقِ به نشقى

* * *

[3] تجدل: سقطت على الجدالة، وهي الأرض. والمندق: المنكسر.

[4] الغرانق: الفتى الشاب التام الحسن.

[5] لاث العمامة يلوثها لوثًا: لفها حول رأسه، اللوثة: المرة من اللوث.

شقاء تمطَّى في العراق تمطيًا وألقى جِرانًا لا يزحزحُ واستلقى[٦]
فإن العراق اليوم قد نشبت به نيوب الدواهي فهي تعرقُهُ عَرقا
تمشت به حتى أعادت سواده بياضًا ومدَّت للبَوار به رِبقا
فلهفي على بغداد إذ قد أضاعها بنوها فسُحقًا للبنين بها سحقا!
جَزَوْها عقوقًا وهْي أمٌ كريمة وألأم أبناء الكريمة من عَقَّا
أدامت لها الأحداث مخضًا كأنها قد اتخذتها الحادثات لها زِقًّا[٧]
سأبكي عليها كلما جلْتُ سائحًا وشاهدت في العمران مملكةً ترقى
وأندبها عند الأغاريد شاربًا من الدمع كأسًا لا أريد لها مَذقا[٨]

[٦] الجران: مقدم عنق البعير، وإلقاء الجران: أن يمس البعير الأرض بمقدم عنقه عند بروكه، وهو كناية عن التمكن والاستقرار.

[٧] الزق: وعاء من جلد يحفظ فيه اللبن والخمر ونحوهما.

[٨] الأغاريد جمع أغرود، وهو الغناء. والمذق: الخلط، مذق اللبن بالماء: خلطه، يريد أنه إذا تشاغل قوم بسماع الغناء وشرب المدامة، فإن شغله هو أن يصبح باكيًا بلاده، شاربًا من فيض دموعه كأسًا صرفة غير مشوبة بماء.

السد في بغداد

قال يخاطب حازم بك والي بغداد، بعد خروجه إلى سد «الحربوة» من شاطئ الفرات — الذي انكسر فأغرق بغداد — وهذه هي الحادثة التي قال فيها الشاعر قصيدة سوء المنقلب:

نجَّيتَ بالسدِّ بَغدادًا من الغرق ... فعمها الأمن بعد الخوف والفرَق

قد قمتَ بالحزم فيها واليًا فجرتْ ... أمورها في نظام منك متَّسق

لقد نجحتَ نجاحًا لا يفوز به ... من خالق الحزم إلا حازمُ الخلق

ويح الفرات فلو كانت زواخرُه ... تدري بعزمك لم تطفح على الطرُق

ولا غدت تجرُفُ الأسدَاد قاذفةً ... منها بسيل على الأنحاء مندفق

حيث «الحربوة» أمست منك طالبة ... رَتقًا لسدٍّ بطامي السيل مُنفتق

باتت تجيش بتيَّار وبات لها ... أهلُ العراقين في همٍّ وفي قلق

حتى إذا أيقنت أرض العراق بأن ... تفنى من الظِّمء أو تفنى من الغرق[1]

شمَّرتَ عن هممٍ تعلو النجوم وقد ... أمسى الزمان إليها مُتلِع العنق[2]

[1] الظمء: المدة التي يعطش فيها الحيوان بين الشربين، والمراد هنا مطلق العطش.

[2] متلع العنق: ماد العنق من التطلع إليها.

فكدت تملأ فرغ الواديين بما حشرت مِن طبق يأتيك عن طبق[٣]
لما خرجتَ وكان الخرق متسعًا والناس ما بين ذي شكٍّ ومتثق[٤]
قالوا: نحا شُقَّةً قصوى وما علموا بأن عزمك يُدني أبعد الشقَق[٥]
فصدَّق الله ظنًّا فيك أحسنه قوم وكذَّبَ ظنَّ الجاهل الخَرِق
إذ جئت والسدُّ تحت الغَمر مكتسحٌ والنهر يرغو بموج فيه مُصطفق[٦]
وثُلمة السد كالمهواة واسعةٌ يهوي بها السيلُ من فوقٍ إلى العمُق[٧]
سَللتَ صارم رأيٍ قد أزلت به ما كان في السيل من طيش ومن نزق
فما تموَّج ماء النهر من غضب وإنما أخذته رِعدة الفرَق
ثبَّتَّ عزمك في أمرٍ يذِلُّ به عزم الحصيف لما يحوي من الزلق
تقضي النهارَ برأب الثأي مجتهدًا وتقطع اليل بالتدبير والأرَق[٨]
حتى بنيتَ وكان النهرُ منفلقًا سَدًّا عليه رَصينًا غير مُنفلق
أرسيته جَبلًا قامت ذُراه على أصل مع الموج تحت الماء معتنق
فراحت الناس تمشي فوقه طَربًا والنهر ينساب بين الغيظ والحنق
وصار مَعْكِس فَخْرٍ أنت مَرجعه كالنور يرجع مَعكوسًا إلى الحدق
وقد رَكزتَ به الرايات خافقةً ما بين طاقين مرفوعين في نسَق
من كل أحمرَ قانٍ وسطه قمر يتلوه نجم بلون أبيض يَقَق[٩]
فظلَّ حاسدك المغبون منطويًا على فؤاد بنار الجهل محترق
ودَّ الفراتُ حياءً منك يومئذٍ لو غار يسلك تحت الأرض في نفق

---

[٣] فرغ الواديين: اتساعهما، والواديان: دجلة والفرات. وحشرت: حشدت وجمعت. والطبق: الجماعة من الناس، وعن طبق: أي بعد طبق. يريد أنه جمع للعمل في إصلاح السد المنكسر جموعًا غفيرة من الناس، يتلو بعضها بعضًا.

[٤] متثق: مفتعل من الوثوق بالشيء.

[٥] الشقة: الناحية، قصوى: شديدة البعد.

[٦] الغمر: السيل الغزير الشديد.

[٧] ثلمة السد: الموضوع المتهدم منه. والمهواة: الأرض المنهبطة المنخسفة.

[٨] رأب الثأي: إصلاح الفاسد، وهو من الرؤبة، وهي الرقعة يشعب بها الإناء المكسور من الخزف ونحوه.

[٩] يقق: بفتح القاف الأولى. أي خالص البياض.

لما اقتدحتَ زناد الرأي مفتكرًا ... في الخطب ألهبتَ منه فحمةَ الغسق
فأدبرَ الهمُّ وانشقَّت غياهبه ... كما قد انشقَّ سَجْف الليل بالفلق[10]
إن الأمور إذا استعصت نوافرُها ... أخذتهن من التدبير في وَهَق[11]
وإن تَصَاممتِ الأيام عن طلب ... أسمعتهن بصوتٍ منك صُهْصَلقِ[12]
تنحلُّ بالرأي منك المشكلات لنا ... كالنور ينحلُّ ألوانًا من الشرَق
وكلما زدت تفكيرًا بمعضلة ... زادت وضوحًا لنا حتى على الشفق
فالفكر منك كأبعاد الفضاء بلا ... حدٍّ يسابق خطف البرق في الطلق
يحكي الأثيرَ إذا أجرى تلاطمه ... أبدى سواطع نور منه مُنبثق
لك الثناء علينا أن نخلِّده ... نقشًا على الصخر لا رقمًا على الورَق
تالله لو بلغت زُهرَ النجوم يدي ... من كل جِرم بصدر الليل مُؤتلق
رتَّبتها حيث كل الناس تقرؤها ... سَطرًا بمدحك مكتوبًا على الأفقِ

[10] السجف: الستر. والفلق: الصبح.

[11] الوهق: الحبل المفتول تجعل فيه أنشوطة، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان.

[12] الصهصلق من الأصوات: الشديد، ورجل صهصلق الصوت: أي شديده.

الساعة

وخرساءَ لم ينطقْ بحرف لسانها سوى صوت عِرق نابضٍ بحشاها
حكت لهجة التَّمْتام لفظًا ولم تكن لِتفصحَ إلا بالزمان لغاها
لها ضَرَبانٌ في الحشا قد حكت به فؤادًا تغشَّاه الهوى وحكاها[1]
جرت حركات الدهر في ضَرباتها وباتت مواقيت الورى بعماها
على وجهها خُطَّت علائم تهتدي بها الناس في أوقاتها لمناها
مشت بين آنات الزمان تقيسه وما هو إلا مشيها وخطاها
بها يتقاضى الناس ما يُوعدُونه ويُرشِدُ ضُلَّالَ الزمان هُداها
غدت كأخي الإيمان تأكل في مِعًى وما أكلها إلا التواء مِعاها[2]
تدور عليها عقرب دَورَ حائرٍ بتيهاء غمَّت في الظلام صُواها[3]
تريك مكان الشمس في دورانها إذا حجبت عنك الغيومُ ضِياها
فأعجب بها مصحوبةً جاء صنعها نتيجة أفكار الورى وحِجاها!
بنتها النهى في الغابرين بسيطة فتمَّ على مر الزمان بناها
تنادي بَني الأيام في نقراتها أن اسعَوا بجِدٍّ بالغين مداها

[1] ضربان: أي ضرب وخفق.

[2] يشير إلى الحديث الذي معناه: «المؤمن يأكل في مِعًى واحد»؛ أي أنه يتقلل من الطعام والشراب.

[3] تيهاء: صحراء لا يهتدى فيها إلى شيء. وغمت: سترت وحجبت. والصوى: ما ينصب من الأحجار في الصحاري؛ علامة على الطريق.

ولا تهملوا الأوقاتَ فهي بواترٌ تقطِّع أوصالَ الحياة شباها

ذكرى لبنان

برزت تميس كخطرة النشوان ... هيفاء مُخجلة غصونَ البانِ
ومشت فخفَّ بها الصبا فتمايلت ... مَرَحًا فأجهدَ خَصْرَها الردفان
جال الوشاح على معاطفها التي ... قعدَت وقام بصدرها النهدان
تستعبد الحُرَّ الأبيَّ بمقلة ... دبَّ الفتور بجفنها الوَسنان
وإذا بدت تهفو القلوب صبابة ... فيها وتركع دونها العينان
أخذ الدلالُ مواثقًا من عينها ... ألَّا تزال مريضةَ الأجفان
تمشي فتنشر في الفضاء محاسنًا ... بسط الزمان لها يَديْ ولهانِ
ويلوح للنظر القريب بوجهها ... عقل الحليم وِعصمة الصبيان
لم أنسَ في قلبي صُعودَ غرامها ... إذ نحن نصعد في ربا لبنان
حيث الرياض يهزُّ عطف غصونها ... شدوُ الطيور بأطرب الألحان
لبنان تفعل بالحياة جنانه ... فعلَ الزُّلال بغلة الظمآن
وتردُّ غُصن العيش بعد ذبوله ... غَضًّا يميد بفرعه الفينان
فكأن لبنانًا عروس إذ غدا ... يزهو بنشر غدائر الأغصان
وكأنما البحرُ الخِضم سجنجَلٌ ... يبدي خيال جمالها الفتان
جبل سمت منه الفروع وأصله ... تحت البسيطة راسخ الأركان
تهفو الغصون به النهار وفي الدجى ... تهفو عليه ذوائبُ النيران
وترى النجومَ على ذراه كأنها ... من فوقه دُرَرٌ على تيجَان
لله لبنان الذي هضباته! ... ضحكت مُغازِلةً مع الوديان

يجري النسيم الغض بين رياضه مُرْخَى الذيول مُعطَّر الأردان
جَلت الطبيعة في رُباه بدائعًا تكسو الكهول غضاضة الشبان
يا صاحبيَّ أتذكران فإنني لم أنسَ بعدكما سِوى النسيان
إذ كان يغبِطنا الزمان ونحن في وادي الفريكة منبِت الريحانى[1]
في ليلةٍ حسد الضياءُ ظلامها وعَنَا لفضل نجومِها القمران
متجاولين من الحديث بساحة ركض البيانُ بها بغير عِنان[2]
والليل يسمع ما نقول ولم يكن غيرُ الكواكب فيه من آذان
فكأن جولتنا بصدر ظلامه سرٌّ يجول بخاطر الكتمان

* * *

ما كنتُ أحسِب أن أحلَّ ببقعة للحسن مُنبِتة وللإحسان
حتى نزلت من الشُّوَير بجنة فيها الحياة كثيرة الألوان
فهصرت أغصان الأمان ولم يكن غيرَ السرور بهن قطف دان
ولقيت شاعرها الذي ارتفعت له كف القريض مشيرة ببنان
حتى إذا تمَّ اللقاءُ قصدتُ من ربوات بكفيًّا ظلال جنان
يا يوم بكفيا وبيت شبابها أفديك من يوم بكل زمان
وسقى زمانك يا ديار بحنِّسٍ صوبُ المَسرَّة دائم التهتان
فلقد رأيت ضياء مجدكِ مشرقًا في وجه كل حُلاحل ديان
أتذكَّر اللبكيَّ يوم بحنِّسٍ حيث اجتمعنا في حمى كنعان
أم ليس يعلم أنني أحببته حبًّا أذبتُ بناره سُلواني
لبست رُبا لبنانَ ثوبًا أخضرا وزهتْ بحيث الحسنُ أحمر قان
نثر الربيع بهنَّ زهرًا مُوْنِقًا يُروى بنظم قلائد العِقيان
فبرزنَ من وشْي الطبيعة بالحِلَى فكأنهنَّ بحسنهن غوانِ

[1] الرصافي يقصد بالريحان «النبات» وبالريحاني «أمين الريحاني» صديق الرصافي الحميم وفيلسوف الفريكة.

[2] يتجاولان في مضمار البيان: أي يتسابقان ويتباريان.

وكأنَّ صنِّينًا أطلَّ مراقبًا يرنو لهن بمقلةِ الغَيران
تلك الرُّبا، أمَّا الجمال فواحدٌ فيها وأما أهلها فاثنان
رجل يسير إلى النجاح وآخرٌ يسعى وغايته إلى الخسران
متخاذلين بها وهم أعوانها ومن البلاء تخاذل الأعوان
ضعفت مباني كلِّ أمرٍ عندهم ما بين هادمها وبين الباني
وتفرَّقوا دنيا كأن لم يكفهم في النائبات تفرق الأديان
وَسَعوا فُرادى للنجاح وفاتهم أنَّ التَّضامنَ رائد العمران
يا أهل ذا الجبل المنيع مكانه تُفدَى مواطنكم بكل مكان
أما محاسنها فهنَّ بمنزل تنحطُّ عنه بدائع الأكوان
ومن الفخامة هُنَّ في غُلوائها ومن الشبيبة هُنَّ في رَيعان
فتبوءُوا جَنَّاتِهن أنيقةً وابنوا بهن كأكرم البنيان
ماذا يُثبِّطكم بها أن تنهضوا نحو الفَخار كنهضة اليابان
إني لأرجو أن أراكم للعلا متهيِّجين تهيُّج البركان
وأودُّ لو تمشون مشية واحدٍ متكاتفين تكاتف الإخوان
لا تقرُنوا بتشتُّتٍ آراءكم فالبدر يمحَق عندَ كل قران
أمهاجري لبنان طال غيابكم أين الحنين إلى رُبا لُبنان؟!
هذي مواطنكم تريد وصالكم وتئنُّ شاكية من الهِجران
أفترحمون أنينها أم أنتمُ لا ترحمون أنين ذي أشجان؟!
إني أرى هجْر الرجال بلادَهم شيئًا يُضيع كرامة البُلدان
وإضاعة الوطن العزيز جناية ضنَّ الزمان بها عن الغفران
من كان ذا جِدَةٍ فأحْرِ بمثله ألَّا يضِنَّ بها على الأوطانِ[٣]

[٣] الجدة: المال والغنى.

لبنان

ولع لبنان بالرصافي، فسارت قصائد شاعر العراق على ألسنة اللبنانيين، وولع الرصافي بلبنان، فجاءته قريحته بقصائد صافية العاطفة كسماء هذه الربوع، عذبة كمائها، عليلة كهوائها، وإلى القراء إحدى فرائد الرصافي بلبنان (الأحرار – بيروت في ٢٦ آب سنة ١٩٣١):

أرى الحسنَ في لبنان أينعَ غرسُهُ ... وقارب حتى أمكن الكفَّ لمسُهُ

إذا ما رأته عينُ ذي اللُّبِّ مشرقًا ... تنزَّت به في مدرَجِ الحبِّ نفسه

زكا مَغرِسًا فالذامُ ليس يؤمُّه ... وطاب جَنًى فالسوء ليس يمسُّه[1]

قسا صخره لكن تفجَّر ماؤه ... فلانَ بكفِّ العيش منه مَجسُّه

لقد لبس الجوَّ اللطيفَ فزانه ... بما فيه من غُرِّ المحاسن لِبسه

ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه ... وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسه

وقد عُبِّدَت للسالكين طريقه ... وحُرِّر أهلوه وبورك أُنْسُه

فمن كان في طُرْق التواصل عَثرةً ... فقد جاز في شرع المحبة دعْسُه

تضيء نجومُ السعد واليُمن فوقه ... فينجاب شؤمُ الدهر عنه ونحسه

ويهمس في أذن الطبيعة جوُّه ... فينضحها فوق الرُّبا الخضر همسةُ

كأنَّ النسيم الطلق بين جِنانه ... غناء حبيب يطربُ النفس جَرسهُ

---

[1] الذام: العيب.

كأن جبال المتن حَدبة عابدٍ ... هوى ساجدًا شكرًا وبيروتُ رأسهُ
فقال عن الأضواء في جوف ليله ... ببيروتَ إذ يغشى من الليل دَمسهُ
تزوَّج صنِّين الفتى بنتَ جاره ... فأضواء بيروتَ الوسيطة عِرْسُه
ونبْع الصفا والقاع فيه كلاهما ... من الحسن ملأى بالبدائع كأسهُ
جرى الماء في واديهما متدفقًا ... بأنشودة الإطراب تنطق خُرسه
وإن تزُرِ الشَّاغورَ يومًا تَجِدْ به ... من الحُسْنِ ما قد خُصَّ بالفضلِ جنسُه
جرى ماؤه العذب الزلالُ محاكيًا ... به الماس صفْوًا أو هو الماس نفسه
ترى طبع واديه رؤُوفًا بأهله ... شديدًا على ما يزعج النفسَ بأسهُ
فمن زاره مستوحشًا فهو أنسه ... ومن جاءه مستنزهًا فهو قُدسه
فيا لائمي في حبِّ لبنان إنني ... أحسُّ لعمري منه ما لا تحسه
إذا كان لبنان كلَيْلَى مَحاسنًا ... فلا تعجبوا من أنني اليوم قَيْسهُ
وإن تحمدوا منه الأيادي، فإنني ... أنا اليوم من بعد الأياديِّ قِسُّهُ[2]
عجبت لمدفون به بعد موته ... ولم ينتفض حيًّا وينشقُّ رَمسه
فمن لم يزره وهو ربُّ استطاعة ... تحتَّم في سجْنِ الحماقة حبسه
ومن زاره مستشفيًا زاره الشفا ... وإن كان قبلًا يائسًا منه نطسهُ[3]
ولو جاءه مَن فيه مَسٌّ وجِنَّة ... لما حلَّه إلا وقد زال مَسُّهُ
وما حلَّه مستوحشُ النفس واجمٌ ... من الناس إلا تمَّ بالضحك أنسهُ
محل اصطياف الأغنياء من الورى ... يعيش عزيزًا فيه من ذلَّ فلسهُ
فمن يبذل الدينار فيما يريده ... فمأواه محمودٌ وإلا فعكسهُ
كمثل الذي لا تصرف الفَلسَ كفه ... ولو كان دون الفلسِ يُقلَعُ ضرسهُ
كتبت كتاب المدح في وصف حسنه ... فضاق ولم يستوعبِ الوصف طِرسهُ
فما كل ما قالت به شعراؤه ... سوى ثلث ما يحويه بل هو خُمسهُ
ألا إن في لبنان جوًّا مروَّقًا ... إذا ما شفى المسلول لم يخشَ نكسهُ

[2] قس بن ساعدة الإيادي خطيب جاهلي مشهورٌ وحكيم.

[3] النُّطس: الأطباء الحذاق المدققون.

في مكتبة الأوقاف

أنشدت في حفلة افتتاح مكتبة الأوقاف التي أنشأها معالي الشيخ أحمد الشيخ داود وزير الأوقاف سنة ١٩٢٨.

لقد جمع الشيخ هذي الكتبْ فأنقذها من أكُفِّ العَطبْ
ورتَّبها فهْي معروضةٌ لمن يتناولها من كثَب
وكانت لعمرُك رَهن الغبار مكدَّسة في زوايا الشجَب
يمر بها الدهر مطمورة تعاني الدمار وتدعو الحرَب[1]
نسيج العناكب من فوقها ومن تحتها السوس فيها انسرَبْ
يعيث بها آكلًا طِرسها كما تأكل النار جَزْلَ الحطب
وكانت على علم حرَّاسها تحُفُّ الظنون بها والرِّيب
فمد إليها معالي الوزير يَدًا دأبها الغوث عند الكرَب
فأخرج منها كنوز العلوم لأهل الفنون وأهل الأدب
فها إنَّ أرواحَ من أوقفوا مُرَفرفةٌ فوقها من طَرَب
كما أن أرواح من ألَّفوا قد ابتسمت كالتماع الشهب
لقد رضيَ العلم عن فعله وإن أخذ الجاهلين الغضب
فما بال قوم غدَوا يَصرخو نَ صُراخًا به يقصدون الشغب؟!

[1] تدعو الحرب: أي تنادي: وا حربا، والحرب: النقص والهوان.

يـقـولـون: هـذا خـلاف لـمـا لدى الناس في وقفها من أرَب[٢]
فـيـا لَـلـعـقـول لـهـذا الـغـبـاء ويـا لَـلـفـحـول لـهـذا الـعـجـب!
ألـلـسُّـوس أوقـفـهـا الـواقـفـو ن، أم لـلـعـنـاكـب، أم لـلـتُّـرب؟!
إلـى كـم نـظَـلُّ لأغـراضـنـا نعارض من دون أدنى سبب؟!
ونـجـمُـدُ فـي غـفـلـةٍ هـكـذا ونـمـرح فـي لـهـونـا والـلـعـب
أرى هـؤلاء ضـعـاف الـعـقـول وإن قـد نـراهـم غِـلاظ الـرقَـب
تـضـيـق عـن الـحـق أرواحـهـم وإن لـبـسـوا واسـعـاتِ الـجُـبـب
فهم يقطعون على المصلحين طـريـق الـقـيـام بـمـا قـد وجـب
فـسِـرْ فـي طـريـقـك مُـسـتـعـليًا وخـلِّ ضـفـادعـهـم تـصـطـخـب
فللشرِّ ما صخب الصاخبون ولـلـخـيـر جـمـعـك هـذي الـكـتـب
لقد صنتها من طروق البلى وخلَّصتها من يد المستلب
وأعـددتـهـا لـشـفـاء الـعـقـول من الجهل وهو أشدُّ الوصَب[٣]
وما كنتَ في الرأي بالمستبدِّ ولا كنت في الفعل بالمضطرب
وقـد كـان عـزمـك فـيـمـا أردت يَفلُّ ظُبا المرهفات القُضب[٤]
فـمـن كـان جـذلانَ فـلـيـبـتـسـمْ ومن كان غضبان فلينتحب

---

[٢] من أرب: من قصد وغاية.

[٣] الوصب: الألم.

[٤] يفل: يكسر. والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف. والمرهفات القضب: هي السيوف المرققة الحادة.

آل الجميل

آلُ الجميل سُرور كل حزين	كهف اليتيم وملجأ المسكين
تعنو لهم سروات كل قبيلة	وتهابهم آساد كل عرين
وإذا تماحكت الخصوم فبأسهم	يدع الخصيمَ مُجدَّع العرنين
وإذا تلوَّثت الجباه بخزيةٍ	فجباههم أنقى من النسرين
عزَّت بهم دار السلام فهم بها	أركان عز كالجبال مكين
فإذا تقطَّعت المُنى بك فاعتصم	منهم بحبل في الرجاء متين
تتفاخر الأخرى بفضل دفينهم	كتفاخر الدنيا بفخر الدين
ذاك الذي مجد الجدود بمجده	قد زيدَ تمكينًا على تمكين
إنَّ ابن عيسى بن الهمام محمد	لأجلُّ نجلٍ بالثناء قمين[1]
يا ابن الأكابر قد دعوتك ظامئًا	ظمأ الحياة فجدْ بما يُرويني
وأنا العليل بحاجة تدري بها	وأظنُّ فضلك ناجحًا يشفيني
قد عاقني الإملاق عن سفري إلى	من طال مُعتلجًا إليه حنيني
وأنا المشوق ولست ممن شاقهم	بقرُ العذيب ولا مها يبرينِ
لكن قلبي لا يزال يشوقُه	ظبْيٌ أقام بدار قسطنطينِ
فَأرِشْ جناحي كي أطير بريشه	فيكونَ ظني في نداك يَقيني[2]

[1] فلان قمين بكذا: جدير به.

[2] أَرِشْ جناحي: أَنبتْ فيه الريش.

واعذِر فإني بالحقيقة لم أبحْ　　إلا إليك وأنت خير فطينِ
إني إذا آوي إليك فإنما　　آوي إلى ركنٍ أشدَّ رَكينِ

البلبل والورد

إنَّ بلبلًا من نَسيم السَّحرْ لما جرى في المربع المُخْمَلِ
أخبر ريَّاه أصحَّ الخَبَرْ عما جرى في الروض للبلبل
إذ هو مُذ ألقى به ناظرَهْ من بعد ما ثغر الصباح ابتسمْ
صادفَ فيه وردةً زاهرةْ والطلُّ كاللؤلؤ فيها انتظم
مضمومة أوراقها الناضرة مثلَ فمٍ يطلب تقبيلَ فَمْ

* * *

فظلَّ يرنو مستديمَ النظرْ رُنوَّ ظمآن إلى مَنهلِ
وهيَ غدت مما بها من خَفَرْ محمرَّة من نظر مخجلِ
ثم تمادى غَردًا صادحًا يُعلن للوردة أشواقه
ينطق بالحب لها بائحًا وهي التي تفعل إنطاقه
وتنشر الطيبَ له نافحًا كأنها تقصد إنشاقه
حتى غدا البلبلُ منذ الصغر في حبِّها منطلِق المِقول
ينشد فيها شعرَه المبتكر ولا يَني فمه ولا يأتلي

* * *

أما ترى الأزهارَ كيف اغتدت فراشةُ الروض عليها تطير؟!
لها جناح هي منه ارتدت مُلاءة مَوشيَّةً من حرير
فهي إلى الروضة مُذ وَرَّدت أرسلها البلبلُ نحو الأمير

تحمل للورد أميرِ الزَّهر   رسائلَ الشوق من البلبل
فشاع في الأزهار هذا الخبرْ   واستوجب العطف على المرسَل

* * *

حتى إذا الورد مضى وانقضى   وعادت الروضة كالبلقعَهْ
مسَّتْ حشا البلبل نارُ الغضى   من حُرقة البين الذي أوجعَه
لا تسألِ البلبلَ عما مضى   في زمن الورد له من دعَهْ
ولكن اسألْ في السماء القمر   عن خبر الورد مع البلبلِ
إذ كان يُصغي منهما للسمر   وهو مُطلٌّ ناظرٌ من عَلِ

* * *

فراشةُ الروضة ظلَّت لِذا   تحومُ والأزهار من تحتها
تقبِّل الزهرةَ ذاتَ الشذا   طائرة منها إلى أختها
وتسأل الأزهارَ عما إذا   مرَّ فقيد الورد من سمْتها
لِتخبرَ البلبلَ بعضَ الخبر   لعلَّه غُمَّته تَنجلي
فإنه بات حليف السهَر   مُذ نزَحَ الوردُ عن المنزلِ

أغرودة العندليب

سمعت شعرًا للعندليبِ تلاه فوق الغصن الرطيبِ
إذ قال: نفسي نفسٌ رفيعه لم تهوَ إلا حسن الطبيعه
عشقت منها حسن الربيع أحسن بذاك الحسن البديعِ!

* * *

فالعيش عندي فوقَ الغصونِ لا في قصور ولا حصونِ
أطير فيها لفرط وجدي من غُصن ورد لغصن وردِ
وفي فروع الأشجار بيتي فالظلُّ فوقي والزهرُ تحتي

* * *

فَسَلْ نسيم الأسحار عني كم هَزَّ عِطف الأغصان لحني
وسل بشْدْوي زهر الرياض إني بحكم الأزهار راضِ
فكم زهور لمَّا أفوهُ أصغت وقالت: لا فضَّ فوه

* * *

يا قومِ إني خلقت حرًّا لم أرضَ إلا الفضا مقرا
فإن أردتم أن تؤنسوني ففي المباني لا تحبسوني
وإن أردتم أن تُنطقوني فأطلقوني، فأطلقوني

الصيف

جاء المصيف فجفَّتِ الأنداءُ　　وشكت يبوستها به الأشياءُ
وتوقدت عند الهجيرة شمسه　　فتَلمَّظت بلعابها الصحراء
وعلى الديار تراكمت من شمسه　　مِلءَ الفضاء حرارة وضياء
فعلى مَن الشمسُ المنيرة أصبحت　　غضبى تجيش بصدرها الشَّحناء؟[١]
مدَّت إلينا في الهجير أشعَّة　　كالكهرباءة نارُها بيضاء
فحكت أشعَّتُها حِرابًا أشرعت　　بِيضًا، فما بحديدها أصداءُ
حتى استجار الليلَ من لفحاتها　　رَكبٌ سروا فَهدتْهمُ الجوزاء
انظر إلى الحسناء في رَأد الضحى　　تمشي فتلفح وجهها الرمْضاء[٢]
وتمرُّ لاغبة وفوق جبينها　　عَرَق ووجنة خدها حمراء[٣]
إن كان حرُّ الشمس لوَّح وجهها　　فكذاك تُؤْذَى الضرَّة الوَرهاء[٤]

* * *

إني لأغفر للمصيف ذنوبه　　ولوَ انَّ غارةَ هيفه شعواء

---

[١] الشحناء: العداوة.

[٢] رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء.

[٣] لاغبة: متعبة.

[٤] الورهاء: الحمقاء.

فالصيف أرأف بالفقير من الشتا　　ولذا تحب قدومَه الفقراء
قلَّت به الحاجاتُ فالفقراء في　　أيامه والأغنياء سَواء
من كان أعوزه كساء منهم　　فالصيف مِلحفة له وكساء
والأرض إن طلبوا الرقادَ وِطاؤهم　　من دون منٍّ والسماء غطاء
ولئن يكنْ كَدِر النهار فليله　　طَلق وفي وجه السماء صفاء
ولئن قسا عند الهجير فريحُه　　هبَّت بحاشيتيه وهْي رُخاء
أضحى فطابت في ضُحاه ظلاله　　وأتى الأصيل فطابت الأفياء
والصيف أحسن ما به لمُشاهد　　صبح أغرُّ وليلة قمراء
وأجل ما يُرتاد فيه جُنينةٌ　　ترِفُ الظلالُ بها ويجري الماء
فعليك فيه بسرحة في مَنبعٍ　　تحنو عليك غصونها الخضراء[٥]

---

[٥] السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك لها.

الشتاء

قد كانت الأغصان مخضرةً　　وكانت الطير بها تسجَعُ
فصارت الأوراق مصفرةً　　تسقِطها الرَّادَة والزعزع[1]
ثم غدت جرداءَ مزورَّةً　　والغيمُ أمستْ عينه تدمع[2]
من أجل هذا المشهدِ المحزنِ
والليلُ قد طال على مَن شتا　　وصار ليلًا باردًا مُظلما
لعلَّ هذا الرعدَ مُذْ صوَّتا　　هرَّب منه تِلكمُ الأنجما
عَلامَ قد غيَّم ليلُ الشتا　　فارتاعت الأنجمُ مذ غَيَّما
واحتجبت فيه عن الأعينِ
والريحُ من برد الشتا صرصرُ　　والجوُّ يبدو عابسًا مُطرقا
قد حار فيه التَّرِبُ المعسرُ　　إذ لم يجد فيه له مِرفقا[3]
يَا أيُّها الناس ألا فاذكروا　　من كان منكم في الشتا مُملقا
وأحسِنوا فالفوزُ للمحسنِ
إن الشتا أرحم للمعدم　　منكم وإن أوجعه بَردُه

[1] الرادة: الريح اللينة الهبوب. والزعزع: الريح الشديدة.

[2] مزورة: معوجة.

[3] الترب: الفقير المعدم.

لأنَّـه بـالـعـارض الـمـسـجـم   ينبتُ زرعًا يُرتجى حصدُه[٤]
حتى تفوز الناسُ بالأنعم   مـمـا لـهـم أنـبـتـه جَـوده
ويشبع المعدم والمغتني

[٤] العارض: السحاب يعترض في السماء. والمسجم: الهاطل الممطر.

التلغراف أو الأسلاك البرقية

للبرق أسلاك تؤدِّي الأخبارْ دقيقة مثل دِقاق الأوتارْ
فوق الثرى مُدَّت وتحت الأبحار في عمد قد رُكزت كالأشجار
ما بين كلِّ عشرات الأمتار تحسها في القفر جنَّ البقار[1]
شاخصة أشباحُها للأنظار ممتدة نحو جميع الأقطار
الكهربائية فيها تيار تنقل في آنٍ كلمح الأبصار
جوائبَ الأنباء نحو الأمصار للهِ من سلك دقيق قد صار
في الأرض مجرَى لجليل الأخبار والكهربائيةُ شيء قد حار
في كنهه أهل النهى والأفكار أسفر منها الوجهُ بعض الإسفار
ولم يزل مُحتجبًا بالأستار في طيها نور مُقاد من نار
وكم لها بين الورَى من آثار تطوي المسافات بهم في الأسفار
وتنقل الأخبار ذات الأخطار ثم تضيء ليلهم بالأنوار
فتجعل الآصالَ مثل الأبكار مشرقة مبهجة للأنظار
وقد تداوي كل داء ضرَّار فالسقم تشفيه بغير عقار
والجرح تأسوه بغير مِسبار وهي لعَمري ذات لفح سيار[2]

[1] البقار: اسم وادٍ، واسم موضع في بلاد العرب.
[2] المسبار: ما يختبر به الجرح.

لـهـا نـفـوذ فـي جـمـيـع الأقـطـار فـي الـحـيـوان والـثـرى والأشـجـار
وفـي ريـاح الـجـو ذات الإعـصـار وفـي بـحـار الأرض ذات الـتـيـار
وقـد سـرت فـي كـل غـيـمٍ مـدرار بـهـا تـسُـح هـاطـلات الأمـطـار
فـهـي بـهـذا الـكـون سـرُّ الأسـرارْ

بيروت والتباريس

إن لـبـيـروتَ بـعـمـرانـهـا أمـكـنـة تـعـلـو الـتـبـاريـسـا[1]
لا سـيـمـا أربُـع لـبـنـانـهـا تلك التي تحكي الفراديسا
فكم كِناسٍ قد حوت للظِّبا وكم حـوت لـلأسْـد عِـرِّيـسـا[2]
وما الـتـباريسُ سوى مَقمر يَقضي على اللاعب تفليسا[3]
يـشـد بـالإفـلاس أيـامـه مَن حلَّ في مَلعبه الكيسا
مـعـرَّس يـقـصـده من نـحَـا في أخريات الليل تعريسا[4]
ومـرقـص تـرقـص فـي بَـهـوه أوانـس تـحـكـي الـطـواويـسـا
ما فيه من باريسَ إلا الذي يُـؤثـر عـن غـادات بـاريـسـا
لـكـنَّ بـيـروتَ بـلـبـنـانـهـا تكشف عنك الهمَّ والبُوسا

* * *

عـروسَ لـبـنـان أمـا والـذي صَـيَّـر مِـرآتـك قـامـوسـا
مـا أنـت إلا جـنَّـةٌ، آمِـنٌ آدمُ فـيـهـا مَـكـرَ إبـلـيـسـا

---

[1] التباريس: الأراضي السهلة اللينة، ولعله هنا اسم موضع.

[2] الكناس: بيت الظبي. والعريس: بيت الأسد.

[3] مقمر: نادٍ للقمار.

[4] المعرس: موضع التعريس؛ أي النزول بالليل.

فيك تجلَّى الله رب العُلا بالحسن مَرئيًّا وملموسا
لولا جمال فيك مستودعٌ ما شرع الحبَّ لنا عيسى
كنيسة للحسن في حبها قلوبُنا صارت نواقيسا
ما الحسن في شيءٍ بمستحسن إلا إذا كان له سوسا[٥]
فأين من هذا تباريسكم وأين هذا من تباريسا؟!

[٥] السوس: الأصل والطبع.

في المستشفى الملكي

عاد الرصافي صديقه الفاضل عبد المجيد بك الشاوي في أثناء مرضه، وقد طال مكثه في المستشفى الملكي ببغداد، فأنشده هذه الأبيات:

أطلتَ أبا سعدون مكثك ها هنا ... فحتَّى متى تبقى مقيمًا بمستشفى؟
فدعْ عنك طبًّا ها هنا تستطبه ... ففي المجد طبٌّ ضامنٌ لك أن تُشفى
أرى مجلسَ النواب أوحشتَ بهوَه ... وقد كاد من صمتٍ تغشَّاه أن يغفى
فها هو مشتاق إليك مزلزل ... يكاد إليك الشوقُ يَنسفه نسفا
فإن لم تداركه بوصل معجَّل ... تداعت به الجدران أو ألقت السقفا
وما استظرفت بغداد مذ جئت ها هنا ... مجالسَ فيها كنت تملؤها ظَرفا
فكم لك في تلك المجالس نكتة ... تهزُّ لها الآداب من فرح عطفا!
إذا أنت أرسلت الحديث مخاطبًا ... فأيَّة أذن لا تنوط بها شنفا
رأينا صريحَ القول فيك سجية ... فلم ترضَ يومًا للحقيقة أن تخفى
إذا عَنَّ تبيان الحقيقة قلتها ... ولو أغضبت أهل السياسة والصحفا
هنيئًا لحزب أنت منه فإنه ... بمثلك فردًا في النهى يغلب الألفا
تلطَّفت في آدابك الغر ناطقًا ... بما قد حوى كل اللطائف واستوفى
فتعرب أحيانًا وتلحن تارةً ... ولكن بلحنٍ أعجب النحو والصرفا[1]

---

[1] الإعراب هنا: الإبانة عن الشيء، واللحن: الكناية عن الشيء أو التورية عنه بغيره، وليس المراد اللحن الذي هو الخطأ في الكلام.

أدامك رب الناس للناس معلنًا مكارم جلَّت أن نحيط بها وَصْفا

إلى عبد اللطيف باشا المنديل

أبـا مـاجـدٍ إنـي عـهـدتُـك مـبـصِـرًا خـفـايـا أمـور أعـجـزت كـل مُـبـصـرِ
إذا خـفـيـت يـومًـا عـلـيـك حـقـيـقـة نـظـرتَ إلـيـهـا مـن ذكـاء بـمـجـهـر
وإن ليلةُ الخطب ادلهمَّت كشفتها بأوضاح صبح من فعالك مُسفر
وتـلـك مـزايـا فـيـك أعـلـمـت الـورى بـأن بـنـي الـمـنـديـل أكـرم مـعـشـر
فهل أخفيتْ حالي عليك وقد بدا لـكـلِّ صـديـق أنـهـا حـال مُـقـتـر
أتيتك من بغداد لم أدرِ ما الذي أتـى بـيَ إلا أنـنـي فـي تـحـيـر
وأحـمـل فـي جـنـبـيَّ نـفـسًـا غـنـيـة وإن شقيت مني بجثمان معسر
ولو كنت في بغداد أرضي بذلَّةٍ لما جئت إلا ساحبًا فضلَ مئزري
ولكنني قد عِفتُ أن أرِدَ الغنى ونفسيَ في قيدٍ من الذل مُقفر
وما عدل السعدون بي عن وفاتهِ ولكن جرى مجرى القضاء المقدر
ولـو أنـنـي بـعْـتُ الـثـنـاء بـنـائـل لما رضيت نفسي بغيرك مشتري[1]
وإن حـديـثـي عـنـك غـيـر مـرجَّـم وإنَّ مـقـالـي فـيـك غـيـر مـزوَّر[2]
سأرحل عن ديوانك اليوم أو غدًا بـعـزمـةٍ لا وانٍ ولا مـتـقـهـقـر
وسوف ترى مني مدى الدهر شاكرًا وإن كنتُ أعياً عن تمام التشكُّر
وأكـتـب لـلـتـأريـخ مـا أنـا كـاتـبٌ لـيـجـعـلـه أحـدوثـة كـلُّ مـخـبـرِ

[1] النائل: العطاء.

[2] الحديث المرجم: حديث الظنون.

يا دار قسطنطين

يا دار قسطنطينَ أنتِ فريدةٌ في الحسن لولا جوُّك المتقلبُ

لقد اجتويتك لا لفقدِ محاسنٍ لـكـن هـواؤك عـارم مـتـذبـذب[1]

أبـدًا سـمـاؤك وجـهـهـا مـتـلـوِّن فـأراه يَـبـسـم تـارة ويـقـطِّـب

وأرى هـواءَك نـاضـحًـا بـرطـوبـة همم الرجال بها تجف وتنضب

تسري الرطوبة منه بين عروقهم فتكاد من أعصابهم تتحلب

فتلين شِرَّتهم وليس بهم ضنًى وتشيب أرؤسهم وما هم شيَّب[2]

وترى الفتى منهم يعود محوقِلًا حـتـى يـروح لِـعُـنَّـةٍ يـتـطـبـب[3]

ريـحـان تـنـدفـعـان فـيـك فـتـارة صِـرًّا تـهـبُّ وتـارة تـتـلـهـب[4]

أمـا الـشـمـالُ فـعـقـرب لـسَّـاعـةٌ وعن الجنوب وذِكرها أتجنب

لا كانتا من ضرتين على الورى هـذي تـجـمـدهـم وتـلـك تـذوب

وأرى بـك الأخـلاق ذات تـلـوُّنٍ كهوائك القلَّاب بل هي أعجب

وطـبـاع كلِّ مَـعـاشـر كـهـوائـهـم سبب الطباع من الهواء مسبب

أمسى التصنع في بنيك صناعة من كان يحسنها فذاك مهذب

---

[1] اجتويتك: كرهتك.

[2] الشرة: الحدة والنشاط.

[3] المحوقل: الضعيف الذي قل أربه في النساء.

[4] الصر: البرد الشديد.

فـإذا تـلألأت الـثـغـور تـبـسُّـمًـا فالبرق في تلك المباسم خُلَّبُ
ولربما احترم البغيضُ بغيضه كـيـمـا يـقـال بـأنـه مـتـأدِّب
عجبًا فكم حَملٍ رأيت ومذ نضا ثَوْبَيْ تصَنُّعِهِ إذا هو ثعلب!
حَلمت نمورك خدعة وتظاهرت بصداقة الخِرفان فيك الأذؤب
لم أَلقَ شيئًا فيك غير مغشش حتى المياه تغش فيك وتكذب
هذي صفاتك يا فَرُوقُ برغم من أثنوا عليك بغير ذاك وأطنبوا[٥]

[٥] فَروق: هي الآستانة، أو دار قُسطنطين.

فلكس فارس

إنَّ فِلَكْسَ بنَ فارس رجلٌ بنا افتقار إلى غنى أدبِهْ
تمَّ له السبق في العلاء بما أحرز يوم الفخار من قَصبه
مُفوَّه لو رآه يخطب في المحـ ـفِل قُسٌّ جثا على رُكبه
ينطق عن فطنة لها حكَمٌ تبرئُ قلبَ الجهول من وَصَبه[1]
لم يُصغِ مُصغٍ إلى خَطابته إلا وقد راقه فأعجب به
تعود كل الخطوب هيِّنةً إذا فزعنا منها إلى خُطَبه
أتعب في النصح نفسَه فأتتْ راحة أهل البلاد من تعبه
يطلب أن تنهض الرجال إلى مجْدٍ يجِدُّ الكرامُ في طلبه
سَلْ عنه لبنان كم تَطرَّبه منه خطابٌ فماد من طربه
وسلْ دمشقَ الشآم عنه وما بعد دمشق الشآم من حَلَبه
كم ليلةٍ للشكوك داجية أنارها باليقين من شُهُبه
حرٌّ يؤاخي في الحق كل فتًى حرٌّ ولو شطَّ عنه في نسبه
إن قال قولًا أو انتضى قلمًا فنصرةُ الحق منتهى أربه
فاركَنْ إليه وخلِّ حاسده محترقًا من جواه في لهبِهْ

[1] الوصب: المرض والوجع الدائم.

مليكة غناء العرب

هـلُـمَّ إلـى ذوْقِ طـعـم الأدبْ هـلُـمَّ إلـى نـيْـل أقـصـى الأرَبْ
هـلـمَّ إلـى ذا الـغـنـاء الـذي مـنـيـرةُ مـنـه أتـت بـالـعـجـب
ألـيـسـت مـنـيـرةُ فـي عـصـرنـا مـلـيـكـةَ فـنٍّ غـنـاء الـعـرب
ولا غـروَ أن ملِّكتْ في الغنا ء [وأن] أحرزتْ فيه أعلى الرتب
فـقـد أدركـتْـهُ عـلـى رسـلِـهـا ونـالـت أقـاصـيَـه مـن كَـثـب[1]
وأيـدهـا الـلـه مـن صـوتـهـا بـأكـبـر عـونٍ وأقـوى سـبـب
أرى فـمـهـا صِـيـغَ من حـكـمـةٍ وأُبـخـسُـه إن أَقُـلْ: مـن ذهـب
تـلـوح فـتـبـتـزُّ بـدرَ الـدجـى وتـشـدو فـيـعـتـزُّ فـنُّ الأدب[2]
بـلـحـنٍ إذا امـتـد هـزَّ الـقـلـوب وخـدَّر أبـدانـنـا والـعـصَـب
تـرفـوف أرواحُـنـا تـحـتـه كما رفرف الطير لمَّا انقلب
وتـخـفُـق أحـشـاؤنـا دونـه كما خفقت في الرياح العَذَب[3]
نـكـاد إذا هـي غـنَّـت نـطـيـر إلـيـهـا بـأجـنـحـةٍ مـن طَـرَب
وإن هـي قـامـت لإنـشـادهـا جَـثَـونـا لـهـا وثـنـيـنـا الـرُّكَـب

[1] أدركته على رسلها: أي في تمهل ورفق.

[2] تبتز: تغلب وتفوق.

[3] العذب: الأطراف من كل شيء، وما يسدل إلى الخلف من العمامة.

فلو سمع القوم ألحانها لشقوا عمائمهم والجُبب
أرى الهمَّ يُتعب قلب الفتى وعنه الأغاني تزيل التعب
فبادر إليها ولا تكترثْ لما جاء من ذمِّها في الكُتب

إلي جميع الغواني

وقفتُ عليكن قلبي الذي يمرُّ به الحُبُّ مَر السَّحاب
ومنكن أحببت هاتي وذي وألفيتُ عذبًا بكنَّ العذاب

* * *

فمنكن بيضاء ما مثلها «عدا حمرة الخدِّ» إلا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها كما ليلة البدر طاب السمر

* * *

ومنكن حمراء جذابة حكى وجهها الشمسَ عند الطلوع
أرى عينها «وهي خلابة» فأمسك بالكف منِّي الضلوع

* * *

ومنكنَ صفراءُ في لونها كأن قد تردَّت شُعاعَ الأصيل
إذا ما تمشَّت على هُونها أصحَّت هبوب النسيم العليل

* * *

ومنكنَّ سمراء تحكي الدمى وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى فيضرم في الصب نار الجوى[١]

---

[١] اللمى: سواد الشفة وهو محبوب عند العرب.

* * *

وَمنكنَّ من هي مثل الرياح لها في ذرا كل لب هبوب
تريد غِلاب جميع الملاح وتبغي عذاب جميع القلوب

* * *

ومنكنَّ من هي مثل النجوم من البعد ناظرة تبتسم
فتلك عليها فؤادي يحوم وتلك إليها الردى أقتحم

* * *

ففيكن طُرًّا بوادي الهوى أهيم وإن لم تعد عائده
ألا إن حبًّا بقلبي انطوى كثير فلم تكفه واحده

قصر البحر

وقال وقد نزل في فندق قصر البحر في بيروت:

لعمرُك إن قصر البحر قصر   به يسلو مَواطنه الغريبُ
وتمتلئ العيون به ابتهاجًا   إذا نظرت وتنشرح القلوب
تروق الناظرين بجانبيه   مناظرُ دونها العجب العجيب
فمن شمس يصافحها طلوع   ومن شمس يعانقها غروب
ومن سُفن تجيءُ بها شمال   ومن سفن تروح بها جنوب
وأخرى حوله خمدت لظاها   وأخرى في الفؤاد بها لهيب
أطلَّ على المياه فقابلته   بوجهٍ لا يمازجه شحوب
يقبل جانبيه البحر حتى   كأن البحر مشغوف كئيب
أحاط به فكان له رقيبًا   ومَغناه الأنيق له حبيب
وما هذا التموُّج من هواه   ولكن من هوى فهو الوجيب
كأنَّ الموج في الدَّأمَا رجالٌ   وهذا القصر بينهم خطيب[1]
تخاطبهم مبانيه فيعلو   من الأمواج تصفيق مهيب

* * *

تلمُّ به المسرات ازديارًا   فتعرفه وتجهله الكروب

[1] الدأماء: البحر.

وما انفردت به بيروت حسنًا ولكن القصور بها ضروب
تبسمت البلاد بكل أرض وما زال العراقُ به قَطوب
فها هو من تكاسل قاطنيه تجرُّ عليه كلكلها الخطوب
إذا تدعو الرجالَ به لخيرٍ يجيبك من تخاذلهم مجيب
فيا لهفي على بغداد أمست من العمران ليس لها نصيب
سأبكي ثم أستبكي عليها إذا نضبَت من العين الغروب[2]
أيا بغداد لا جازتك سُحب ولا حلت بساحتك الجُدوب
تطاول ساكنوك عليَّ ظلمًا فضاق عليَّ مغناكِ الرحيب
وكم نطقوا بألسنةٍ حِدادٍ يسيل لها من الأشداق حُوب[3]
رماني القوم بالإلحاد جهلًا وقالوا: عنده شك مُريب
ألا يا قوم سوف يجدُّ جِدِّي وسوف يخيب منكم مَن يخيب
فمن ذا منكمُ قد شقَّ قلبي وهل كُشفت لكم فيَّ الغيوب؟!
فعند الله لي معكم وقوف إذا بلغت حَناجرَها القلوب
يقيني شرَّ فِرْيتكم يقيني بأن الله مطَّلع رقيب
ولم تُخفر لكم عندي ذِمامٌ ولكن عادة الريح الهبوبُ

[2] الغروب: جمع غرب، وهو عرق في العين، أو جانب العين.

[3] الحوب: الإثم.

محاسن الطبيعة

إلى حضرة الفاضل ندرة بك المطران

البحرُ رهوٌ والسما صاحيه — والفخت في الليل شبيهُ السَّديم[1]
والبدرُ في طلعته الزاهيه — قد ضاحكَ البحر بثغر بسيمْ

* * *

والصمت في الأنحاء قد خيما — فالليل لم يَسمع ولم يَنطقِ
والبدرُ في مَفرق هامِ السما — تحسبه التاجَ على المفرقِ
أغرق في أنواره الأنجما — وبعضها عامَ فلم يغرقِ
والبحر في جبهته الصافيه — قام طريق للسنا مستقيم
لم تخفَ في أثنائه خافيه — حتَّى ترى فيه اهتزازَ النسيم
وقفتُ والريح سرت سجسجا — وقفةَ مبهوتٍ على الساحلِ[2]
أنظر ما فيه يحار الحجا — في الكون من عالٍ ومن سافلِ
يا منظرًا أضحك ثغرَ الدجى — ورد سحْبانَ إلى باقلِ[3]
ما أنت إلا صحف عاليه — كم حار في حكمتها من حكيم!

---

[1] رهو: ساكن. والفخت: ضوء القمر. السديم: الرقيق من الضباب.

[2] الريح السجسج: المعتدلة اللطيفة.

[3] سحبان: خطيب يضرب به المثل في الفصاحة، وباقل: يضرب به المثل في العِي.

إذا وعــتــهــا أذنٌ واعــيــه فقد وعت خيرَ كتابٍ كريم

* * *

وزان عَرض البحر ما قد بدا من زورقٍ يجري بمجدافتينِ
عام بِذَوب الماسِ أو قد غدا يسبح في لجة ذوب اللجينِ
في صامت الليل جرى مفردا وبين جنبيه حوى عاشقينِ
من غادة في حسنها غانيه تبسم عن لألاءِ دُرٍّ نظيم
ومن فتى أدمعه جاريه قد صافح العشقَ بجسمٍ سقيم
قابلها والحب قد شفَّه وقابلت طلعة بدر السما
وظل يرنو تارة خلفه وتارة ينظرها مُغرما
ثم تدانى واضعًا كفه في كفها يطلب أن يَلثما
وخرَّ من وجدٍ على الناصيه وقلبه يركض ركض الظليم[٤]
وهي غدت من أجله جاثيه واحتضنته كاحتضان الفطيم

* * *

ثم رمى نظرة مُسترحمٍ في الكون عن طرفٍ له حائرِ
وقال قولَ الكلف المغرمِ في حب ذات النظر الساحرِ:
أيتها الأرض قفي واسلمي من أجل هذا المشهد الزاهرِ
حتى أرى ليلتنا باقيه محفوفةً من وصلنا بالنعيم
فإنَّ هذي ليلة حاليه تزهو ببدرين وطلق النسيم

* * *

وأنت يا بدرُ اللطيف السنا في الجو قِفْ وقفة غير الرقيبْ
ما أبهج النور وما أحسنا إذا دنا منك لوجه الحبيبْ!
كأنه «ندرة» لما دنا نحو المعالي يبتغيها النصيبْ
فحاز منها جملة وافيه ما حازها من أحد من قديم
وصار يُدعى الرجل الداهيه في الفكر والمجد وخلق عظيم

---

[٤] الظليم: الذكر من النعام.

* * *

يا آل مطران لكم «ندرةٌ»   وأكرم الناس هو النادرُ
لكن معاليكم لها كثرةٌ   يعجز أن يحصرها الحاصرُ
من أجلها أمست لكم شهرةٌ   عمَّ البرايا صيتها الطائرُ
حيث معاليكم غدت قاضيه   لكم على الناس بفضل عميم
فراية المجد لكم عاليه   و«ندرة» الشهمُ عليها زعيم

* * *

يا من بَنى المجدَ فأعلى البنا   فكان أعلى الناس في مجده
اِقبلْ من العبد جميلَ الثنا   وإن يكن قصر عن حده
ومُرْه ثم أحكم به إن ونى   ما يحكم السيد في عبده
إذ أنت بالمنقبة الساميه   قد خصَّك الله العزيز العليم
فاهنأ ودم في عيشة راضيه   رغمَ المعادي وسرور الحميم

ليلة في دمشق

من كان يأرقُ بالهمو   م فقد أرقت من السرورِ
وطربتُ من صوتٍ يجي   ءُ إليَّ من غُرَف القصور
صوت كأن الغانيا   ت أعرْنه هَيف الخصور
ونضحن من ماء الحيا   ة عليه في شنب الثغور
سرَّى الهموم عن الفؤا   د بجوف حالكة الستور
والعود ينطق باللحو   ن بلهجتيْ بَمٍّ وزير
يرمي به الصوت الرخيـ   ـم على الدجى لمعاتِ نور
ملأ الظلام توقدًا   كالكهرباءة في الأثير
يحكي الزلالَ لدى العطا   ش أو الثراء لدى العقير
أصغيتُ منقطعًا إليه   عن المْواطن والعشير
فحسبت نفسي في الجنا   ن بغير وِلدانٍ وحور
وطفِقت أدَّكر العرا   ق فعاد صفويً ذا كدور
فرجعت عن ذاك السما   ع وغبت عن ذاك الشعور
وذكرت من تبكي هنا   ك عليَّ بالدمع الغزير
تستوقف العجلان ثمَّـ   ـة بالرنين عن المسير
وتقول من مضض الفرا   ق مقالَ ذي قلب كسير:
أبُنيَّ سِرْ سير الأما   ن من الطوارق في خفير
يا أم لا تخشي فإن   الله يا أمي مُجيري

ودعـي الـبـكـاءَ فـإن قـلــ ــبي من بكائك في سعير
أعـلـمـتِ أنـي فـي دمـشــ ــق أجـرُّ أذيـال الـسـرور
بـيـن الـغـطـارفـةِ الـذيــ ــن تخافهم غِيَر الدهور[1]
من كل وضَّـاح الـجـبـيــ ــن أغر كالبدر المنير
حـرُّ الـشـمـائـل والـفـعـا ئل والظواهر والضمير

[1] الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد السخي السري. وغِيَر الدهور: تقلباتها.

حول البسفور

خليليَّ قوما بي لنشهد لِلرُّبا | بجانبَي البسفور مشهدَ أسرارِ
أجِيلا معي الأفكار فيها فإنها | مجالُ عقول للأنام وأفكار
خليليَّ إن العيش في ماء شرشر | إذا الشمس تستعلي وفي ماء خنكار[1]
سفوحُ جبال بعضها فوق بعضها | مكلَّلة حافاتهن بأشجار
يروق بجنبيها خريرُ مياهها | ويُشْجي بقطريها ترنُّم أطيار
ويجري النسيم الرطب فيها كأنه | تبختر بيضاء الترائب معطار
معاهد زُرْها في الهواجر تلقها | موشحة فيها برقَّة أسحَار
نزلنا بها والشمس من فوقُ أرسلت | على منحنى الوادي ذوائبَ أنوار
وقد ظلَّ من بين الغصون شعاعها | يوقِّع دينارًا لنا جنب دينار
كأنَّ التفافَ الدوح والنور بينها | جيوبٌ من الأنوار زرَّت بأزرار
تميل إذا هبَّ النسيم غصونها | فتأتي بظل في الجوانب موَّار[2]
ترانا إذا ما الطير في الدوح غردت | نميل بأسماع إليها وأبصار
رياض تنسَّمنا بها الريح ضحوة | فنمَّتْ لنا من طيبهن بأسرار
يلوح بها ثغر الطبيعة باسمًا | فيفترُّ منها عن منابت أزهار
مشاهد في تلك الرُّبا ومناظر | تجلَّت على أطرافها قدرة الباري

[1] شرشر وخنكار: موضعان بالقرب من البسفور.

[2] الموار: المضطرب المتحرك.

تأثير التربية

قالها في بيروت بعد أن شاهد مسرح الحيوانات.

إليك ما شاهدت عيني من العجب … في مسرح ماجَ بين الجِدِّ واللعبِ
خافوا به أن تقوم الأسدُ واثبةً … حتى بَنوا حاجزًا فيه من الخشب
وحصَّنوه من الأعلى بمشتبكٍ … من الحبال جديد غير منقضب
به الأسود تمطى في مرابضها … والنمر يخطر بين الخوف والغضب
والذئب يبصر جَدْيَ المعز مقتربًا … منه فيرجع عنه غيرَ مقترب
أما الكلاب فجاءت وهي كاسية … يرقصن منتصبًا في إثر منتصب
قامت على أرجلٍ تمشي معلَّمة … مَشْيَ المليحة في أبرادها القشب[1]
تخشى مؤدبها والصولجانُ له … في الكف فرقعة كالرعد في السحب
ترنو إليه بعين الخوف فاعلة … ما كان يُصدِر من أمر ومن طلب
خضعن للسوط حتى إنَّ أعقدَها … لو يأمر السوطُ يغدو مرسلَ الذنَب
وكانت الأسد تجري في إطاعتها … مجرى الكلاب بحكم الخوف والرهَب
كأنما الليثُ لم يُخْلَقْ أخا ظُفُر … محدَّد الناب قذَّافًا إلى العَطب
شاهدته مشهدًا بدْعًا علمتُ به … أنَّ الغرائز لم تطبع على الشغب
وأنَّ خُبثَ البرايا في طبائعها … لا بد فيه سوى الأطباع من سبب

[1] القشب: جمع قشيب، وهو الجديد.

وأنَّ ليث الشرى ما صِيغ مفترسًا لكن أحالته فرَّاسًا يدُ السغب[٢]
وكم من الناس مَن قد راح مندفعًا بدافع الجوع نحو القتل والسلب
وأن تربية الإنسان يُرجعه إكسيرها وهو من ترب إلى الذهب
هذا إذا حَسُنتْ أما إذا قبحت فالمَندليُّ بها يمسي من الحطب[٣]
فكل ما هو في الإنسان مكتسب فلا تقل: فيه شئ غير مكتسب
إني أرى أسوأ الآباء تربية لِلابن أحرى بأن يُدعى أعقَّ أب
والمرء كالنَّبت ينمو حَسْب تربته وليس ينبت نبعٌ مَنبِتَ الغرَب[٤]
من عاش في الوسط الزاكي زكا خُلقًا حتى علا في المعالي أرفعَ الرتب
فاحرص على أدبٍ تحيا النفوس به فإنما قيمة الإنسان بالأدب

[٢] السغب: الجوع.

[٣] المندلي: عود يتبخر به ينسب إلى المندل من بلاد الهند.

[٤] النبع: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر تتخذ منه الأقداح.

يقظة الشرق

أنشدت في مأدبة نادي المعلمين؛ لتكريم وفد الجامعة المصرية مساء ٩ شباط سنة ١٩٣١، في أوتيل «كارلتون» ببغداد.

أرى — بعد نوم طال — في الشرق يقظةً
نُهوضيةً فيها طموحٌ إلى المجدِ

ففي «مصر» شِيدَتْ للعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد

فلم تتخذ غيرَ التجارب منهجًا
لتحقيقها من جوهر العلم ما يجدي

وفي الأُفق «التركي» سارت إلى العلا
جيوش بأعلام التجدُّد تستهدي

وفي «الهند» قامت للتحرُّر ثورة
سياسيَّة عزلاء قائدها «غَندي»

و«فارسُ» حلَّت عقدةً من جمودها
وحنَّت بمسعاها إلى سالف العهد

وفي «الصين» حربٌ نارها وطنية
تزيد بمرِّ الدهر وقدًا على وَقْد

و«بغداد» بين الأجنبي وبينها
مزيدُ صراعٍ في السياسة مشتد

على أن حولَ «النيل» مثلَ صراعنا
ولكنه بين الحكومة و«الوفد»
ولم تخْلُ من أعتابها بتجدُّد
على جدبها أرضُ «الحجاز» ولا «نجد»
زمان أتى من كل قوم بنهضةٍ
سياسية حتى أتت نهضة «الكرد»
تباشيرُ صبح لاح بعد نُحوسَةٍ
مشيرًا إلى ما نرتجيه من السعد
فيا وفدَ مصرٍ أنتمُ خير شاهد
على يقظة في الشرق وَرَّايَة الزَّند
لقد جئتمُ روَّادَ علمٍ وحكمة
فحُييتمُ أزكى التحيات من وفد
ترودون أهلَ العلم مرعًى ومنزلًا
وتجتنبون الهزل في معرض الجِدِّ
وقد زرتمُ «دار السلام» زيارة
ستذكرها الأقلام بالشكر والحمد
ومن ذكرها في كل عصر وموطنٍ
سَتَستَنشِقُ الأيام أطيبَ من ورد
وتمتد بين «النيل» منها و«دجلة»
مدى الدهر أسباب التعارف والودِّ
سلام على «مصرَ» التي أرسلت بكم
فطاحلَ علم لا تحيد عن القَصد
لكم عند أهل «الرافدين» تجلَّة
على قدر ما للرافدين من الرِّفد

إلى القزويني

هو المرحوم أبو العز السيد محمد القزويني العالم المشهور.

قف بالديار الدارساتِ وحيِّها
واقرَ السلام على جآذر حَيِّها[1]

وانشُد هنالك للمتيَّم مُهجة
فنيتْ من الأهواء في عُذريِّها

وسل المنازلَ هل علمنَ بأنني
قد شفَّ جثماني الهوى بظُبيها

يا قلبُ أيُّ هوى أصابك عندما
أصميت باللحظات من ثُعَلِيِّها[2]

رَشأٌ إذا أبدى ابتسامة شائقٍ
أجرى المدامعَ من عيون عصيِّها[3]

شغلَ القلوب بحبه ولطالما
فتكت ضعافُ لحاظه بقويِّها

من لي بلثم مُقَبَّلٍ من شادن
عذب الثنايا الواضحات شهيها[4]

يا عاذلًا صدعَ القلوبَ بلومه
مهلًا فليس خَليُّها كشجيِّها

من ذا استطاعَ يردُّ عن غيِّ الهوى
فئة ترى كل الرشاد بغيها

دعْ يا عذولُ أخا الغرام معظمًا
للدار يلثمها كرامة ميِّها

كأفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرت
بِسَريِّها الجَحجاح وابن سريها[5]

[1] الجآذر: جمع جؤذر؛ وهو ولد البقرة الوحشية.

[2] ثعليها: رامٍ منسوب إلى بني ثعل وهم حي من طيئ مشهورون بالرمي.

[3] الرشأ: ولد الظبية.

[4] المقبل: الفم. والشادن: ولد الظبية.

[5] هي مدينة الحلة. والسري: السيد الشريف السخي. والجحجاح: السيد المسارع إلى المكارم.

السيد السند الهمام محمد فرع النبوة وابن خير وصيها
كم شاع للفيحاء بين بلادنا شرف حوته بفضل قزوينيِّها
ذاك الذي كم من مناهل فضله فازت محلَّأَةُ النفوس برِيِّها[٦]
يا سيدًا في المجد أحرز شهرةً ملأت مسامعنا بصَوت دويها
والتْك نفسي ترتدي بك سؤددًا وقد ارتدته فكنت خير وليها
لِمَ لا أسود بحبكم في أُمَّةٍ فرَض المهيمن حبَّ آل نبيِّها
زهت المكارمُ فيك حيث لبستها شِيمًا تزيَّا الأكرمون بزيِّها
فعشقت منك على البعاد خلائقًا شغلت — وحقك — مهجتي عن حيها
فإليكها عذراءَ عزَّ قِيادها لولا مديحك لم تبُح برويها
وافتْك في «رمضان» تنشر مدحه عبقت تهانيك الحسان بطيها
لتشدَّ معك عُرا الوداد وثيقة بيدٍ، ولاؤك كان خيرَ حليِّها
إني لأَغبطها إذا هي أنشدت بنديٍّ عفِّ النفس منك ذكيها
وغدت تجيد المدح منك لسيد شهم الغطارفة الكرام أبيِّها

[٦] المحلأة: العطاش المطرودة عن الماء.

إلى حماة الأطفال

سبق لجمعية حماية الأطفال أن اعتزمت إقامة مهرجان كبير حاولت أن يكون الأول من نوعه، وقد تفضل شاعر العرب الخالد المرحوم الأستاذ معروف الرصافي، فأرسل هذه القصيدة العصماء، ووعد أن يلقيها بنفسه، ونحن ننشرها اليوم ليرى القراء جانبًا من إحساس الفقيد العظيم نحو أطفال الوطن.

دار السلام تفاخرت برجالِ	قاموا بأمر حماية الأطفالِ
وعُنوا بتربية البنين عناية	زادوا بها شمَمًا على الأجبال
وبنوا لهم دارًا بما جادت به	أيدي أكارمهم من الأموال
صانوا بها الأنسال من أمراضها	ومن الحقوق صيانة الأنسال
دار تعيهم بالأواقي كل ما	يُخشى من الأوجاع والأوجال[1]
ضمنت لأيتام الأرامل طِبَّهم	وغذاءهم وبشائر الأبلال
لم يخشَ فتك السقم فيها رُضَّع	في البؤس قد وُلدوا من الإقلالِ
للهِ تلك الدارُ مِن متبوَّأ	بَذَّ النجوم بقدرة المتعالي[2]
هي مفزَع للمعسرين ومَلجأ	يأتيه كل ضَنًّى من الأطفال[3]

[1] الأواقي: أصلها الوواقي جمع واقية. والأوجال: المخاوف، جمع وجل.

[2] يقال: بزه وبذه؛ أي فاقه.

[3] الضنى: المهزول.

أحـمـاة أطـفـال الأيـامَـى إنـكـم جُـدراء بـالـتـعـظـيـم والإجـلال[٤]
مرت لـكـم تلك الـسـنـون وكـلـهـا غُـرَر تـزانُ بـأنـفـع الأعـمـال
كـافـحـتـمُ الأدواء فـي أيـتـامِـنـا دَأبـا بـغـيـر كـلالـة ومـلال
في حومة الإحسان طال صِيالكم حـقًّـا فـأنـتـم أشـرف الأبـطـال[٥]
سيدوم مَسعاكم ويبقى دأبُكم فـي الـدهـر غـيـرَ مُـهـدد بـزوال
ولسوف يذكركم ويشكر سعيكم من سوف يخلفُكم من الأجيال
لـلـه أنـتـم مـن أفـاضـلَ خُـلَّـصٍ فـاقـوا الأنـام بـأشـرف الإفـضـال
إنـي أحـاول أن أكـون مُـعـيـنـكـم لـولا مـوانـع يـعـتـرضـن حَـوالـي[٦]
لو أن ذات يدي استطاعت رِفدكم مـا فـاق نـولُ الـرافـديـن نـوالـي[٧]
ولـوَ انَّ أيـامـي تـجـود بـصـحـتـي ما جالَ أقوى العاملينَ مجالي
إن لـم أعـنـكـم بـالـفـعـال فـإنـنـي مـا زلـت مـن أعـوانـكـم بـمـقـالـي
فـإلـيـكـمُ هـذا الـثـنـاء مـخـلـدا من مادح في المدح غير مغال

٤ الأيامى: جمع أيم، وهي التي لا زوج لها.
٥ الحومة: موضع القتال. والصيال والمصاولة: المنازلة في الحرب.
٦ حوالي: حولي.
٧ الرفد: العطاء، والنول والنوال: العطاء.

شاعر البشر

حيِّهل يا أخا مُضر　　ندكِر خيرَ مُدكر[1]
نذكر شاعر البشر　　خير من قال وافتكر

* * *

حَيِّهل أيها المَلا　　نحيِ ذكرى أبي العَلا
شاعر شعرُهُ اجتلى　　صُوِرًا كلها غُرَر

* * *

شاعر يملأ الفضا　　نفسهُ صعبة الرضا
دونه كل من مضى　　دونه كل من غبر[2]

* * *

هو بالفكر مُذ سما　　كان من نوره العمى
شاعر الأرض والسما　　شارف الشمسَ والقمر

* * *

[1] حيهل: اسم فعل أمر، معناه: أقبل. وأخا مضر: هو من ينسب إلى مضر، وهم من ولد إسماعيل، أما اليمنيون فأولاد يعرب بن قحطان، ولعل الشاعر هنا يريد جنس العرب مطلقًا.

[2] من غبر: من يأتي في المستقبل، وقد يكون غبر بمعنى مضى في غير هذا.

حلَّ في ذروة الأدب آتيًا منه بالعجب
لا تقل: شاعر العرب إنه شاعر البشر

* * *

جعل الصدق ديدنا تاركًا هذه الدنا
إن تناءى أو ادَّنى فهو للحقِّ ينتصِر

* * *

عبقري بشعره عالمي بفكره
يعربي بنجره تشرفُ العُرْبُ إن ذُكر[3]

* * *

جعل الشعر وَحيه مُوقظًا فيه وعيه
ما ورَى فيه وَرْيَهُ قبْله كل من شعر[4]

* * *

خطَّ سفْرًا به ابتغى غُنية الروح بالرَّغى[5]
جامعًا أفصح اللغا حَاويًا أكبر العِبر

* * *

حكم العقل واجتهد وتغابى عن القدر
هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبر

* * *

شعرُه شفَّ عن دها ما له فيه مُنتهى[6]
بنظام هو النهى وحروفٍ هي الدرر

---

[3] النجر والنجار: الأصل.

[4] ما روى فيه وريه أي: لم يُقدح زناد فكر، ولا أُتي بمثل ما أتى به أبو العلاء من المعاني.

[5] الرغى: بضم الراء وفتحها، الحديث غير الصريح.

[6] شفَّ عنه: أبان عنه.

* * *

شعره شعر مُتْقِنِ فيه شك لموقِنِ
فيه كفر لمؤمنِ فيه إيمان من كفر

* * *

نفسه وهي ثائره تركت «غيرَ خاسِره»
كل دنيا وآخره ونفت كل ما استقرَّ

* * *

جعل الحق ذوقه باذلًا فيه طوقه
شاعر ليس فوقه شاعر من بني البشر

* * *

شاعر الأرض والسما هو بالفكر مُذ سما
أبصر الحق بالعمى لم يضِره عمى البصر

* * *

هو بالشعر إن شدا يتجلَّى لك الهدَى
مدرِكًا أبعد المدى بالمعالي التي ابتكر

* * *

جانب الناسَ واعتزلْ قائلًا: إنهم همل[٧]
شرُّهم غير محتمل خيرهم غير منتظر

* * *

دينهم من ريائهم وهو في أغبيائهم
ليس في أذكيائهم غيرُ من مان أو مكر[٨]

[٧] الهمل من الحيوان: ما ليس له راعٍ يحوطه ويرعاه.

[٨] مان: من المين وهو الكذب.

* * *

ما بهم غير حاسدِ دائب في المكايد
مبتغى كل واحد منهمُ الجورُ إن قدر

* * *

كوكب قد توقَّدا في سماءِ من الهدَى
عندما غمَّهُ الردى أظلم الجو واعتكر

* * *

ليس للموت عندهُ من تقاريع بَعدهُ
إن عرا الحيَّ رَدَّهُ فاقد الحس كالحجرْ

* * *

فيه قد يأمن الفتى كل ما راع أو عتا
لا مصيف ولا شِتَا لا نعيم ولا سَقر

* * *

نحن أسرى ذواتنا خشية من مماتنا
كم وكم في حياتنا مُبتدا ما له خبَرْ

ذكرى المآثر التيمورية[١]

«لأحمد تيمورٍ» مآثر لم تزلْ … تشيرُ بتعظيم إليها الأناملُ
شوامخ كالأطواد عالية الذرا … ولكنها لا تعتريها الزلازل
تزيدُ على كرِّ الجديدين جِدَّة … وتبلى الدواهي دونها والغوائل[٢]
إذا ذكِرت في القوم حُلَّت لها الحُبا … وقام لها جمع من القوم حافل[٣]
هو العالم الحبر الذي كان علمه … كأخلاقه فيه النهى والفضائل
إذا لم يزن علمَ الفتى حسنُ خلقه … فما هو في شيءٍ على الناس طائل
به فقدت «مصر» العزيزة فاضلًا … له في مغانيها مَساعٍ فواضل
أقام بها ما فاق في الفضل نيلَها … خزانة كتْب تنتحيها الأفاضل[٤]
مناضدها للتائهين معالم … وأسفارها للظامئين مناهل

[١] وهي من أواخر شعره.

[٢] الغوائل: جمع غائلة، وهي المهلكة.

[٣] الحبا: جمع حبوة، وهو ما يشد به العربي رجليه إلى ظهره من شملة أو عمامة أو نحوها إذا جلس في نادي قومه، وحل الحبا: كناية عن الاهتمام بالأمور، يقال للشيء المهم: هذا أمر تحل له الحبا.

[٤] تنتحيها: تقصدها.

إذا غـمَّ أفـق الـعـلـم أبـدت أنـارةً   تـقـوم بـهـا لـلـحـائـريـن دلائـل[٥]
عـلـيـه سـلام الـلـه مـا هِـيـبَ عـالـم   وعِـيـب بـإهـمـال الـتـعـلـم جـاهـل
ولا برحت مصر ينير لها الدُّجى   رجـال عـظـام من بـنـيـهـا أمـاثـل

الأعظمية – ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٤

[٥] غم أفق العلم: أظلم. والأنارة: البقية من الشيء، كذا في جريدة «البلاد» ولعلها محرفة عن إنارة، يريد إذا غام الأفق بالشبه ظهر منها نور يوضح أمام الحائرين.

أبو الطيب المتنبي

كان أبو الطيب امرأً قُوَلَهْ　　يبتكر الشعر مذكيًا شُعلَهْ
صاحب نفس كبيرة شرفت　　فشرَّفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذي انتشرت　　أشعاره في البلاد منتقله
أوجدت للشعر دولة عظمت　　به فعزت من قبله دوله
من كل معنًى أغرَّ مؤتلقٍ　　في لفظة كالعروس في الحجله
وربما رقَّ لفظه فبدت　　في شعره كل كلمة ثمله
وربما لم تبنْ مقاصده　　لأنها فيه غير مبتذله

* * *

فسائلن عن قريضه حلبًا　　كم قطفت من زهوره خصله
خلد ذكرًا لسيف دولتها　　أيام وشَّى بمدحه خلله
فاعجْب لسيف لم تَبْلُ جِدَّتُهُ　　وشاعر بالمديح قد صقله

* * *

لو حاز موسى مضاء عزمته　　ما تاه في التيه عندما دخله
وهو الذي اجتازه بيعملةٍ　　تحمل منه الهمام لا التكله
قد بات كافور من جراءتها　　على الموابي بمهجة وجله
إذ أعجزته بالسير عن طلب　　لا خيله تختشي ولا إبله
فسَلْ به النيل يوم ناقته　　تغمرت منه وانتحت جبله

كيف أتى مصر كالعقاب لكي يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها ثم وشيكًا بهجوه قتله

* * *

في شعره حكمة مهذبة وروعة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحة وصنعة بالفنون متصله
قدرته في البيان واسعة يتيه فيها السؤال والسأله
إذا المعاني بشعره ازدحمت ما ربكت في انتقائها حيَلَهْ
كم شاعرٍ قد قفى له أثرًا وناقد راح يبتغي زَلَلَهْ
فأخفقوا عاجزين عن دركٍ لبعضِ ما كُلُّه تيسَّرَ له

* * *

قل لابن عبَّاد: أي منقصة من أجلها كنت مكثرًا عذله؟!
أشعره؟ والعصور ما برحت تسعى بكل استجادةٍ قِبله
لكنَّما رمت من مدائحه ما لم تكن سالكًا له سبله
طماعة منك غير واعية وهي لعمري حماقة وبله

* * *

أكبرُ من أكبرِ القريض به وأكبر القاتلين من قتلَهْ
يا قاتليه لو تعلمون به إذن قتلتم نفوسكم بدله
قتلتم الشعر والإجادة والإبداع فيه يا ألائم القتله
لستم بذا القتل من بني أسد بل أنتم فيه من بني ورله

* * *

لم يزل الدهر بعد مقتله يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عند كل بادهةٍ بدائع في القريض مرتجله
يصطاد في الشعر كل شاردة من القوافي بفطنة عجله
فلا تَقِسْهُ بغيره أدبًا! وهل تقاس المعطار بالتُّفِله؟!

* * *

كم شاعر يدعي وليس له من شعره غير منطق الحجله

إن أنت أنشدت شعره هزؤًا رجعت منه كآكل البصله
ورب شعر إذا لفظت به من هجنة فيه تأنف السبله
الشعر معنًى ألفاظه حسنت فنسِّقت في بلاغة جمله
وكلما قصَّرت قوالبه عن حسن معناه أوسعت خلله
حُسْنُ المعاني بلفظها شوه كحسن حسناء ثوبها سمله

* * *

من ذاق في الشعر طعم معجزه فأحمد الشاعر الذي أكله
أيُّ مقام هيجاؤه احتدمت بالشعر يومًا ولم يكن بطله
كان عزيزًا يأبى الهوان فما قرَّ عليه يومًا ولا قبلَهْ

إلى الجواهري

ما أوحته إليَّ قصيدتك

كتب المرحوم الشاعر معروف الرصافي تحت هذا العنوان القصيدة التالية؛ ردًّا على قصيدة للشاعر الأستاذ محمد مهدي الجواهري نشرها في صحيفة «البلاد» وقدم بين يديها هذه الكلمة:

> أردنا عندما ناغينا الشاعر العربي العظيم الأستاذ «الرصافي»، أن يكون لنا شرف تذكره وهو في عزلته الموحشة، فكان لنا إلى جانب ذلك أيضًا شرف ابتعاث شاعريته الفذة، التي حالت حوائل المرض والانعزال و«النقمة»، دون تمتع المعجبين في شتى الأقطار العربية بنتاجها.
>
> أما وقد هززنا الأسد الرابض الضائق ذرعًا بعرينه، المنطوي على نفسه ألمًا وغضبًا وكبرياء، فليكن لنا شرف الاستماع إلى زئيره.
>
> فليضم المتغنون بشعر الأستاذ «الرصافي» هذه الترنيمة الجديدة إلى مجموعاتهم، وهذه «الزفرة» الحارة إلى السلسلة «المقطوعة» من أخواتها.
>
> وسلام على «عيش» الشاعر المتمرس «بالأولى» والمتفكر في «الأخرى» هذا العيش «الحر الطليق» التي خانتنا كلمه «وفضلت» في التعبير عن مقدار إعجابنا «بطبيعته» واحترامًا لنا ولصاحبه.
>
> وسلام على الشعر «الرصافي» المتفتق نوره عن الذهن المشبوب، والفكر الحائر، والنفس الجائشة والمستجيشة بفيضها، والقلب المرتج بالعواطف الزاخرة والزاج بصاحبه في شتى المهاوي.

ذلك «الشعر» الرصافي الذي أعجبنا؛ لأنه لم يكن «حبلًا» مرغمة «أوائله أن تلتقي والأواخرا» وذلك «العيش» الرصافي بماضيه وحاضره المتراكم بعضه فوق بعض بدون «تنسيق» ولا اختيار بل بوحي من الفكر الروحي و«الصراحة» و«الجرأة» ومحض الطبيعة، وفي بعض الفترات منه بوحي الضرورة، وهذه هي عناصر عظمته عندنا، وفي هذا جواب «الاستعتاب الرقيق».

قال الرصافي:

بك الشعر لا بيَ أصبح اليوم زاهرا ... وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا
فأنت الذي ألقتْ مقاليد أمرها ... إليه القوافي شُرَّدًا ونوافرا
إذا قلت شعرًا قلته في بداعةٍ ... فكان به المعنى بديعًا وباهرا
وإن أنت أطلقت النفوس من الأسى ... بإنشاده يومًا أسرت المشاعرا
بلغت من الإبداع أرفعَ ذروةٍ ... هوى النجم عنها صاغرًا متقاصرا
وإنك أرقى الناطقينَ تكلمًا ... بحقٍّ وأنقى الساكتين ضمائرا
إذا شِيءَ ظلمٌ قُمْتَ للظلم رادعًا ... وإن سِيءَ حقٌّ قمت للحق ناصرا

* * *

لئن كنت تنمَى للجواهر نسبة ... لقد كنت تحلو بالبيان جواهرا
نماك أب بالعلم شيَّد مجده ... وخلَّد منه في الزمان المآثرا
ومدَّ من الآداب فيه سُرادقًا ... وأكثر فيه للبنينَ المفَاخرا
فلا عجبٌ أن تنظم الشعر رائعًا ... أنيقَ المعاني زاهيَ اللفظ زاهرا
وقد تبصر الماءَ الزُلال به القذى ... فتغمِض عنه بالغباء النَّواظرا

ما أوحته إليَّ قصيدتك

ألا إنني رغم انتباهيَ لم أزل ... بأكثر ما قد قلته أنت حائرا
تحدثت عن ماضٍ حديثًا مُجمْجَمًا ... كأنك فيه لم تكن لي عاذرا
وما كنتُ مختارًا كما أنت قائلٌ ... من العيش ما لولاه ما كنت شاعرا
ولا اخترت عيشًا بين بين موسَّطًا ... ولا كنت فيما أبتغيه مشاورا

ولكن هي الأقدار تجري بغير ما يريد الفتى جريًا على الأمر قاسرا
فتجعل ليثَ الغاب يتلو فُرانقًا وتترك صَقر الجو يخشى القنابرا
وكم أقدرت من كان في الناس عاجزًا كما أعجزت من كان في الناس قادرا
وما المرء إلا مجبرٌ في حياته وإن ظنَّ فيها أنه كان خائرا[1]
وُلِدنا وعِشنا ثم متنا وكلُّ ذا على غير إذْنٍ جاء بل جاء دامرا

* * *

أجل كنت من تَيْنِ الحياتين آخذًا بواحدة تأبى القسيم المغامرا
وجادلني قوم بغير دِراية ولست أبالي ذا العناد المكابرا
وأسألُ فامنُنْ بالجواب تفضُّلًا سؤالًا عن استعتابيَ الخِلَّ صادرا
أأنت الذي فضَّلت عيشًا معيَّنًا لنفسك حتى كنت فيه المُشاورا
فصرت به في القوم شاعر مجدِهم إذا قلت شعرًا جئت بالشعر ساحرا؟!
إذا كان هذا هكذا منكَ واقعًا فقد كنتَ في حسن اختيارك ماهرا
علامَ إذن تشكو وشكواك كلها كشكواي تُدمِي بالبكاء المحاجرا؟!
ومن ذا الذي قد عاش في الناس راضيًا ومن ذا الذي قد عاش في الناس شاكرا؟!
ولو كان عيش الناس وفْقَ اختيارهم لما كنتَ تلقى شاكيًا أو مخاطرا

* * *

لحَا الله دنيا كلنا من جرَائِها نخوض الرزايا راكبين الضرائرا
ونحن مدى الأيام نشكو بعيشنا فسادَ نظام يجعل الكد بائرا
نرى واحدًا يقتاد ألفًا لعيشه وينظر للألف المسخَّر ساخرا
ولو وُزِنت أعمالهم باقتداره لكان بها كينونة الصِّفر شاعرا
فما عاش في مَحْياه عيشًا مرفَّهًا مِن الناس إلَّا من تَحيَّلَ ماكرا
شقاء على كر الجديدين آخذ بأعناقنا إلا القليل المماكرا

* * *

وما الشعر بالحبل الذي قد ذكرته ولكنه بَرق تموَّج دائرا

---

[1] خائرًا: مختارًا.

فما الشعر إلا من بروقٍ دوائر | تدور أواليها لتلقى الأواخرا
إذا لمعَت فوق الطروس فإنها | تردُّ إلى التبر المذاب المحابرا
وقد برَّأ الله العوالم كلها | دوائر فيها حار من ظل فاكرا
نرى كل شيء عائدًا نحو بدئه | إذا نحن حكَّمنا النُّهى والبصائرا

* * *

إذن لم أكن في عالم الشعر مُرغمًا | لأوَّله حتى يلاقيَ آخرا
نعم كنت في تلك الأماديح شاتمًا | زمانًا يوالي كل من كان جائرا
وكنت بذاك المدح للمدح هاجيًا | وكنت بذاك الشعر للشعر حاقرا
إذا الدر أمسى كالسِّخاب مُحقَّرًا | شددت به للنابحات سواجرا[٢]
وما العار في هذا عليَّ وإنما | على مَن أضاعوا مجدَهم والمفاخرا

[٢] السِّخاب: قلادة تتَّخَذ من قَرَنْفُلٍ. السواجر: جمع ساجور، وهو القلادة التي توضع في عنق الكلب.

الثناء المخلد

ألا بلغوا عني رسالة مُنشِدِ أبا الماجدِ النجلِ النجيب محمدِ
رسالةَ من لا يُنشد الشعر مادحًا به الناس إلا شاكرًا غير مُجْتد
ألا يا ابن عيسى بنِ الهُمامِ محمد وأكرمَ من يُنمَى لأكرم مَحتدِ
سأقرِض في شكري لك الشعر خالدًا وأرسله نورًا به الناسُ تهتدي
أقيِّده بالمدح والمدح مطلقٌ وأطلق فيه الحمد غير مقيد
أرجِّع في الإنشاد أنغامَ لحْنه بصوت كصوت البلبل المتغرِّد
وأجعله شعرًا إذا ما تنوشِدت قوافيه يومًا أسكتت كل منشد
عليك به أثني ثناءً مخلدًا ومثلك أهل للثناء المخلد
وقفتَ من العلياء في [خير] موقف وشوهدت بالإحسان في خير مشهد
وجدَّدتَ مجدًا غير بالٍ وإنما بمسعاكَ زادت جِدةُ المتجدِّد

* * *

تفقَّدتَني في العيشة الضنكِ منعِمًا فيا لك في الإنعام من مُتفقد
على حينَ قد أنسى الرجالَ زمانُهم ذويهم ومن يختصُّهم بالتودُّد
ومدَّ أحابيلَ القطيعة بينهم وأقعدهم للشرِّ في كل مرصد
وأغلى غلاء في المعيشة فاحشًا يروح به ذو الاحتكار ويغتدي

الرصافي يقرِّظ كتابًا للزهاوي

هذا كتابٌ فيه يتَّضح الهدى | علنًا فتسطع للعقول حقائق
يا ظلمة الشبهات والكذب انجلي | فلقد بدا للحق «فجر صادق»

الأفول المشرق

أيـهـا الأنـجـم الـتـي قـد رأيـنـا عِـبَـرًا فـي أفـولـهـا كـالـشـمـوسِ
إن هـذا الأفـول كـان شـروقًـا فـي ديـاجـيـرِ طـالـعٍ مـنـحـوس
وسـيـأتـي مـنـه الـزمـان بـسـعـد تنجلي منه داجياتُ النُّحوس
شـنـقـوكـم لـيـلًا عـلـى غـيـر مـهـلٍ ثم دسوا جسومكم في الرموس
أفكانوا في ظلمة الليل تَجْرًا هرَّبوا المال من جباة المكوس؟
هـكـذا الـخـائـف الـمـريـب يـواري فـعـلـة الـسـوء مـنـه بـالـتـفـلـيـس
شـنـقـوكـم لأنـكـم قـد أبـيـتـم أن تكونوا في ربقة الإنكليس
فـاسـتـحـقـوا الـلـعـن الـذي كـررتـه خـالـيـات الـقـرون فـي إبـلـيـس
سـيـديـم الـزمـان لـعـنًـا عـلـيـهـم شائع الذكر في بطون الطروس

* * *

أيُّـهـا الأنـجـم الـتـي تـركـتـنـا في أسًى من مصابها محسوس
في سبيل الأوطان متُّم ففزتم بـأجـلِّ الـتـمـجـيـد والـتـقـديـس
وستبقى الذكرى لكم ذات رمز هو تعظيمكم بخفض الرءوس
وسيجري احترامكم في مجاري شـرف خـالـد لـكـم قـدمـوس
إن يـومًـا بـه نـعـيـتـم إلـيـنـا يوم بؤس كحرب يوم البسوس
قد حكاها طولًا وشؤمًا وبغيًا وتـلَـظَّـى بِـحَـرِّ نـارِ الـمـجـوس
فيه أبدت منا الوجوه كلوحًا فـي شـحـوب وغـبـرة وعـبـوس
إذ سكنًّا وفي القلوب ارتجاج مـثـل تـيـار لـجـة الـقـامـوس

وأطـلـنـا عـن الـكـلام سـكـوتًـا معربًا عن نشيجنا المهموس
ووجـمـنـا حـزنًـا وربَّ وجـومٍ يتأتى من صاخبات النفوس
بـرأت ذمـة الـمـروءة مـنـا إن نُسي يوم شنقكم أو تُنُوسي

وقال هذه الأبيات مترجمًا

فـيـك يـا أغـلـوطـة الـفـكـر　　حار فكري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما　　ربـحـت إلا أذى الـسـفـر
رجعت حسرى وما وقعت　　لا عـلـى عـيـن ولا أثـر

* * *

يا واحد الذات كثير السعي　　ومن تجلى ظاهرًا واحتجب
أنت لدى الفرس تسمى خذا　　أنت تسمى الله عند العرب

* * *

أول أنـت ولـكـن أول　　ما له في سانح الفكر ابتداء
آخـر أنـت ولـكـن آخـر　　ما له في راجح الحجر انتهاء

إلى طه الراوي

بأيٍّ سلام أم بأي تحية إليك أزين اليوم بدءَ خطابي
فإنك أهل للتحيات كلها وما أنا فيما أدَّعي بمُحابِ

إلى البطل عبد الكريم الريفي

أعبد الكريم وأنت البطل — وفيك الرجاء وفيك الأمل
لئن قرَّ سيفك في غمده — فما ذاك من خورٍ أو ملل
ولكنما دهرنا قُلَّبٌ — وأيامه من قديم دُول
تهزُّ البطولة أعطافها — إذا ما جعلناك فيها المثل
سيخلد ذكرك في الناهضين — وتثني عليك الظُّبا والأسل

بداعة لا خلاعة

مثلت في دلالها عريانَهْ فأرتْني محاسنًا فتانه
حيث طارحتها الغرام ببيتٍ بالمرايا قد زوَّقوا جدرانه
فكأني وقد نظرت لمعرا ها من النور مبصر أسطوانه
وتجلى خيالُها في المرايا حاكيًا من جمالها أعيانه
فتأملت في تقاطيع جسم جعل الحسن كله عنوانه
ظلْتُ أرنو إلى الجمال بعينٍ تشتهيه وتتقي هجرانه
فَأُريها من الغرام فنونًا وتريني من حسنها أفنانه
ثم أسلمت للمليحة قلبًا أوجب الحسن بالهوى إيمانه
وتقحَّمت موهج الحب حتى أصبح القلب صاليًا معمعانه

* * *

هاك من وصفها وإن شئت فاعذر أو فَلُمْ مُملك الغرام عنانه
هي غمَّازة اللحاظ لعوبٌ ذات دَلٍّ ظريفة لحَّانه
بضة نعمة لميس رداحٌ غادة أحورية بهنانه
ناهد النودلين محطوطة المتـ ـنين خود رجراجة وركانه
خدْلةٌ ساقها مهفهفة الخصـ ـر كعاب براقة سيفانه
ذات وجه كأنه بدر تمٍّ وقوام كأنه خوط بانه
لو رآها كسرى الملوك لخلَّى ملكه تاركًا لها إيوانه
عقصت شعرها وقد زينته بحلَى من نقارس مزدانه

فحكى شعرها على الرأس تاجًا   وحكت في جلالها خاقانه
وتدلى قرط بسالفتيها   رصِّعت فيه ماسة بجمانه
فحكى قرطها بقرب المحيا   زهرة الجو قارنت زبرقانه
وأظلَّت جبينها وهو صبح   طرة غيهبية فينانه
فكأن الجبين باقة نسريـ   ـنٍ تدلت من فوقها ريحانه

* * *

وقفت لي عريانة فتقدَّمـ   ـت إليها بذلةٍ واستكانه
فتمشَّت تخلُّعًا وتثنَّت   وتلوَّت كأنها خيزرانه
ثم صدَّت فأدبرت عن دلال   ثم عادت فأقبلت عن مجانه
ولقد راعني وزاد فؤادي   وَلَهًا ما رأيت تحت المثانه
ركبًا كعثبًا عضوضًا مصوصًا   ناشزًا ذا بضاضة ورزانه
مشرف السطح رابئًا ذا انتصاب   حامي الجوب ضنكه، ريانه
قد حكى كومةً من اللؤلؤ الرطـ   ـب وإن كان فائقًا أثمانه
نعمة العيش أترفته وأخلت   أسكتَيْهِ من الأذى وعِجانه
عَطِر الريح قد تشممت منه   إذ تشمَّمتُه شذا أقحوانه
وشربت الرحيق وهو تجاهي   جاثم فاتخذته فنجانه
لو رآه العِنِّين يومًا لأمسى   مبرءًا من رخاوةٍ وعنانه

* * *

شغفتني تلك المليحة حتى   علمتني بكر الهوى وعوانه
سلست في انقيادها بعد أن قد   أظهرت لي تمنعًا وحصانه
فدعتني إلى الكفاح بغمز   كررته من عينها الوسنانه
وغدت في تجضم واعتلاج   بشفاه وردية غيسانه
واضعًا فايَ [فوق] فيها وكلٌّ   قد أمصَّ الضجيعَ منه لسانه
فغدت في ارتهازها تتلكَّا   بكلام لا تستتم بيانه
ثم قالت وقد ذوت مقلتاها   وشكت من فؤادها خفقانه
أطعن الطاعنين للضأد، من بالضـ   ـاد قد أنطق الإله لسانَهْ

في دار النقيب

أما وقد طلع الرجا ء يشع أنوار السرور
في دار مولانا النقيـ ـب بوجه مولانا الأمير
فاذهب لشأنك أيها الـ ـيأس المخيم في الصدور

* * *

ماذا يريد المرجفو ن بكل بهتان وزور
من بعد ما بدت المنى للقوم باسمة الثغور
في دار مولانا النقيـ ـب بوجه مولانا الأمير؟

* * *

ماذا يخاف القوم من ميل الزعانف للنفور؟
بعد اقتران النيِّرَيـ ـن الساطعين بكل نور
في دار مولانا النقيـ ـب ووجه مولانا الأمير

* * *

مد النقيب إلى الأميـ ـر يد المعاضد والنصير
فَلْيَخْزَ كل مشاغب في القوم يلهج بالشرور
وليحي مولانا النقيب حياة مولانا الأمير

الحق المغتصب

مما كتبه إلى العلامة عبد الوهاب النائب بعد عودته إلى النيابة بالمحكمة الشرعية:

قد أُخذ الحق من الغاصب　　وعاد ممنوحًا إلى النائب
عالم بغداد وإنسانها　　والمنهل العذب إلى الشارب
تختلف الناس إلى فضله　　من ذاهب منهم ومن آيب
في علمه ووعظه تهتدي　　وتقتدي في رأيه الثاقب
والبِشْرُ قد لاحت أساريره　　بجبهة المطلوب والطالب
ودار شرع الله مزدانة　　في جانب تزهو إلى جانب
بعد ظلام دامس أرخوا　　أشرق شرع الله بالنائب

١٣٢٥هـ

تحت تصوير النائب

مذ غاب عنا في المنية شخصه فانظر إلى تصويره من غائب
تلقى المعاني المعربات عن العلا في صورة لأبي الحسين النائب

إلى عبد الكريم العلَّاف

ومحبٍّ ذي أدبٍ أتى مستنشدًا　　　شـعـرًا أنـوِّه فـيـه بـالـعـلَّافِ
فأجبته عبد الكريم محلق　　　من شـعـره بـقـوادم وخـوافـي
فلكم سمعت له قوافيَ جمة　　　كانت لعمر الله خير قوافي

الحريقيات

وقفة عند شراغان[1]

للرصافي عدة قصائد قالها في وصف ما شاهد في الآستانة من الحريق الذي يكثر وقوعه في تلك المدينة، فرأينا أن نثبت تلك القصائد هنا على حدة تحت عنوان الحريقيات، فمنها القصيدة الآتية:

أصبحتُ أعذِل نوابًا وأعيانا ... عَذْلًا كنارٍ تلظَّت في «شراغانا»

قصر أطلَّ على البسفور مرتفعًا ... إليه يشخَص طَرفُ العقل حيرانا

ذو زخرفٍ يُبْهِجُ العينَ التي نظرت ... حتى تراه لها نورًا وإنسانا

رَاقت مبانيه إتقانًا وهندسة ... مستوقفًا صُنعها من مَرَّ عجلانا

كلُّ القصور عَبيد وهو سيِّدها ... إذ كان أكرمها صنعًا وبنيانا

يمشي المهندسُ فيه وهو ينظرُه ... مشيَ المقيدِ يستقصيه إمعانا

يضمُّ كفَّيه للإبطين منبهِرًا ... مقلبًا في الأعالي منه أجفانا

عرش به تعرف الناس الجلالة إذ ... لاح الجمال على مبناه ألوانا

لو كان عرشًا لبلقيس لما خضعت ... للأمر حين أتاها من سليمانا

[1] «شراغان»: قصر ملوكي على ضفة البسفور في الآستانة، بناه السلطان عبد العزيز، وهو أعظم القصور فخامة في الآستانة، وأدقها صنعة وأبهجها منظرًا، ولما أعلن الدستور العثماني اتخذ مجلسًا للنواب، وكان ذلك بسعي من أحمد رضا رئيس مجلس النواب، فشب به حريق، وكان الرصافي في الآستانة، فقال هذه القصيدة.

فيه الحوادث أمست وهي ناطقة · بألسن دَلَعتها فيه نيرانا[٢]
فلو رأيتَ وقد شبَّ الحريق به · والريح تصْفِق للنيران أردانا
رأيت ملكًا كبيرًا ثَمَّ محترقًا · يذيب منه لهيبُ النار عِقْيانا[٣]
طالتْ به ألسُنُ للنار تلحسُه · لحسًا يدُكُّ قوَى البنيان إيهانا[٤]

* * *

يا دُرَّةً في ضفاف البحر ضيَّعها · قوم وكان بها البسفور مزدانا
كم قد أضاءت بوجه البحر مشرقة · ورصَّعت من رءُوس الهضب تيجانا
يا أيها القصرُ مذ أمسيتَ محترقًا · أبكيتَ في البحر أسمَاكًا وحيتانا
لم يُبقِ منك لهيبُ النار باقيةً · ولا لدي القوم أبقى عنك سُلوانا
مَعاوِلٌ من شُواظ النار هادمة · يا للعجائب كالأطواد جدرانا
قمنا أمامك والنيران صائلةٌ · تدكُّ منك على الأركان أركانا
كم هدَّةٍ لك بين النار تفزِعنا · حتى نخالك منها صرت بركانا
يهتزُّ فيك لهيبٌ، حين نبصره · نهتزُ بالحزن أرواحًا وأبدانا
فأنت تملأ صدر الجوِّ أدخنةً · ونحن نملأ صدر الأرض أحزانا
ما أشرف القومَ لو كانت مدامعهم · مطافئًا لك تجري الدمع غُدرانا!
ويلٌ لِمُرْتَئِسٍ قد قام مجتهدًا · يسعى بجعلك للنواب ديوانا
حق إذا كنتَ للنوَّاب مجتمعًا · بانت عواقبُ ذاك السعي خسرانا
للنَّارِ فيك حسيسٌ كنت أحسبُه · ضِحْكًا على من بسوء الرأي أبكانا
أشكو إلى الله قلبًا لا يطاوعني · ألا أكون على الأوطان غَيرانا
يا قومِ إنَّ بصدر الشعر موجِدة · لا يستطيع لها سترًا وكتمانا
ما بال نوابنا أمسوا نوائِبنا · إذ لا يبالون مكروهًا تغشَّانا؟!
أما كفى أنهم لم يعملوا عملًا · حتى أرادوا اجتماعًا في شراغانا!
هم يطلبون قصورًا يَنعمون بها · ونحن نطلب للأوطان عمرانا

[٢] أي أن الحوادث قد نطقت في هذا بألسن النيران.

[٣] العقيان: الذهب الخالص.

[٤] إيهانًا: أي إضعافًا.

ليس الجلوس ببهو القصر مفخرة لمن هم اليوم أشقى الناس أوطانا
قد ضيَّعوا الحزم حتى إنهم ندموا على الذي كان منهم بعدما كانا
يعيش ذو الحزم مسرورًا ومغتبطًا وتارك الحزم لا ينفك ندمانا
وأحزم الناس مَنْ إن نام بات له طرفٌ على حدثان الدهر يقظانا
أين الطريق إلى العلياء نسلكها؟ فإننا لم نزل يا قوم عميانا
لا الشعبُ يخلع أثوابَ الخمول ولا نوابه يلبسون الصدق قمصانا
الناس تسعى لدينا نحن نهملها ما أسعد الناس في الدنيا وأشقانا!

أم الطفل في مشهد الحريق[1]

مـا لـلـديـارِ تـراءَى وَهْـيَ أطـلالُ ... هل خَفَّ بالقوم عنها اليوم ترحالُ؟!
كانت بها السَّمُراتُ الخضر زاهية ... والـيـوم لا سَـمـر فـيـهـا ولا ضـال[2]
ما بالها وهي أنقاضٌ مبعثرة ... تـغـبـر فـيـهـن أبـكـار وآصـال؟
هل هدَّ بنيانها من فوق صاعقةٌ ... أو هدَّ بنيانها من تحتُ زلزالُ؟!
بل قد عفتها ولم تترك بها أثرًا ... ريحٌ لها من لهيب النار أذيال
شبَّ الحريق بها ليلًا مشيدة ... فما أتى الصبح إلا وهي أطلال
أثارت النار في أطرافها رهَجًا ... من الدخان كأنَّ النار أبطال[3]
حتى حكَت معْرَكًا خرَّت بساحته ... صـرعـى، بـيـوت وأمـوال وآمـال
دار السعادة أمست من تحرُّقها ... دار الشقاءِ وقد ضاقت بها الحال

[1] هذه القصيدة قيلت في حريق شب في حارة الفاتح من مدينة إسطنبول، وهو حريق هائل اجتاح عدة حارات، فتركها قاعًا صفصفًا.

[2] السمرات: جمع سمرة بفتح فضم، واحدة السمر: وهو شجر من العضاه. والضال: شجر من الدر، والمراد به هنا مطلق الشجر.

[3] الرهج: غبار الحرب.

ترنو إلى البحر ترجو نَقْع غُلَّتها ... لحظَ المهجَّر إذ يبدو له الآل[٤]
تُهال كالرمل بالنيران أدوُرها ... حتى تكاد لها الأرواح تَنْهال
يا ريحُ مهلًا فلا تذري الرماد بها ... إن الرماد الذي تذرين أموال

* * *

قد رحتُ للحَيِّ مذعورًا أُيَمِّمُهُ ... ولي عن الزُّمر الباكين تَسآل
وفي العِراص ديارُ القوم خاويةٌ ... وفي الشوارع نِسوان وأطفال[٥]
جلسن والشمس فوق الرأس دانية ... وللغبار بعُرْضِ الحيِّ تجوال
ولا خِمار فيرددن الغبار به ... ولا يقيهنَّ حرَّ الشمس سِربال
حتى وقفتُ وقلبي كلُّه جزعٌ ... وأدمعي لجَجٌ طورًا وأوشال[٦]

* * *

ما أنسَ لا أنسَ أمَّ الطفل قائلةً ... وفوق وجنتها للدمع تهطال:
إني تجرَّدت من دنيايَ حاسرةً ... ما لي سوى طفليَ الباكي بها مال
أي امرئٍ بعد هذا اليوم ذي جِدَة ... يعولني حيث لا زوج ولا آل[٧]
أودى الحريق بدارٍ كنت أسكنها ... وكنت من بعضها للقوت أكتال[٨]
واليوم أصبحت لا دارٌ ولا وَزرٌ ... آوي إليه ولا عمٌّ ولا خال
إن الحريقَ خبت نيرانه ومضت ... وما خبَتْ في فؤادي منه أوجالُ
يا ربِّ رُحماك إني اليوم عاجزةٌ ... عما دَهى وبظهري منه أثقال
يا ربِّ قد ضقت ذرعًا بالحياةِ فما ... أدري، حنانيك ربي! كيف أحتال؟!
وعندما قد شجاني من مقالتها ... لفظ يقطِّعه في البين إعوال

---

[٤] المهجر: الذي يسير في الهاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة، وتكون شديدة الحر. والآل: السراب.

[٥] العراص: جمع عرصة وهي ساحة الدار، أو كل بقعة ليس فيها بناء.

[٦] الأوشال: جمع وشل، وهو الماء القليل.

[٧] ذي جدة: ذي غنى. الآل: هنا بمعنى الأهل.

[٨] أي: ذهب الحريق بدار كنت أسكن في بعضها، وأكري الناس بعضها الآخر، فأكتال بكرائها قوتي.

دنوت منها قليلًا وهْيَ باكيةٌ ... ومن بكاها بقلبي هاج بلْبال
حتى وقفت وإيناسًا لوحشتها ... حنيتُ رأسي وحَنْي الرأس إجلال
وقلت: يا أختُ لا تستيئسي جزعًا ... فإنما الدهر إدبار وإقبال
أتجزعين ابتئاسًا بين أظهرنا ... وكلُّنا عنك للبأساء حمَّال
ما لي أراكِ بعين اليأس باكيةً ... كأنَّ أمرك عند القوم إهمالُ
ألستِ من أمَّةٍ أيدي الرجال بها ... قد فُكَّ عنهنَّ بالدستور أغلال؟!
حتى لقد أصبحوا أبناء واحدةٍ ... في المُرْزِئاتِ وهم في الحكم أشكال[9]
مستعصمين بحبلٍ من أخوَّتهم ... يسمو بهم للعلا فضل وإفضال
أمسى التعاضد كالحصن الحصين له ... إذا تصادَمَ بالأهوال أهوال
فاستبشري اليوم فيما مسَّ من ظمأٍ ... بأنَّ وردك عند القوم سَلسال
وإن حقك عَول في مساكنهم ... وما هُمُ بأداء الحقِّ بُخَّالُ

* * *

تلك التي قد شجتني في مقالتِها ... وكم لها في نساءِ الحيِّ أمثال
فهل يُصدِّق قومي ما ظننت بهم ... حتى تقومَ لهم في المجد أفعال؟
فالمجد يدرك مرماه البعيدَ فتىً ... رحبُ الذراعين طلق الكف مفضال
وأكثر المال حمدًا ما يعان به ... مَن عضَّهم من نيوب الدهر إقلال
يا قوم هذي سبيل العُرفِ واضحةٌ ... فليمْضِ فيها بكم وخْدٌ وإرقال[10]
ومن تكُ الحال فيها لا تساعده ... «فليُسعد النطقُ إن لم تسعِدِ الحالُ»[11]

[9] وهم في الحكم أشكال: أي متشاكلون متساوون.

[10] الوخد والإرقال: كل منهما ضرب من ضروب مشي الإبل.

[11] هذا عجز بيت للمتنبي قاله مادحًا، وصدره: «لا خَيْلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ».

ثالثة الأثافي

قالها في الحريق الكبير الذي حدث في حارة إسحاق باشا من مدينة إسطنبول، وكان ثالث حريق كبير حدث هناك في العهد الأخير.

قعدَت بقارعةِ الطريق تنوحُ	والطفلُ يجذب رُدنها ويصيحُ
تبكي وقد ضحك الحريق بدارها	كالبرق يضحك في الدجى ويلوح
ضحيت وقد قلص الظلال فوجهها	للشمس في وجناته تلويح
جَرَّ الحريقُ على الدِّيار ذيولَه	فجَري لذلك دمعُها المسفوحُ
ولقد وقفتُ حيالها ومدامعي	تسخُو سوى أن العزاءَ شحيح
فغدا يُلقِّنني الأسى من عينها	لحظ برَقراقِ الدموع سَبوح
يا أيِّمًا أجرى الغداةَ دموعَها	بيت بجائحة الحريق مَجوح[1]
لا تهلكي جَزَعًا فإنَّ بيوتنا	ما للمُلِمِّ بأهلِها تسريحُ
أعليكِ أنت تضيق كل ديارنا	هذي وأكثرها ديار فيح؟![2]
فاقني عزاءَك فالحياةُ وإن أرت	بعض السرور فكلها تتريح[3]

[1] الأيم: المرأة التي فقدت زوجها. والجائحة: النازلة العظيمة التي تجتاح المال؛ أي تستأصله. ومجوح: أي مستأصل، وهو صفة لبيت، والمراد أنها أبكاها اجتياح الحريق بيتها.

[2] فيح: جمع فيحاء؛ أي واسعة.

[3] قنى: حفظ وادخر. والتتريح: الأحزان.

قف بالديار فقد أناخ بها البِلى وانظر فقد قرعت بهنَّ السوحُ[٤]
نزل الحريق بها فشتَّت شملها فغدت عِراصًا وهي قبلُ صُروح
بكرَ الشواظ بها يُنَضْنِضُ ألسنًا من هول مطلعها تذوب الروح[٥]
نشر اللَّهيب على البيوت ملاءةً حمراءَ تصفِق جانبيها الريح
فتعبَّسَتْ منه السماء وأمطرت نارًا وقد أخذ اللهيب يسيح
وعلا الدخانُ على البيوت سحائبًا برق المهالكِ بينهن لمُوح
أما الشرار فكان وبلًا مُنبتًا نُوَبًا برائحةِ الدمار تفوح
والشمس قد كُسِفت بِجَونِ دخانِهِ وبدت عليها سَفعة وكُلوح[٦]

* * *

يا قومُ ساء مصيرُكم فإلى متى لا تسمعون لما يقول نصيح
هَلَّا أخذتم للخطوب عَتادَها كي لا يكونَ لها بكم تبريح؟!
هذا الحريق وكل يوم ناره تغدو عليكم تارةً وتروح
فالنَّار ما برحت تفوهُ بألسنٍ ذُربٍ وإن كلامها لفصيح
لِمَ لم تعوا ما قلن قبلُ مكررًا أوَما كفاكم ذلك التصريح؟!
نِمتم إلى نُوب الزمان فإن أتت قمتم كما يتململ المذبوح
وأهمكم أدنى الأمور وفاتكم نظر إلى الأمر القصيِّ طموح
كم في الحوادث من نذير قد أتى فيكم بأسرار الزمان يبوح!
أما الحريقان اللذان تقدما فكلاهما شِق لكم وسطيح[٧]
قد أنذراكم بالخراب وأنبأا أن التراخيَ في الأمور قبيح

---

[٤] السوح: جمع الساحة، وقرعت السوح: أي خلت من الغاشية.

[٥] بكر الشواظ: أي أتى بكرة، والشواظ لهب النار الذي لا دخان فيه. وينضنض ألسنًا: يحركها، والمراد بألسن الشواظ: ما يمتد في شكل اللسان.

[٦] بجون دخانه: أي بدخانه الأسود. وقوله سفعة: أي لون أسود مشرب بحمرة. وكلوح: أي عبوس واكفهرار.

[٧] شق بدون أل: علم لكاهن من كهان العرب، كان في أيام سطيح، وسطيح: لقب كاهن اليمن المشهور، واسمه ربيع الذئبي.

عَجبي إلى تلك المصائب كيف قد نُسيت ولم تبرأ لهن جروح؟!
سُرعان ما تنسون عُظمَ مصابكم ولوَ انَّ شُقة منتهاه طَروح[٨]
لا تستنيموا للزمان فأخذه خلس وقوس الحادثات ضروح[٩]

[٨] شقة منتهاه: أي مسافة منتهاه. وطروح: بعيدة.

[٩] قوس ضروح: أي شديدة الدفع والحفز للسهم.

الجزء الثاني

المراثي

وا صديقاه!

قالها وهو في الآستانة، عندما بلغه منعى صديقه الشيخ محي الدين الخياط في بيروت.

تفكَّرت في كنه الحياة فلم أكن   لأزدادَ إلا حَيرة في تفكُّري
وكم بتُّ فيها أخبِط الليل راميًا   إليها بلحظِ الطارق المتنور
فلا أهتدي من أمرها لمقدَّم   ولا أنتهي من أمرها لمؤخر
على أنني مهما تقدمت نحوها   رجعت رجوع الناكص المتقهقر
وهبْها كما قد قيل أحلام نائم   أما في بني الدنيا لها من معبِّرِ
تأملت آثارَ الحياة فلم يَلُح   لعينيَّ منها وجه ذاك المؤثر
سوى أنني آنستُ شعلةَ قابسٍ   توقد في مُستنٍّ هَوْجاءَ صرصر[1]
فبينا سناها يُبهج العين لامعًا   أتتْهُ كقِطْع الليل هَموةَ معُصرِ[2]
فما هي إلا خَبوةٌ ترتمي بها   إلى ظلماتٍ صُبْحُها غيرُ مُسفر
كذلك محي الدين إذ غاله الردى   فأطفا منه نيِّرًا أي نيِّر!
عليكِ العفا بيروتُ هل لك بعدما   قضى فيك محي الدين من متصبِّر؟!
فتى كانَ ركنًا فيك للعلم والحِجا   وغُرِّ القوافي والكلام المحبر

---

[1] القابس: طالب النار. والمستن: الطريق الواضح. والهوجاء: الريح العاصفة. والصرصر: الشديد البرد أو الشديد الهبوب.

[2] الهموة: الغبار تثيره في الجو. والمعصر: الريح ذات الأعاصير.

فقدنا به صَلْتَ الجبين مهذبًا كريم سجايا النفس عَفَّ المؤزَّر
لقد عاش شيخًا في العلوم مقدَّمًا فما ضرَّه أن مات غيرَ معمَّرِ
وما مات من أبقى له طيِّبَ الثنا لدى الناس من بادٍ ومن متحضر
نعاه ليَ الناعي فكان كأنه لدى نعيه أهوى إليَّ بخنجر
ولو لم يكن شدِّي الحيازيمَ دونه خَرَرتُ كما خرَّ الصريع لِمنخر[3]
خليليَّ عوجا بي على قبر ماجد ببيروت يحوي كل فضل ومفخر
قفا نحتقر دمعَ العيون تجلَّة لمن فيه من ذاك الجليل الموقر
ونندبُ في مَلحوده المجد والعُلا ونسقيه غيث الدمع من كل محجر[4]
عسانا بذا نقضي له بعض حقه وإن حلَّ أن يُقضى بدمعٍ محقَّر

[3] الحيازيم: جمع حيزوم، وهو وسط الصدر.

[4] الملحود: المدفون؛ أي الميت. ومحجر العين: العظم الدائر بها.

في الملكوت الأعلى

قالها وهو في الآستانة يرثي بها محمود شوكت باشا الصدر الأعظم، الذي قتله أناس من حزب المخالفين.

لقد بتُّ مطروف النواظرِ بالسُّهد | تقبلني فوق الفراش يدُ الوجدِ
تساورني رَقشاء من لاعبي الجوى | ويقدح في قلبي الأسى واريَ الزند
فأرقبُ تغويرَ النجوم بمقلةٍ | ترَقرقُ فيها الدمع منفرطَ العقد
أقول، وفرعُ الليل أسحم والأسى | يدبُّ دبيب السم في العظم والجلد:[1]
متى يُسفر الصبح الذي أنا راقبٌ | أليس قميص الليل عنه بمنقَدِّ؟!
إلى أن رأيت الفجر قد لاح خيطه | كما أسلت السيف الجراز من الغمدِ[2]
فما أنا إلا غفوة فخيالة | لدى العالم العلوي في ربوة الخلد

* * *

رأيت كأني قمت حول سُرادقٍ | من النور مرفوع الدعائم ممتدِّ
أقاموا لواء الحمد فوق عماده | وَخطُّوا على حافاته سورة الرعدِ
وقد أشرقت ملء السموات حوله | قناديل خُضْرٌ تستنير بلا وقد
وقد لاح لي محمود شوكت جالسًا | به فوق كرسيِّ الجلالة والمجد

[1] الفرع: الشعر. والأسحم: الأسود.

[2] الجراز: السيف القطاع.

وفـي يـده سـيـفٌ أجـيـدَ صـقـالـه على أنه من صنعة الله لا الهند
وفـي الـرأس تـاج بـالـثـنـاء مـرصَّـع فُوَيْق جبين مشرق بسنا الحمد
وقـد جـلَّـلـتـه بـردة سـنـدسـيَّـة ومن تحتها درع إلـهـيَّـة السرْد
وبـيـن يـديـه زُهْـرَة مـن مـلائِـكٍ مـجـنَّـحـة الأيـدي غُـرانـقـةٍ مُـرد[٣]
تـهـنـئـه بـالـفـوز طـورًا وتـارة تحييه بالغضِّ الطريِّ من الورد
وقد قام من حول السرادق موكب عظيم به اصطفت ألوف من الجند

* * *

فـلـمـا رآنـي واقـفًـا بـحـيـالـه وقد كنت بين الجند معتزلًا وحدي
أشار أن اقْربْ يا رُصافيُّ ما لنا نراك وحيدًا قد وقفت على بُعد؟!
فجئت وجسمي قد تغشَّته رَجفة كما يرجف المَقرور من شدة البرد
فـقـمـت لـديـه وانـحـنـيـت أمـامـه فقبلت بالتعظيم حاشية البُرد
فـقـال: لـقـد آنـسـتَ إذ جـئـتَ إنـنـا عـهـدنـاك فـي زُوَّارنـا مـخـلـص الـوُدِّ
ولا تـرتـجـف هـوِّنْ عـلـيـك فـإنـمـا نزلت قرين الأمن في منزل السعد
فـأبـلـغ تـحـيـاتـي إلـى الـوطـن الـذي سـعـيـتُ إلـى إعلائه بـاذلًا جـهـدي
وقـل لـبـنـيـه: إنـنـي لـسـت حـاقـدًا عليهم فمثلي لا يميل إلى الحقد
وإنـيَ لـمَّـا أن تـمـثـلـتُ قـائـمًـا بديوان ذي العرش الذي جل عن ند
طلبت لهم عفوًا من الله سابغًا وقلت له: يا ربِّ لا تخزهم بعدي
ويـا ربِّ إنـي قـد قـصـدتُ نـجـاحـهـم فحقق لهم يا رب ما كان من قصدي
وإنـي لأرجـو مـنـك مَـرحـمـةً لـهـم وإن قتلوني ظالمين على عَمْد
فـإنـي أرى مـوتـي بـخـدمـة أمَّـتـي حياة به طعم الشهادة كالشهد
ألا فـاهـدهـم يـا رب لـلـمـجـد والـعُـلا فما من مُضلٍّ في الأنام لمن تهدي
وقـال: أتـدري مـن هُـمُ الـجـنـد؟ إنـهـم من استشهدوا في حرب أعدائنا اللُّدِّ
ألـم تـرهـم دامـيـن حـتـى كـأنـمـا تـسـربـل كـلٌّ لـبـدَةَ الأسـد الـوَرد؟[٤]

[٣] الغرانقة: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل.

[٤] الورد: الأحمر من الأسود.

فسوف بحول الله أرأب صدعهم ... وأغزو العدا فيهم على الضُّمُر الجردِ[٥]
وأذَّنَ في الحيِّ المؤذِّن غُدوةً ... فأيقظني التكبيرُ من سِنَةِ الرقد
فقمتُ وبي من خشية الله رعدة ... وأحسست من رؤياي بَردًا على كِبدي
وأصبحت لم أملك بوادرَ عَبرةٍ ... تخطُّ سطور الدمع في صفحة الخدِّ
سأبكي وأستبكي الجيوش على فتًى ... فقدناه فقدَ الغيث في الزَّمن الصَّلد[٦]
فتًى كان في أفْق الوزارة كوكبًا ... به في دجى الخطب الخلافةُ تستهدي
وقد كان في وجه الخطوب تبسُّمًا ... إذا عبست يومًا بأوجُهها الرُّبدِ[٧]
وما مات محمودُ الخصال وإنما ... تنقل من هذا الفناء إلى الخُلد
لئن غُيِّبتْ عنَّا مَرائيه في الثرى ... فما غُيِّبت عنا معاليه في اللَّحد
وما هو إلا السَّيف قد كان مُصْلَتًا ... على الدهر وهو اليوم قد قرَّ في الغمد
سيبقى له الذكر الجميل مُؤَبدًا ... تمرُّ به الأيام حالية الأيدي

[٥] رأب الصدع: أصلحه. والضمر: الخيل اللطيفة الجسم الهضيمة البطن. والجرد: القليلة الشعر.
[٦] الصلد: الصلب الأملس، أو الأرض التي لا تنبت شيئًا، ويعني به الزمن الشديد.
[٧] الربد: جمع أربد، وهو المغبر اللون.

وا محمداه!

قيلت في رثاء محمد فوزي باشا العظم وكان موته فجأة.

أيُّ خَطبٍ دهى رُبوعَ الشامِ ... يوم أمست تبكي بطرْفٍ دَامِ
وبأيِّ الأسَى رمَتها الليالي ... فاكتست للحداد ثوبَ ظلام
إن تكن أفجعتْ بشهم بني العَظـ ... ـم فأعظِم بخطْبِها المترامي!
ذلك الماجدُ الذي أدركَ المجـ ... ـد بأيدٍ إلى العلاء سَوام
سَلْ دمشقًا تجبك عن شِيَمٍ فيـ ... ـه تعالت عن أن تزَنَّ بذام[1]
قد بكته شجوًا بسبع عيونٍ ... في رباها تجود بالتَّسجام
ورَثته بألسُن من معاليـ ... ـهِ حداد تفُلُّ حَدَّ الحسام
فقدت من محمد خيرَ نَدْبٍ ... ذائد عن حياضها ومُحام[2]
وغدت تشتكي إلى برَدَاها ... من أحَرِّ الأسى أحرَّ الأوام[3]
لهفَ نفسي عليه ساعة أودى ... من كريم غَمْرِ الرداء هُمام
إن قلبي قد استطير بمنعاهُ ... اختطافًا بمنسر الآلام
فكأن الناعي لدى النعي أهوى ... نحو قلبي بمُرهَفٍ صمصام

[1] تزنُّ بشيء: تتهم به. والذام: العيب.

[2] الندب: السريع إلى الفضائل.

[3] الأوام: العطش.

قد فقدنا منه خلائق تحكي ... زَهَر الروض غِبَّ صَوب الغمامِ[٤]

يا أبا خالدٍ وما هذه الدنـ ... ـيا بدارٍ معدَّة لمُقام

إن تكن هالكًا فكم لك ذكر ... في العُلاً خالد مدى الأيام

خطفتْ عمرك المنون اختلاسًا ... كاختلاس المنى يدُ الأوهام

فكأنَّ المنونَ خافت على تلـ ... ـك المعالي ذبولها بالسقام

فلذا أحرزتك غضًّا طريًّا ... وكذاكم يكون موت الكرام

فسقى الله تربةً أنت فيها ... ثوبَ وطفاءَ من غَوادٍ هَوام[٥]

---

[٤] غب: بعد وإثر. والصوب: المطر.

[٥] الوطفاء: السحابة المسترخية لكثرة مائها. والغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. والهوامي: جمع هامية، وهي الممطرة.

وا شيخاه!

أزمعتَ عنَّا إلى مولاك تَرحالا — لما رأيتَ مُناخَ القوم أوحالا
رأيتنا في ظلامٍ ليس يعقبُه — صبحٌ فشمَّرت للترحال أذيالا
كرهتَ طول مُقامٍ بين أظهرنا — بحيث تبصرنا للحق خُذالا
ولم ترُقْ نفسك الدنيا ونحن بها — لسنا نؤكد بالأفعال أقوالا
وكيف تحلو لذي علم إقامته — في معشر صحبوا الأيام جهالا؟!
لذاك كنت اعتزلتَ القوم منفردًا — حتى أقاربَك الأدْنَين والآلا
وما ركنتَ إلى الدنيا وزُخرفِها — ولا أردت بها جاهًا ولا مالا
لكن سلكت طريقَ العلم مجتهدًا — تهدي به من جميع الناس ضُلَّالا
«محمودَ شكري» فقدنا منك حَبْرَ هُدًى — للمشكلاتِ بحسن الرأي حلَّالا
قد كنتَ للعلم في أوطاننا جبلًا — إذا تقسَّم فيها كان أجبالا
وبحرَ علم إذا جاشت غَواربُه — تقاذفَ الدرُّ في لُجَّيه مُنهالا
يا من بشوَّال قد شالت نعامته — نغصت بالحزن شهر العيد شوالا[1]
أعْظم برزئك في الأيام من حدَثٍ — هزَّت عليَّ به الأيام عسَّالا[2]
أمست لروعته الأبصار شاخصة — أما القلوبُ فقد أجفلن إجفالا

[1] شالت نعامته: مات.

[2] العسال: الرمح المهتز لينًا.

طاشت حصاةُ العلا لمَّا نُعيت لها ... وكل ميزان علم بالأسى شالا
إذا نعيُّك وافى «مصر» منتشرًا ... جئنا «أبو الهول» يشكو منه أهوالا
وإن أتى البيت «بيت الله» رُجَّ به ... وأوجس «الركن» من مَنعاك زلزالا
أما «العراق» فأمسى «الرافدين» به ... سَطرين للدمع في خدَّيهِ قد سالا
بكى الورى فيك حَبْرًا لا مثيل له ... أقواله ضربت في العلم أمثالا
بَكَوك حتى قد احمرَّت مدامعهم ... كأنهم نضحوا فيهن جِريالا
ولو لفظنا لك الأرواح من كمدٍ ... لم نَقْضِ من حقك المفروض مثقالا
ولا نُخَصص في رزءٍ بتعزيةٍ ... إلا علومًا أضاعت منك مفضالا
فإن رُزءك عمَّ الناس قاطبة ... يا أكرم الناس أعمامًا وأخوالا
شكرًا لأقلامك اللائى كشفتَ بها ... عن أوجه العلم أستارًا وأسدالا
كتبن في العلم أسفارًا سيدرسها ... أهلُ البسيطة أجيالًا فأجيالا
أمددتها بمدادٍ ليس يعقبه ... دمع الأنام وإن يبكوك أحوالا
وكنت أنت نطاسيَّ العلوم بها ... وكن في سَبر جُرح الجهل أميالا[3]
يا مطلعًا في سماء الفكر أنجمه ... تهدي إلى العلم رُحالا وقفَّالا
لو أنني بَلغتْ زهرَ النجوم يدي ... نحتُّها لك بعد الموت تمثالا
ما ضرَّ من بعد ما خلَّدت من كتبٍ ... ألَّا نرى لك بين الناس أنجالا
إذا ذكرناك يومًا في محافلنا ... قمنا لذكراك تعظيمًا وإجلالا
إني أخفُّ لدى ذكراك مضطربًا ... وإن حملتُ من الأحزان أثقالا
لأشكرنَّك «يا شكري» مدى عُمُري ... وأبكينَّك أبكارًا وآصالا
فأنت أنت الذي لقَّنتني حِكمًا ... بها اكتسيتُ من الآداب سربالا
أوْجَرتني من فنون العلم أدويةً ... شفَت من الجهل داء كان قتَّالا[4]
فصحَّ عقلي وقبلًا كنتُ مشتكيًا ... من عِلة الجهل أوجاعًا وأوجالا
أنا المقصر عن نعماك أشكرها ... ولو ملأت عليك الدهر إعوالا
فاغفر عليك سلامُ اللهِ ما طلعت ... شمسٌ وما ضاء بدْر الليل أو لالا

---

[3] الأميال: جمع ميل بكسر الميم، وهو عويد صغير من زجاج يسبر به عمق الجرح.

[4] أوجرتني: سقيتني.

في موقف الأسى

لمن تركتَ فنون العلمِ والأدب ... أما خشيت عليها من يد العطب
نلك المدارس قد أوحشتها فغدت ... خلوًا من الدرس والطلاب والكتب
ما إن تركتَ لها في العلم من وطَرٍ ... ولا لمنتابها في الدرس من أرَب
إن «الألوسيَّ» محمودًا عَرتْه لدنْ ... لاقاك «محمودُ شكري» خفة الطرب
فاهتز لابنٍ أبٌ قي قبره وغدا ... يُبدي الحفاوة خيرُ ابنٍ لخير أب
بحرين في العلم عجَّاجَينِ قد ثوَيا ... فانصبَّ مضطربٌ في جنبِ مضطرب
من فخر أزماننا في العلم أنهما ... علَّامتا هذه الأزمان والحِقب
عليك «شكري» غدت شَكرْى مدامِعُنا ... تكفيك أدمعُها السقيا من السحب
ما كنت فخر «الألوسيين» وحدهمُ ... بل كلَّ من سادَ من صُيَّابة العرب[1]
ولا رزأتَ النهى والعلم وحدهما ... بل قد رزأت صميم المجد والحسب
ولم يخصَّ الأسى دارًا نُعيت بها ... بل عَمَّ مبتعدًا من بعد مقترب
من العراق إلى نجدٍ إلى يمنٍ ... إلى الحجازِ إلى مصرٍ إلى حلَبِ
لقد ترحلت في يوم بِنا انقلبتْ ... حوادث الدهر فيه شرَّ منقلب
حتى تقدم ما في القوم من ذَنبٍ ... فصار رأسًا وصار الرأسُ في الذنب
وبات يحسو الطِّلا بالكأس من ذهبٍ ... من كان يشرب رَنْق الماء بالعلب[2]

[1] صيابة القوم: لبابهم وخيارهم.
[2] الطلا: الخمر. ورنق الماء: الماء الكدر.

فاذهب نجوتَ رعاك الله من زمنٍ من عاش فيه دعا بالويل والحرَب
تستثقل الصدقَ فيه أذنُ سامعه وتُطرب القومَ فيه رنَّةُ الكذب
والخير قد ضاع حتى إنَّ طالبه لم يلقَ منه سوى المسطور في الكتب
أما الرِّجال فنارُ الشر مُوقدة فيهم وهم بين نَفَّاخٍ ومحتطب
أفعالهم لم تكن جدًّا ولا لعبًا لكن تُراوغ بين الجدِّ واللعب
إذا جلست إليهم في مجالسهم تلقى القوارض فيها ذات مُصطخَب
أرقى الصحائف فيما عندهم أدبا ما شذَّ منها بهم عن خُطة الأدب
قد يطربون لشتم المرء صاحبَه كأنما الشتم مَدعاة إلى الطرب
ويستلذون من قوم سِبابهمُ كما استلذ بحكِّ الجلد ذو جرب
لا يغضبون لأمرٍ عمَّ باطله كأنهم غيرُ مخلوقين من عَصب
وليس تندى من النكراء أوجههم كأنما القوم منجورون من خشب
يا راحلًا ترك الآماق سائلةً يَذرُفْن منسكبًا في إثر منسكب
أجبت داعيَ موتٍ حُمَّ عن قدرٍ وأي نفس لداعي الموت لم تُجب!
والناس أسرى المنايا في حياتهمُ من فاته السيف منهم مات بالوصب
هذي جيوش الرَّدى في الناس زاحفة لكنهنَّ بلا نقع ولا لجب
بين الدواء وبين الداء معتركٌ فيه قضى ربنا للداء بالغلَب
والناس فيه عَتاد للحِمام فلا ينجون من عَطبٍ إلا إلى عطب[3]
وإن للموت أسبابًا يسبِّبها من سدَّ كلَّ طريق عنه للهرب
لا يخلق الله مخلوقًا يجول به دمُ الحياة بلا أمٍّ له وأب
ولا يُميتُ بلا داء ولا سقم ولا يُعيش بلا كَدٍّ ولا تعب
وليس ذلك من عجز بخالقنا عن أن يُزجَّ بنا في قبضة الشجب[4]
لكنه جعل الدنيا مسببة لكل أمرٍ بها لا بد من سبب

* * *

[3] الحمام: الموت. والعطب: الهلاك.

[4] الشجب: الهلاك.

يا من إذا ما ذكرناه نقوم له — على الأخَامِصِ أو نجثو على الركب[٥]
لقد تركت يتيم العلم منتحبًا — والكُتْبَ راثيةً منه لمنتحب
إن كنت في هذه الدنيا لمنقطعًا — إليه عن كل موروث ومكتسب
أعرضتَ عنها مُشيحًا غيرَ ملتفت — إلى المناصب فيها أو إلى الرتب
أولعتَ بالعلم تنميه وتجمعه — منذ الشباب وما أولعت بالنشب[٦]
فعشت دهرًا حليف العلم تنصره — حتى قضيت فقيد العلم والأدب

[٥] الأخامص: جمع أخمص، وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.
[٦] النشب: العقار أو المال الأصيل.

ذكرى الرجال من حياة الأمم

أراد شبان فلسطين أن يقيموا حفلة تأبين لروحي بك الخالدي، وكان الرصافي إذ ذاك في القدس، فطلب إليه أحد أصدقائه، وهو عادل أفندي جابر، أن ينشدهم في الحفلة المذكورة ما يناسب المقام، فقال هذه القصيدة:

لعمرُك لو كانت حديدًا جسومنا ... لأبلته من كرِّ الليالي مَباردُ
فكيف وَلسْنا بالحديد وإنما ... جوارحنا هذي الدماءُ الجواسد؟![1]
إذا ما افتكرنا في الحياة وأصلها ... وغايتها هانت علينا الشدائد
وماذا عسى يُجدي التوجُّع والأسى ... من الموت إذ كلٌّ على الموت وارد
تُعين منايانا علينا بحزننا ... فيقرب من آجالنا المتباعدُ
وليس برزءٍ أن نرى المرءَ هالكًا ... إذا حييتْ بالذكر منه المحامد
بل الرزءُ كل الرزءِ أن يذهب الفتى ... وليس له من بعده الدهرَ حامدُ
ويُدفن في الترْب اسمه دَفنَ جسمِه ... فلم يتفقده من الناس فاقد
ومن تَفْنَ بعد الموت آثار مجده ... فآثار روحي الخالديِّ خَوالد
فتًى أغمدت منه المنون مهنَّدًا ... وأيُّ حُسامٍ ما لَهُ الدهرَ غامد!
يُعدُّ بألفٍ من رجال زمانه ... على أنه في الألمعيَّةِ واحد
لقد بقيت للخالديِّين بعده ... مناقب غُرٌّ دونهن الفراقد[2]

---

[1] الجواسد: الدماء اليابسة.

[2] الفراقد: يقصد بها الفرقد، وهو نجم قريب من القطب يهتدى به.

وكم حَبَّرت أقلامه من صحائفٍ بجيد العلا من دُرِّهن قلائد
نماه إلى المجد الصراع متمِّمًا به فخره السيف الإلهيِّ خالد
دعانا ابن جبرٍ أن نُلمَّ بذكره لدى محفِل قد ضمنا وهو حاشد
فقمنا لذكرى مجده بعد موته نباهي به أحياءَنا ونماجد
ونستشهد الدنيا على حسناتِهِ وقد كثرت فيها عليها الشواهد
وإني وإن لم أحظَ منه برؤيةٍ ليشهد لي من «عادل» فيه شاهد
ألا يا ابن جبرٍ أنت أيقظتَ للعلا عواطف كانت وهْي فينا رواقد
فقلت: اذكروا يا قومُ فضلَ رجالكم ففي ذكر فضل الغابرين فوائد
وسيروا على آثارهم واهتفوا بها لينشطَ كسلانٌ وينهض قاعد
ففي الغرب أمواتٌ أقيمت لذكرهم تماثيل في كل البلاد أوابد[3]
أعادلُ قد أنهضت للعلم جُثَّمًا فأنت لنا في نهضة العلم قائد
أقمت لذكرى الخالديِّ مَقامة بها حسُنت للقوم منك المقاصد
وجاهدت في إنهاض حيٍّ بميِّتٍ فجهدك في إنهاض قومك جاهد
ذكرتَ مزاياه وذكَّرتنا به وهل يذكر الأمجاد إلا الأماجد
فسعيك مشكور ورأيك صائب وفعلك محمود وسيرُك راشد

[3] الأوابد: الغرائب التي لا مثيل لها.

ذكرى الشيخ الخالصي

أنشدها في الحفلة التأبينية التي أقامها نادي الإصلاح في بغداد عند منعى الشيخ محمد مهدي الخالصي، أحد علماء الجعفرية بعدما أخرجته الحكومة العراقية إلى إيران.

أدهقَ الدهر بالمنية كاسَهْ ... من قديم وطافَ يسقي أناسَه[1]
كيف يُرجى طول البقاء لحيٍّ ... جعل الله عمره أنفاسه
تَعست هذه الحياة وإن كا ... نت لعمري خلابةً حسَّاسه!
قَصرَتْها يدُ الحوادث لكن ... قد أطالت بها على الحيِّ باسه
غير أن السعيد من بانَ عنها ... وهو مستثمر بها أغراسه
والذي عاش مؤنسًا وحشة النا ... سِ مُمدًّا بفضله إيناسه
مثل ذاك الشيخ الذي مذْ فقدنا ... هُ فقدنا به النُّهى والكياسه
نُعِيَ الخالصيُّ فارتجَّت الأنـ ... ـفاس حزنًا مضرَّجًا بحماسه
هو ذاك «المهدي» أحرز سَبْقًا ... حين أجرى إلى الهدى أفراسه
هو ذاك الحَبرُ الذي كان للشر ... ع مقيمًا دليلَه وقياسه
كان في الدين آية الله أفنى الـ ... ـعمر فيه رعايةً وحراسه
أفق العلم قد بدا مكفهرًّا ... عندما أطفأ الردى نبراسه
إن بكاه الدين الحنيفيُّ شجوًا ... فلأنْ كان ركنَه وأساسه

[1] أدهق الكأس: أي ملأها.

كان ردْءًا للحق مرتدي التقـ ـوى فكانت طول الحياة لباسه[٢]
ولقد كان في العلوم إمامًا حيث فيها انتهت إليه الرياسه

* * *

أنا أبكي عليه من جهة العلـ ـم وأغضي عن خوضه في السياسه
لا لأني أراه فيها ملومًا بل لأني أعيب فعل السَّاسة
ليس في هذه الهنَّات السياسيـ ـات إلا ما ينجلي عن خساسه
قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشَّاشَة الدسَّاسه
رأيت أن تصافح الناس إلا بيدٍ من خديعةٍ فرَّاسه
كلما مسَّت الأمور بكفٍّ لوَّثتها بما بها من نجاسه
إنَّ في هذه السياسة سهمًا جعل الله باطلًا قرطاسه
ما تعاطى غير الخداع «غلادِسـْ ـتونَ» فيها كلَّا، ولا «دِلْكاسه»
إن أحسَّت بقوةٍ من خصيم كانت الظبيَ لم يُزايلْ كِناسه[٣]
وهْي إن آنست من الخصم ضعفًا كانت الليث مبرزًا أضراسه
لو أردنا إفاضة في هجاها لكتبنا لكم به كرَّاسه
فلهذا أجِلُّ عنها رجالًا شغلتهم علومهم بالدراسه

* * *

رحم الله شيخنا إنه كا ن بعيدًا عما تريد السياسه
ليت تلك العلوم قد شغلته عن أمور لا تُشترى بنُحاسه
أنتجت بعدَه فأوحش أرضًا في العراقين عُوِّدت إيناسه
فقضى بعد نأيه عن أناسٍ طلبوا علمه وراموا اقتباسه

* * *

أيها القوم إن هذا لرأيي في فقيدٍ لم تشهدوا إرماسه[٤]

---

[٢] الردء: المناصر والعون.

[٣] الخصيم: الخصم. وكناس الظبي: بيته في أصل شجرة ونحوها.

[٤] الإرماس: الدفن.

فـإذا كـنـت قـد أصـبـت وإلا   فـانـبـذوا مـا أقـولـه فـي الـكـنـاسـه
لست بالشاعر الذي يرسل اللفـ   ـظ جُزافا لكي يصيب جِناسه
أنـا لا أبـتـغـي مـن الـلـفـظ إلا   مـا جـرى فـي سـهـولـةٍ وسـلاسـه
إنـمـا غـايـتـي مـن الـشـعـر معنًى   واضـحٌ يـأمـن الـلـبـيـبُ الـتـبـاسـه

على ضريح النائب

هي دنيا بقاؤها مستحيلُ فَلْيقِفْ عند حدِّه التأميل
ليس يُغني فيها عن المرء شيئًا شرف باذخ ومجد أثيل
إنما الراحة المُرجَّاة فيها تعبٌ والهدى بها تضليل
كل شيء في أهلها مستعار من سواه وكل حالٍ تحول
ليس ما قد جنى علينا بها الإفـ ـقار أدهى مما جنى التمويل[1]
رتَّلت ألسن اللذائذ آي الـ ـعيش فيها فغرَّنا الترتيل
فرجَوْنا طول البقاء وإن كُنـ ـا علمْنا بأننا سنزول
وَطلَبْنا تعلَّة لنفوسٍ ليس يُشْفي غليلها التعليل
قد قتلت الحياة خُبرًا ولكن أنا منها بحيرتي مقتول
كل ما قيل في الحياة ظنونٌ جرَّها في افتكارنا التخييل
قد وهمنا في البدء منها وأما منتهاها فستره مسدول
إن يك العقل في دجى الشك نجمًا فخفيٌّ مثل السها وضيئل[2]
ويكَ إنَّ المعقول ما صحَّ عندي فمتى صح عندك المنقول
كلنا خابطون في ظلماتٍ حائر بائر بهن الدليل

---

[1] التمويل: الغنى.

[2] السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

إنَّ حبَّ الحياة أوهم أن الـ ـموت نومٌ تحت الثرى لا يطول
إنما هذه الجسوم مَبَانٍ قد بناها من الزمان عمول[٣]
نزلتها الأرواح حينًا فأضحت عامرات ما دام فيها النزول
ثم لا بدَّ أن ترحَّل عنها فيسمَّى بالموت ذاك الرحيل
إنما هذه الجُسوم رسومٌ مُوحشات بعد الردى وطُلول
ما بِسِقْطِ اللِّوَى مَثلْنَ ولكن بسقوط البِلى لهن مُثول[٤]
ليس يُسْلي الفتى عن الموت إلا خَلفٌ صالح وذكر جميل
مثلما مات شيخنا «النائب» الحَبْـ ـرُ فسالت من الدموع سيول
إن «عبد الوهاب» عاش جليل الـ ـقدر فَرْدًا ومات وهو جليل
وقضى عادم المثيل فأمسى ما لمنعاه في الخطوب مَثيل
حادث أظلمت به الأرض واستو حش منها حُزونها والسهول[٥]
إن أسينا أسًى عليه كثيرًا فكثير الأسى عليه قليل
كان فحل الفحول علمًا وفضلًا فلهذا بكت عليه الفحول
كيف لا تجزع العلوم لمَنْعَى رجل باعُه بهنَّ طويل
قد بكته مدارسٌ عامرات هو فيها المدرِّس المسئول
وبكاه الكتاب ذو الذكر شجوًا وعلوم إلى الكتاب تئول
وبكته آيٌ به محكمات وبكاه التفسير والتأويل
وبكته أراملٌ ويتامى جُذَّ عنها بموته التنويل
إن يكن أغمد الردى منه في القبـ ـر حُسامًا فذكره مسلول
أو رمى حدَّه الردى بفلولٍ فمعاليه ما بهنَّ فلول[٦]
أو خلت منه دُوره موحشات فَذَرَاها بفضله مأهول[٧]

---

[٣] العمول: المطبوع على العمل.

[٤] سقط اللوى: موضع، ويشير هنا إلى بيت امرئ القيس الذي ذكر فيه هذا الموضع.

[٥] الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع.

[٦] الفلول: جمع فل، وهو الثلمة في الحد.

[٧] يقال: فلان في ذَرا فلان؛ أي في ظله.

كيف لا؟! هؤلاء أبناؤه الغرُّ شهودٌ بما أقول عُدول
كلهم في العلاء مثل أبيه حسن الخلق فاضل بُهلول[8]
هل تطيب الفروع في الناس إلا حيث طابت فيهم لهن أصول
عِذرة يا أبا الحسين بماذا نَصفُ الرُّزْءَ وهو رزء جليل
وإذا طاشت الحلوم بيوم فيه فارقتنا فماذا نقول؟
أُخرسَ الشعرُ يوم منعاك لكن ناب عنه تأوُّهٌ وعويل
وإذا أسكت المقاويلَ حزنٌ ترجمت عنهمُ دموع تسيل
فصلتك المنون عنا ولكن أنت بالحمد والثنا موصول
لك في العلم رتبةٌ لن تُسامى فاضل القوم عندها مفضول
ومحيًّا صَلْتُ الجبين طليق يتلالا كأنه قنديل
ويدٌ يجمع الشفاهَ عليها كلما قد مددتها التقبيل
إنما قد ذكرت بعض مزا ياك وإلا فشرحهن يطول
وإذا القول لم يفده اختصار لم يفده الإطناب والتفصيل

[8] البهلول: السيد الجامع لكل خير.

دموع الصداقة

أنشدت في المأتم الذي أقيم في بغداد للمرحوم عبد المجيد بك الشاوي.

عبدُ المجيد قضى فوَا أَسَفا ... ماذا يُفيد تأسُّفي جَزَعا؟!
قم وَيكَ نبكِ المجدَ والشرفا ... ونُعَزِّ طَرْف العين ما دمعا
فلقد فقدنا سيِّد الظرَفا ... وأجلَّ ساعٍ للعلاء سعى
لم يتخذ غيرَ العلا هَدَفا ... عن قوس همته إذا نزَعَا[1]
خبر طويتُ حشاي مرتجفا ... من هوله وسقطت مُنصدِعا
ألقى بوجه حياتِنا كلفا ... أو عاد لون العيش ممتقعا[2]
فالدمع من عيني إذا وَكَفا ... جَلَلٌ وإن أرسلته دفعا[3]
صاحبت منه أخا نهًى ووفا ... يزهو النديُّ به إذا اجتمعا
فسمعتُ من أقواله طُرَفا ... ورأيتُ من أفعاله بِدَعا
ساء المكارمَ كونُه دِنفا ... يشكو إلى عُوَّاده الوجعا
الداء أذهب نفسه تلَفا ... بُذِلَ الدواء له فما نجعا
بيروت منه أحرزت شرفا ... لمَا غدت لِعُلاه مُضطجعا

[1] نزع: رمى بالسهم.

[2] الكلف: جمع كلفة، وهي اغبرار لون الوجه.

[3] وكف الدمع: سال قليلًا قليلًا.

لكنما قلب العراق هَفا حزنًا عليه إذ به فُجعا
وكفى بسعدونٍ له خلفا لفعاله في المجد مُتبعا
يمشي على آثاره الخطفَى ويقوم بالأعباء مضطلعا

* * *

«عبدُ المجيدِ» قضى فوا حرَبا ماذا يرد إليَّ وا حَربي؟!
إن الرزايا قد قضت عجبا مما رُزِئنا من ذوي الحسبِ
رزءٌ أثار الحزن ملتهبا في كل قلب أي ملتَهَب
وأسال غرب الدمع منسكبا من كل عين إثر منسكب
وأمرَّ حلو العيش فانقلبا بمحاوليه شر منقلب
فبكاه من بغداد مُنتحبا في جانبيها كل ذي أدب
يا راحلًا بالداء مغتربا يبغي الشفاء له من الوصب
أوتيت فضلًا في النهى عجبا يأتي من الآراء بالعجب
كم كنت تكشف فيه محتجبا وتنال أقصى الأمر من كثب
فبنيت مجدًا منك مكتسبا من بعد آخر غير مكتسب
وبك العروبة قد زهت نسبا يُزْهى بغبطة كل ذي نسب
قد كنت من عربيَّة عَصبا والحسُّ مصدره من العصب
إنا فقدنا الظَّرف والأدبا وفقدت يا سعدون خير أب
يا أكرم المتهذبين أبا صبرًا لفقدك أكرم العرب
إذ كنت أنت لمثله عَقِبا أكرِمْ بمثلك أنت من عَقب

هلم نبكِ

هلمَّ نبكِ النُّهى والعلم والشرفا
فقد قضى مَن بهذا كان مُتَّصِفا

هلمَّ نبكِ الذي كانت شمائله
كمثل قطر الغوادي رِقَّةً وَصفا

هلمَّ نبكِ الذي لم يغلُ واصفه
بالخير إلا رآه فوقَ ما وصفا

عطا الخطيبَ الذي آلُ الخطيب به
فتَّت مصيبتهم أكبادنا أسفا

نبكي لمَبكاهمُ حزنًا بحيث نرى
بدر التَّمام بأعلى أفقهم خُسفا

قد فاجأته المنايا وهو معتدل
كالرمح دُق على الصفواء فانقصفا[1]

قامت بحسَّاده الأطماع هائجةً
لمَّا رأوه مجدًّا يطلب الترفا

فعارضوه بسيل من مكايدهم
قد سال فاكتسح الآمال واجترفا

وعرقلوا بدعاويهم مساعيَهُ
ومدَّدوا من دواهيهم له كِففَا[2]

فظلَّ يرسُف في مسعاه مرتطمًا
وكان يبني له من سعيه رَصفا

حتى قضى راسبًا في مكرهم غرقًا
إذ عطل الموت منه الكف والكتفا

وبعدما قتلوه هكذا علموا
بأنَّهم قد أصابوا المجدَ والشرفا

والمرء تظهر بعد الموت قيمته
كمغرق اليمِّ بعد الانتفاخ طفا

لو عجَّل الله للحسَّاد لعنته
لكان أسقط منها فوقهم كِسفا

---

[1] الصفواء: الحجر الصلد الضخم.

[2] الكففُ: جمع كفة، وهي حبالة الصائد وشبكته.

لـكـن يـؤخِّـرهـا عـنـهـم إلـى أجـلٍ   يُخزي به كل من قد جار واعتسفا
هم جاوزوا العدل والإنصاف في رجل   ما كان قطُّ عن الإنصاف منحرفا
فَتًى رزئناه بالأخطار مضطلعًا   بالمجد مشتملًا بالفضل ملتحفا
لمَّا رمى عن قِسيِّ الرأي مجتهدًا   لم يتخذْ غير أسباب العلا هدفا
ما شبَّ إلا على التَّقوى وكان له   قلب سليم بحب الخير قد شغفا
مهذب الطبع عفُّ النفس ذو خلق   قد شابه الورد مشمومًا ومقتطفا
إذا تـصـورت فـي يـوم خـلائـقـه   فقد تصوَّرت منها روضةً أنُفا[3]
وإن نـظـرت بـإمـعـانٍ مـسـاعـيَـه   فقد نظرت بعيني رأسك الشرفا
بـيـنـاه يـدرك مـن دنـيـاه زهـرتـهـا   إذ جاءه الموت يمشي نحوه الخطَفَى[4]
أعظم به طودَ مجدٍ طال طائله   فكيف في ساعة بالموت قد نسفا؟!
قد شرَّفت بقعةَ الجيليِّ حفرته   كما ضريح عليٍّ شرَّف النَّجفَا

[3] الروضة الأنف: الجديدة النبت لم يرعها أحد.

[4] الخطفى: مشية سريعة.

دمعة على صديق

قالها في رثاء صديقه الحميم عبد الوهاب المحمد أغا.

مضى عبدُ وهَّابِ الهبات لرَبِّهِ ... فَلِلَّهِ من ماضٍ إلى ربِّه حُرِّ
مضى وهو محمود الخصال مخلفًا ... له عندنا آثار أخلاقه الغُرِّ
مضى وله في كل قلب مكانةٌ ... نديم له ذكراه بالحمد والشكر
كذلك كنا معْه قبل وفاته ... نبجِّله في السر منا وفي الجهر
وما زادنا إلا أسًى بفراقه ... فأمسى الأسى فينا له مالئ الصدر
إذا ما ذكرناه تفوح خلالُه ... فننشق من تَذكارها أطيب النشر
ونلجأ عند الإدَّكار إلى البِكا ... ونفزع من بعد البكاء إلى الصبر
أخا سالم ما زلت عنديَ سالمًا ... وإن كان منك الشخص غيِّب في القبر
تمثلُك الذكرى لعينيَّ جالسًا ... تحدثِّنا عمَّا أهمَّ من الأمر
وتمزح طورًا ثم تنصاع ذاهبًا ... إلى الجِدِّ تُغري بالحقيقةِ مَن تغري
فتغضب أحيانًا وتطرب تارة ... فتطرب من ذكر الحقيقة في شعري
طواك الردى عني وشخصك لم يزل ... بذكراك بعد الطيِّ متصل النشر
فما أنت ميتًا إذ خيالك سانح ... مدى العمر نصب العين في سانح الفكر
ولا عجب، إن الحياة خيالة ... فلا فرق عندي بين شخصك والذكر
سأنثر دمعي فيك نثر لآلئٍ ... وأنظم شعري في رثائك من درِّ
لعلِّي بذا أقضي إخاءَك حقه ... وإن كان لا يُقضى بنظم ولا نثر

ميتة البطل الأكبر

أنشدت في دار المرحوم عبد المحسن بك السعدون في اليوم الثالث من انتحاره.

هكذا يُدرَك في الدنيا الكمالُ   هكذا في موتها تحيا الرجالُ
هكذا يَشرف موت المبتغي   شرفًا ليس إذا ريم ينال
من كعبد المحسن الشهم الذي   حفه بالموت عزٌّ وجلال؟!
ما بعبد المحسن السعدون إذ   رام قتلَ النفس مَسٌّ أو خبال
بل رأى أوطانه يُرهقها   من بني الغرب انتدابٌ واحتلال
فانتضى الهمة كي ينقذَها   كانتضاء السيف ما فيه كلال
مارس الأحوال حتى إنه   شاب في إصلاحها منه القَذال[1]
أعمل الرأي وقد جادله   فيه بعض القوم واشتد الجدال
خذلوه فاغتدت آراؤه   كسهام كسرت منها النصال
كم غدا ينصحهم حتى إذا   راء أن الداء في القوم عُضال[2]
ورأى أن الذي يرجوه من   طلب استقلالهم شيء محال
جاد للأوطان منه بدمٍ   لسوى أوطانه ليس يُسال
والفتى الحر له في موته   سَعةٌ إن ضاق بالنفس المجال

[1] القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

[2] راء: رأى.

إنــه لــمــا أرادت نــفــســه مِيتة حمراء ما فيها اعتدال
مِيتـة الأبطـال فـيـها شـمـمٌ طأطأت من دونه الشم الجبال
نـال بـالـموت حيـاةً ما لـهـا أبـد الـدهـر فـنـاء وزوال
هـو حـيٌّ أبـدَ الـدهـر فـمـا ضره من هذه الدنيا انتقال
إن يكن قد زايل القوم فما لمساعيه عن القوم زِيال
أو يكن عن أعين القوم اختفى فله في أنفس القوم خيال
وإذا الـتـاريـخ أجـرى ذكـره أخذ التأريخ بالفخر اختيال
فـانـدبـوا يـا قـوم مـنـه بـطـلًا هـو لـلأبـطـال حُسن وجمال
وأقـيـمـوا عـالـيًـا تـمـثـالـه فـهـو لـلأوطـان عـز وجـلال
واقـصـدوا مـرقـده حَـجًّـا فـلا غروَ إن شدت لمثواه الرحال
واتـركـوا الـغـرب وأهـلـيـه ولا تسمعوا منهم إلى ما قد يقال
وعـلـى أنـفـسـكـم فـاتـكـلـوا خاب من فيه على الغير اتكال
فـالـمـواعـيـد الـتـي قـد وعـدوا كلـها منـهـم خداع واحتيـال
كـلـمـا قـال لـنـا سـاسـتـهـم نقضت أقوالهم منهم فعال
هـكـذا كـونـوا وإلا فـاعـلـمـوا أنما استقلالكم شيء محالُ

منظر الرافدين

شب الأسى في قلوب الشعب مُستعرا يومَ ابنُ سعدون عبد المحسن انتحرا
يـوم بـه كـل عـيـنٍ غـيـرُ مـبـصـرة إذ كان إنسانها في الدمع منغمرا
يـوم بـه الـبـرق رجَّ الـرافـديـن أسًـى غداة أدَّى إلـى أقـصـاهـمـا الـخـبـرا
فلو ترى القومَ قاموا في ضفافهما واستنزفوا من شئون الدمع ما غزُرا
خـلـتَ الـعـراقـيـن خَـدَّي ثـاكـل وهـمـا سَطران للدمع في الخدين قد سُطرا

الشعر والدمع

لِلَّهِ يوم فقدنا فيه مُضطلعًا — بالأمر يُمعن في تدبيره النظرا
يوم قد انهلَّ فيه الشعر منتظمًا — كما قد انهلَّ فيه الدمع منتثرا
فبالدموع بكت في يومه شِيعٌ — وبالقوافي بكت في يومه الشعرا
فالشعر قد قرَّط الأسماع مندفِقًا — والدمع قد قرَّح الأجفان منحدرا
والدمع والشعر ممَّن قد بكى بهما — كلاهما حَكيا في يومه الدررا
كلاهما انسجما حتى كأنهما — تسابقا في انسجامٍ عندما انهمرا
فالشعر من هذه الأكباد بلَّ صدى — والدمع من هذه الأوطان بَلَّ ثرى

أبو علي وعزائمه

أبو عليٍّ قويٌّ في عزائمه — لو رام بالعزم دحرَ الجيش لاندحرا
أخلاقه كالخضمِّ الرهو تحسبه — سهلًا ولكنه صعب إذا زخرا[3]
إذا أتاه شكيُّ القومِ قابله — بكالنسيم جرى في روضةِ عطرا[4]
ويهزم الجمع مجتثًّا مكايده — بكالعواصف هبَّت تقلع الشجرا
لما رأى الوطن المحبوب محتمِلًا — من الأجانب ما قد عمه ضررا
سعى لإنقاذه بالرأي مجتهدًا — بالعزم متشحًا بالحزم مؤتزرا
كم بات سهران في تحقيق مُنيته — وفي الأمانيِّ ما يستوجب السهرا
وكم سعى راجيًا تخليصَ موطنه — والشعب كان لما يرجوه منتظرا
حتى إذا لم يجدْ للأمر متَّسعًا — ولم يجد عن بلوغ العز مُصطبرا
أرمَى مسدسه في صدره بيد — لا تعرف الضعف في المرمى ولا الخوَرا
فيا لها رمية حمراء دامية — قد مات منها ولكن بعدها نُشرا
قد كان يحيا حياة غيرَ خالدةٍ — واليوم يحيا حياةً تملأ العُصرا

[3] الخضم: البحر العظيم. والرهو: البحر الساكن.
[4] الشكي: المشتكي.

لو نَقْتري صحفَ التاريخ نسألها عمن يساويه في الدهر الذي غبرا[٥]
لما رأينا كبيرًا مات ميتته ولا وجدنا وزيرًا مثله انتحرا
ما كان أشرفها من ميتةٍ تركت في نفس كل فتًى من غِبطة أثرا
كنَّا نقاسي ضلالًا قبلها فإذا بها الطريق إلى استقلالنا ظهرا

يا أهل لندن

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم أهل العراقين لا بدْوًا ولا حَضرا
إن انتدابَكُمُ في قلب موطننا جُرح نداويه لكن لم يزل غَبرا[٦]
وللمشورة في أوطاننا شبح تخيف صورته الأشباح والصورا
يجول في طرقات البغي محتقبًا للغش خلف ستار النصح مستترا
لم يكفهِ أنه للحكم مغتصب حتى غدا يقتل الآراء والفكرا
إذا رأى نهضةً للمجد أقعدها وإن رأى فتنة مشبوبة نعرَا
فكم ضغائن بين القوم أوجدها وكم بذورٍ من التفريق قد بذرا!
في كل يوم لنا مَعْكم معاهدة نزداد منها على أوطاننا خطرا
جَفَّت بها سرحة استقلالنا عطشًا حتى إذا ما مَسنا عُودها انكسرا[٧]
تقسو قلوبكمُ لما نفاوضكم كأنَّما نحن منكم ننقرُ الحجرا
أما مواعيدكم فهي التي انكشفت عن مَين مَن مان أو عن غدر مَن غدَرا[٨]
لا تفخروا أن كسرتم غربَ شوكتنا لا فخر للصقر في أن يقتل النغرا[٩]
لا تستهينوا بنا من ضعف قوتنا فكم ذبابة غابٍ أزعجت نَمِرا!
هذي البلاد اغرسوا فيها مودَّتكم ثم اقطفوا من جناها ودَّنا ثمرا

[٥] اقترى: تتبع واستقصى.
[٦] الجرح الغبر: الذي اندمل على فساد ثم انتقض.
[٧] السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك بها.
[٨] المين: الكذب.
[٩] الغرب: الحدة. والنغر: البلبل أو فرخ العصافير.

نكن لكم حِلفَ صدْقٍ في سياستكم نمشي إلى الموت من جَرائكم زُمرا
لسنا بقومٍ إذا ما عاهدوا نكثوا ولو جرى الدم حتى أشبه النهرا
ولا نحالف أحلافًا فنخذلهم ولو لبسنا المنايا دونهم أزُرَا
فنحن أوفى الورى بالعهد شِنشنةً ونحن أرفعهمُ في المكرمات ذُرا[١٠]

سعد وسعدون

سعد وسعدون محمودٌ مقامها هذا بمصر وهذا ها هنا اشتهرا
كلاهما قد فدَى بالنفس أمته لكنَّ سعدون لا سعدًا قد انتحرا
فكان بينهما بونٌ وإن غدوَا في الشرق أعظم مذكورين ما ذكِرا
فإن سعدون دانَى الشمس منزلة وإن سعدًا بمصرٍ قارن القمرا
هذا هنا قد سعى للمجد مُبتدِرًا وذا هناك سعى للمجد مقتدرا
يا أهل مصر وأنتم مثلنا عرب ما قلتمُ عندما أعلِمتم الخبرا؟!
إن كان قد أرخص الأموال سعدكمُ فإن سعدوننا قد أرخص العُمُرا

أيُّها البطل

نم أيها البطل الفادي بمهجته أوطانه نومةً تستيقظ العبرا
نَمْ نومة تجعل التاريخ محتفيًا بها لنهضة أهل الشرق مدَّكِرا
فلْيعتبر بك هذا الشعب مفتديًا إن كان شعبك بعد اليوم معتبرا
فسوف تحمدك الأوطان شاكرةً ماذا ستفعله من بعدك الوُزَرا؟
أيتركون الذي قد كنت تطلبه أم هم سيقضون من مطلوبك الوطرا؟
فالشعب منهم مريدٌ ما أردت له وليس يقبل عذرًا ممن اعتذرا
يا من له مِيتة بكر معظمة لا غرو أن قلتُ فيك الشعر مبتكرا

[١٠] الشنشنة: الخلق والطبيعة. والذرا: جمع ذروة، وهي القمة.

ذكرى فتى السعدون

إذا ما الفتى في دهره أحسن الظنَّا
فما أدرك المَغزَى ولا فهم المعنى
وما الحزم إلا أن نرى الدهر هاجمًا
فنبنيَ من تدبيرنا دونه حصنا
وما الدَّهر إلا مُبهرٌ في طباعه
يغرِّر بالأقوام يفتنهم فتنا[1]
يروع بنيه صائلًا بنباته
فقد ضلَّ مَن مِن دهره يطلب الأمنا[2]
يذِفُّ عليهم بالظبا من خُطوبه
فكم جدعت أنفًا وكم صلمت أذنا![3]
وما شُهبه إلا مخالب كيده
تُمَدُّ بجوف الليل دامية حجنا[4]

[1] المبهر: اسم فاعل من أبهر؛ إذا جاء بالعجب.

[2] بنات الدهر: حوادثه.

[3] ذف عليه: أجهز عليه. والظبا: جمع ظبة، وهي حد السيف أو سنانه.

[4] الحجناء: العوجاء، جمعها: حجن.

إذا ما تشمَّمت الزمان وطبعه
تشمَّمت من أعماق طينته نتنا

* * *

إليك فتى السعدون جئتُ مهنئًا
بما نِلْتَه عند الإله من الحسنى
إذا ما ذممنا الدهر يومًا وأهله
فإنك من تلك المذمَّات مُستثنى
أتى يومُك الدامي بذكراك حافلًا
فجدَّد في كل البلاد لنا حُزنا
ففي مثل هذا اليوم بتَّ مضرجًا
وبتنا نحاكي في مدامعنا المزنا
وفي مثل هذا اليوم في حفرة البلى
جعلنا بك الآمال مدفونةً هنا
عشية أطلقتَ المسدسَ ناره
على قلبك الخفاق من يدك اليمنى
فلله نارٌ قد بردتَ بحَرِّها
وإن سال منها دمعنا بالجوَى سُخنا
لئن أفقدت بالموت قلبك نبضه
فكم أنبضت بالحزن أفئدةً مِنا
وكم أنطقت دمع المحاجرِ بالأسى
على أنها بالهول أخرست اللسنا
فيا طلقةٌ ريع العراق بصوتها
فبانت به الآفاق عابسةً دُكنا
ورَدَّد مجرى الرافدين لصوتها
صدى الحزن من أقصى العراق إلى الأدنى
لقد جمع الأموال باسمك معشر
لتخليدهم ذكراك في معهد يُبنى

وما علموا أن المبانيَ كلها
وإن قويت تفنى وذكرك لا يفنى
وأعظم تخليدًا لذكراكَ منهمُ
فعائلُك الغراء والخلُق الأسنى
سعيت إلى استقلال قومك مخلصًا
وما كنت في يوم على القوم ممتنا
وقمت بأعباءِ السياسة ناهضًا
بهمَّة لا وَانٍ ولا ناكص جبنا
وأبديت في تلك المواقف كلها
أصالة رأيٍ قط لم يعرف الأفنا[٥]
فإن كنت لم تنجح فليس لعِلةٍ
سوى أن خصم القوم في كيده افْتَنَّا

* * *

زكت لك نفس بين جنبيك حُرة
فلا أظهرت كبرًا ولا أضمرت ضِغنا
لنا المثل الأعلى بحلمك والندى
فكم بهما أثنى عليك الذي أثنى
فَأَحْنَفَ ربَّ الحلم بالحلم فقتَه
وفي الجود قد فُتَّ ابنَ زائدةٍ مَعْنَا
ألست الذي قد رام قتلك قاتل
فأطلقته عفوًا وأوسعته مَنًّا
سيبقى على الأيام ذكرك خالدًا
به صحف التأريخ قاطبةً تُعْنى

* * *

[٥] الأفن: ضعف الرأي.

فيا بطلًا بالنفس ضحَّى وإنما
بَذْلكَ لاستقلالنا سُنَّةً سنَّا
فعلَّمَنا أنَّ التفاديَ واجبٌ
على كل قوم حاولوا شرف المَغنى
سنسعى إلى ما قد سعيت من العلا
بصادق عزم ينكر الضعف والوهنا
وإنَّا لقومٌ مستقلُّون فِطرةً
إذا أنكر استقلالنا منكرٌ ثرنا
فلو جُعِلت تبرًا سبيكًا بيوتنا
ولسنا بحكام أبَينا بها السُّكنى
يهون علينا في السياسة أننا
نصلَّب في الأعواد أو ندخل السجنا
ولسنا نبالي دون إحياءِ مجدنا
أعِشنا على وجه البسيطة أم مُتنا
إذا أدرك المجدَ المؤثل معشرٌ
أُحادَ، فإنا نحن ندركه مَثْنى
نفوسًا ورثناها كبارًا أبية
أبت في الدنا أن تحمل الضيم والغَبْنا

ابن جبران

مَن سامع قصة لي كنتُ شاهدَها   على الربا الخضر من جنَّاتِ لبنان؟
فقد رأيتُ غلامًا صِيغَ منفردًا   بالحسن يصبو إليه كل إنسان
البدرُ يبدو حقيرًا عند طلعته   والشمسُ تعنو لوجهٍ منه نوراني
في عينه حَوَرٌ في ثغرهِ شنبٌ   يفترُّ عن عِقْدِ دُرٍّ وسط مرجان
إذا رَنا ناظرًا يرنو بساحرة   أو انثنى ينثني من عِطفِ نشوان
عليه ثوب بديع النسج طُرته   مِن صِبغةِ المجد قد زينت بألوان
في جانبٍ منه تلقى الدرَّ منتظمًا   والدر منتثرًا في الجانب الثاني
وللعواطف في أثنائه صور   جادت بها ريشة في كفِّ فنان
تفاوح الطيبُ من أردانهِ عبقًا   كما تفاوح أزهار ببستان
تستخلص النفسُ من فَحوى ملامحه   أن الغرام الذي يُخفيه رُوحاني
أبصرته واقفًا يبكي وأدمُعه   توحي إلى كل قلب وحْي أحزان
يبكي وألحانُ موسيقاه مُشجية   تهفو بأفئدةٍ مِنا وآذان
يبكي وأنغام موسيقاه مطربة   نهتزُّ منهنَّ أرواح بأبدان
يبكي فيرفضُّ عقد الدمع منتثرًا   بغير وزن وأحيانا بميزان
لما أراني جلالَ الحسن ممتزجًا   بروعة الحزن أشجاني فأبكاني
فقمت بين أناسٍ حوله وقفوا   مستعبرين وكلٌّ نحوه ران[١]

[١] المستعبر: الباكي.

وكلهم وقفوا مستسلمين إلى ... تـنـهُّـداتٍ وآهـاتٍ وإرنـان
حتى سألت عن الباكي وقصته ... فقيلَ: هذا هو الشِّعر ابنُ جبران
أبوه جبران أفناه الردى فغدا ... من بعده رَهنَ يُتمٍ حِلْفَ أشجان
فقلت: لم يفنَ جبران بميتته ... من خلَّف ابنًا كهذا ليس بالفاني
بل أصبحت بابنه ذكراه خالدة ... ما دام لبنان مأهولًا بإنسان
إنـي أرى روحَ جبرانٍ مُرفرفةً ... على الربا الخضر من جناتِ لبنان

جبر ضومط

بكى الفضلُ لمَّا أن قضى نحبَه جبرُ   وليس لكسر الموت في طبِّنا جبر
طوى الموت من جبر بن ضومط فاضلًا   لغُرِّ المساعي كان في عيشه نشر
مضى بعدما أمضى حياة سعيدة   تبسَّم فيها العلم والفضل والفخر
وخلَّف آثارًا خوالدَ بعده   يطيب له مدَّ الزمان بها ذكر
على اللغة الفصحى أياديه جمَّةٌ   وآثاره في نشر آدابها غرٌّ
وما كان يبدي الرأي فيها مُقلدًا   ولكن له الإبداع والفكرة البكر
وما كان في استقرائه العلم جامدًا   ولكنه في العلم كان له فكر
يشقُّ حجاب المشكلات برأيه   كما شُقَّ بُرْد الليل مذ طلع الفجر
ومن شَكَّ فلينظر بكل مدينة   تلاميذه من بعده فهُمُ كُثر
ليبصر منهم مَن حِجاه مثقف   ومَن لفظُه درٌّ ومَن علمه بحر
رزئناه في كلية العلم هاديًا   يضيء به للعلم في أفقها بدر
سيبكيه في كلية العلمِ مِنبرٌ   ويرثيه من أبنائها النظم والنثر
فواجِعُنا في ذي الحياة كثيرة   وأفجعها أن يُفقد العالم الحَبْر
ألا إنما هذي الحياة رواية   يمثلها في كل يوم لنا الدهر
ولو لم تكن للفاجعات فصولها   ممثلة ما كان آخرها القبر

أبو الملوك

بـدا وجـه الـعـروبـة فـي حُـلـوكِ غداةَ قضـى الحسين أبو الملوك
قـضـى مـتـنـازلًا بـعـد اعـتـلاءٍ كذاك الشـمس تجنـح للدلوك[1]
قضى في المجد ليس بذي نظير وفي العزَمات ليس بذي شريك
مـلـيـكٌ واصَـل الإقـدام حـتـى أتـاه بـهـلـكـه يـوم الـهـلـوك
لقد سلك الطريق إلى المعالي إلى أن مات محمود السلوك
وجـدَّد لـلـعـروبـة غـرس مـجـدٍ قـديـمٍ كـان كـالـعِـذق الـتـريـك[2]
وأحدث نهضة في العرب هزَّت جنوبَ الأرض كالريح السَّهوك[3]
وأثبت بـالـسـيـوف لـهـم حـقـوقًـا مـؤيـدة بـكـل دمٍ سـفـيـك
ولـكـن غـشَّـه الـحـلـفـاء حـتـى أتوه من الثعالب في مسوك[4]
وخـانـوا لـم يـفـوا بـعـد انـتـصـار بما كتبوه في بطن الصكوك
خـطـبـنـا ودَّهـم فـتـقـبَّـلـونـا بـعـاطـفـةٍ كـعـاطـفـة الـفَـرُوك[5]

[1] الدلوك: الغروب.

[2] العذق: عنقود العنب، أو ما يشبهه من النخلة. والتريك: المتروك؛ أي الذي أكل كل ما عليه أو بقي فيه شيء قليل.

[3] الريح السهوك: العاصفة الشديدة.

[4] المسوك: جمع مسك بفتح الميم، وهو الجلد.

[5] الفروك: المبغضة للناس عامة، أو التي تبغض زوجها.

وكم وعدوا بني قحطان وعدًا ... به انقلب اليقين إلى شكوك
لقد ستروا شنيع الغدر منهم ... بثوبٍ من سياستهم مَحوك
فساستهم إذا وقعوا بضنك ... أرونا الودَّ في وجه ضحوك
وأبدوا في الرخاء لنا عبوسًا ... وهذا عُدَّ من شيم الهَلوك[6]
ونحنُ العُرْبَ نأبى غيرَ عزٍّ ... ونطمح في الحياة إلى السُّموك[7]
ويومَ الروع تنتظم المنايا ... ولم تكن السيوف سوى سلوك
ونمضغ في الهياج الموت دون الـ ... ـعُلا مضغ الأوانس للعُلوك[8]
وما عاب الفتى جسمٌ هزيل ... إذا ما كان ذا شرفٍ وديك[9]
وما الشرف الحميد سوى فَعالٍ ... حميد من معادننا سبيك
قرينَ القبلتين عليك نبكي ... دمًا بالدمع من طَرف مَسيك[10]
فقدنا منك خير زعيم قومٍ ... وخير نضيج تجربةٍ حنيكِ
لقد ناح العراق عليك حزنًا ... وضجَّ من الخليج إلى تبوك
لقد نُزِّهتَ من غمزٍ وَلمْزٍ ... كما نُزِّهتَ من شعرٍ ركيك

[6] الهلوك: الفاجرة ذات الشهوة الشديدة.
[7] السموك: جمع سمك، وهو السقف أو أعلى الشيء.
[8] العلوك: جمع علك، وهو اللبان.
[9] وديك: سمين.
[10] الطرف المسيك: العين التي لا تدمع كثيرًا.

الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية

على قاسمٍ شيخ الطريقة قد بَكت — جواهرُ فضْلٍ ما لها الدهرَ قاسمُ

بكاه التُّقى والعلم والحلم والنُّهى — وحسن السجَايا والعُلا والمكارم

فقدنا الذي قد كان في العلم عيْلمًا — فماجت لمَنعاه البحارُ العيالم[1]

لئن قد طواه الموت عنا فذكره — من العلم منشور على الدهر دائم

رُزئناه حَبرًا في الطريقة مرشدًا — به اتضحت للسالكين المعالم

عفت أرْبُع الإرشاد بعد ارتحاله — وكانت به منها تقام الدعائم

حليف التُّقى ما دنَّس الدهر ثوبه — بإثمٍ ولا مرت عليه المحارم

ترحَّل للأخرى وأبقى مناقبًا — تضيء من الدنيا بهن المواسم

يصوم نهار الصيف لله طائعًا — ويحيي الليالي وهو لله قائم

إذا ما بدا للقوم لاحت بوجهه — دلائل من نور الهدى وعلائم

ولما مضى للخلد قلت مؤرخًا: — «لقد بات في أعلى الفراديس قاسم»

[1] العيلم: البحر، أو البحر الزاخر.

غريق دجلة

يا من قضى بين المياه غريقَا أذكى فراقك في القلوب حريقا
قد كنتَ فينا دُرَّةً فلأجل ذا تَخذَ الحِمامُ لك المياه طريقا[1]
سَعْدَيْكَ يا «توماس» إنك لم تمت ما دام ذكرك في الحياة عريقا
لكن رَقيت إلى السماء لتُجتبَى لله في أعلى السماء رفيقا[2]
يا كوكبًا عجل الردى بأفوله من بعد ما ملأ السماء شروقا
إن كنت غبت عن العيون فإنما أُسكِنتَ طي قلوبنا مومقا[3]
عشقتك كل فضيلة وعشقتَها لله درُّك عاشقًا معشوقا
هَصرَتك أيدي الموت غصنًا ناضرًا تهتز في رَوض العلاءِ وريقا[4]
إن العراق على بضاضةِ قُطره أمسى بفقدك يابسًا معروقا
للَّه مَنعاك الجليلُ فإنه أعيا البليغَ وأخرس المِنْطيقا
إن كان شخصك بات في قيد الثرى فجميل ذكرك لا يزال طليقا

[1] تخذ: اتخذ.
[2] اجتباه: اصطفاه واختاره.
[3] ومقه: أحبه.
[4] الوريق: المورق.

شهداء الطيران

قضوا شـهداءَ ليس لـهم بواءُ فتمَّ لـهم على الدهر البقاءُ[١]
قضَوا لعزيزِ موطِنهم ضحايا فـهـم لـعـزيـز مـوطـنـهـم فـداء
لـهـم فـي مـوتـهـم هـذا حـيـاة مـخـلَّـدة يـجـلِّـلـهـا الـثَّـنـاء
تباشرت الجنانُ بهم فأمست بها من حسْنِ مقدَمهم بهاء
وحيًّا «جعفر الطيار» منهم نسورًا في الجنان لها اعتلاء

* * *

وطـائـرة مـرفَّـعـة الـذُّنـابَـى بـأجـنـحـة الـريـاح لـهـا ارتـقـاء
يجول بها من البنزين روحٌ كـمـا جـالـت بـأورِدَةٍ دمـاء
بعصر الكهرباء أتت فأمسى لـعـصـر الـكـهـربـاء بـهـا ازدراء
تـمـرُّ كـأنـهـا فـي الـجـوِّ نَـسْـر إلـى زُهْـر الـنـجـوم لـه انـتـمـاء
وتـخـتـبـط الـهـواء بـسـاعـديـهـا فتعصف منهما الريحُ الرخاء
فتمضي في السماء مُضِيَّ سهم عن القوس الشَّروح له ارتماء[٢]
فـيـبـصَـر كـالـنـجـوم لـهـا عـلـوٌّ ويـسـمـع كـالـرعـود لـهـا رغـاء
وقد ترمى الصواعقَ محرقات بـهـا فـي الأرض يـنـدكُّ الـبـنـاء

---

[١] البواء: المثل والند.

[٢] الشروح: الشديد الدفع للسهم.

قد امتطَوُا الرياحَ بها فطاروا إلى حيث احتفت بهم السماء
سَموْا فتضاءلوا فحكَوْا نجومًا يُصغِّرها بأعيننا السَّناء
وفيهم كان للأوطان حبٌّ وفي أوطانهم منهم رجاء

* * *

ألا يا طائرين قد استقلتْ بهم في الجوِّ ريحٌ جِرْبياء[٣]
لقد نزل القضاء بكم أليمًا ولا مَنجاة إن نزل القضاء
فمتم ميتة بيضاء منها بأعيننا قد اسودَّ الفضاء
لقد عَظمت مناحَتكم فقامت تنوح بها الحرائر والإماء
وَشقَّقت الجيوب لكم رجال ولطَّمت الخدود لكم نساء
غبطنا ميتةً قد أعقبتكم حياة ليس يدركها الفناء
لكم بسقوطكم شرفٌ ففيه لموطِنكم نهوضٌ واعتلاء
ولا تأسَوْا على الوطن المفدَّى ففي شبَّانه لكم الكِفاء
فهم خلفٌ لكم فيما أردتم ولولا ذَلِكُمْ عَزَّ العزاءُ

[٣] الريح الجربياء: ريح الشمال أو بردها.

إلى أمين نخلة

حُقَّ للدمع أن يكون نشيدا   في رثائي أبا أمينِ رَشيدا
ألمَعيٌّ تبوَّع المجدَ حتى   حاز منه قريبَه والبعيدا
وتعالى إلى أعاليه حتى   نال منه قديمه والجديدا
أنجبته أصولُ «نخلة» حتى   أطلعته للمجد طَلعًا نضيدا
فنما في بواسقِ المجد فردًا   مستظلًّا منهن ظلًّا مَديدا

* * *

كان شهمًا، إن جئته في المُلما   ت وقيذًا، أويْتَ ركنًا شديدا[1]
وشجاعًا إن جئته يوم هيْجٍ   تلقَ في الهيج بُهمة صنديدا[2]
وكريمًا زكت سجاياه حتى   كان بدْعا في المكرُمات فريدا
وفصيحًا إن أنشد القوم شعرًا   كان في الشعر مفلِقًا ومجيدا[3]
كان أطروفة الزمان ظريفًا   فكِهًا مازحًا رفيقًا سديدا
رقة فاقت النسيم إلى شد   ةِ بأسٍ تُفتت الجُلمودا
إن شدا بالقريض لم تبصر الأد   مع إلا مستحسًّا مستفيدا

---

[1] الوقيذ: الشديد المرض، المشرف على الموت.

[2] الهيج: الحرب. والبهمة: الشجاع.

[3] الشاعر المفلق: المبدع.

ساد في الناس يافعًا ثم كهلًا ثم شيخًا في التجربات عميدا
جُبلت نفسه من المجد حتى لـم نـجـده إلا لـخـيـرٍ مـريـدا
بلغ المنتهى من المجد حتى ليس في المستطاع أن يستزيدا
يا سليل الفقيد أعظِمْ بمجد قد رُزئناه في أبيك مَجيدا
أنـا شـاطـرتك الأسـى بـدموع كنَّ للحزن في الفؤاد وقودا
وتـأمـلـتُ مـنـك حـرًّا كـريـمًـا خَلفًا للفقيد ضاهى الفقيدا[٤]
عازمًا في الفعال أن يتسامى قـادرًا بـاجـتـهـاده أن يـسـودا
فـلــهـذا أقـول قـول مُـعَـزٍّ لك يرجو عمرًا طويلًا سعيدا
يـا أمـين الرشـيد أودعك الوا لد مجدًا في الماجدين تليدا
كيف لا نرتجي وأنت أمين أن تعيد المجدَ القديم جديدا؟!
إن يكن مُبدئين آباؤك الغُرُّ فـكـن أنـت يـا أمـين مُـعـيـدا

[٤] ضاهى: شاكل وماثل.

في يوم أبي غازي

القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر العرب الكبير الأستاذ معروف الرصافي في حفلة تأبين فقيد العرب العظيم المغفور له الملك فيصل الأول طيب الله ثراه.

أبو غازي قضى فأقِيم غازي ... فأنطقنا التهانيَ والتعازي
وأطلقنا المدائح والمراثي ... بإنشاءٍ لهنَّ وبارتجاز[1]
وجئنا حاشدين بصدر يوم ... حكى يومَيْ عكاظ وذي المجاز
غداةَ قلوبُنا امتلأت سرورًا ... وحزنًا يجريان على التوازي
فهنَّ بعامليْ فرح وحزنٍ ... خوافق في جوانحنا نوازي[2]
فكنَّ من ابتهاج في هدوءٍ ... وكنَّ من اهتياجٍ في اهتزاز

* * *

قضى بدرُ المكارم والمعالي ... وحيْدرة المعارك والمغازي
فيا لَلَّهِ يوم نعاه ناعٍ ... لمرزئة محتْ كل المرازي
رزئنا ابنَ الحسين فنحن منه ... برزء للحسين أولو اجتياز
فما مَيْز المحرَّم من جُمادى ... يفرِّق في البُكاء ولا امتياز

[1] الارتجاز: قول الرجز.

[2] النوازي: الواثبة الخافقة.

لـه كَفٌّ تـفـيـض نـدًى ونـبـلًا ... لها بهما غنًى عن حَزْوِ حاز[٣]
بـنـى مـجـدًا عِـراقـيًّـا جـديـدًا ... فأسسه على المجد الحجازي
وسار من السياسة في طريقٍ ... بـحـسـن الـرأي مُـعْـلـمة الطراز
فـمـا تـرك الـجـهـود بـلا نـجـاحٍ ... ولا فُـرَصًـا تـمـر بـلا انـتـهـاز
إذا اعتزم الأمورَ مضى وأمضى ... وإن سـلَّ الـمـهـنـد قـال مـاز[٤]

* * *

أبـا غـازي فـقـدنـا مـنـك قـرمًـا ... يُـنـاجـز دونـنـا يـوم الـنـجـاز[٥]
حللتَ من العراق وأنت رِكْزٌ ... بـحـيث الأرض جيدة الركاز[٦]
فَـحَـلَّ الـيُـمـن منذ حللت فيه ... وقـبـلًا كـان عـنـه ذا انـحـيـاز
لـقـد وُفـقـت بـالـقـلـم الـمـسـلـي ... كما وفقت بالسيف الجُراز[٧]
ومـهـدت الأمـور لـنـا فـفـزْنـا ... مـن الآمـال بـالـغـرر الـعِـزَاز
ودرَّت ذات أيـديـنـا وكـانـت ... كـحـلـب الـنـوقِ أيـام الـغـراز[٨]
ولـولا سـعـيُـك الـمـشـكـور كـنـا ... كـذي سـفـرٍ يـسـيـر بـلا جـواز
إذا الـمـكَّـاء أوتـيَ مـنـكَ حـظًّـا ... يـطـيـر إلـى الـعـلا بـجـنـاح بـاز[٩]

* * *

لأهـل الـرافـديـن عـلـيـك حـزنٌ ... لـه بـقـلـوبـهـم فـضـل ارتـكـاز
فـأنـت هـديـتـهـم سـبُـلَ الـمـعـالـي ... كـمـا جـنَّـبـتـهـم طـرق الـمـخـازي

---

[٣] حزو حاز: تبصر متبصر، والحازي الخبير بالأمور.

[٤] المهند: السيف من صنع الهند. وماز الشيء: فرزه عن غيره.

[٥] القرم: السيد. ويناجز: يقاتل.

[٦] الركز: الرجل الحكيم الكريم، والركاز: ما ركزه الله؛ أي أحدثه ودفنه في المعادن من ذهب وفضة وغيرهما.

[٧] السيف الجراز: القاطع.

[٨] درت ذات يده: اتسعت حاله واغتنى. وأيام الغراز: التي لا لبن فيها.

[٩] المكاء: طائر من القنابر، له تصعُّد وهبوط في الجو، أبيض اللون وله صفير حسن. والبازي: من الطيور الجارحة.

لئن لبسوا الحداد عليك حزنًا فقد ألبستهم ثوب اعتزاز
وما هو بالبكاء جزوك شيئًا ولكنَّ الإله هو المجازي

* * *

لقد قوَّيتنا من بعد عجزٍ به كنا نحيد عن البراز[10]
وكنا كالبغاث فقمتَ فينا بما صرنا به مثل البوازي[11]
فنحن اليوم إذ دهمت خطوب نظرنا للخطوب بطرف هازي
نقوم إلى الهياج بلا توانٍ ونبتدر الأمور بلا احتراز
فلَسْنا من صروف الدهر نخشى عَوادي ذاتَ سَلب وابتزاز
ونحن من الأُلَى في كل عصر عَزا لَهُمُ المكارمَ كلُّ عاز
نراعي الحق في سلم وحرب ونترك في مغارمنا التجازي
ولو شكت الحقيقة لانتزعنا شكايتها بتضحية المجاز
وقد علمت بنو آثور أنا أولو بأس يعرقب كل ناز
فنحن بسيفك الماضي جَززنا نواصي جمعهم أيَّ اجتزازِ

* * *

أَفَيْصَلُ نمْ بقبرك مستريحًا فإن الملك بعدك ملكُ غازي

[10] البراز: المبارزة والقتال.

[11] البغاث: طائر أغبر أصفر من الرخم، بطيء الطيران، يضرب به المثل في الضعف.

ذكرى الكاظمي

أنشدت في حفلة أقيمت في بغداد سنة ١٩٣٥ لتأبين شاعر العراق الشيخ عبد المحسن الكاظمي، وكان قد توفي بمصر.

ليس في غاية الحياة البقاءُ فلذا خاب في الخلود الرجاءُ

غير أن الحياة بالعز عند الرَّ جـل الـحـرِّ غـايـةٌ غـراء

أيُّ فخرٍ للناعمين بعيش لم تجلِّلْه عِزة قعساء؟!

حسبُ من رام في الحياة خلودًا أنـه بـعـد مـوتـه عَـلـواء

وكفى المرء بعد موتٍ حياةً أنَّ ذكراه حلوة حسناء

قد قضى الكاظميُّ وهو جديرٌ أن تعزَّى في موته الشعراء

عاش منسيَّ عارفيه ولمَّا مات فاضت بنعيه الأنباء

ذكرته نُعاته بنعوتٍ قبله حاز مثلَها العظماء

فلئن كان ما يقولون حقًّا أفهُم بالذي نسُوا لؤماء؟

كيف ينسَون في الحياة أديبًا عبقريًّا عنت له الأدباء

أفيُنسى حيًّا ويُذكر ميتًا إن هذا ما تنكر العقلاء

إن هذا أمرٌ يتيه ضلالًا في بوادي تفسيره الحكماء

ضحكوا منه في الحياة ومذ ما تَ تعالى نحيبهم والبكاء

أيها النادبون

أيـهـا الـنـادبـون غـيـريَ غـرُّوا ... بَـرَحَ الـيـومَ لـلَّـبـيـبِ الـخـفـاء[1]
يُـكـرم الـمـيـت بـالـثـنـاء وتـحـيـا ... عـنـدكـم فـي الـمـهـانـة الأحـيـاء
كلُّ من يـخـبـر الأنـاسيَّ خـبـري ... لا يـبـالـي أأحـسـنـوا أم أساءوا
أنا جرَّبتهم إلى أن تساوى الـ ... ـيومَ عندي سِبابُهم والثناء
غُـرِيَ الـنـاسُ بـالـهـوى فـضـلالٌ ... كـلُّ مـا يـفـعـلـونـه أو ريـاء[2]
قـد تـمـادى فـي الـقـائـلـين غـلـوٌّ ... وتـوالـى فـي الـفـاعـلـين ريـاء
أيـهـا الـكـاظـمـيُّ نَـمْ مـسـتـريـحًـا ... حـيـث لا مـبـغـض ولا إيـذاء
عشت في مصر باحترام يؤدِّيـ ... ـه إلـيـك الأمـاثـل الـفـضـلاء
إنَّ لـلـنـيـل مـن جـزائـك شـكـرًا ... سـتـؤدِّيـه دجـلـة الـلـسـنـاء
لـم تـعـش عـيـشـة الـرفـاه ولـكـن ... لـك فـي الـعـيـش عـزة وعـلاء
أيُّ حر في الشرق عاش سعيدًا ... لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئًا إذ لم تعش في العراقيـ ... ـن مـضـاعًـا تـنـتـابـك الأرزاء
من شقاء العراق أنَّ ذوي النعـ ... ـمـة فـيـه أجـانـب غـربـاء
إن جـفـتـنـا بـلادنـا فـهـي حِـبٌّ ... ومـن الـحِـبِّ يُـسـتـلـذُّ الـجـفـاء
لـم نـحـل عـن عـهـودنـا مـذ جـفـتـنـا ... بـل لـهـا الـودُّ عـنـدنـا والـوفـاء
قـد بـكـيـنـا شـجـوًا عـلـيـهـا ومـنـهـا ... وعَـنـانـا سَـقـامـهـا والـشـقـاء
كم أردنا سخطًا عليها ولكن ... غلب السخطَ في القلوب الرضاء
إنـمـا هـذه الـمـواطـن أمٌّ ... مُـسـتـحِـق لـهـا عـلـيـنـا الـولاء
إن خـدَمـنـا فـلا نـريـد جـزاء ... ومـن الأم هـل يُـراد جـزاءُ؟!

[1] برح الخفاء: زال اللبس والغموض.

[2] غري الناس بالشيء: أولعوا به.

رثاء شوقي شاعر مصر الأكبر

ألقيت في الحفلة التأبينية الكبرى في نابلس سنة ١٩٣٢.

الشعر بعد مصابه بكبيرهِ ... في مصر جل مصابه بأميرهِ
بيناه يبكي حافظًا بشهيقه ... إذ قام يبكي أحمدًا بزفيره
لم يقضِ بعض حداده لنصيره ... حتى أحدَّ أسًى لفقد مجيره
ما إن خبت في الأفق شعلة نوره ... حتى انطوت في الجو لمعة نوره
بالأمس ظل مرزَّأً بمبينه ... واليوم بات مفجعًا بمنيره
أخذت فرزدقهُ المنون وضاعفت ... جُلى مصيبته بأخذِ جريره
رزآن ملتهبان قد نضحتهما ... عين العلا من دمعها بغزيره
فالشعر بعدهما استطال بكاؤه ... وتموَّجت بالحزن كل بحوره
وهزاره ترك الصداح وليثه ... أمنت أعاديه سماع زئيره

* * *

يا نيِّرًا فجع القريض بموته ... فبكته عين وزينه وكسيره
وخلت سماء الشعر بعد أفوله ... من مشرقات شموسه وبدوره
ومؤمَّرًا لم تنتفض بوفاته ... في الشعر بيعته على تأميره
إذ لن يقوم نظيره من بعده ... هيهات أن تأتي الدُّنا بنظيره
لك في الخلود مكانة ما نالها ... فرعون في ديماسه وحفيره
إن الدفين مضمخًا بحنوطه ... دون الدفين محنطًا بشعوره
إن المتوَّج فوق عرش ذكائه ... يعلو المتوَّج فوق عرش سريره

ما مات من تركت لنا أقلامه صورًا خوالد من بنات ضميره
صورًا تمثل ذاته وصفاته حتى يقمن لنا مقام نشوره
فكأنه وهو الدفين بقبره حيٌّ يعيش بحزنه وسروره
وكأنه في القوم ساعة حفلهم متكلم بنظيمه ونثيره
لأبي عليٍّ من قريحة شعره وحيٌ أتى من جبرئيل شعوره
كم قد رمى الغيب الخفي فؤاده بذكائه فأصاب كشف ستوره
وتصور المعنى الدقيق فردَّه كالصبح مفتلقًا أوانَ ظهوره
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى من وشي سندس لفظِهِ وحريره
فالشعر قد دكت جبال فنونه إذ موت شوقي كان نفخة صوره
يا راحلًا ترك القوافي بعده محتاجة المحيا إلى تفكيره
لهفي على ذيَّالك القلم الذي يتطرب الأرواح لحن صريره
الشعر كنت أميره وسميره فمن المسامر بعد فقد سميره
حرَّرته من رق كل تصنع فبدت فنون الحق في تحريره
سخَّرت من أوتاره ما لم يكن ليطيع غيرك قط في تسخيره
ولكم شدوت بنغمةٍ من بُمَّهِ ولكم صدحت بنغمة من زيره
تتمايل الأبدان في إنشاده طربًا وليس يمل من تكريره

* * *

يا أهل مصر عزاءكم فمصابكم أمر قضاه الله في تقديره
الشعر قد ثُلَّت بمصر عروشه بوفاةِ سيدهِ وموت أميره
علمان من أعلامه كنا به يتنازعان السبق في تحبيره
لكليهما الهرمان قد خشعا أسًى والنيل مدَّ أنينه بخريره

نسائيات

المرأة في الشرق

ألا ما لأهل الشرق في بُرَحاءِ | يعيشون في ذُلٍّ به وشقاءِ[1]
لقد حكَّموا العادات حتى غدت لهم | بمنزلة الأقياد للأسراء[2]
إذا تختبرهم في الحياة تجدْ لهم | حياة تخطت خُطة السعداء
وما ذاك إلا أنهم في أمورهم | أبَوْا أن يسيروا سيرةَ العقلاء
لقد غمطوا حق النساء فشدَّدوا | عليهن في حبْسٍ وطول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا | عليهن إلا خَرْجةً بغطاء
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم | يغارون من نورٍ به وهواء
قد انتبذوا عنهنَّ في العيش جانبًا | فما هن في أمر من الخُلطاء
وقد زعموا أن لَسْن يصلحن في الدُّنا | لغير قرار في البُيوت وباء[3]
فما هنَّ إلا متعة من متاعهم | وأن صِنَّ عن بيع لهم وشراء
أهانوا بهنَّ الأمهات فأصبحوا | بما فعلوا من ألأم اللؤماء
ولو أنهم أبقوا لهن كرامةً | لكانوا بما أبقوا من الكرماء
ألم ترهم أمسوا عبيدًا لأنهم | على الذل شبُّوا في حجور إماء

[1] البرحاء: الشدة والأذى، أو الشر.

[2] الأقياد: القيود.

[3] الدنا: جمع دنيا.

وهان عليهم حين هانت نساؤهم تَحمُّل جور الساسة الغرباء
فيا قوم إن شئتم بقاءً فنازعوا سواكم من الأقوام حَبل بقاء
أيسعد محياكم بغير نسائكم وهل سعدتْ أرضٌ بغير سماء؟!
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثل حالَيْ عِزَّةٍ وإباء
ولكنَّ عارًا أن تزيَّا رجالكم على مسرح التمثيل زِيَّ نساء
أقول لأهل الشرق قول مؤلِّبٍ وإن كان قولي مُسخِط السفهاء
ألا إن داء الشرق في كبرائهِ فبُعدًا لهم في الشرق من كبراء
وأقبح جهل في بني الشرق أنهم يسمُّون أهل الجهل بالعلماء
وأكبر مظلوم هو العلم عندهم فقد يَدَّعيه أجهل الجهلاء
لو اقتصَّ أهل العلم للعلم منهمُ لصَبَّ عليهم منه سَوطَ بلاء
ولاستأصل الموتُ الوحيُّ نفوسهم ونادى عليهم مؤذنا بفناء[4]
ولكنَّ حلم اللَّه أبقى عليهمُ فعاشوا ولو في ذلة وشقاء
لقد مزَّقوا أحكام كل ديانةٍ وخاطوا لهم منها ثيابَ رياء
وما جعلوا الأديان إلا ذريعةً إلى كل شغبٍ بينهم وعداء
فما علماء الجهل إلا مَساقمٌ رمت جهلاء العلم بالقُوَباء[5]
ألا يا شباب القوم إني إلى العُلا لدَاعٍ فهل من يستجيب دعائي
أمَا آن للأوطان أن تنهضوا بها لإدراك مجد وابتغاء علاء
فقد بحَّ صوتي واستشاطت جوانحي وقلَّ اصطباري واستطال بكائي
على أن لي فيكم رجاءً وإن يكن من اليأس مسدودًا طريقُ رجائي
وما أنا في وادي الخيال بهائمٍ وإن كنت معدودًا من الشعراء

---

[4] الموت الوحيُّ: السريع.

[5] القوباء: داء معروف.

نساؤنا

إلى صاحبة مجلة الخدر

ألا خلِّياني في الكلام من السَّجْعِ ... ولا تجريا في القول إلا على الطبعِ
وإن أنا أرسلت الحديث فأصغيا ... وإلا فما يجدي لسمعكما قرعي
فإني ما أطلعتُ شمسَ حقيقة ... لمستمع إلا لتغرب في السمع
ولست أبالي بعد إفهام سامعي ... أكان بخَفضِ لفظ ما قلت أم رفع[1]
وإني إذا قبَّلت رأسًا ولم أجد ... به فضل عقل كان أجدر بالصفع
إذا كان علم الأصل عنديَ حاصلًا ... ففيمَ اهتمامي بعد ذلك بالفرع
فإن بانَ لي سير الكواكب لم أبلْ ... أكان بجذبِ ذلك السير أم دَفع
شكوت إلى ربِّ السموات أرضه ... وما الأرض إلا من سمواته السبع
فقد جار في الأرض البسيطة خَلقُه ... على خلقه جَوْرًا إلى الحزن يستدعي
وإن السموات العلا لكثيرةٌ ... وإن لم نَعُدَّ اليوم منها سوى تسع
وإني لأشكو عادةً في بلادنا ... رمى الدهر منها هضْبة المجد بالصدع
وذلك أنَّا لا تزال نساؤنا ... تعيش بجهلٍ وانفصالٍ عن الجمع
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم ... يَعُدُّون تشديد الحجاب من الشرع
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشَها ... وإسكاتُها فوق الغصون عن السجْع؟!

[1] الخفض والرفع: من مصطلحات النحو ومراد الشاعر أنه لا يتأنق ولا يعرب في عبارته.

وقد أطلق الخلَّاق منها جناحها وعلَّمها كيف الوقوع على الزرع
فتلك التي ما زلت أبكي لأجلها بكاء إذا ما اشتد أدَّى إلى الصرْع
بكيتُ بلا دمع ومن كان حزنه شديدًا بكى من غير صوتٍ ولا دمع
فيا ربَّةَ الخدر اسمعي ما أقوله لعل مقالي فيه شيءٌ من النفع
أيا ابنة «فندي» إن للمجد غايةً وإنَّيَ في إدراكها باذلٌ وُسْعي
وإني أرى في القوم بعض مخايل وأحذر من أن ينقَشِعن بلا همع[٢]
فقد لا يُروِّينا السحاب بمائه وإن كان فيه البرق متصلَ اللمع
يقولون لي: إن النساء نواقصٌ ويُدْلون فيما هم يقولون بالسمع
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدي وما أنا في إنكار ذلك بالبِدْع
إذا النخلة العَيْطاء أصبح طلعها ضعيفًا فليس اللوم عندي على الطلع[٣]
ولكن على الجِذع الذي هو نابتٌ بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع
ووالله ما أن ضقتُ ذرعًا بقولهم ولكنما قد ضاق من فعلهم ذرعي
أمزِّق دعواهم إذا ما طعنتها ولو أنها كانت من الدين في درع
ألا فاصدعي يا ربَّةَ الخدر بالذي ترَيْنَ من الآراء في الرد والردع
فأنتِ مثالٌ للكمال الذي حوى من العلمِ أسبابًا تجلُّ عن القطع
أدامك ربُّ الناس للناس حجة على من نَمى نقصَ النساء إلى الطبعْ

[٢] المخايل: جمع مخيلة وهي السَّحابة المبشرة بالخير، ضربها مثلًا للصفات التي تنبئ عن حسن الاستعداد في الإنسان. والهمع: الأمطار.

[٣] العيطاء: المرتفعة. والطلع: الثمر.

حرية الزواج عندنا

ظلموكِ أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيَبا
طمِعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفضول هاتيك المطامع أشْعبا
أفكوكبٌ نحسٌ يقارن في الورى من سعد أخبية الغواني كوكبا
فإذا رفضتِ فما عليك برفضه عارٌ وإن هاج الوليُّ وأغضبا
إن الكريمة في الزواج لحرَّة والحر يأبى أن يعيش مذبذبا
قلب الفتاة أجلُّ من أن يُشترى بالمال لكن بالمحبة يُجتَبى[1]
أتُباعُ أفئدة النساء كأنها بعض المتاع وهن في عهد الصبا
هذا لَعَمْرُ الله يأبى مثله من عاش ذا شرف وكان مهذبا
بيت الزواج إذا بنوه مجددًا بالمال لا بالحب عاد مخربا
يا من يُساوم في المهور مغاليًا ويميل في أمر الزواج إلى الحِبا[2]
أقصرْ فكم من حرة مذ أنزلت من منزل الرجل الغنيِّ بها نَبا
إن الزواج محبة فإذا جرى بسوى المحبة كان شيئًا متعبا
لا مهرَ للحسناء إلا حبَّها فبحبِّها كان القِران محبَّبا
خير النساء أقلُّها لخطيبها مهرًا وأكثرها إليه تحببا

[1] يجتبى: يختار ويصطفى.
[2] الحبا: المهر، وأصله: الحباء، ممدود.

وإذا الزواج جرى بغير تعارفٍ وتحبُّبٍ فالخير أن نترهبا
هو عندنا رميُ الشباك بلُجةٍ أتصيب أخبثَ أم تصادف أطيبا
أو مثلَ محتطبٍ بليل دامس أيدوسُ أفعى أم يلامس عقربا
ولقومنا في الشرق حالٌ كلما زدتُ افتكارًا فيه زدت تعجبا
تركوا النساء بحالةٍ يرثى لها وقَضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للألى ضربوا الحجاب على النِّسا: أفتعلمون بما جرى تحت العَبا؟
شرفُ المليحة أن تكون أديبةً وحجابها في الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نِقابه أغنى فتاة الحيِّ أن تتنقبا
واللؤم أجمعُ أن تكون نساؤنا مثلَ النعاج وأن نكون الأذْؤبا
هل يعلم الشرقيُّ أن حياته تعلو إذا رَبَّى البنات وهذبا
وقضى لها بالحق دون تحكُّمٍ فيها وعلمها العلوم وأدَّبا
فالشرق ليس بناهض إلا إذاً أدنى النساء من الرجال وقربا
فإذا ادَّعيتَ تقدمًا لرجاله جاء التأخُّر في النساء مكذبا
من أين ينهض قائمًا مَن نِصْفُه يشكو السقام بفالِج متوصِّبا؟![3]
كيف البقاء له بغير تناسُبٍ والدهر خصص بالبقاء الأنسبا؟!
والشعر ليس بنافع إنشاده حتى يكون عن الحقيقة مُعربا
تلك الحقيقة للرجال أزفها ولها أقيم من القوافي موكبا

[3] المتوصب: المريض.

المرأة المسلمة

لم أرَ بين الناس ذا مظلِمهْ　　　أحق بالرحمة من مُسلمهْ
منقوصةٍ حتى بميراثها　　　محجوبة حتى عن المكرمه
قد جعلوا الجهل صوانًا لها　　　من كل ما يدعو إلى المَأثمه[1]
والعلم أعلى رتبة عندهم　　　من أن تلقَّاه وأن تعلمه
ما تصنع المرأة محبوسةً　　　في بيتها إن أصبحت مُعدِمه؟!
ضاقت بها العيشة إذ دونها　　　سُدت جميع الطرُق المُعلمه

* * *

كم في بيوتِ القوم من حُرَّةٍ　　　تبكي من البؤس بعيني أمَهْ
قد لوَّحت نارُ الطوَى وجهها　　　وأعمل الفقرُ به مَيْسَمه
عاب عليها قومها ضِلَّةً　　　أن تكسب القوت وأن تطعمه
من أيِّ وجه تبتغي رزقها　　　وطُرقها بالجهلِ مستبهمه
وكيف والقوم رأوا سعيها　　　في طلب الرزق من الملأمَه

* * *

وكم فتاة فقدت بعلَها　　　من بعد ما قد ولدت توءمه

[1] الصوان، بتثليث الصاد: ما يصان به الشيء ويحفظ.

فانقطعت في العيش أسبابُها وأصبحت للبؤس مُستسلمه
تبيت لم تحمد لِفرط الجوى لا قمر الليل ولا أنجُمه
من حيث لا تملك من دهرها ما جلَّ أو دقَّ ولو سِمسمه
جفَّ على مُرضعها ثديُها فاضطرها ذلك أن تفطِمه
فعاش عيشَ الأمِّ لم يوفهِ ملبسه الدهر ولا مَطعمه
فشب منهوكَ القوى مثلها يشكو من الدهر الذي أيتمه

* * *

فهذه حالةُ نِسواننا وهي لعمري حالة مؤلمه
ما هكذا يا قوم ما هكذا يأمرنا الإسلام في المسلمه
فهل بكم من راحمٍ للنسَا فهنَّ أولى الناس بالمرحمه؟

التربية والأمهات

هي الأخلاق تنبت كالنباتِ إذا سُقيتْ بماء المَكرُماتِ
تقوم إذا تعهدها المُربِّي على ساق الفضيلة مُثمِرات
وتسمو للمكارم باتِّساقٍ كما اتسقت أنابيبُ القناة[1]
وتنعش من صميم المجد رُوحًا بأزهار لها مُتضوِّعات
ولم أرَ للخلائق من محلٍّ يُهذِّبها كحِضن الأمهات
فحضْن الأمِّ مدرسة تسامتْ بتربية البنين أو البنات
وأخلاقُ الوليدِ تقاسُ حسنًا بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيبُ عاليةِ المزايا كمثل ربيبِ سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنانٍ كمثل النبت ينبت في الفَلاة

* * *

فيا صدرَ الفتاة رَحُبْتَ صدرًا فأنت مَقرٌّ أسنى العاطفات
نراك إذا ضممتَ الطفل لَوْحًا يفوق جميع ألواح الحياة
إذا أستند الوليدُ عليك لاحت تصاويرُ الحنانِ مصوَّرات
لأخلاق الصبيِّ بك انعكاسٌ كما انعكس الخيالُ على المِراة
وما ضَرَبانُ قلبك غير درس لتلقينِ الخصال الفاضلات

[1] القناة: الرمح وكل عصا مستوية.

فأوَّل درس تهذيب السجايا يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظنُّ بالأبناء خيرًا إذا نشئوا بحضن الجاهلات؟!
وهل يُرجَى لأطفالٍ كمالٌ إذا ارتضعوا ثُدِيَّ الناقصات؟!
فما للأمَّهات جهلْنَ حتى أتَيْن بكل طيَّاشِ الحصاة؟![٢]
حَنوْنَ على الرضيع بغير علم فضاع حنُوُّ تلك المرضعات

* * *

أأُمَّ المؤمنين إليك نشكو مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أمُّ منها «نكاد نغَصُّ بالماءِ الفراتِ»
تخِذْنا بعدك العادات دينًا فأشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنَّ سبيلَ خُسرٍ وصدُّوهنَّ عن سبل الحياة
بحيث لزِمْن قعرَ البيت حتى نزلنَ به بمنزلة الأدَاة[٣]
وعَدُّوهن أضعف من ذبابٍ بلا جنح وأهون من شذاة[٤]
وقالوا: شِرعةُ الإسلام تقضي بتفضيل «الذين على اللواتي»
وقالوا: إنَّ معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا: الجاهلات أعفُّ نفسًا عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الإسلام كِذْبًا تزول الشمُّ منهُ مزَلزَلات
أليس العلم في الإسلام فرْضًا على أبنائِه وعلى البنات
وكانت أُمُّنَا في العلم بحرًا تحل لسائِليها المشكلات
وعلَّمها النبيُّ أجلَّ علمٍ فكانت من أجلِّ العالمات
لذا قال: ارجِعُوا أبدًا إليها بثلثي دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقينًا فأمْسى يُحصَّل بانتياب المَدرَسات
وبالتقرير من كتبٍ ضخامٍ وبالقلم الممَدِّ من الدواة
ألم ترَ في الحسان الغيدِ قبلًا أوانس كاتباتٍ شاعراتِ

[٢] الطياش: الذي لا يقصد وجهًا واحدًا لخفة عقله. والحصاة: العقل والرأي.
[٣] الأداة: الآلة، يريد بها ما يستعمل في البيوت كالآنية، والشاعر يقرع بذلك بعض من لا أخلاق لهم.
[٤] الشذاة: كسر العود.

وقد كانت نساء القوم قِدْمًا يرُحْنَ إلى الحروب مع الغزاة

يكنَّ لهم على الأعداء عونًا ويضمِدن الجروح الداميات

وكم منهن من أُسرَت وذاقت عذاب الهُون في أسر العُداة

فماذا اليوم ضرَّ لو التفتنا إلى أسلافنا بعض التفات!

فهم ساروا بنهج هُدًى وسرنا بمنهاج التفرق والشتات

نرى جهل الفتاة لها عَفافًا كأنَّ الجهل حصن للفتاة

ونحتقر الحلائلَ لا لجُرْمٍ فنؤذيهن أنواع الأذاة

ونلزمهن قعر البيت قهرًا ونحسبهن فيه من الهَنات[٥]

لئن وأدوا البنات فقد قَبرنا جميع نسائِنا قبل الممات

حجبناهن عن طلب المعالي فعشن بجهلهن مُهَتَّكات

ولو عَدمت طباع القوم لؤمًا لما غدت النساءُ محجَّبات

وتهذيب الرجال أجلُّ شرط لجعل نسائهم مُتهذبات

وما ضرَّ العفيفة كشفُ وجهٍ بدا بين الأعفَّاء الأباة

فِدًى لخلائق الأعراب نفسي وإن وُصفوا لدينا بالجُفاة

فكم برزت بحبِّهم الغواني حواسِرَ غير ما متريِّبات

وكم خِشفٍ بمربعهم وظبي يَمرُّ مع الجداية والمهاة[٦]

ولولا الجهل ثَمَّ لقلتُ مَرحَى لمن ألِفوا البدَاوة في الفلاة

[٥] الهن: كناية عن كل جنس، ومعناه شيء ومؤنثة هنة، وجمعها هنوات وهنات، يريد بذلك أننا نحسب المرأة من جهلنا شيئًا من أشياء البيت.

[٦] الخشف والظبي: الغزال. الجداية والمهاة: الغزالة، وفي الكلام مجاز لا يخفى.

المهجور أو مشهد الحسد في الحزن

وبيضاءَ أغْناها عن الحلي ثغرُها بِسمْطين من درٍّ مُضيئين في الثغر[١]
إذا ابتسمت في ظلمة اليأس أشرقا فعُدنا من الآمال في أنجم زُهر
نرى وجهها بدرًا محاطًا من السنا بصبحين من ثغرٍ وضيءٍ ومن نحر
يذكرني من مطلع الشمس شعرُها ذوائبَ تُرخى من أشعتها الصفر
تراءت فأمَّا نفسها فحزينة وأما محيَّاها فكالكوكب الدرِّي
بدت في حِداد ترسل الطرْف وانيًا يُغَض على وَجدٍ ويُفتح عن سِحر
رأيت بها بدرًا تردَّى دُجُنة غداة أُميط السجفُ من جانب الخدر[٢]
فكانت لها سودُ الجلابيب حلية ولا عجب أنَّ الدجى من حِلى البدر
تَبسَّم حينًا ثم تجهش بالبكا فمن لؤلؤ تُبدي ومن لؤلؤ تذري[٣]
كأنَّ تلاميحَ الأسى في جبينها بقايا ظلام الليل في غُرَّة الفجر
وكم أبصرتْ عيناي لما تنهدت تموَّح بحر الحب من عاصف الهجْر
فقد كان منها الصدرُ يعلو ويرتمي فيبعث بي شَجوًا يموج به صدري
ومما شجا نفسي ذبولٌ بخدِّها كما ذبلت في بيتها باقة الزهر

[١] السمط: العقد.

[٢] الدجنة: الظلمة.

[٣] أذرى الدمع: أسقطه.

ولما انقضى صبري وقفت تجاهها أسائل عما ناب من نُوَبِ الدهر
فقالت وقد ألقت على الصدر كفَّها تشد ضلوعًا يَنطوين على جمر:
لك الخير من حُرٍّ يسائل حرَّة شكت هجر بَعْلٍ لم يكن بالفتى الحر
سقاني بكأس الحبِّ حتى شربتها ولم أدرِ أن الحب ضرب من الخمر
فلما رآني قد سَكرتُ بحبه صحا قلبه من حيث لم أصْحُ من سكري
ألا إنَّ قلبي اليوم إذ مسَّه الجَوَى وإذ مالَ بعلي في هواي إلى الغدر
لَيفزعُ ممن يدَّعي الحب قلبه كما فزعت قُمرية الروض من صقر
على أن قلبي لم يعد عنه صابرًا ألا لا أمالَ الله قلبي إلى الصبر
إذا أشرقت شمسي تناسيت ذكره وإن جَنَّ ليلي بت منه على ذِكرِ
وإني على ما نابني من جفائه لأقنع منه بالخيال الذي يَسري
ولما شكت لي حُرقَة في فؤادها ترقرق دمع العين في خدها يجري
أرى قطراتِ الدمع في وجناتِها فأحسبها الياقوت رُصِّع بالدرِّ
هنالك ألقت راحتيها بوجهها تكفكف أسرابًا من الدمع بالعَشر
وقالت وقد كان النشيجُ يصدُّها عن القول إلا عن كلام لها نَزْر:
سأحمل ما قد حمَّلتني يد الهوى من الوجد حتى يحملوني إلى القبر
فقلت: أما والله لو أنَّ لي يدًا على كل حكم جاء من ظالم الدهر
لشدَّدت في زَجْر المحبين إن جفَوا وعاقبت منهم من يميلُ إلى الهجر

إلى الحجابيين

لمناسبة كتاب «السفور والحجاب» للآنسة نظيرة زين الدين.

قل للحجابيين كيف ترونكمْ — من بعد سِفْر للسُّفور مبينِ؟
كشفتْ به ما كان من حجُب العمى — عنكم «نظيرةُ» بنت «زين الدين»
سِفر أقام على السفور أدلَّةً — تركت ذُبابكُم بغير طنين
يا لاجئين إلى العناد خصومة — ما كان حصن عنادكم بحصين
هل من نظير بينكم لنظيرةٍ — أو من فقيه مثلها وفطين
هدمت «نظيرة» ما بَنَت عاداتكم — من كل سجنٍ للنساء مَهين
أفتمكُثون على العناد وقد بدا — من بعد ليل الشك صبح يقين؟!
نحن — السُّفوريين — أعلم بالذي — شرَع النبيُّ محمد من دين
أيكون ما شرع النبيُّ محمد — شيئًا يخالف شِرعة التَّمدين؟!
إنَّ اعتزالكم النساء ترفعًا — أمرٌ يناقض حكمة التكوين
حتى رجال الصين تحترم النسا — أفنحن ننقص عن رجال الصين
كلا ولكن عادة همجية — جعلتكمُ حَرْبًا لكل حَسينِ[1]

[1] الحَسين: الحسن.

هوان المرأة عندنا

ما أهون الأنثى على ذُكْرانِنا! فلقد شجاني ذلُّها وخضوعها
ضَعُفَت فحجتها البكاء لخصمها وسلاحها عند الدفاع دموعها
هى مُتعةُ المستمتعين ولَيتها كانت لزامًا لا يجوز مبيعها!
فوليُّها عند الزواج يبيعها وحليلها عند الطلاق يُضيعها
وكلاهما متحكِّمٌ في أمرها هذا يعرِّيها وذاك يُجِيعها

التاريخيات

ضلال التاريخ

أقولُ، وطرفي في المحال مُحدِّقُ: أبالدهر مسٌّ أم بأهليهِ أولَقُ؟![1]
أما لِلُغَيْزاءِ الزمان مفسِّرٌ فقد حار فيها الألمعيُّ المدقِّقُ؟![2]
لقد خامرتني في الزمان وأهله شكوكٌ عليها يُعذَر المتزندق
أرى الدهرَ في أمرين يعمل دائبًا صنَاعَ اليدين فيهما يتأنق[3]
يُجدِّد للموتى مناقبَ لم تكن لديهم وللأحياء يُبلي ويُخلِق
فكم من قبور عظَّم الناس أهلَها بما لم يكن عند النُّهى يتحقق
ورُبَّ امرئٍ قد عاش يستقطر الثنا فلما قضى سال الثنا يتدفق
سقى الدهر للأموات غرس مناقبٍ بميْنٍ فظل الغرْس ينمو فيبسُق[4]
أرى كلَّ ميتٍ ما تقادم عهده تُقام له سوقُ الثناء فتنفُقُ[5]
فأقربهم عهدًا أقلُّ غَضاضة وأقدمهم عهدًا أغضُّ وأسمَقُ[6]

[1] الأولق: الجنون.
[2] لغيزاء: تصغير لغز.
[3] رجل صنع اليدين وصناع اليدين وصنيع اليدين: حاذق ماهر في العمل بهما.
[4] المين: الكذب.
[5] تنفق: تروج.
[6] الغضاضة: مصدر الغض، وهو الطري من النبات واللحم ونحوها.

كأن كرامات الفقيد بواسق　　يؤبِّرها كر القرون فتعذق![7]
إذا شطَّ جيلٌ خط من جاء بعده　　أكاذيب عنه بالثناء تُزوَّقُ[8]
فما كتب التاريخ في كل ما روَت　　لقرَّائها إلا حديثٌ ملفَّقُ
نظرنا لأمر الحاضرين فرابَنا　　فكيف بأمر الغابرين نصدِّق؟!
وما صدَقتنا في الحقائق أعينٌ　　فكيف إذن فيهن يصدق مُهرق؟![9]
وهل قد خُصِصنا دون من مات قبلنا　　بخُبث السجايا؟ شدَّ ما نَتَحمَّق![10]

* * *

لعَمْرك أقصاني الزمان المفرِّقُ　　فهل أنا من بعد التشاؤم مُعرِق؟[11]
خليليَّ هل مَنْ بالرصافة عالمٌ　　بأنِّي إلى من بالرُّصافة شيقُ[12]
بلادٌ إذا ما هبَّت الريح نحوها　　تمنيتُ لو أنِّي بها أتعلق
أبيتُ على شوق وقلبيَ موثَقٌ　　بهمِّي ودمعي فوق خدَّيَّ مُطلق
إذا ما تذكَّرت العجوزَ بكيتُها　　بدمعٍ به الأهداب تطفو وتغرق[13]
وما شَرَقي بالدمع يا أمُّ وحدهُ　　ولكن بروحي عند ذكراك أشرَق
ويهفو بقلبي الشوق حتى كأنما　　تخطَّفه من بين جنبيَّ سوذَقُ[14]
فيا أمُّ صبرًا إن لابنك همَّة　　إلى المجد ترمي أو إلى المجد تسبِقُ
تضايقَ عنها الدهر مستعظمًا لها　　وأهلوه عنها يا أميمة أضيق
أكلفَ منها الدهر ما لا يطيقه　　فليس بعارٍ أنني فيه مخفق
لقد صَغُرت بغداد عن أن تضمَّها　　وما وسعتْها بعد بغداد جلَّق[15]

[7] يؤبِّرها: يلقحها. وتعذق: تثمر.

[8] تزوق: تخلط وتموه.

[9] المهرق: نوع خاص من الصحف، كانوا يكتبون عليه كتب المعاهدات ونحوها.

[10] شد ما نتحمق: ما أشد حماقتنا!

[11] التشاؤم هنا: الذهاب إلى الشأم، ومعرق: داخل العراق، ويقال: أشأم: فهو مشئم، وأعرق: فهو معرق.

[12] شيق: مشتاق.

[13] يريد بالعجوز أمه.

[14] السَّوذق: الصقر أو الشاهين.

[15] جلق: دمشق.

ومنها:

أبت كتب التاريخ للحق مُلتقًى | فبينهما من زُخرف القول مَوبِق[16]
فإن شرَّقت في الحق فهو مغرِّبٌ | وإن غرَّبت في الحق فهو مشرِّق
تجور بها الأهواء جورًا وإنما | على مُزْلقات المَين تمشي فتزْلقُ
فيا أيها التاريخ أغرِق مُغاليًا | فما ضرَّ بعد اليوم أنك مُغرق
قتلت الورى خُبرًا فليس بخادعي | حديثٌ مُطرًّى أو كلامٌ مُنمَّق
ولي في بني الدنيا حَصاةٌ رزينة | إذا طاشَ حِلمٌ لا تطيشُ وتُنزَق[17]

ومنها:

هذاذَيْكَ لا تجفِل مقالَ مؤرِّخ | ولا يستفزَّنك الكلامُ المشقق[18]
كِذابٌ على وجه الطروس مسَطَّرٌ | يَغصُّ به العقل السليم ويشرَق
فدع عنك لغوَ الناطقين وخذ بما | رواه من الآثار ما ليس ينطِق
فإن ذكروا النعمانَ يومًا فلا تثق | بأكثرَ مما قال عنه الخوَرنق[19]
فأصدقُ منهم في المسامع لهجة | ضفادع في المستنقعات تُنقنِقُ
تنوَّرتُ وجهَ الحق في ظلماتهم | فلم أرَ نورًا غير ذا يتألق
ملكت من الدنيا حقيقة أهلها | وإني على الدنيا بها أتصدَّقُ

[16] الموبق: الحاجز بين الشيئين.

[17] حصاة: عقل. وتنزق: تطيش وتضل.

[18] هذهذ: أسرع، وهذاذيك: إسْرَاعًا بعد إسْرَاعٍ. الكلام المشقق: الفصيح الذي ذهب فيه القائل مذاهب التجميل والتحسين.

[19] الخورنق: من آثار ملوك الحيرة، يريد لا تثق بأخبار الكتب، وعوِّل على ما ينطق به البناء من عظمة صاحبه.

جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي

ألا لفتة منا إلى الزمن الخالي فنغبِط من أسلافنا كل مفضالِ!
تَلونا أناسًا في الزمان تقدمُوا وكم عِبرَةٍ فيمن تقدَّم للتالي!
ألا فاذكروا يا قوم أربع مجدكم فقد درست إلا بقية أطلالِ
تطلبتمُ صفوَ الحياة وأنتمُ بجهلٍ، وهل تصفو الحياةُ لجُهَّالِ
وما أنتمُ إلا كسكرانَ طافحٍ تحسَّى من الصهباءِ عشرة أرطال[1]
مشى بارتعاشٍ في الطريق فتارةً يقوم وأخرى ينهوي فوق أوحال
يمدُّ إلى الجدران كفَّ استنادةٍ فتقذفه الجدران قذفة عذال

* * *

رمى الدهر قومي بالخمول فلمتهم وأوسعتهم عذلًا فلم يُجْدِ تَعذالي[2]
فهاج البكا يأسي فلمَّا بكيتهم بدمعيَ حتى بَلَّ دمعيَ سِربالي
نظرت إلى الماضي وفي العين حُمرةٌ كأنّ على آماقها نضحَ جرْيال[3]
فشمتُ بروق الأولين منيرةً على أفقٍ من ذلك الزمن الخالي[4]

[1] تحسى: شرب. الصهباء: الخمر.

[2] العذل والتعذال: اللوم.

[3] الآماق: جمع مؤق، وهو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين. النضح: رشاش الماء ونحوه. الجرْيال: صبغ أحمر.

[4] شمت: نظرت، والوشيم: هو النظر إلى البرق خاصة.

«تـنـوَّرتـهـا مـن أذْرِعـاتَ وأهـلـهـا بـيـثـربَ أدنـى دارهـا نـظـرٌ عـال»[5]
وقلَّبتُ طرفي في سماءِ رجالها وهم فوق عرش للجلالة محلال[6]
فآنست آثارًا وهم سِلك درِّها وأبصرْتُ أعمالًا وهم جيدها الحالي
ولما طَويتُ الدهر بيني وبينهم على بعد أزمان هناك وأجيال
قعدت بأوساط القرون فجاءني «أبو بكرٍ الرازي» فقمت لإجلال
فتًى عاشَ أعمالًا جسامًا وإنما تقدر أعمار الرجال بأعمال
حكيمٌ رياضي طبيبٌ منجِّمٌ أديب وفي الكيمْياءِ حلَّال إشكال
أتى فيلسوفًا للنفوس مهذبًا بأفضل أفعالٍ وأحسن أقوال
لقد طبَّب الأرواح من داءِ جهلها كما طبَّب الأجسام من كل إعلال

مولده

تولد عامَ الأربعينَ الذي انقضى لثالث قرنٍ ذي مآثر أزوال[7]
إلى زكريا ينتمي، إنه له أبٌ تاجرٌ في الريِّ صاحب أموال[8]
على حينَ كانت بلدةُ الريِّ عادة إلى العلم تعطو جيدَها غيرَ مِعطال[9]
مدارسُ بالشُّبان تزهو ودونها كتاتيب للتعليم تزهو بأطفال
بها جُلُّ درس القوم طبٌّ وحكمةٌ وفلسفةٌ فيها لهم أيُّ إيغال
وكانت نفيسات الصنائع عندَهمْ يحاولها ذو الفقر منهم وذو المال
وما كان هذا الحال في الرَّيِّ وحدها بل الحال في البُلدان طُرًّا كذا الحال
فإنَّ هُدَى الإسلام أنهى فتوحهُ وآصلها للحد أحسن إيصال

[5] تنورتها: تبصرتها. أذرعات: بلد بالشام. يثرب: اسم المدينة المنورة.
[6] المحلال: المكان الذي يحل كثيرًا، وهو صفة لعرش.
[7] أزوال: جمع زول، وهو العجب.
[8] الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن.
[9] تعطو: ترفع، المعطال: التي ليس في جيدها حلي.

وبدَّلَ أبطال الحروب من الورَى بأبطالِ علم للجهَالة قُتَّال[10]
فدارت رحى تلك العلوم وقطبُها ببغداد مركوزٌ بربوة إجلال
وكانت يد المأمون في ذاك أخجلتْ لسانَ العُلا في شكره أيَّ إخجال

منشؤه

تدرَّج في تلك المدارس ناشئًا مُترْجمُنا يسعى بجدٍ وإقبال[11]
تعلم فنَّ الصوت بادئ بدئه ومارس تفصيلًا به بعد إجمال
فكانت بموسيقى اللحون دروسُهُ تغَنَّى بإهزاج وتشدو بإرمال[12]
وقد جاوز العشرين سنًّا ولم يكن لشيءٍ سوى فنِّ الغناء بميال
فرام أبوه منه تحويل عزمه بجذب إلى شغل التِّجار وإدخال
فقال له: دعني مع العلم إنني إذا ما أمَتُّ الجهل أحييتُ آمالي
وهل يستطيع المرءُ شغلًا إذا غدا له شاغل بالعلم عن كل أشغال؟!
هناك استقى الرازي من العلم شربَهُ فجاد بإعلالٍ له بعد إنهال[13]
ثنى سعيه نحو التعلم بادئًا بعلمٍ لدى أهل التفلسف ذي بال
وقد كان مفتاح العلوم تَفلْسُفٌ تُفكُّ به من جهلهم كلُّ أغلال
فزاول أنواع العلوم تنقُّلًا بأبين أوضاح لها غيرِ أغفال[14]
نضا همَّةً في العلم مشحوذة الشَّبا جلت ما لحرب الجهل من ليل قسْطال[15]

---

[10] قتال: جمع قاتل.

[11] مترجمنا: يعني أبا بكر الرازي.

[12] الإهزاج: مصدر أهزج المغني إذا أتى بالهزج. الإرمال: مصدر أرمل المغني إذا أتى بالرمل، وهو لحن من ألحان الموسيقى.

[13] الإعلال: السقي بعد السقي. الإنهال: السقي الأول.

[14] الأوضاح: جمع وضح، وهو الضوء، وبياض الصبح. الأغفال: جمع غفل، وهو ما لا علامة فيه توضحه وتبينه، طريقًا كان أو غيره.

[15] نضا: جرَّد. مشحوذة: مسنونة. الشبا: جمع شباة، وهي حد السيف. القسطال: الغبار، أو هو خاص بغبار الحرب.

وقد أكمل الطب المفيدَ قراءةً على الطبريِّ الحبر أحسنَ إكمال[١٦]

سياحته

ومذ جاوز الرازي الثلاثين واغتدى مُدلًا على أقرانه أيَّ إدلال[١٧]
رأى من تمام العلم للمرء أنه يسيح بضرْب في البلاد وتجوال
وما العلم إلا بالسياحة إنها لمن عملوا في علمهم درسُ أعمال
فقام وشدَّ الرحل والغرزَ وامتطى لقطع الفيافي متنَ هَوْجاء شملال[١٨]
فجاء بلادَ الشام توًّا وجازها إلى مصر في وخْدٍ حثيثٍ وإرقال[١٩]
وخاض عُباب البحر للغرب قاصدًا مواطنَ للإسلام لم يَسْلها السالي
ففيها احتلاهُ العز مذ لاح طالعًا لها كهلالٍ يُجتلى عند إهلال
وحلَّ حلولَ البدر في السعد نائلًا بقُرطبةٍ آماله ناعم البال
وهبَّ هبوبَ الرِّيح ثمَّةَ ذكرُه يطيرُ على صِيتٍ من العلم جَوَّال
وودَّعها من بعد ذلك راجعًا إلى مِصْرَ لا توديعَ مُستكرهٍ قال[٢٠]
ومنها إلى بغدادَ سافر قاطعًا إليها الفلا ما بين حَلٍّ وترحال
فألقى عصا التَّسيار من عَرصاتها بمغرس عرْفان ومَنبِتِ إفضال
وبغدادُ كانت وهي إذا ذاك جنة بها العلم أجرى منه أنهارَ سَلسال
كأن رجالَ العلم في غُرُفاتها بَلابلُ تشدو غُدوة بين أدغال
فكم مَحفل للكتْب فيه خِزانة وكم مَرصد دانٍ وكم مَرقب عال[٢١]

---

[١٦] الحبر: العالم.

[١٧] أدلَّ على أقرانه إدلالًا، فهو مدل: بمعنى تاه عليهم وتعالى.

[١٨] الرحل: مركب للبعير. الغرز: ركاب الرحل من جلد، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب. امتطى: ركب. الفيافي: الأراضي المقفرة. المتن: الظهر. الهوجاء: الناقة السريعة السير. الشملال: الناقة السريعة الخفيفة.

[١٩] الوخد: سير البعير السريع، حثيث: سريع. الإرقال: الإسراع، أو هو نوع من سير الخبب.

[٢٠] قالٍ: مبغض.

[٢١] المراد بالمرصد والمرقب هنا: المكان الذي ترصد فيه النجوم وترقب.

ولما غدا الرازي ببغدادَ باسطًا — من العلم أبواعًا له ذات أطوال[٢٢]
أقيمَ لمارستانها عن كفاية — رئيسًا بتطبيبٍ وتدبير أحوال
فرتب مرضاه وأصلح شأنه — بما كان لم يخطر لسابق أجيال[٢٣]
وظل به يسعى طبيبًا مُمرِّضًا — ويبذل جُهدًا لم يكن فيه بالآلي[٢٤]
ويُلقي السريريَّات وَهْي مسائلٌ — لدى سُرُر المرضى تقرِّر في الحال
فقد كان يلقيها على القوم ناطقًا — بأوضح تبيانٍ وأحسن إملال[٢٥]

مآثره العلمية

لقد أشغل الرازي ببغدادَ شغلهُ — عدا الطب في الكِمْياء أعظم إشغال
فَقضَّى بها أيَّامه في تجاربٍ — وواصل أبكارًا لهنَّ بآصَالِ[٢٦]
فَلُقب فيها بالمجرِّب حرمة — تفرَّدَ مخصوصًا بها بين أمثال
وأصبح مشهورًا بأسنى مآثرٍ — من العلم لم يُسْبَق إليها وأعمال
فإن أبا بكرٍ لأولُ مفصح — إلى الناس بالدرس السريريِّ مقوال
وأولُ من أبدى لهم كيف يُبتنى — ويُفرش مارستانُهم قصد إبلال[٢٧]
وألَّف في المستشفيات مُؤلفًا — تقصى به في وصفها دون إغفال
ولا تنسَ للرازي الكحول فإنه — يجدِّد طول الدهر ذكراه في البال
ومن عمل الرازي انعقاد لسكَّرٍ — وما كان في محصوله غيرَ سيَّال

---

[٢٢] الأبواع: جمع باع، وهو قدر مد الذراعين، ويكنى به عن الشرف والفضل، كما هنا. ذات أطوال: ذات أفضال، وهو جمع طول.

[٢٣] إن أبا بكر الرازي هو أول من وضع نظامًا لترتيب المستشفيات وبنائها.

[٢٤] الآلي: المقصر.

[٢٥] الإملال: الإملاء.

[٢٦] الإبكار: هو من طلوع الشمس إلى الضحى.

[٢٧] مصدر أبل المريض بمعنى شفي من مرضه.

أخلاقه

أرى العلم كالمرآةِ يَصدأ وَجهُهُ وليس سوى حُسن الخلائق من جالِ
أخو العلم لا يغلو على سوء خُلقهِ وذو الجهل إن أخلاقُه حسنت غال
ولو وازنَ العلمُ الجبال ولم يكن له حسنُ خُلق لم يَزن وزْن مثقالِ
وإن المَساوي وَهْي في خُلق عالم لأقبح منها وهي في خُلق جُهال
ولكنَّما الرازي قد ازدان علمه بأحسن أخلاق وأشرف أفعال
خلائق غُرٍّ إن أردت بيانها بدأتُ بحرف الحاء والميم والدال
فتى كان مملوء الجوانح رحمة بكل هَزيل الجسم من سُقم إقلال
يزور بيوتَ البائسين بنفسه ويفتقد المرضى بفحص وتسآل
ويأتيهمُ بالمال والعلم مُسعدًا لتطبيب أوجاع وتأمين أوجال[٢٨]
وما كان يقنو المال إلا لبذله لتعليم علم أو لإعطاء سُؤَّال
وكان حليفَ الجد لم يألُ جهده بدحض خصوم العلم من كل هَزال
فكم راح مخذولًا به متطببٌ سعى كاذبًا في طِبِّه سَعْيَ إضلال
وكان سليمًا في العقيدة قلبه بعيدًا عن الإلحاد ليس بخَتَّال
وخلِّ تفاصيل الأُلى ينسبونه لزيغٍ فقد أغناك عنهن إجمالي

عودة إلى الريِّ

ولما قضى الرازي ببغداد بُرهة مضى قافلًا للريِّ شوقًا إلى الآل
فلما أتى تلك البلاد غدا بها طبيبًا لدى المنصور صاحبها الوالي
وألف للمنصور إذ ذاك باسمه كتابًا حوى في الطب أحسن أقوال
ولم تصفُ للرازي أواخرُ عمره وعاد أخا هَمٍّ شديدٍ وبَلبال
فقد عمِيت عيناه من بعَدُ واغتدى يجول من الفقر الشديد بأسمال

[٢٨] الأوجال: جمع وجل، وهو الخوف.

وإن عِداءَ الدهر شِنشنةٌ له ... يصول بها قهرًا على كل مفضال[٢٩]
ولما انتهى نحو الثمانين عمرُه ... قضى نحبه من غير مالٍ وأنسال
ولكنه في الناس خَلَّف بعده ... من العلم آثارًا قليلة أمثال
فكم كتبٍ أبقى بها الذكر في الورى ... وألفها نسجًا على خير منوال
وما ضرَّ من أحيا له العلمُ بعده ... على الدهر ذكرًا أنه مَيِّتٌ بال
وإني وإن طنَّبت في بحر علمه ... لمقتصر منه على بعض أوشالِ[٣٠]
وها أنا أنهي القول لا لتمامهِ ... ولكن بعجزي عن نهوضٍ بأجيال
وأجعل هذا الشعر مسكًا ختامه ... بما قال في بيتين معناهما حال:
«لعمري وما أدري وقد آذن البلى ... بعاجل ترحالٍ إلى أين ترحالي»
«وأين محل الروح بعد خروجها ... من الهيكل المنحلِّ والجسَدِ البالي»

[٢٩] الشنشنة: العادة.

[٣٠] الأوشال: جمع وشل، وهو في الأصل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

الحرب في البحر أو وقعة توشيما بين الروس واليابان

سَعَروها في البحر حَربًا ضروسًا　　تأكل المالَ نارُها والنفوسا
قرْب «جوشيمَ» قد تصادم أسطو　　لان أردى اليابانُ فيه الروسا
يوم «طوغو» دها بأسطوله الرو　　س قتالًا وكان يومًا عبوسا
فحداها بوارجًا تملأ البحـ　　ـر وقارًا طَورًا وطَورًا بُوسا
كل مخَّارة إذا حَرَّكت دُفَّا　　عها خضخضت به القاموسا[1]
مذ بَنوها لهم كنيسة حرب　　تخذت كل مِدفع ناقوسا
عرشُ بَلقيس في المناعة لكن　　قد حكت في احتشامها بَلقيسا
ألبسوها من الحديد وِشاحًا　　فتهادت على العباب عروسا[2]
وإذا تنشر البنودَ النصـ　　ـر فيها تخالها الطاوُسا
وإذا جنَّها على البحر ليلٌ　　أطلع الكهرباء فيها شموسا[3]
قد أبى بأسها الشديد سوى الفو　　لاذ دِرعًا لجسمها ولبوسا
سيَّروا البرق بينهن رسولًا　　صادقًا ليس يَعرف التدليسا

---

[1] الدفاع: الشيء العظيم يدفع به مثله؛ وأراد به ما يكون في مؤخرة الباخرة ليدفعها للسير. خضخضت: هيجت وحركت. القاموس: البحر.

[2] العباب: معظم الماء.

[3] جنَّها: سترها.

فهو فيها لسان صدق يؤدِّي   دون سِلكٍ كلامَها المأنوسا
إنما سِلكه الأثير الذي را   حَ بطيٍّ اهتزازه مَدسوسا
جَهزوها مَدافعًا فغرت أفـ   ـواه نار قد التقمن الشُّوسا[٤]
دَلعت ألسنًا من النار حُمرًا   ويلَ من قد غدا بها ملحوسا
ترسلُ الموتَ في قنابلَ كالشهـ   ـب ذريعًا مستأصلًا عِتريسا[٥]
طالما بانفجارها انفلقَ البحـ   ـر انفلاقًا مُذَكِّرًا عهدَ مُوسى

* * *

بث أسطوله فلبَّسه «طو   غو» بأسطول خَصمه تلبيسا
حيث قد أجفلت من اللجج الحِيـ   ـتان تخشى من اللهيب مَسيسا
وعلا البحرَ مكفهرٌّ غمامٍ   من دُخانٍ هَمى ولكن بُوسى[٦]
ثارَ طرَّادُهم يَجيشُ بنسا   فات سُفْنٍ لهم سجرنَ الوطيسا[٧]
كجبالٍ قرى البراكينَ فيها   تقذف الموت جارفًا والنحوسا
فأباحوهمُ هُنالكَ قتلًا   واغتنامًا نفوسهم والنفيسا
فسلِ اليمَّ كم تضمَّن منهم   مُغرقًا في عُبابه مغموسا!
هاجموه وللهياج سعيرٌ   ملأت واسعَ الخضمِّ حسيسا
فكسوهم من الهوان لبوسًا   وسَقوهم من المنون كُئوسا
صَرعت في الوغى ليوث من اليا   بان أسطولَ خصمها مفروسا
فانتضوها عزائمًا ماضيات   طأطأ الروسُ دُونهنَّ الرءوسا
وَجلوها في الروع بيضَ فعالٍ   أقرأتهم كُتْبَ الفخار دروسا
إنَّ يومًا لهم تقضَّى بجوشيـ   ـما لَيومٌ بالذكر زان الطروسا

---

[٤] الشوس: جمع أشوس. يطلق على الذي ينظر بمؤخر عينه تكبرًا أو تغيظًا، وعلى الجريء على القتال الشديد.

[٥] الذريع من الخيل: الخفيف السير والواسع الخطو، ويقال: موت ذريع: أي قاسٍ. العتريس: من معانيه: الجبار الغضبان، والغول الذكر، والداهية، والضاغط الشديد.

[٦] البوسى: ضد النعمى.

[٧] سجرن: أشعلن.

بات «طوغو» يجني الأمانيَ إذ با ت قنوطًا عدوُّه ويَئوسا
قائد لم يَرد لظى الحرب إلا مُصدرًا رأيه لها جاسوسا
تاه أسطوله على اليمِّ عُجْبًا حين أضحى لمثله مَرءوسا
إنَّ شهمًا تقلد العقل سيفًا لحريٌّ بأن يكون رئيسا
ومليكًا ولَّى الأمور ذويها لجدير بملكه أن يسوسا
وسل البر عنهم كم سعوا فيـ ـه خميسًا عرمرمًا فخميسا[8]
رَجْلَةً يملأ الفضاء وخيلًا حملت للوغى الكماة الشُّوسا[9]
صوَّبوها بنادق تطلق المو ت رَصاصًا به أبادوا النفوسا
هكذا شيَّدوا بناء المعالي هكذا أحسنوا لها التأسيسا

[8] الخميس: الجيش.

[9] الكماة: جمع كمي، وهو الشجاع.

هولاكو[١] والمستعصم[٢]

هو الدهر لم يرحم إذا شدَّ في حربِ ... ولم يتَّئد إما تمخض بالخطبِ
يُزمجر أحيانًا ويضحك تارة ... فيظهر في بُردين لِلجِدِّ واللَّعْبِ
فلا هو في سلْمٍ فنأمَن بطشه ... ولا هو في حرب فنقعد للحربِ
يسالم حتى تأخذَ القومَ غِرةٌ ... فيهجم زحفًا في زعازعة النكب
أرى الدهر كالميزان يصعد بالحصى ... ويهبط بالموزون ذي الثمن المربي[٣]
أدالَ من العُرب الأعاجم بعدما ... أدالَ بني عباسها من بني حَرب[٤]
ولم أرَ للأيام أشنع سُبَّة ... لعمرك من مِلك العلوج على العرب[٥]
صفت لبني العبَّاس أحواضُ عزهم ... زمانًا وعادت بعدُ مخلبة الشرب[٦]

[١] هولاكو: هو الذي أسر المستعصم بالخديعة، ثم قتله وامتلك بغداد بعد أن قتل ما لا يحصى من العلماء والصلحاء وعامة الأهلين.

[٢] المستعصم: هو آخر خلفاء بني العباس وكان ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته؛ لسوء تدبيره.

[٣] المربي: الزائد.

[٤] يقال: أدال الله بني فلان من عدوهم؛ أي جعل الكرة لهم عليهم، وأدال الله زيدًا من عمرو؛ أي نزع الدولة من عمرو وحوَّلها إلى زيد.

[٥] السبة: العار. العلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفَّار الأعاجم.

[٦] مخلبة: فاسدة ذات حمأة.

عنت لهم الدنيا فساسوا بلادها بعدل أضاء الملك في سالف الحُقْب
فكانوا طفاح الأرض عزًّا ومنعة خلائف ساسوا بالسيوف وبالكتْبِ
لقد ملكوا مُلكًا بكت أخرَياته بدمعٍ على المستعصم الشهم مُنصبِّ
تشاغل بالذات عن حَوط ملكه فدارت على ابن العلقميِّ رَحى الشَغْب
أطال هجودًا في مضاجع لهوه على ترفٍ والدهر يقظانُ ذو ألْبِ
لقد غرَّه أنَّ الخطوبَ روابضٌ ولم يدرِ أن الليث يربض للوثب
فكان كمروانَ الحمارِ إذِ انقضت به دولةٌ مدَّت يدَ الفتح للغرب[7]

* * *

جرت فتنةٌ من شيعة الكرخ جلَّحت على شِيعةٍ في الكرخ بالقتل والنهب[8]
فقامت لدى ابن العلقميِّ ضغائنٌ تحجَّرن من تحت النياط على القلب[9]
فأضمرَ للمعتصم الغدر وانطوى على الحقد مدفوعًا إلى الغشِّ والكذب
وخادَعه في الأمر وهو وزيره مواربة إذ كان مستضعفَ الإرْب
فأبعد عنه في البلاد جنودَه وشتتهم من أوب أرضٍ إلى أوْب[10]
ودسَّ إلى الطاغي هُلاكو رسالةً مُغلغلةً يدعوه فيها إلى الحرب[11]
وقال له: إن جئت بغداد غازيًا تملكتها من غير طعنٍ ولا ضرب
فثار هُلاكو بالمغول تؤمه كتائِبُ خضْرٌ تضرب السهلَ بالصعب
وقاد جيوشًا لم تمرَّ بمخصبٍ من الأرض إلا عادَ ملتهب الجدب
جُيوش ترد الهضب في السير صفصفًا وتعرُك في تسيارها الجنبَ بالجنب
فما عتَّمت حتى بنت بغبارها سماءً على أرض العراق من الترب
ولما أبادت جيشَ بغدادَ هالكًا على رَغم فتح الدين قائده الندب

---

[7] مروان الحمار: وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم.

[8] جلح عليه: أي أقدم عليه إقدامًا شديدًا وكاشفه بالعداوة.

[9] النياط: الفؤاد، وعرق نيط به القلب إلى الوتين، فإذا قطع مات صاحبه. وابن العلقمي هذا وزير المعتصم: هو الذي كاتب هولاكو بأن يحضر ويغزو بغداد انتقامًا من الخليفة وابنه أبي بكر.

[10] الأوب: الجهة.

[11] الرسالة المغلغلة: المحمولة من بلد إلى بلد.

أقـامـت عـلـى أسـوار بـغـدادَ بُـرهـةً تعض بها عضَّ الثقاف على الكعب
فضـاق عـلـيـهـا بـالـحـصـار خِـنـاقـهـا وغصت بكرب يا له اللهَ من كرب!
وقد حُمَّ فيها الأمن بالرعب فانبرت له رُحَضاء من عيون أولي الرعب[١٢]
هناك دعا المستعصم القوم باكيًا بدمع على لَحْيَيْهِ منهملٍ سكب
فـأبـدى لـه ابـن الـعـلـقـمـي تـحـزُّنًـا طَوى تحتهُ كشحًا على المكر والخلب
وقال له: قد ضاق بالخطب ذرعنا وأنت ترى ما للمغول من الخطب
فكم نحن نبقى والعدو محاصِرٌ نُذلُّ ونشقى في الدفاع وفي الذَّبِّ
وماذا عسى تجدي الحصونُ بأرضنا وهم قد أقاموا راصدينَ على الدرب
فدع «يا أميرَ المؤمنين» قتالهم على هُدنةٍ تبقيك ملتئم الشعب
ولسنا «وإن كانت كبارًا قصورنا» نردُّ هُلاكو بالقتال على العقب
فهادِنه واخرج في رجالك نحوَهُ وصاهِرْهُ واشدد منه أزرك بالقرب
وإلَّا فـإنَّ الأمـر قـد جـدَّ جِـده وليس سوى هذا لصدعك من رأبِ

* * *

فلما رأى المستعصمُ الخرقَ واسعًا وأن ليس للداءِ الذي حلَّ من طِبِّ
مشى كارهًا والموتُ يُعجل خطوه يؤمُّ لفيفًا من بنينَ ومن صحب
وراح بعقد الصُّلح يجمع شمله كمن راح بين النُّون يجمع والضَّبِّ![١٣]
فـأمـسـكـه رهـنًـا وقـتَّـل صـحـبـه هُلاكو ولم يسمع لهم قط من عتب
وأغرى ببغدادَ الجنودَ كما غدا بأدماء يغري كلبه صاحب الكلب
فظلَّت بهم بغدادُ ثكلى مُرنَّةً تفجَّع بين القتل والسَّبي والنَّهبِ
وجاسوا خلال الدور ينتهبونها وصبوا عليها بطشهم أيَّما صبِّ
وأمسى بهم قصر الخلافة خاشعًا مـهـتـكـة أسـتـاره خـائـف الـسِّـرْب
وباتت به من واكف الدمع بالبكا عيون المها شتراء منزوعة الهُدْب

[١٢] الرحضاء: عرق يتصبب عقيب الحمى، ومعنى البيت: أن الأمن لما صار محمومًا بالرعب، كانت رحضاؤه الدموع المنسكبة من عيون المرعوبين.

[١٣] النون: الحوت. والضبُّ: حيوان يعيش في البر، والمعنى أنه راح يجمع بين الضدين.

وراحت سبايا للمغول عقائل ... من اللَّاءِ لم تمدَد لهن يد الثلب
لقد شربوا بالهونِ أوشال عزها ... وما أسأروا شيئًا لعمرك في القعب
فقلَّص ظلٌّ كان في الملك وارفًا ... وأمْحَل ملكٌ كان مغلولبَ العشب

* * *

لقد بات إذ ذاك الخليفة جاثمًا ... على الخسف مرقوبًا بأربعةٍ غلْب
وخارت قواه بالسُّعار لمنعه ... ثلاثةَ أيام عن الأكل والشرب[14]
فقال، وقد نقَّتْ ضفادع بطنه: ... ألا كسرةٌ يا قوم أشفي بها سغبي؟
فقال هلاكو: عاجلوه بقَصعةٍ ... من الذَّهب الإبريز واللؤلؤ الرطب
وقولوا له: كل ما بدا لك إنها ... لآلئُ لم تعبث بهن يد الثقب
ألست لهذا اليوم كنتَ ادَّخرتها؟ ... فدونك فانظر هل تنوبُ عن الحَب!
وكنتَ بها دون المماليك معجبًا ... وفاتك أن المقتَ من ثمرِ العُجْبِ
ولو كنت في عزِّ البلاد أهنتها ... وأنزلت منها الجند في منزل خصب
لما أكلتك اليوم حربي وإن غدت ... تذيب لظاها عنصر الحجر الصُّلبِ
سأبذلها دون الجنود أزيدهم ... صيالًا بها فوق المطَهَّمة القُبِّ[15]
وسوف وإن لم يبقَ إلا حديثنا ... تميزُ ملوك الأرض دأبك من دأبي

* * *

هنالك والطوسيُّ أفتى بقتلِه ... فرَوه بقتل آدِب أفجع الأدب
أشار هلاكو نحو علج فتلَّه ... فخرَّ صريعًا لليدين وللجنب
فأدرج في لِبْدٍ وديس بأرجل ... إلى أن قضى بالرَّفْس ثمة والضرب[16]
وقد أثخنت بغداد من بعد قتلِه ... جروح بوار جاء بالحجج الشهب[17]
وما اندملت تلك الجروح وإنما ... ببغداد منها اليوم ندبٌ على ندبِ

[14] السعار: الجوع.

[15] صيالًا: شدة واستطالة. والمطهمة: يريد الخيل المطهمة، وهي الخيل البارعة الجمال. والقب: جمع أقب، وهو الضامر، وهو من صفات جياد الخيل، وخاصة جياد الحرب.

[16] أدرج: لف.

[17] الحجج: السنون. والشهب: جمع شهباء، وهي البيضاء، كناية عن سنة الجدب والقحط والجوع.

أبو دلامة والمستقبل

قضت المطامع أن نطيل جدالا وأبَـيْـنَ إلا بـاطـلا ومِـحـالا[1]
فـي كل يـوم لـلـمـطـامـع ثـورة باسم السياسة تستجيش قتالا
ما ضرَّ من ساسوا البلاد لوَ انَّهم كانوا على طلب الوفاق عِيالا[2]
أمِنَ السياسة أن يقتِّل بعضنا بعضًا ليدرك غيرنا الآمالا
لا درَّ دَرُّ أولي السياسة إنهم قتلوا الرجال ويَتَّموا الأطفالا
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها بدم هريقَ على الثرى سيالا
نثروا الدماء على البطاح شقائقًا وتوهموها الروضة المِحلالا[3]
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها سبقًا ولا تِرةً ولا أذحالا[4]
قالوا: كرهت الحرب؟ قلت: لأنها دارت لتغتصب الحقوق ألالا[5]
وأجلت فكري في الحروب فلم أجد أبدًا لهنَّ سوى الخمور مثالا
طاشت منافعها الصغار عن الورى ورست مآثمها الكبار جبالا
ما أجشع الحرب الضروس، فإنها تحسو النفوس وتأكل الأموالا!

[1] المحال: المكر والكيد والاحتيال.

[2] عيالًا: جمع عيل، يريد متكلمين.

[3] الروضة المحلال: التي يحلها الناس كثيرًا، ويطلبونها.

[4] الأذحال: جمع ذحل، وهو بمعنى الترة؛ أي الثأر والحقد والعداوة.

[5] الألال: كسحاب؛ الباطل، وهو هنا نائب عن المفعول المطلق؛ أي اغتصابًا باطلًا.

كم سحَّ من رهج الحروب على الرُّبا وبـل الـدمـاء فَـزَادَهـا إمـحـالا
لولا الحروب ومحرقات صواعق مـنـهـا لأبْـقَـلـتِ الـرُّبـا إبـقـالا
قَبُحتْ بنا الأرض الفضاء وما حوت في غير ما زَمنِ الفِطَحْلِ جَمالا[٦]

* * *

أبَني السياسة إن سَلَكتم بالورَى طُرُق الرشاد فعلموا الجُهَّالا
إن جرت الحربُ الكمالَ لأمةٍ فالعلم أحرى أن يجرَّ كمالا
إن الحياة كثيرة أعمالها فدَعُوا الأنام وحاربوا الأعمالا
وتقحَّموا حرب الحياة فإنها للحرِّ أضيق مأزقًا ومَجالا
واستلئموا زَرَد الوفاق وأشرعوا فيها تعاونكم قنًا ونصالا[٧]
واقْنوا لكم بيضَ المساعي شُزَّبًا تجري رعالًا للمُنى فرعالا[٨]
واعلُوا على صَهواتهنَّ رواكضًا للمَكرمات تُسابق الآجالا
ودعوا صيالًا في المَلاحم إنَّ في هذي الحياة مَلاحمًا وصيالا
أوَكلَّما طمع القويُّ شراهةً أكل الضعيفَ تحيُّفًا واغتالا؟!
لا غَرْوَ أن يلدَ الزمان بمرِّه كأبي دُلامة من بنيه رجالا
إذ راح يقتل بالعواطف قِرْنَهُ قتلًا أدام حياته وأطالا
إذ جهَّز «المنصور» جيشًا قادَهُ «رَوْحٌ» يريد من «الشراة» قتالا[٩]
فمضى وفيه أبو دُلامة مُكرَهًا للحرب أخرج كي يُصيب نكالا
حتى إذا التقت الجيوش وعُبِّئت صفًا وصفًا يَمنةً وشمالا
برزَ الكميُّ من الشُّراة مُجرِّدًا للسيف يطلب من يُطيق نزالا
فأجال رَوْحٌ في الجنود لحاظَه والقوم ينتظرون منه مَقالا[١٠]

[٦] زمن الفطحل: زمن قديم قبل أن يخلق الناس على الأرض.

[٧] استلئموا: البسوا اللأمة، وهي الدرع.

[٨] شزبا: جمع شازب، وهو الضامر من الناس أو الخيل من غير هزال. والرعال: جمع رعيل، وهو الجماعة من الخيل.

[٩] الشراة: هم الخوارج، وروح: قائد من قادة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

[١٠] لحاظه: نظره بلحاظ عينه، وهو في مؤخرها.

فـدعـا إلـيـه أبـا دُلامـة قـائـلًا: يـا لـيـثُ دونك ذلك الـرِّئـبـالا[11]
فـجـرى إلـيـه أبـو دُلامـة هـازلًا ثـم اسـتـقـالَ فـلـم يـكـن لـيـقـالا
فـشـكـا لـرَوْحٍ جـوعَـه فـأزاده بـدجـاجـتـين، وحـثـهُ اسـتـعـجـالا
فـانصـاع عن عَجَلٍ وسمَّط زاده ومضـى يُخبُّ لقرْنه مختالا[12]

* * *

فأتى وقد شَهر الكميُّ بوجهه سـيـفًـا يَروع غـراره الأغـوالا[13]
فـدنـا إلـيـه أبـو دُلامـةَ قـائـلًا: مَهْلًا فـأغمِدْ سـيفَك الـقـصـالا
إنـي أتـيـت ومـا أتـيـت مـقـاتـلًا من لَسْتُ أطلـب عـنـدهَ أذخـالا
فاسمعْ مقالة من أتاك ولم يكنْ فيمـا يـقـول مُخـادعًـا مـحـتـالا
واعـلـم بـأنـي لا أخـاف مَـنـيَّـتـي جُـبـنًـا ولا أتـهـيَّـب الأبـطـالا
لـكـن أرى سـفـك الـدمـاء محرَّمًا وأعـيـذ رأيـكَ أن تـراه حـلالا
أمـن المروءة أن نُريق دماءنا سَفَهًا لمطمع طامع وضلالا؟!
هل كنتَ من قبل اللقاء رأيتني يومًا؟ وهل منِّي لقيتَ نكالا؟
أمْ هل طرقتُ خيام قومك جانيًا؟ أم هـل خَـربتُ بـحـيِّـهـم آبـالا؟[14]
ماذا جرى بيني وبينك قبل ذا مـمـا يـجـرُّ خـصـومـة وجـدالا
حتى شَهرتَ عليَّ سيفك تبتغي ضَـربـا يُـقـطِّـع منِّـيَ الأوصـالا؟
فاربأ بنفسك أن تكون من الأُلى زحـفـوا جـنـونًـا لـلـوغـى وَخـبـالا
فـرأى الـكـمـيُّ مـقـالـه مـتـعـالـيًـا حـقًّـا وكـل حـقـيـقـة تـتـعـالـى
فعَنـا وأذعـن لـلـحـقـيـقـة مـغـمِـدًا سيفًا أجادته القيون صِقالا[15]
ولوَى العِنان من المطهَّم قائلًا: رُحْ بـالأمـان فـلا لـقـيـتَ وبَـالا

[11] الرئبال: الأسد.

[12] انصاع عن عجل: انفتل راجعًا. وسمط زاده: من التسميط، وهو التعليق، يريد أنه علق الزاد على حصانه. والخبب: ضرب من السير متقارب الخطو في سرعة خفيفة. والقرن: الذي ينازلك في الحرب.

[13] الكمي: البطل. والغرار: حد السيف. والأغوال: جمع غول، وهو حيوان منكر الخلقة.

[14] خربت: سرقت، والخارب: اللص.

[15] القيون: جمع قين، وهو صانع السيوف وكل شيء من حديد.

فمشى إليه أبو دلامة مُخرِجًا زادًا تعلَّق بالسُّموط مثالا
ودعاه يا ابْنَ أولي المكارم راشدًا أكرم أخاك بوقفة إمهالا
إني لأرجو أن تكون مؤاكلي في ذا الشواءِ ألا تحبُّ إكالا
فتدانيا متخالفين وأقبلا وهما على فرسيهما إقبالا
حتى إذا أكلا شواءً أدبرا بعد الودَاع وولَّيا الأكفالا[١٦]

* * *

رجعا فسار أبو دلامة ظافرًا والمهرُ يجفل تحته إجفالا
حتى اذا وافى الأميرَ وقام عن كَثب ترجَّل دونه إجلالا
وغدا يقول وكان رَوْحٌ ضاحكًا: إني كفيتُك قِرْنيَ الرِّئبالا
وقتلته بالقول لا بمهنَّدي والحربُ أحرى أن تكون مَقالا
وأخذتُ في الهيجا عليه مواثِقًا ألا يعود يُنازلُ الأبطالا

* * *

إن الهواتف لا تزال بمسمعٍ مِنِّي تقول إذا شكوت الحالا:
لا تيأسَنَّ فللزمان تنفسٌّ فارقبه أن يتبدَّل الأبدالا
والدهر طاهٍ سوف يُنضج أهلَه بالحادثاتِ يزيدها إشعالا
إن الدهور وهنَّ أمهر سابكٍ ستردُّ أضداد الوَرَى أشكالا
حتى كأني بالطِّباع تبدَّلت غيرَ الطباع وزُلزلت زِلزالا
وكأنني ببني الملاحم أصبحوا لأبي دُلامةَ كلهم أمثالا

---

[١٦] الأكفال: جمع كفل، بتحريك الفاء، وهو مؤخر الحصان عند ذيله.

أطلال العلم أو المدرسة النظامية في بغداد

قوَّض الدهرُ بالخراب عمادي ورَمتْني يداه بالأنكادِ
كم أنادي وليس لي من مجيبٍ وا ضياعاه جهرةً كم أنادي!
ضعضع الدهرُ من بنائيَ أركا نًا شِدادًا طالت على الأطواد
طالما رفرفت من العلم رايا ت فخارٍ مني على بغداد
كنتُ للعلم روضةً باكرت أز هارها الغرَّ بالعِهاد الغوادي[1]
وجميع الأنام تضرب أكبا د المطايا كي تجتني أورادي[2]
فالغزاليُّ سَلْهُ بي، وأبا إسـْ ـحاق عما حويت من إرشاد[3]
سَلْهُ إذ في طلابيَ الإبلُ النُّجـْ ـبُ تُحفَّى مَضروبة الأكباد
فرمتني صواعق الدهر فانهد بنائي وصرت بعض الوهاد
فبكتني من السماء دَراريـ ـها وكانت تعَدُّ من حُسادي

* * *

أهل بغدادَ ما لأعينكم تغـْ ـمِض عني كأنكم في رُقاد؟!

[1] العهاد: جمع عهد، وهو المطر بعد المطر.

[2] الأوراد: جمع ورد، والمراد به هنا: الجزء الذي يقرؤه العالم من العلم، أو القارئ من القرآن في المرة والواحدة.

[3] أبو إسحاق: كان من مشيخة بغداد، وإمام المذهب الشافعي بها.

أهـلَ بـغـداد هـل تـرقُّ قـلـوبٌ ... منكمُ راعها انقضاضُ عِمادي؟!

رقَّ حتى قلبُ الجماد لفقدِي ... فلتكُوننَّ قلوبكم من جَماد

أفلا تنجدون مدرسة العلـ ... ـم وعهدي بكم أولي إنجاد؟!

أين ما شِيدَ من نظاميِّ رَبْعي؟ ... فلقد كان نُجْعة المرتاد

أين تلكِ العلوم وَهْيَ التي كا ... نت ربوعي تُذيعها في البلاد؟

كيف قضَّت خيامَها زعزعُ الدهـ ... ـر وكانت رصينة الأوتاد؟!

أقفرتْ سُوحها وقد نعي العلـ ... ـم فلاحت تجرُّ ثوبَ الحِداد

وتوارت بالجهل ظلمًا وكانت ... خافقًا فوقها لواء الرشاد

أيها الدهر كلما شئت فافعل ... إذ حدا في ركائبي غيرُ حاد

ورعاني من راح من ظلمه العدْ ... ل فقيدًا مِيعاده في المَعاد

فرَّقوا جمع أمة قبلهم كا ... نت لعمري وحيدَة الإتحادِ

في سلانيك

قالها عندما زحف جيش سلانيك إلى الآستانة بقيادة محمود شوكت باشا؛ وذلك لقمع الحركة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس سنة ١٩٠٨.

لقد سمعوا من الوطن الأنينا	فضجُّوا بالبكاء له حنينا
وناداهم لنُصرتهِ فقاموا	جميعًا للدفاع مسلَّحينا
وثاروا من مرابضهم أسودًا	بصوت الإتحاد مُزمجرينا
شبابٌ كالصوارم في مَضاءٍ	يُروْنَ، وكالشموس مُنوِّرينا
سلانيك الفتاة حوَت ثراءً	بهم فَنَضَتْ عن الوطن الديونا
لقد جمعوا الجموع فمن نصارى	ومن هود هناك ومسلمينا
فكانوا الجيش أُلِّف من جنود	مجنَّدة ومن متطوعينا
تراهم فيه متَّحدين عزمًا	وما هم فيه متحدين دينا
هي الأوطان تجعل في بنيها	إخاء في محبتها رصينا
وتتركهم أولي أنفٍ كبارًا	يرون حياة ذي ذل جنونا
وأن الموت خير من حياة	يظل المرء فيها مستكينا

* * *

مشوا والوالدات مشيَّعات	خرجن وراءهم والوالدينا
يقلْنَ وهن من فَرَحٍ بَواكٍ	وهم من حزنهم متبسمونا
على الباغين منتصرين سيروا	وعودوا للديار مضفرينا
ولا تبقوا الذين قد استبدوا	وراموا كيدنا وتخوَّنونا

فـإن لـم تـنـقـذوا الأوطـان شـرًّا بـدارِ الـمـلـك كـي يـسـتـعـبـدونـا
هـم الأشـرار بـاسـم الـديـن قـامـوا فـعـاثـوا فـي الـمـواطـن مُـفـسـديـنـا
فـمـا تـركـوا مـن الـدسـتـور «شُـورَى» ولا أبـقَـوا لـنـغْـمـتـه «طـنـيـنـا»[١]

* * *

وكـم قـد قـلـن مـن قـول شـجـيٍّ لـهـم فـتـركـنـهـم مـتـهـيـجـنـا
ومـذ حـان الـوَداع دنـون مـنـهـم فـقـبَّـلْـن الـصـوارمَ والـجـفـونـا[٢]
ومـا أنـسَ الـتـي بـرزتْ وقـالـت وقـد لـفـتـوا لـرؤيـتـهـا الـعـيـونـا:
ألا يـا راحـلـيـن لـحـرب قـوم لـئـامٍ ضـيـعـوا الـوطـن الـثـمـيـنـا
خـذونـي لـلـوغـى مـعـكـم خـذونـي مـمـرضـة لـجـرحـاكـم حـنـونـا
وإن لـم تـفـعـلـوا فـخـذوا ردائـي بـه سُـدُّوا الـجـروح إذا دمـيـنـا

* * *

ولـمـا جـدَّ جِـدُّهـم اسـتـقـلُّـوا عـلـى ظـهـر الـقـطـار مـسـافـريـنـا
فـطـاروا فـي مـراكـبـه سـراعًـا بـأجـنـحـة الـبـخـار مـرفـرفـيـنـا
وظـل الـجـيـش صُـبْـحًـا أو مَـسـاءً تـسـيـر جـمـوعـه مـتـتـابـعـيـنـا
فـلـم يـتَـصـرَّمِ الأسـبـوع إلا وهـم بـرُبـا فَـرُوق مـخـيِّـمـونـا[٣]
هـنـالـك قـمـتُ مـرتـحـلًا إلـيـهـم لأبـصـر مـا أؤمـل أن يـكـونـا

* * *

وبـاخـرةٍ عـلـت فـي الـبـحـر حـتـى حـكـت بـعُـبـابـه الـحـصـن الـحـصـيـنـا
يـؤثـر جـريـهـا فـي الـبـحـر إثـرًا تـكـادُ بـه تـظـنُّ الـمـاء طـيـنـا
فـتـتـرك خـلـفـهـا خـطًّـا مـديـدًا بـوجـه الـبـحـر يـمـكـث مـسـتـبـيـنـا
ركـبـت بـهـا عـلـى اسـم الله بـحـرًا غـدا بـسـكـون لـجَّـتـهِ رهـيـنـا
فـرحـنـا مـنـه نـنـظـر فـي جـمـال يـعِـز عـلـى الـطـبـيـعـة أن يـهـونـا

[١] يشير إلى ما حل بجريدة طنين إذ ذاك وبمحل إدارتها من الهدم والتخريب في تلك الحادثة.
[٢] الصوارم: السيوف. والجفون: جمع جفن، وهو الغمد.
[٣] لما حدثت حادثة ٣١ مارس في الآستانة، كان الرصافي في سلانيك؛ فلذلك قال: هنالك قمت …

ومرأى البحر أحسن كل شيءٍ إذا لبست غواربه السكونا[٤]
كأنك منه تنظر في سماءٍ وقد طلعت كواكبها سفينا

* * *

أتينا دارَ قسطنطين صُبحًا وقد فتِحتْ لهم فتحًا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفي بحدٍّ سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفس الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وردَّ الخائنين إلى جزاءٍ أحلَّهم المقابر والسجونا
وحَطُّوا قَصْر يلدزَ عن سماءٍ له فانحطَّ أسفل سافلينا
وأصبح خاشع البنيان يُغضي عيونًا عن تطاوله عمينا
خلا من ساكنيه وحارسيه فلم ترَ فيه من أحدٍ قطينا[٥]
هوى عبدُ الحميد به هويًّا إلى درَكِ الملوك الظالمينا
وأُنزل عن سرير الملك خَلْعًا وأفرد لا نديمَ ولا قرينا
فَسيقَ إلى سلانيكَ احتباسًا له كي يستريح بها مصونا
ولكن كيف راحة مستبدٍّ غدا بديار أحرار سجينا؟!
يراهم حول مسكنه سِياجًا ويعجز أن ينيمَ لها عيونا
وموت المرء خير من مقامٍ له بين الذين سَقوه هُونا

* * *

لقد نقض اليمينَ وخان فيها فذاق جزاءَ من نقض اليمينا
وقد كانت به البُلدان تشقى شقاءً من تجبُّره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلمٍ وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يُديرُ من سَفَهٍ رحَاها بجعجعةٍ ولم يُرِها طحينا
وقد كانت به الأيام تمضي شهورًا والشهور مضت سنينا
ولمَّا ضاق صدر الملك يأسًا وصار يردِّد الوطن الأنينا

[٤] الغوارب: جمع الغارب، وهو في ذوات الخف ما بين السنام والعنق وفي الكلام استعارة.
[٥] قطينًا: أي قاطنًا وساكنًا.

أتى الجيش الجليل له مغيثًا فصدَّق من بني الوطن الظنونا
وأضحى سيف قائده المفدَّى على الدستور محتفظًا أمينا
حماه من العداة فكان منه مكانَ الليث إذ يحمي العرينا
وأسقط ذلك الجبَّارَ قهرًا وأنبأه بصارمه اليقينا
فقرَّت أعينُ الدستور أمنًا وشاهت أوجه المتمرِّدينا

وقفة عند يلدز

قالها عقب خلع عبد المجيد وإرساله إلى سلانيك سجينًا.

لِمَنِ القصر لا يجيب سؤالي آهـلاتٌ رُبُـوعـه أم خـوالـي؟
مشْمَخِرُّ البناء حيث تراءى بـالـيًـا مـجـده بِـلـى الأطـلال
لم تصبه زلازل الأرض لكن قـد رمـتـه الـسـمـاء بـالـزلـزال
وكستهُ الأيام بالصمت لمَّا نطقتْ فيه حادثات الليالي
فتراءت أبكاره شاحبات بـاكـيـات بـأعـيـن الآصـال

* * *

أيها القصرُ إيهِ بعضَ جواب لا تكن ساكتًا على تسْآلي
ليت شعري والصَّمت فيك عميق ذاكرًا أنت عهدهم أم سال؟
ما تداعى منك البناءُ ولكن قد تداعى بناء تلك المعالي
كنتَ كل البلاد في الطول والعر ض وكل العباد في الأعمال
كنت مأوى العُلا، مثار الدَّنايا مَهبط العز، مصدر الإذلال
كنت جُبًّا وأيَّ جُب عميق بالعًا للنفوس والأموال!
موردَ الخائنين كنت وكانت منك تدلي مطامع العمال
قصرُ عبد الحميد أنت ولكن أين يا قصر أين عرش الجلال؟!
أين خاقانك الذي كان يُدعى قاسمَ الرزق، باعثَ الآجال؟!
ما أرى اليوم ذلك المجد إلا كخيال يمر بعد خيال
هل وقوفي على مبانيك إلا كوقوفي على الطلول البوالي؟!

* * *

قد تـخـوَّنـتـنـا ثـلاثـين عـامًـا جئت فيـهـا لنـا بكل مـحـال[١]
تـلـك أعـوام رِفـعـة لـلأدانـي تـلـك أعـوام حـطـة لـلأعـالـي
يَثِب العدل طافرًا كلما مرَّ عـلـيـهـا مـشـمِّـرَ الأذيـال
مـلأت خـطـة الـزمـان شـنـارًا فأبتها كلُّ العصور الخوالي
وكأني أرى اضطراب نفوسٍ كنت تغتالها وأيَّ اغتيال!
أسمع الآن فيك ما كان يعلو مـن أنـيـن لـهـا ومـن إعـوال
حائمات على الذي فيك أبقيـ ـن دفينًا على الرُّفات البالي
تلك يا قصر أنفس أنفت منـ ـك فطارت إلى سماء المعالي
وتـرقَّـت إلـى ذؤابـة أعـلـى كـوكـب فـي سـمـائـه جـوَّال
وهـيَ الـيوم أحرقتك بشُهْبٍ قذفتها عليك ذاتِ اشتعال
لم يضِع مجدها وإن هي أمست ضـائـعـات الأشـلاء والأوصـال

* * *

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي لقِحَت منك حَربُها عن حِيال؟![٢]
يوم كنَّا وكان للجهل حكم خـاذل كـل عـالـم مِـفـضـال
آمِـر مـن عـتـوِّه كـلَّ أمـر يغرس البغضَ في قلوب الرجال
أفأصبحتَ نادمًا أيها القصـ ـرُ تبالي بالقوم أم لا تبالي؟
لم تفدك الندامة اليوم شيئًا قُضي الأمر فاصطبر باحتمال
وعـزاءً فـلـسـت أولَ قـصـر نكَّسَ الدهر من ذراه العوالي
قد تداعى من قبلُ إيوان كسرى بعد أن طال شاهقاتِ الجبال
وَكـأيِّنْ من قصر ملك ترَامـى سـاقـطًـا بـالـمـلـوك والأقـيـال[٣]

---

[١] تخونتنا: تعهدتنا.

[٢] لقحت الناقة: ضربها الفحل فحملت. والحيال: عدم الحمل، يريد إنك هيجت تلك الحرب بعد أن كانت ساكنة.

[٣] الأقيال: جمع قيل، وهو الملك الصغير يتبع الملك الكبير، كبعض ملوك الولايات في إمبراطورية كبيرة.

فابقَ يا قصر عابس الوجه كيما يصبحَ الملك باسمَ الآمال
وتعثَّر فلا لعًا لك الحق ينهض العدل ناشطًا من عِقال[٤]
إنما نحن أمة تدرأ الضيـ ـم وتأبى أن تستكين لوالي
أمَّة سادت الأنام وطابت عنصرًا من أواخر وأوالي
فإذا ما غلا الغشومُ نهضنا فقذفناه سافلًا من عال
نملأ الأرض إن مشينا لحرب بزئير الغضنفر الرئبال
وإذا ما غلا المليك رددنا هُ ذليلًا يقاد بالأغلال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأولي الجوْر لا من الصلصال
يا ملوك الأنام هلا اعتبرتم بملوك تجور في الأفعال!
ليس عبد الحميد فردًا ولكن كم لعبد الحميد من أمثال
فاتركوا الناس مُطلَقين وإلا عِشتمُ مُوثقين بالأوجال
هل جنيتم من التجبر إلا كل إثم عليكمُ ووبال؟!

[٤] لا لعًا له: لا أنعشه الله إذا سقط.

تموز الحرية

إذا انقضى مارْتُ فاكسرْ خلفه الكوزا
واحفِل بتمُّوز إن أدركت تمُّوزا

أكرِم بتمُّوزَ شهرًا إنَّ عاشره
قد كان للشرق تكريمًا وتعزيزا

شَهْرٌ به الناس قد أضحت محررة
مِنْ رق مَن كان يقفوا إثر جَنكِيزا

سَل أهل باريز عن تمُّوز تلقَ لهم
يومًا به كان مشهودًا لباريزا

كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم
بسالةٌ هَدَّتِ البستِيل مبزوزا[1]

وإن تمُّوز شهر قام فيه لنا
على البقاع لواء العزِّ مركوزا

في شهر تموز صادفنا لما وعدت
بيض الصوارم بالدستور تنجيزا

هي المساواة عمَّتنا فما تركت
فضلًا لبعض على بعض وتمييزا

أمست لنا قسمة بالملك عادلة
حُكمًا وكانت على عِلَّاتِها ضيزى[2]

كنا من الجور عميانًا وليس لنا
من قائدين ولم نملك عكاكيزا

حتى نهضنا إلى العلياء تقْدمنا
عصابة برَّزت في المجد تبريزا

إن تلقهم تلقَ منهم في الوغى جبلًا
أو هِجْتَهم للمنايا هِجت راموزا

قوم إذا طَعِموا في حومة تخذوا
قصاعهم من قحوف القوم لا الشِّيزى[3]

---

[1] مبزوزًا: مغلوبًا، وفي المثل: من عزَّ بزَّ: أي من قوي تغلب وانتصر.

[2] قسمة ضيزى: أي جائرة.

[3] القحوف هنا: عظام الجماجم. والشيزى: نوع من الخشب تصنع منه الجفان.

قمنا على الملك الجبار نفرعه بالسيف مُنصلتًا والرمح مهزوزا[٤]
حتى تركناه في هَيجاءَ معضلة ألقت ضِرامًا على الطاغين مأزوزا
إنا لنأبى على الطاغي تهضُّمنا حتى نهوِّز في الهيجاء تهويزا[٥]
ونأكل الموت دون العز نمضغه كمضغنا التمر بَرنيًّا وسهريزا[٦]
لا عاش من لا يخوض الموت مرتضيًا بقاءه بعصيِّ الذل موكوزا[٧]
راعت سلانيك دارَ الملك فانتبهت من ذاك طِهران تخشى أمر تبريزا
حتى غدت وهي في تموز ناكسة رايات شاهٍ رماه الخلع مجنوزا[٨]
فالشاه في شهر تموزٍ هوى وكذا عبد الحميد هوى في شهر تموزا
يا شهر تموز لا راعتك رائعة ولا لقيت من الأحداث إرزيزا[٩]
يا شهر تموز قد زينت رايتنا بالعدل توشية فيها وتطريزا
من لي بأنجم هذا الأفق أنظمها قصائدًا فيك مدحًا أو أراجيزا؟
أو أنحتُ الماس أقلامًا مُعرِّضة أمدُّها ذهبًا في الطرس إبريزا
وأجعل الجو في تموز أمدحه طرسًا أجادته كف النور ترزيزا[١٠]

[٤] نفرعه بالفاء: نعلو فرعه، وهو رأسه، وفي الأصل: نقرعه.

[٥] هوز تهويزًا: مات موتًا.

[٦] البرني: ضرب من التمر أصفر مدور. والسهريز بالسين والشين، بضمهما وكسرهما: نوع من التمر، معرب.

[٧] موكوزًا: مدفوعًا مطعونًا.

[٨] المجنوز: المحجوز المستور.

[٩] الإرزيز: الرعدة.

[١٠] يقال: رززت لك الأمر ترزيزًا: أي وطأته لك.

المجلس العمومي

يا شرق بُشْراك أبدى شمسَك الفَلكُ ... وزال عنك وعن آفاقك الحلكُ
أضحى بك القوم أحرارًا قد اعتصموا ... من النجاة بحبلٍ ليس يَنهتك[1]
نادٍ به القولُ عن أهليه مستمَع ... والحق متبع والأمر مشترك
نادٍ إذا نفرت عنا الأمور به ... لهنَّ يمتد من نسج النهى شرك
يصطاد فيه شرودُ الحق عن كثب ... كالماء يصطاد في ضحضاحه السمك
إن السحائب لم تظهر بوارقها ... ما لم يكن للقوَى فيهن مُعترك
وللتدابير حرب لا يخيب بها ... قوم بمستنقع الآراء قد بَركوا
هذا هو المجلس الرحب الذي وسعت ... أحكامُه الناسَ من عاشوا ومن هلكوا
هو السماء التي نعلو السماء بها ... تبدو من العدل في آفاقها حُبك[2]
دارت بها شمس عزٍّ الملك حيث لها ... حرية العيش برج والنهى فلك
قد أصبح الأمر شورى بيننا فبه ... على الرعية لا يستأثر الملِك
وأصبح الناس في قُربى وإن بعدت ... أديانهم، ما بهم حقد ولا حسك[3]
هذا الذي جاءنا الدين الحنيف به ... وحيًا من الله مبعوثًا به الملَك

[1] ينهتك: ينقطع.
[2] حبك جمع حبيكة، وهي الطريقة.
[3] حسك الصدر: حقد العداوة، يقال: إنه لحسك الصدر.

هـذا بـه نـهـض الإسـلام نـهـضـتـه | مـن قـبلُ إذ قـامَ يـسـتـولـي ويـمـتـلـك
يـا قـوم قـد حـان حـينٌ تـسـخـرون بـه | ممن بكم سخِروا من قبلُ أو ضحكوا
مـات الـزمـان الـذي من قـبلُ كـان بـه | يحيا امرؤ لم يكن في السعي ينهمك
هلا نظرتم لما في الغرب من سَنَنٍ | كـلٌّ بـه سـائـرٌ طَـلْـقًـا ومُـنـسـلـك
لـم تَلْقَ لـلـحق وجـهًـا فـيـهِ مـحـتـقـرًا | ولـم تـجـدْ حُـرمـة لـلـعـلـم تـنـتـهـك
في الـغـرب أصـوات عـلـم يـبـعـثـون بـهـا | مَن في القبور فهل في سمعكم سَكك؟![٤]
فـشـمـروا يـا رجـالَ الـشـرق عـن هِـمـم | حـجـابـهـا عـنـد أهـل الـغـرب مـنـتـهـك
ولـسـت أطـلـب مـنـكـم فـعـلَ مـا فـعـلـوا | ولا أحـاول مـنـكـم تـرك مـا تـركـوا
بل فـاذكروا أوَّلـيكم كـيف قـد سـلـفـوا | ثـم اسـلـكـوا فـي المـعـالـي أيَّةً سـلـكـوا
واستخلصوا عسجد المجد الذي بلغوا | سبكًا على قالب العلم الذي سبكوا
لا عـذر لـلـشـرق عـنـد الـغـرب بـعـدئـذٍ | إن لـم يـتـمَّ لـه مـن شـأوه الـدرَك[٥]
واسـتـنـجـدوا الـعـلـم إنَّ الـعـلـم شِـكـتـه | في حومة العيش تبلى دونها الشكك[٦]
أمـا الـمـدارس فـلـتـرفـع قـواعـدهـا | حـتـى تـقـوم وطـود الـجـهـل مـؤتـفـك[٧]
مـنـابـع الـعـلـم إن غـاضـت بـمـمـلـكـة | فـاضـت بـسـيـل الـدواهـي حـولـهـا بـرَك
مـن شـاد مـدرسـة لـلـعـلـم هـدَّ بـهـا | سجنًا لمن أفسدوا في الأرض أو فتكوا
وكم أثارت رياح الجهل من سُحبٍ | تَـهـطـالـهـنَّ دم فـي الأرض مـنـسـفـك
فـالـعـلـم والـجـهـل كـل الـبـون بـيـنـهـمـا | هـذا الـفـسـوق وذاك الـفـوز والـنـسـك
ضـدان مـا اسـتـويـا يـومًـا ولا اجـتـمـعـا | وهـل تُـرى يـتـسـاوى الـنـورُ والـحَـلَـكُ؟!
نـادوا: الـبـدارَ الـبـدارَ الـيـوم إنـكـمُ | يـا قـومُ سـاهـون حـيـث الأمـر مـرتـبـك
كـم رُدِّدت كـلـمـات الـنـاصـحـين لـكـم | حـتـى لـقـد ملَّ مـن مـضـغٍ لـهـا الـحَـنـك
يـا قـوم قـد طـلـعـت شـمـس الـهـدى وبـهـا | للناس قد وضحت من رشدهم سكك
وأنـشـد الـشـرق مـسـرورًا يـؤرِّخـهـا: | «حـريـة المُـلـك أهـدى شـمـسـهـا الـفـلـك»

[٤] السكك، بوزن سبب: الصمم.
[٥] الدرك: اللحاق.
[٦] الشكك: جمع شكة، وهي السلاح.
[٧] مؤتفك: منقلب، يقال: ائتفكت بهم الأرض: انقلبت.

يوم العروس

زفت إليـنا الـعـروسُ وزوجُـهـا الأنـكـلـيـس[1]
زفـت إلـيـنـا زفـافًـا فيه الشقا والنحوس
الـمـهـر مـنـا دمـاء والعرس حرب ضَروس
كـم مُـزِّقـت حـرُمـات وكم أضـيـعتْ نفوس
وكـل هـذا لـتـحـظـى بالبعل تلك العروس
يوم العروس لعَمري يـوم كـريـهٌ عـبـوس

[1] الأنكليس والأنقليس، بفتح الهمزة: سمك شبيه بالحيَّات رديء الغذاء.



إلى الأمة العربية[١]

هو الليلُ يغريه الأسى فيطولُ ويُرخي وما غيرُ الهموم سُدُول؟[٢]

أبيتُ به لا الغارباتُ طوالعٌ عَليَّ ولا للطالعات أفول

وينشر فيه الصمت لبدًا مضاعفًا فتَطويه منِّي رنَّة وعويل[٣]

ولي فيه دمع يلذع الخدَّ حرُّه وحزن كما امتدَّ الظلامُ طويل

بكيت على كل ابن أروعَ ماجدٍ له نَسَبٌ في الأكرمين جليل

يُليح من الضيم المذلِّ بغُرة لها البدر تربٌ والنجوم قبيل[٤]

من العرب: أما عرضه فموفر مصون، وأما جسمه فهزيل

له سلَفٌ عزُّوا فبزُّوا نباهة ولم تعتورهم فترة وخمول[٥]

---

[١] مثَّل شبان العرب في الآستانة رواية وفاء السموءل في مسرح «نبه ماشي» الكبير، الكائن في حي «بك أوغلي»، وطلبوا إلى الرصافي أن يحضر وينشدهم شعرًا، فقال هذه القصيدة يعارض بها لامية السموءل المشهورة، وقد أنشدهم إياها في المسرح المذكور، وكان المكان غاصًّا بمن كان في الآستانة من رجال العرب، وكثير من رجال الترك.

[٢] يغريه: يحضه؛ أي أن الأسى يحض الليل على الطول فيطول.

[٣] اللبد، بكسر فسكون: كل شعر أو صوف متلبد.

[٤] يليح: أي يخاف ويحاذر، والباء في قوله بغرَّة للمصاحبة، أو هي للتعدية، على تضمين يليح معنى يحيد ويعدل، فيكون المعنى: يحيد مليحًا من الضيم بغرة.

[٥] عزُّوا فبزُّوا: أي غلبوا فسلبوا.

وساروا بنهج المكرُمات تقلُّهم ... قلائصُ من سَعْي لهم وخلول
وكانوا إذا ما أظلم الدهر أشرقت ... به غرَر من مجدهم وحجول
أولئك قوم قد ذوى روض مجدِهم ... ولم تَسْرِ فيه نسمة وقبول
وقد أعطشته السحب حتى لقد علت ... على الزهر منه صُفرة وذبول
رعى الله من أهل الفصاحة معشرًا ... لهم كان فوق الفرقدين مقيل
ترامى بهم ريب الزمان كأنما ... له عندهم دون الأنام ذحول
فأمست من العمران خلْوًا بلادهم ... فهنَّ حُزون قفرة وسهول
وعادت مغاني العلم فيها دوارسًا ... تجرُّ بها للرامسات ذيول
وقوَّضتِ الأيام بنيان مجدِها ... فرَبع المعالي بينهن مَحول

* * *

نظرت إلى عرض البلاد وطولها ... فما راقني عرض هناك وطول
ولم تبدُ لي فيها معاهد عزها ... ولكن رسوم رثَّةٌ وطلول
نظرت إليها من خلال ذوارفٍ ... من الدمع طرفي بينهنَّ كليل
فكنت كراءٍ من وراء زجاجة ... بعينيه كيما يَستبينَ ضئيلُ[٦]
ولم أتبيَّن ما هنالك من عُلًا ... لكثرة ما قد دبَّ فيه نحول
هناك حنيت الظهر كالقوس رابطًا ... بكفي على قلبٍ يكاد يزول
وأوسعتُ صدري للكآبة فاغتدت ... بأرجائه تحت الضلوع تجول
وأرسلت دمع العين فانهلَّ جاريًا ... له بين أطلال الديار مسيل
أأمنع عيني أن تجودَ بدمعها ... على وطني؟! إني إذن لبخيل
فإن تعجبوا أن سال دمعي لأجله ... فإن دمي من أجله سيسيل
وما عشتُ أني قد تناسيت عهده ... ولكنَّ صبري في الخطوب جميل[٧]
وإن امرءًا قد أثَّل الهم قلبه ... كقلبي ولم يلقَ الردى لَحمول

[٦] شبه نفسه وهو ناظر إلى الديار من خلال الدموع الذوارف برجل وضع على عينيه زجاجة ينظر من ورائها، والمراد بالزجاجة ما تسميه العامة اليوم بالمنظرة أو بالعوينات.

[٧] وما عشت أني: أي لأني، فحذف الجار، وحذفه قبل إن وأن قياس.

أفي الحق أن أنسى بلاديَ سلوة … وما ليَ عنها في البلاد بديل؟
أقول لقومي قول حيران جازع … تهيج به أشجانه فيقول:
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم … فتذهبَ عنكم غفلة وذهول؟!
وينطق بالمجد المؤثل سعيكم … فيسكتَ عنكم لائم وعذول!
تريدون للعُليا سبيلًا؟ وهل لكم … إليها وأنتم جاهلون سبيل؟!
أناشِدكم أين المدارس؟ إنها … على الكون فيكم والحياة دليل
وأين الغنيُّ المرتجى في بلادكم … يَجوُدُ على تشييدها ويطول؟
بلاد بها جهل وفقر كلاهما … أكول شروب للحياة قتول
أجل إنكم أنتم كثير عديدكم … ولكن كثير الجاهلين قليل
ولو أنَّ فيكم وحدة عصبية … لهان عليكم للمَرام وصول
ولكن إذا مستنهض قام بينكم … تلقَّاه منكم بالعِناد جهول
وأيُّ فريق قام للحق صده … فريق طلوب للمحال خذول
وإن كان فيكم مصلحون فواحد … فعول وألفٌ في مَداه قَئولُ
على أنَّ لي فيكم رجاءً وإن أكن … إلى اليأس أحيانًا أكاد أميلُ
ألستم من القوم الألى كان علمهم … به كل جهل في الأنام قتيل؟
لهم هممٌ ليس الظباةُ تفلُّها … وإن كان منها في الظباة فلولُ
ألا نهضة علمية عربية … فتنعش أرواح بها وعقول؟
ويشجعَ رعديد ويعتزَّ صاغر … وينشط للمسعي الحثيث كسول
فإن لم تقم بعد الأناة عزائم … فعتبي عليكم والملام فضول

شكوى إلى الدستور[١]

شكاية قلب بالأسى نابض العرق ... إلى قائم الدستور والعدل والحقِ
ملوك على كل الملوك ثلاثة ... لها الحكم دون الناس في الفتْق والرتق[٢]
وأقسم أني لا أكون لغيرها ... مطيعًا ولو من أجلها ضربت عنقي
فهل أيها الدستورُ تسمع شاكيًا ... بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق؟
لقد جئتَ من أفق الصوارم طالعًا ... علينا طلوعَ الشمس من منتهى الأفق
فصادفتَ منا أمة قد تعشقت ... لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم نبدِ عنفًا حين جئت وإنما ... هتفنا جميعًا بالوفاق وبالرفق
وظلْنا نرجِّي منك للخرق راقعًا ... ولكن تراخي الأمر متسع الخرق
بك اليوم أشقانا الأُلي أنت مُسعد ... لديهم فيا لله للمسعد المشقي
نراك بأيديهم على الخلق حُجةً ... وأنت عليهم حُجة لا على الخلق
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدُّوا على من حولهم منبع الرزق
كأنَّا لهم شاءٌ فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق[٣]

---

[١] نشرت هذه القصيدة في المؤيد بمصر سنة ١٣٢٧ هجرية، قالها لما سقطت وزارة حلمي باشا، وقامت بعدها وزارة حقي باشا، ينتقد خطة الاتحاديين عقب الدستور.

[٢] أي لا طاعة إلا لهذه الأمور الثلاثة: الدستور، والعدل، والحق؛ فهي الملوك ولها الحكم في كل أمر.

[٣] قوله: «مخضوا أوطاننا»: أي استغلوا خيرها بمخضها.

وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ... ولم يتركوا لِلسَّاكِنِيهَا سوى المذق[٤]

أترضى بأن تختص بالحكم مَعشرًا ... وتصبح للباقين حبرًا على ورَق؟!

وهم يَرِدون الصفو منك ولم نرد ... سوى نغبة من بعض سؤرهم الرنق[٥]

فما نحن إلا كالظماء وإنهم ... كساقٍ يُرينا الماء عذبًا ولا يسقي

ألم ترَ أنَّا طولَ عهدكَ لم نقم ... نسابقُ أهل المجد في حلْبة السبق؟!

ولم نكُ ندري لاهتضام حقوقنا ... أنحن من الأحرار أم نحن في رق؟!

ولم نستفدْ إلا سقوط وزارة ... وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق

وما ضرَّهم لو أَسقطوا نهج سَيرهم ... وساروا بمنهاج التبصر والحذق؟

ألم يُبصروا للعدل غيرَ طريقهم ... فإن طريق العدل من أوضح الطرق؟

وماذا عسى يُجدي سقوط وزارة ... إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق

مضى كاملٌ من قبل حلمي وإن جرى ... كما جَريَا حَقي فمثلهما حقي[٦]

وما الهمُّ عندي بالذي قد ذكرته ... وإن كان يشجيني ويدعو إلى الزعق

ولكنْ وراء الستر كفٌّ خفية ... تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقي

ولولا يدٌ شدت لساني بنسعة ... لبحْتُ بسر كالشجا هو في حَلقي[٧]

فيا أيها الدستور فاقْضِ بما ترى ... وأبرق ولكن لا تكن خُلَّب البرق

ولسنا نريد اليوم حُكمًا عليهمُ ... ولكن نناديهمْ وندعو إلى الحق

تعالَوا إلى أمر نساويه بيننا ... وبينكمُ في الجِلِّ منه وفي الدِّق[٨]

فإن يفعلوا هذا فيا مرحبًا بهم ... وإلا فيا سُحق المعاند من سحق

سنطلب هذا الحقَّ بالسيف والقنا ... وشِيبٍ وشبان على ضمَّر بُلق

بكل ابن حرب كلما شدَّ هزها ... بعزم من السيف المهند مشتق

تراه إذا ما عبَّس الموت وجهه ... بوجهٍ يُلاقي الموت مبتسم طَلق

من العُرب مطبوع الطباع على العلا ... بدمع معاني الحسن في الخلق والخُلق

---

[٤] المذق: هو اللبن الممزوج بالماء، المستخرج منه زبده.

[٥] النغبة: بفتح النون وبضمها: الجرعة. والسؤر بالضم: بقية الماء التي يبقيها الشارب في الإناء.

[٦] كامل وحلمي وحقي: أسماء وزراء في الدولة العثمانية.

[٧] النسعة، بالكسر: حبل من أدم. والشجا: عظم يعترض في الحلق، وهو عندهم مثل للأمر المزعج.

[٨] الجل والدق، وكلاهما بالكسر: الجليل والدقيق؛ أي العظيم والحقير.

في معرض السيف[1]

هي المُنى كثغور الغيد تبتسم إذا تطرَّبها الصمصامة الخَذِم
دع الأمانيَّ أو رُمهنَّ من ظُبةٍ فإنما هنَّ من غير الظبا حُلم
والمجد لا تَبْنِهِ إلا على أسسٍ من الحديد وإلا فهو منهدم
لو لم يكْ السيف رَبَّ الملك حارسَه ما قام يسعى على رأس له القلم
من سلَّه في دُجى الآمال كان له فجرًا تحُلُّ حُباها دونه الظلم[2]
والعلم أضيع من بَذْرٍ بمسبخة إن لم تُجلِّله من نَوْءِ الظبا ديم[3]
إن الحقيقة قالت لي وقد صدقت لا ينفع العِلم إلا فوقه عَلم
والحق لا يُجتنى إلا بذي شُطب ماء المنيَّة في غربيْه منسجم[4]

[1] لما قام الإصلاحيون في بيروت يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح، قال الرصافي هذه القصيدة يؤيدهم بها.

[2] «تحل حباها» بضم الحاء: جمع حبوة، وهي اسم بمعنى الاحتباء، وتطلق على ما يحتبي به الرجل من ثوب أو عمامة، ويقال: «حلَّ فلان حبوته»؛ إذا قام، كما يقال: عقد حبوته؛ إذا قعد، والمراد بكون الظلم في هذا البيت تحل حباها، أنها تزول دون ذلك الفجر.

[3] قوله: «بمسبخة»: صفة لمحذوف؛ أي بأرض مسبخة وهي الأرض التي تحرث ولا ينمو فيها زرع.

[4] «بذي شطب»: صفة لمحذوف؛ أي بسيف ذي شطب، والشطب: جمع شطبة، وهي طريقة السيف في متنه، وقوله: «في غربيه»: أي في حدَّيه.

إن أسمعَتْ أَلسنُ الأقلام ظالمها بعضَ الصرير كمن يبكي وينظلم
فللحسام صليل يرتمي شررًا مفتقًا أذنَ من في أذنِه صمم
هبِ اليراعة رِدء السيف تأزره فهل على الناس غير السيف محتكم
فالعلم ما قارنته البيض مفخرة والحق ما وازرَتْه السمرُ محترم
وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت أركانه فهو في الثاوين مخترَم
والعجز كالجهل في الأزمان قاطبة داءٌ تموت به أو تمسخُ الأممُ
والمجدُ يأثلُ حيث البأس يَدعمه حتى إذا زال زال المجد والكرم
وإنَّ شأوَ المعالي ليس يُدركه عزْم تسرَّب في أثنائه السأم

* * *

آهًا فآهًا على ما كان من شرف لليعرُبيِّين قد ألوى به القِدم
أيام كانوا وشملُ المجد مجتمع والشعب ملتئم والملك منتظم
كانوا أجلَّ الورَى عزًّا ومقدرة إذا الخطوب بحبل البغي تُحتزَم
وأربَط الناس جأشًا في موافقة من شدَّة الرعب فيها ترْجف اللمم
قومٌ إذا فاجأتهم غمة بدَروا وأوفزتهم إلى تكشيفها الهِمم[٥]
على الحصافة قد ليثت عمائهم وبالحزامة شُدَّت منهم الحُزُم
قضوا أعاريبَ أقحاحًا وأعقبهم خلف هم اليوم لا عُرب ولا عجم
جار الزمان عليهم في تقلُّبه حتى تبدلت الأخلاق والشيم
دب التباغض في أحشائهم مرضًا به انبرت أعظمٌ منهم وجفَّ دم
فأصبح الذل يمشي بين أظهرهم مَشْيَ الأمير وهم من حوله خدَم
فأكثر القوم من ذلٍّ ومَسكنة تُلْفي الذبابَ على آنافهم يَنمُ[٦]
كم قد نحتُّ لهم في اللوم قافية من الحفيظة بالتقريع تحتدم
وكم نصحتُ فما أسمعتُ من أحدٍ حتى لقد جفَّ لي ريق وَكَلَّ فمُ

* * *

[٥] بدروا: أسرعوا. وأوفزتهم: أعجلتهم.
[٦] ونم الذباب ينم: إذا سلح، ومصدره الونيم.

يا راكبًا مَتن مُنطاد يطيرُ به كما يطير إذا ما أفزع الرَخم[٧]
يمرُّ فوق جَناح الريح مخترقًا عرض الفضاء ويعدو وهو مُعتزم
يعلو إلى حيث يستجلي العيانُ له ما غمه الأفقُ أو ما وارت الأكم
حتى إذا حط منقضًّا على بلدٍ ينقض والبلد الأقصى له أمَم
أبلغ بني وطني عني مُغلغلةً في طيها كلَم في طيها ضرَم
ما بالهم لم يُفيقوا من عمايتهم وقد تبلَّجَ أصباحُ المنى لهم؟!
إلى متى يخفرون المجدَ ذمته أليس للمجد في أنسابهم رحم؟![٨]
ومن يَعِشْ وهو مضياعٌ لفرصته ذاق الشقاء وأدمى كفه الندم
وكل من يدَّعي في المجد سابقة وعاش غير مجيد فهو متهم

[٧] الرخم: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة، والواحدة منه رخمة.

[٨] خفر فلانًا: أي نقض عهده وغدر به.

ما هكذا[1]

أصبحتُ أوسِعُهم لومًا وتثريبا لما امتطوا غارب الإفراط مركوبا
وألهبتْ منهم الأهواء جارية إلى التفرق ألهوبًا فألهوبا[2]
وأرسلوهنَّ مُرخاة أعنتها يُوغلن في الأمر إحضارًا وتقريبا
فأرهجوا الشر حتى إن هَبوته مدت سرادقها في اللوح مضروبا[3]
راموا الصلاح وقد جاءُوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
قد كلَّفوا شططًا فيها حكومتهم وخالفوا الحزمَ فيها والتجاريبا
عَدُّوا النصارى وعدُّوا المسلمين بها ونحن نعهدُهم طرًّا أعاريبا
قد حكَّموا الدين فيها فهي مُعرِبة عما يكون لدعوى القوم تكذيبا
مَن مُبلغُ القوم أن المصلحين لهم أمسَوا كمن لبس الجلباب مقلوبا؟

[1] لما اطلع الشاعر على لائحة الإصلاحيين في بيروت ورأى فسادها، قال هذه القصيدة يؤنبهم ويفند رأيهم في ذلك، وفي عقدهم مؤتمرًا في باريس.

[2] ألهبت منهم الأهواء: في الكلام استعارة بالكناية، حيث شبَّه الأهواء بالخيل العادية، ومعنى ألهبت: اجتهدت في عدوها حتى أثارت الغبار، والألهوب: اسم بمعنى الإلهاب.

[3] أرهجوا الشر: أي أثاروا رهج الشر؛ أي غباره. والهبوة: الغبرة، واللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض.

ما بالهم وطريق الحق واضحة لا يسلكون إلى الإصلاح مَلحوبا؟[٤]
أو في مصالح دنياهم وهم عربٌ جاءوا على حسب الأديان ترتيبا؟
ما ضرَّهم لو نحَوْا في الأمر جامعةً تنفي الكنائس عنها والمحاريبا
لكنهم أمة تأبى مشاربهم إلا التعصبَ للأديان مشروبا
قد حاولوا الحقَّ واشتطُّوا بمطلبه حتى بدا وجهه كالليلِ غربيبا[٥]
قد يطلب الحق طيَّاشٌ فيبطله ما كل طالب حق نال مطلوبا
قاموا يريدون إصلاحًا فقمتُ لهم أستنطق الشعر تأهيلًا وترحيبا
ورحت أحْثُثُهمُ حدوًا بقافية غازلتُ في صدرها الآمال تشبيبا
حتى إذا محضوا آراءهم ظهرت للناس زُبدَتها ثأيًا وتخبيبا[٦]
ساروا وسرتُ فكان السير مختلفًا يرمي لوجهين تشريقًا وتغريبا
كانوا أحق البرايا مطلبًا فغدَوا من أبطل الناس في الدنيا مطاليبا
راموا انشقاق العَصا بالشَّغب ملتهبًا والحقد مضطرمًا والضَّغن مشبوبا
إني لأبصر في بيروت قائبة للشر موشكةً أن تخرج القوبا[٧]
أو أُكْرة من «دِناميتٍ» إذا انفجرت فنارها تنسفُ الشبان والشِّيبا
وقد رأيت أناسًا واصلين بها وهم بباريزَ مِلبارود أنبوبا[٨]
وآخرين بمصرٍ يطلبون لها تفرقعًا يجعل المعمور مَخروبا
ويترك الناس في دهياءَ مظلمة يرتدُّ منها بياض الشمس حُلْبوبا[٩]
قل للعريسيِّ، والأنباء شائعةٌ والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا:
علامَ تعقد في باريز مؤتمرًا ما كنت فيها برأي القوم مندوبا؟

[٤] ملحوبًا: أي واضحًا، وهو صفة موصوف محذوف، أي: طريقًا ملحوبًا.
[٥] الغربيب: الأسود.
[٦] الثأي: الضعف والركاكة. والتخبيب: الغش والإفساد.
[٧] القائبة: البيضة. والقوب: الفرخ.
[٨] ملبارود: أصله: من البارود، فحذف نون من الجار، واتصلت بالمجرور خطًّا، وقد جاء استعمالها كذلك في شعر الأقدمين. وجملة: «وهم بباريز» معترضة. وأنبوبا: مفعول لواصلين. وملبارود حال من أنبوبا.
[٩] الحلبوب: الأسود الحالك.

وهل تعمَّد «حقي العظم» فَعْلته لما نمى خبرًا «للطان» مكذوبا؟[١٠]
إذا راح يستنجد الإفرنج منتصفًا كأنه حَملٌ يستنجد الذيبا

* * *

خافوا التذبذبَ في أعمال دولتهم من أن يُجرَّ على الأوطان تخريبا
وكان خوفهمُ حقًّا لوَ انَّهمُ لم يعدلوا عن طريق الحق تنكيبا
لكنَّهم جاوزوا نهجَ الصواب إلى وادي تُهُلِّكَ فاستقصوا به الحوبا[١١]
ولم يُبالوا بما أبدُوه من جَنَفٍ أن يمسيَ الوطن المحبوب محروبا
فهم كمن فرَّ من قَطْرٍ يبلِّله ثم انتحى السيلَ أو جاء الميازيبا
لو كان في غير باريزٍ تألُّبُهُم ما كنت أحسبهم قومًا مناكيبا
لكنَّ باريز ما زالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيدًا وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقي العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم جيش يدُكُّ من الشام الأهاضيبا؟

* * *

يا أيها القوم لا يغرُرْكُمُ نفر ضَجُّوا بباريز إفسادًا وتشغيبا
جاءت رسائلهم بالشر مُغرية تفتنُّ في المكر أسلوبًا فأسلوبا
فطالعوهنَّ بالأيدي مطالعة تسطو عليهن تمزيقًا وتأريبا
إن يصدقوا إنهم لا يلبسون سوى مَحضِ النصيحة في الدعوى جلابيبا
فسوف يقرعُ كلٌّ سنَّه ندمًا ويُسْبلُ الدمعَ في الخدين مسكوبا

---

[١٠] لما عقد المتهوسون من العرب في باريز، أرسل حقي العظم إذ ذاك بمصر تلغرافًا إلى جريدة الطان الباريزية، يطلب فيه من الحكومة الفرنسية أن تتدخل في أمر سورية، ففي هذا البيت وما بعده إشارة إلى هذا التلغراف الذي أرسله حقي العظم.

[١١] وادي تهلك، بضم التاء والهاء وتشديد اللام المكسورة: هو الباطل، ويستعمل ممنوعًا من الصرف.

في ليلة نابغيَّة[1]

خاضَ الدجى وظلام الليل مختلطُ صوت به الوجدُ مثلُ السيف مخترَطُ[2]
يَبُثُّ في الليل حزنًا لو أحس به لبان في لمَّتيهِ الشيبُ والشمَط[3]
أبديه منقبضًا منه على شَجَن فيملأ الليلَ إرنانًا وينبسِط
أرسلت منه أنينًا فات أوَّله سمعي وآخره بالقلب مرتبط
والليل أرسل وحْفًا من غدائره كأنه بثُريَّا الأفقِ يمتشط[4]
والنجم في القبة الزرقاء تحسبه فرائدًا وهي من فيروزَج سَفَط[5]
كم قلت والليل جَثْلُ الشعر فاحمه شعرًا به كاد فرع الليل ينمعط[6]
ينجاب ليلُ العمى عن قلب سامعه كالفجر إن لاح فالظلماء تنكشط

---

[1] لما نشر الرصافي قصيدته «ما هكذا» ضج له ضجيج القوم، وأخذت صحفهم تشنع عليه الأمر، وترميه بما هو براء منه وخلاء، فبلغه الخبر وهو إذ ذاك في الآستانة فبات له قَلِق الحشا، فكتب هذه القصيدة وكأنه كان في ليلة نابغية.

[2] مخترط بصيغة المفعول: أي مسلول.

[3] الشمط: بياض الشعر، فعطفه على المشيب من قبيل عطف التفسير.

[4] الوحف، بفتح فسكون: الشعر الأسود الحسن.

[5] السفط بفتحتين: وعاء مقعر مستدير كالقفَّة، أكثر ما تستعمله النساء لوضع حليها.

[6] الجثل من الشعر: الكثير اللين. والفرع: الشعر التام. وينمعط: يتساقط ويتمرط، والمراد بفرع الليل: ظلامه، وبانمعاطه: انجلاؤه وإضاءته.

لـهْـفـي عـلـى حِـكـمٍ مـا زلـت أنْـثـرُهـا   درًّا ثـمـيـنًـا ومـا فـي الـقـوم مـلـتـقِـط!
ضـاع الـدواء الـذي قـد كـنـت أوجِـره   مَن ليس يشرب أو من ليس يَسْتعِطُ[7]
تقول لي — إن غبطتُ القومَ — تجربتي: لا تـغـبِـطَـنَّ فـمـا فـي الـقـوم مـغـتـبـط

* * *

قُـل لِـلْأُلَـى نـطـقـوا بـالـضـاد مُـدَّغـمًـا: لـم يـدغِـمِ الـضـاد آبـاءٌ لـكـم فـرطـوا[8]
أيـحـسُـن الـلـحـنُ إذ آبـاؤكـم فـصَـحـوا   أم يـحـسـن الـعـجـز إذ آباءكم نشِطوا؟!
فـيـكـم غـلـوٌّ وتـقـصـيـر وبـيـنـهـمـا   ضـاع الـمـراد أأنـتـم أمـة وَسَـط؟!
إنـي ابـتُـلـيـت بـقـوم يـبَـعـرون عـلـى   أعـقـابـهـم، وإذا عـنَّـفـتـهـم ثـلَـطـوا[9]
شـطُّـوا بـأقـوالـهـم حـتـى لـقـد غـضـبـوا   إذ قلت: يا قومُ في أقوالكم شطط
فـبـدِّلـوا الـقـول إن صـحَّـت عـزائـمـكـم   فـعـلًا وإلا فـإنـي يـائـس قـنِـط
قد حِرت في الأمر؛ إني حين أسخِطهم   يرضوْن عني وإن أرضيتهم سخطوا
فـاز الـذي كـان فـي أحـوالـه وَسَـطًـا   فـالـمـرُّ يُـعْـقـى وإن الـحـلـوَ يُـسـتـرط
قـل لـلأعـاريـب: قـد هـانـت مـكـارمـكـم   حـتـى ادَّعـاهـا أنـاس كـلـهـم نَـبـط[10]
بـرأتُ لـلـعُـرب الـعـربـاء مـن فـئـةٍ   يـنـمـونَ لـلـعُـرْب إلا أنـهـم سَـقـط
أيـن الـمـكـارم إن هـم أصـبـحـوا عَـرَبًـا   فـإنـهـا فـي طـبـاع الـعُـرب تـشـتـرط؟
إن يـغـمِـطـونـي لأنـي جـئـت أنـهـضـهـم   فـأي مـسـتـنـهـض ذي نـجـدة غـمـطـوا
هـم كـالـضـفـادع فـاسـمـعـهـمْ إذا رطـنـوا   فـمـا هـنـالـك إلا الـلـغـو والـلـغـط
يـسـتـنـثـرون صـغـارًا مـن مـعـاطـسـهـم   ولا يـبـالـون أن قـالـوا وأن ضـرطـوا
الـعـارُ يـرحـل مَـعْـهـم أيـنـمـا رحـلـوا   والـخِـزي يـهـبـطُ مـعـهـم أيـنـمـا هـبـطـوا
مـن كـل أشـوهَ لاحـت مـن مـغـامـزه   فـي وجْـه كـل حـيـاة حـولـه نـقـط

[7] قوله: «أوجره» نقول: أوجرت المريض الدواء؛ إذا صببته في فيه، ويستعط: يُدخل السعوط في أنفه.

[8] فرطوا: أي سبقوا وتقدموا.

[9] يبعرون: أي يرمون رجيعهم بعرًا، وهو رجيع ذات الخفِّ. وقوله: «ثلطوا» أي: سلحوا سلحًا رقيقًا، يقال للإنسان إذا رق نجوه: هو يثلط ثلطًا. ومعنى البيت: إني إذا لمتهم على خطئهم الصغير، فبدل أن يكفوا عنه يأتون بخطأ أكبر.

[10] النبط بالتحريك: جيل من العجم، ويستعمل أيضًا في أخلاط الناس وعوامِّهم.

قـد رَثَّ عـرضًـا وإن جـدَّت مـآزرهُ | من كلٍّ مـخـزية فـي وجـهـه شَـرَط[11]
تـراه يـشـخـر عـنـد الأكـل مـن جـشـع | كـأنـمـا هـو عـنـد الأكـل يـمـتـخـط
الـخَـلـق كـالـخَـطِّ لا تـقـرأ لـئـامَـهـمُ | واشـطـب عـلـيـهـم بـنـعـل إنـهـم غـلـط
إن رُمت تشبع من مجد فكُلْ هممًا | كـأكـلـك الـسـمـن مـلـبـوكًـا بـه الأقِـط
نـفـسـي تـجـيـش لأمـر لـو صـدعـت بـه | لـزُلـزلـت دونـه الـبـلـدان والـخـطـط

[11] الشرط، بالتحريك: العلامة.

إلى السلطنة

هم يعَدُّون بالمئات ذكورًا وإناثًا لهم قصور مُشاله
ولهم أعبدٌ بها وإماء ونعيم ورفعة وجلاله
تركوا السعي والتكسب في الدنـ ـيا وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكي أعين السعي من نعيم البطاله
يأكلون اللُّبابَ من كدِّ قومٍ أعوزتهم سَخينة من نخاله[1]
فكأنَّ الأنام يشقون كدًّا كي تنال النعيمَ تلك السُّلاله
وكأن الإله قد خلق النا س لمَحْيا آل السلاطين آله
نعِموا في غضارة الملك عيشًا وحملنا من دونهم أثقاله
فإذا صاولَ العدوُّ خرجنا دونهم للوَغى نردُّ صياله
وإذا هم جرُّوا الجرائرَ يومًا فعلينا تكون فيها الحماله[2]
وإذا ما استهلَّ فيهم وليد فعلينا رَضاعُه والكفاله
قد رضينا بذاك لولا عتوٌّ أظهروه لنا على كل حاله
ما بهم ما يميزهم عن بني السو قة إلا رسوخهم في الجهاله

[1] سخينة: طعام أو حساء يتخذ من دقيق وتمر، ويؤكل أيام الجهد. والنخالة: ما يبقى في المنخل بعد الدقيق من قشر الحب.

[2] الحمالة: ما يتحمله المحاربون من ديات القتلى.

هم من الناس حيث لو غُربِل النا س لكانوا نفايةً وحثاله
ومن الجهل حيث لو صوِّر الجهـ ـل لكانوا بين الورى تمثاله
حملونا من عيشهم كل عبءٍ ثم زادوا أصهارَهم والكلاله[3]
فكفينا أصهارَهم مؤنة العيـ ـش فكانوا ضغثًا على إبَّاله[4]
تلك والله حالة يقشعرُّ الحقُّ منها وتشمئز العداله
هي منهم دناءة وشَنارٌ وهي منا حماقة وضلاله
ليس هذا في مذهب الإشتراكيـ ـة إلا من الأمور المُحاله
وهو في الملة الحنيفية البيـ ـضاء كفرٌ بربِّنا ذي الجلاله

[3] الكلالة: ذو القرابة غير الوالد والأولاد؛ يريد من ليسوا شديدي القرابة.

[4] الضغث: ما يملأ الكف من قضبان أو حشيش أو شماريخ. والإبالة: الكومة الكبيرة منه.

الوطن والأحزاب[1]

متى نرجو لغُمَّتنا انكشافا وقد أمسى الشِّقاق لنا مَطافا؟!
ملأنا الجو بالجدَل اصطخابًا وكنا قبلُ نملؤه هُتافا
وما زلنا نهيم بكل وادٍ من الأقوال نرسلها جُزافا
ونرجف في البلاد بكل رعب يَهزُّ فرائص الأمن ارتجافا
ونتَّهم الحكومَة باعتسافٍ ونحن أشد ظلمًا واعتسافا
وكم من ناعبٍ في القوم يدعو بوشك البين تحسبه الغُدافا
تَباكينا على الوطن اختداعًا فأنبتنا بأدمعنا «الخلافا»
أجاعتنا المطامع فاختلفنا لنملأ في موائدنا الصحافا
ولكنا من الوطن المُفدَّى نخيط على مطامعنا غلافا

* * *

أرى أنف الحوادث مشمخرًّا غدًا يتشمَّم الحدَث الجرَافا[2]
ويوشك أن يمزق منخريه عطاس يملأ الدنيا رعافا

[1] قال الرصافي هذه القصيدة عندما سقطت وزارة الاتحاديين، وقامت وزارة أحمد مختار باشا الغازي، وذلك قبل الحرب البلقانية، وكان الخلاف بين الاتحاديين والائتلافيين في أشد حالاته.

[2] الجراف: الجارف.

فهل لوزارة «الغازي» اقتدارٌ تردُّ به الهزاهز والثِّقافا[3]

* * *

أقولُ، ولو يسوء القومَ قولي بيانًا للحقيقة واعترافا:
قد اختلف البرية واختلفنا فكنا نحن أسوأها اختلافا
فلا تغررك أحزاب شداد بأن لهم أقاويلًا لطافا
فإن بواطن القوم احتراصٌ وإن أبدت ظواهرهم عَفافا
وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكلَ أقوياؤهمُ الضِّعافا
هو الدينار مُنية كل راجٍ وبُغية كل من دأب احترافا
نَحُجُّ لأجله بيت المخازي ونكثر حول كعبته الطوافا
ترى كل الأنام به سُكارى وغيرَ هواه ما ارتشفوا سلافا
فحبُّ سواه في الأفواه جارٍ ولكن حبه بلغ الشغافا
هو الحرب التي زحفت إليها كتائب كل من طلب الزحافا
وكم قد رنَّ في أمل مُخاف فأمَّن صوته الأمل المُخافا
إذا خطب الوضيع به المعالي أقام له بنو الشرف الزفافا
أرى الأحزاب من طمع وحرصٍ قد اخترقوا إلى الفتن السِّجافا
يجانف بعضهم في الرأي بعضًا وبئس الرأيُ ما التزم الجِنافا
لئن خطَّأتُ من راموا «اتحادًا» فما صوَّبت من راموا «ائتلافا»
فإن مشارب العدوان منها كِلا الحزبين يرتشف ارتشافا
وهُم كأولي الديانة كل حزب يراه أحق بالحق اتصافا
وماذا نفع أقوال سِمانٍ إذا أفعالهم كانت عِجافا؟!
وأنَّى يُصْلِح الأوطان قومٌ بها أشتى تدابرهم وصافا؟!
فكن منهم على طَرَفٍ بعيدًا وحاذر أن تكون لهم مضافا
فهم كالبحر يهلك راكبوه ويسلم منه من لزم الضِّفافا

[3] الهزاهز: الحروب والفتن التي تهز الناس. والنقاف: هو المضاربة بالسيوف على الرءوس. ووزارة الغازي: هي وزارة أحمد مختار باشا الغازي.

عند سياحة السلطان[1]

قل للحكومات في البلقان: هل عِلِقت … آمالكم من مواعيد بإنجازِ؟
إن الذي تضمرون اليوم من طمعٍ … أمسى لأشعب يعزو مثله العازي
لم تعرفوا مُذْ لمَستم عرق نخوتنا … إذ قد لمستم بكفٍّ ذات قفَّاز
إنا لنعرف لغزًا في سياستكم … وما السياسة إلا بيت ألغاز
ألم تروْا أننا مستوفِزون لكم … إذ نحن منكم على حِذر وأوفاز[2]
زار المليك بلاد الروم حيث غدا … يُلقي الدسائس منكم كل همَّاز[3]
فزال كل فساد كان منتشرًا … من عندكم بين إغراء وإيعاز
حتى اطمأنت قلوب الناس هادئة … وكل قلب لكم من غيظه نازي[4]
وأصبح المترجِّي من مطامعكم … يرنو إليكم بطرف ساخرٍ هازي

[1] لما أخذت حكومات البلقان تشتغل بإيقاد الفتن السياسية في مقدونيا وبلاد الألبان، وخرج السلطان رشاد إلى البلاد المذكورة سائحًا سياحة سياسية، قال الرصافي هذه القصيدة، وقد رفعها إلى السلطان فأجازه عليها بساعة من ذهب، ذات سلسلة ذهبية.

[2] مستوفزون: متهيئون للوثوب عليكم، نحن على أوفاز: أي حد عجلة، أو على سفر قد أشخصنا، والأوفاز: جمع وفز وهو العجلة.

[3] الهمَّاز، كشدَّاد: العيَّاب الطعَّان.

[4] نازي: أي واثب.

ولاعبتْ نسمات الحب ألوية … من الرشاد أقيمت فوق أنشاز[٥]
يا أيها الملك السامي بحكمته … والمبدل الناسَ من ذلٍّ بإعزاز
قد عَيَّ في وصف ما أوتيتَ من حِكم … كلا كلاميَ: إطنابي وإيجازي
غزوتَ غزوَ سلام دون غايته … غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
ملكت بالعفو والإحسان أفئدةً … كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
وأنت لو شئت إرهابًا لجئتهمُ … بصارمٍ لنواصي القومِ حَزَّار
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم … والعفو أفضل ما يجزي به الجازي
فاغمدْ سيوفك إن العفو منصلتٌ … واهنأ بشعبٍ مُحبٍّ غير منحاز
بالترك بالروم بالألبان قاطبة … بالأرمنيين بالبلغار باللازِ
أما بنو العُرب فالإخلاص يرفعهم … إلى مقامٍ على الأقوام ممتاز
إذ هم عِمادٌ لعرشٍ أنت ماسكه … فاضرب بغاث العِدا منهم بأبواز
ورضْ بهم كل صعب، إنهم فئة … تبغي الصدور ولا ترضى بأعجاز
وهم ركاز العُلا لو زرت أرضَهمُ … يومًا لأركزت فيها أيَّ إركاز[٦]
إن يعجِز الأمر عن مشي فهم سندٌ … لو كنتَ مُسنده منهم بعُكاز
وإن خشيتَ على البلدان جِنَّتها … فنُطْ بها من نُهاهم بعض أحراز[٧]
وسيفُ مُلكِكَ إن رثَّت حمائلُه … أغنَوك في رأبها عن كلِّ خرَّازِ[٨]
زر أيها الملكُ المحبوب موطنهم … ولو زيارة عَجْلانٍ ومجتاز
وانظر إليه بعينٍ منك شافيةٍ … ما نابه اليومَ من جهل وإعواز
أشْئمْ وأعْرِقْ وَرُحْ من بعدُ محتجزًا … وأيمنَنَّ بعزم غير هَزهاز[٩]
ماذا على ملك الدستور من وطن … لو جال منه بأطراف وأجواز

---

[٥] أنشاز: جمع نشز بالتحريك، وهو المكان المرتفع.
[٦] الركاز: ما ركزه الله في المعادن من ذهب وفضة.
[٧] الأحراز: مفردها الحرز؛ ما يتخذ لدفع الشر والجنون.
[٨] في رأبها: أي في إصلاحها. والخرَّاز: فعال من الخرز، وهو خياطة الجلود.
[٩] احتجز الرجل: أتى الحجاز، وأيمن: أتى اليمن. وقوله: «بعزم غير هزهاز»؛ أي غير مضطرب.

الحق والقوة

أرى الحقَ لم يغشَ البلاد وإنما مشى ضاربًا في الأرض تلفظهُ الطُّرْقُ
فيُصبح في أرض ويُمسي بغيرها وحيدًا فما يئويه غربٌ ولا شرقُ
توطَّنَ قفرَ الأرض مبتعدًا بها إلى حيث لا إنس ولا طائر يزقو
وقد يهبط الأمصارَ وهو محجَّب ويظهر أحيانًا كما أومَض البرق
ومن عجبٍ أن الوَرَى يدَّعونه وهم من قديم الدهر أعداؤه الزُرق
أعدُّوا له في البر والبحر قوةً إذا ظهرتْ ينسدُّ من دونها الأفق
وطاروا بطياراتهم يُمطرونه قذائفَ من نارٍ كما أمطرَ الودق[1]

* * *

يقولون: إن الحق في الخلق قوة تُذل لها الأعناق قهرًا وتندق
فما باله يُمسي ويصبح شاكيًا ولا يتحاشى عن ظلامته الخلق؟
إلى الله نشكو الأمر من مدنيَّةٍ تعارَضَ في أوصافها الكذب والصدق
وكم قد سمعنا ساسة الغَرب تدعي بأشياء من بطلانها ضحك الحقُ
فهم منعوا رقَّ الأسير وإنما أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرقُّ
ألم ترَ في القطر العراقي أمة من الأسر مشدودًا بأعناقها ربق؟
قد اختط فيه السيف للقومِ خطة من العنفِ لم يمرر بساحتها رفق

[1] الودق: المطر كله؛ شديده وهينه.

وأوجرهم سمًّا من الذل ناقعًا		بكأس من العُدوان ليس لها مذْق
فدجلة من وقع الشوائب أصبحتْ		تُعافُ؛ لأن الماء في حوضها رَنق
وإن الفراتَ الغمر أمسى وماؤه		من الضيم غَوْرٌ ما لأوشالهِ عمق

* * *

رعى الله بين الواديين مَواطنًا		إذا ذكرتْ يهتز بي نحوها عشق
قضيت بها عصر الشباب فلي بها		خواطر لم يسمح بإفشائها النطق
فلا تعجبوا من أنني عند ذكرها		أنوح عليها مثلما ناحت الوُرْق[2]
وإني إذا أبصرتها مستضامة		يكاد لها قلبي من الحزن ينشق
ألم ترها قد أصبحت من إسارها		تليح بطرف في لواحظه العِتق؟
تجر قيود الذلِّ راسفةً إلى		تكاليف حكم في سياسته المحق
ويحلب شطريها العدو ضرائبًا		ويمخضها درًّا كما يُمخَض الزِقُّ
سلامٌ على وادي السلام الذي به		تفاقم هول الخطب واتسع الخرق
سنفديه حتى لا حياة عزيزة		ونبذل حتى لا نفيس ولا علق
وندرك فيه ثأرنا بكتائب		لها نسب من صلب يعرُبَ مشتق
وإن الليالي بالخطوب حوامل		ولا بدَّ يومًا أن سيأخذها الطَّلق
فتنتج حربًا ما يبوخ سعيرها		وتستنُّ في ميدانها الدُّهم والبُلق
بكل أخي عزم كأنَّ مضاءه		مشَطَّبة بيض ومسنونة زُرق
تلقَّف رايات العلا بسواعد		لهنَّ بتصريف القنا في الوغى حذق
فإما المنايا نستطبُّ بِطبها		وإما مُنىً فيها يتم لنا السبق
إذا نحن لم نملك على الدهر أمره		فلا دام فينا نابضًا للعلا عِرق

---

[2] الورق: الحمائم، مفردها الورقاء.

صبح الأماني[1]

تبلَّجَ أفقُ الشرق من بعد ما اغبرَّا وكشَّر عن صبح الأمانيِّ مُفترَّا[2]
ولو كان صُبحًا ناصع اللون سرني وبرَّد حرًّا كان في كبدي الحَرَّى
ولكنه صُبحٌ يلوح لناظري بحاشية الزرقاء كالدم مُحمرَّا
أراه كوجه الغادة الخود راقني بحسن ولكن قد تجهَّم وازورَّا
لمحت تباشير المنى من خلاله ضِئالًا كمنهوك غدا يشتكي الضرَّا
ولم أدرِ لما استبهمت أخرياتُه أأطمع أم أستشعر اليأسَ مضطرًّا؟
ولو كنتُ أدري ما وراء احمراره تسرَّى عن النفس الكئيبة ما سرَّى
ولكنه وَرَّى عواقب أمره فزادت شكوك النفس من أجل ما ورَّى
يهامسني بالوعد قولًا مجمجمًا كأنْ هُوَ يخشى أن أذيع له سرًّا
وإني لأخشى أن أكون بوعده وإن أسفرت أوضاحه الغرُّ مُغترًّا
وما كل صبح يرتجي الناس خيره ولا كل ليل مظلم يُضمر الشرَّا
فإن كنت يا صبحَ الأمانيِّ صادقًا بوعدٍ فحيا الله طلعتك الغَرَّا

[1] نشرت الجرائد مقالًا لشكري غانم بباريس صرح فيه بالتبرؤ من الأمة العربية، قائلًا: إننا — معاشرَ السوريين أو اللبنانيين — لسنا بعرب، وإن تكلمنا بالعربية، وإنما نحن فينيقيون، فقال الرصافي هذه القصيدة؛ يرد على شكري غانم.

[2] يشير بقوله: «تبلج أفق الشرق» إلى حكومة دمشق، وكنى عنها بافترار الشرق عن صبح الأماني.

* * *

خليليَّ هل من عاذرٍ في قصيدةٍ أقول بها حقًّا وإن قلته مُرًّا؟!

أرى هَبوةً سوداء في الجو أسبلت حجابًا بآفاق العراقين مُمَترًّا[٣]

وأرخت بأرض الشام منها على الربا سُدولًا بها جو السماء قد اغبرًّا

ومدت على بيروتَ منها غيابةً بها عاد وجه الأفق أسفعَ مكدرًّا[٤]

وما هي إلا عارضٌ من تناكرٍ به مربع الآمال أقفر واقورًّا[٥]

ترى القوم فيه نَوءُهم متخاذلٌ وآمالهم أمست كتيبتها فُرَّى[٦]

* * *

عجبت لقوم أصبحوا يُنكروننا وقد عرفونا في الزمان الذي مرًّا

همُ أسمعونا نعرة عربية فدوَّى صداها في المسامع مُضطرًّا

فكم من خطيب قام فيها مثرثرًا فطرَّى لنا من يابس القول ما طَرَّى

وكم شاعرٍ قد أرخص الشعرَ دونها وكم قلم فوق الطروس بها صرًّا

وكنَّا أجبناهم إليها إجابة بها قد تركنا جانب الدِّين مزورًّا

رجاءَ اتحاد في طريقِ سياسة تعمُّ مراميها بني يَعربٍ طرًّا

فمذ حان أن يخضلَّ غصن اعتزازنا ويرجع بعد اليُبس رطبًا ويخضرًّا

نصبنا خياشيم الرجاء لريحهم فهبت لنا نكباءَ عاتية صِرًّا

* * *

لعمري لقد ساء الكرامَ ابنُ غَانم بباريسَ إذ قد قال ما يُخجِل الحرًّا

---

[٣] يقال: امترَّ به؛ أي مرَّ به.

[٤] الغيابة: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه، كالغبرة والسحابة ونحو ذلك. وأسفع: ذو سواد وشحوب. ومكدرًّا: أي كدر.

[٥] اقورَّ: ذهب نباته.

[٦] قوله: «نوءهم متخاذل»: أي ضعفاء. وقوله: «أمست كتيبتها فُرَّى»، بضم الفاء وتشديد الراء: أي منهزمة.

نَفى عن مَنامِيه العروبةَ وادَّعى جُزافًا وخلَّى منهج القوم وابترَّا[٧]

وهل حسِبوا أن العروبة في الورَى من العَرِّ حتى أنكروا ذلك العَرَّا؟![٨]

كأن لم يقم من بينهم ناعرٌ بها ولم يك ضَرَّانا بها أمس مَن ضَرَّا[٩]

فما أحَدٌ منهم وفَى بعهوده ولا أحدٌ منهم بما قال قد برَّا

وكان غَرورًا كل ما حالفوا به وشر الحليفين الذي خان أو غرَّا

وعاد الذي كنا نؤمِّل منهمُ إلى غير ما كنا نؤمِّل منُجرَّا

وقد صوَّحت تلك الأمانيُّ كلُّها فحاكت نباتَ الأرض إذ هاجَ مصفرَّا

وأصبح فينا شامتًا كلُّ من غدا لأبناء قَنْطوراءَ يغضب ممْقَرَّا[١٠]

---

[٧] نفى عن مناميه: أي عن مناحيه. ابتر: من الابترار، وهو الاعتزال والانفراد عن الأصحاب.

[٨] العر بالفتح: العيب.

[٩] قوله: ضرانا بها: أي أغرانا، يقال: ضراه بكذا تضرية؛ أي ألهجه به وأغراه وعوَّده إياه.

[١٠] أبناء قنطوراء: الترك. وقوله ممقرًا: أي ناتئًا عرقه، ويكون ذلك عند الغضب.

نواح دجلة

قالها بعد سقوط بغداد في أثناء الحرب العامة؛ جوابًا عن قصيدة الشاعر التركي الشهير سليمان نظيف.

هِيَ عيني ودمعُها نضَّاحُ كلُّ حُزنٍ لمائها يَمتاحُ
كيف لا أذرُف الدموع وَعِزِّي بيد الذلِّ هالك مجتاحُ؟!
قد رمتني يدُ الزمان بخطبٍ جَلَل ما لليله إصباح
حيثُ غمَّت عليَّ وجه سَمائي ظُلمات تخفى بها الأشباح
وتوارَى عن أعيني مضمحلًا شَرَف في مواطني وضاح
يومَ أمسيتُ لا حُماةٌ تذود الضـ ـيم عني ولا ظُبًا ورماح
فأنا اليومَ كالسفينة تجري لا شِراعٌ لها ولا ملَّاح
ضقتُ ذرعًا بمحنتي فتراءتْ قِيدَ شِبرٍ ليَ الفِجاج الفِساح
أخرسَ الحزن مَنْطقي بنحيبٍ ألسنُ الدمع فيه ذُلْقٌ فِصاحُ
نُحْتُ حتى رثى العدو لحالي واعتراني من العويل بُحاح
فمياهي هي انسكاب دموعي وخريري هو البكا والنُّواح
أوَما تبصرُ اضطرابي إذا ما خَفقتْ في جوانبي الأرواح؟!
ليس ذا الموجُ فيَّ موجًا ولكن هو مني تنهُّد وصياح
إن وجدي هو الجحيمُ ولولا أدمعي أحرقتْنيَ الأتراح
لو درى منبعي بما أنا فيه من أسًى جفَّ ماؤه الضَّحْضَاح
علَّه قد درى بذاك فهذا هو باكٍ ودَمعُه سفَّاح

* * *

أين أهل الحفاظ هل تركوني نهبةً في يد العدوِّ وراحوا؟
برحوا واديَ السَّلامِ عجالًا أفجِدٌّ برَاحُهمْ أم مُزاح؟
ما لَهم يَبعدون عنِّي انتزاحًا وعزيز منهم عليَّ انتزاح؟
أوَما يعلمون أن حريمي للمُعادين بعدهم مستباح؟
فلئن يبعدوا فإن فؤادي لَإلَيْهم بودِّه طمَّاح
تركوني من الفراق أقاسي ألمًا ما تطيقه الأرواح
لو رأوني سبْيًّا بأيدي الأعادي لبكوا مثلما بكيت وناحوا
لا مسائي بعد البعاد مساءٌ يوم بانوا ولا الصباح صباح
أتمنى بأن أطيرَ إليهم بجناحٍ وأين مني الجناح!
أنا أدرى بأنهم بعد هجري لم يذوقوا غمضًا ولم يرتاحوا
بل هم اليوم عازمون على الزحـ ـف بجيشٍ به تَغَصُّ البِطاح
إن تَأَنَّوا فربضة الليث تأتي بعدها وثبةٌ له وكفاح
كيف يُغضون عن إغاثة وادٍ زانه من ودادهم أوضاح؟!
فعليه من فخر عثمان تاجٌ وله راية الهلال وشاح
أنا باقٍ على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممن أحبُّ جراح
فإليهم ومنهمُ اليوم أشكو بلِّغيهم شكايتي يا رياحُ

بعد براح الشام

قد صحَّ عزمك والزمان مريضُ حتَّامَ تذهبُ في المنى وتئيضُ؟![1]
ما بال همك في الفؤاد كأنه عَظم يقلقل في حشاك مَهيض؟!
كم بتَّ مُعْتلجَ الهموم بليلة ما للظلام بفجرها تقويض!
طنَّت بمسمعِك الهواجس في الدجى فنَفت كَراكَ كما يَطِنُّ بَعوض
تنبو جُنوبك عن فراشٍ ناعمٍ فكأن مضجعك الدميثَ قضيض
وكأن جنبك بالجوى متقرِّح وكأن قلبك بالهموم رضيض
كَبُرَت لنفسك في الحياة لُبانة ضاقت سموات بها وأروض
ما زلتَ تقتحم المهالكَ دونها فالهول يركب والصعابَ تروض
لله أنت فأيَّ هولٍ تمتطي أم أي معترك الخطوب تخوض؟!

* * *

ولربَّ قافيةٍ كمؤتِلق السنا يجلو الشكوكَ يقينها الممحوض[2]
صرَّحتُ في إنشادها بحقيقة فات الأنامَ بمثلها التعريض

---

[1] آض يئيض أيضًا: رجع.

[2] الممحوض: من المحض، وهو الخالص.

ولـقـد أَجَـرَّنـيَ الـقـريـضُ عِـنـانَـهُ ونحا بيَ المِضمار وهو مَروض[3]
وأتـى المدى يوم السباق مجلِّيًا يـجـري سَـبـوحٌ خـلـفـه ورَكـوض
قد كنتُ أنبط للقريضِ قريحةً بمفاخر العرب الكرامِ تَفيض
ولكم وقفت من السياسة موقفًا مَحيايَ فيه على التوَى معروض[4]
مستنهضًا بالشعر قومي للعلا إذ كـان فـيـهـم فـتـرة وربـوض
أيـامَ لـم يـنـطـق بـذلـك شـاعـر قبلي ولم ينشد هناك قريض
حـتـى إذا دار الـزمـان مـداره خاب القريضُ وعاد وهو جريض[5]
وغدا ينازعني الحرورةَ شاعرٌ ما كان حرًّا شعرُه المقروض[6]
ويـبـزُّنـي ثـوبَ الأمـانـة خـائـنٌ كأبي براقشَ طبعه المرفوض[7]
كـم مـدَّعٍ دعـوايَ فـي وطـنـيَّـةٍ أنا كنت أبنيها وكان يَقوضُ!
من كل عبد في السياسة باعَهُ وشَـرَاه هـذا الـدرهـم الـمـقـبـوض
تَعِسَ المخاصِم إنَّ لي لقصائدًا طَرْفُ المعاند دونهنَّ غضيض[8]
فإذا ادَّعيتُ فهن في دَعوايَ لي حُـجـج دوامغُ مـا لـهـنَّ دُحـوض
وسَلِ اليراع يُجِبْكَ عنِّي ناطقًا بمقال صِدق ليس فيه غموض

* * *

لـمَّـا تـكـرَّهـنـي الأراذلُ سَـرَّنـي أنـي إلـيـهـم يـا أُمـيـمَ بَـغـيـض
ولقد برِئت إلى الوفاء من امرئٍ عـهـد الـصـداقـة عـنـده مـنـقـوض
وجـزيـتُ كلَّ صـنـيـعـة بـمـثـالـهـا إن الصنائع في الرجال قروض

---

[3] أجرني الفرس عنانه: أسلس لي قياده. والمضمار: الميدان الذي يضمر فيه خيل السباق. والمروض: المدرب على الجري في السباق.

[4] توى يتوي توًى من باب فرح: هلك، يريد: وقفت في السياسة مواقف كثيرة تعرَّضت فيها حياتي للحِمام.

[5] الجريض: غصص الموت.

[6] الحرورة: بفتح الحاء، كالحرية والحرورية، والحرارة والحرار، وهي العتق والنفاسة.

[7] يبزني: يسلبني. وأبو براقش: حيوان لا يزال جلده يتلون ألوانًا في ضوء الشمس.

[8] غضيض: مغضوض؛ أي مكسور.

لا تطلبنَّ من الزمان حقيقة ما للحقيقة في الزمان وَميض
وإذا مخَضتَ من الليالي صرفها أبدى العجائب صرفها الممخوض[٩]
وحوادث الأيام مثل نسائها في الحكم تطهر تارة وتحيضُ
ولربَّما أنتجنَ كلَّ كريهة سوداء تقنأ في وَغاها البيض[١٠]
قد ساء منقلَب البلاد بأهلها فانحطَّ أوْجٌ واشمخرَّ حضيض
ذهَبَ الحياء فكم رأينا صاغرًا قد جاء وهو لمذْرويه نَفوض[١١]
وقح تعامى عن مَدانس عرضه فزهاه عُجْبًا ثوبه المرحوض[١٢]
غلب الشقاء على الأنام فخيرهم دثٌّ وقَطر شرورهم إغريض[١٣]
كيف السعادة في الحياة وللورى في قوس كل ضغينة تَنْبيض؟![١٤]
أم كيف تبتدع المعالي أمَّةٌ في العلم قلَّ نصيبها المفروض؟!
لن تعدم الدنيا الشقاء بأهلها ما دام ملك في البلاد عضوض
ويحَ الذكاء فقد تأخَّر أهله حتى تقدَّم مَن قفاه عريض
أخزى البِلاد مفاسدًا بلدٌ به مُقِت الأديبُ وأكرم العرِّيض
وإذا الفتى قعدَتْ به أفعاله أعياه بالنسب الرفيع نهوضُ
والمرء إن عدمت سجيته العُلا لم يبتعْثه إلى العلا تحريض

[٩] وضع اللبن في السقاء وتحريكه لاستخراج الزبد منه.

[١٠] تقنأ: تحمر. والوغى: الحرب. والبيض: السيوف، جمع أبيض.

[١١] المذروان: مثنى مذرى، وهو طرف الألية. ونقوض: محرك؛ أي كم حقير ذليل جاء يستطيل على غيره ويهدده.

[١٢] زهاه: ملأه. والمرحوض: المغسول.

[١٣] الدث: أضعف المطر وأخفه، جمع دثاث. والإغريض: قطر كبار.

[١٤] التنبيض يقال: نبض قوسه نبضًا؛ إذا جذب وترها.

تجاه الريحاني

شكواي العامة

هذه هي القصيدة التي أنشدها الرصافي في حفلة أقامها المعهد العلمي؛ تكريمًا لأمين الريحاني عند قدومه بغداد في أيلول سنة ١٩٣٣.

إن الـعـراقَ بـعـرضـه وبـطـولـه ... وبـرافـديـه وبـاسـقـات نـخـلـيـه
يـهـتـزُّ مـبـتـهـجًـا بـمـقـدَم ضـيـفـه ... ويَـبـشُّ مـبـتـسـمًـا بـوجـه نـزيـلِـهِ
ومُـرحِّـبًـا والـشـكـر فـي تـرحـيـبـه ... ومـؤهـلًا والـحـمـد فـي تـأهـلـيـه
بـربـيـبِ لـبـنـان، بـريـحـانِـيِّـهِ ... بـكـبـيـر مـعـشـره، بـفـخـر قـبـيـلـه
بـالـعـبـقـريِّ، بـفـيـلـسـوف زمـانـه ... بـأديـب أمـتـه، بـداهـي جـيـلـه
بـأصـحِّ أحـرار الأنـام تـحـرُّرًا ... فـي فـكـره وبـفـعـلـه وبـقِـيـلـه
إنـا نـبـجِّـل مـنـه خـيـرَ مـبَـجَّـلٍ ... تـبـجـيـل كـل الـفـضـل فـي تـبـجـيـلـه
أأمـينُ جـئـتَ إلـى الـعـراق لـكـي تـرى ... مـا فـيـه مـن غُـرَر الـعـلا وحـجـولـه
عـفـوًا فـذاك الـنـجـم أصـبـح آفِـلًا ... والـقـوم مُـحـتـربـونَ بـعـد أُفـولـه
أوَمـا تـرى قُـطـر الـعـراق بـحـسـنـه ... قـد فـاق مُـقـفِـرهُ عـلـى مـأهـولـه
أمـا الـحـيـا فـيـه فـذيَّـاكَ الـحـيـا ... لـكـنْ مَـسـيـلُ الـمـاء غـيـر مَـسـيـلِـهِ
وربـيـعـه ذاك الـرَّبـيـع وإن شـكـا ... مـن جـهـل سـاكـنـه اشـتـداد مُـحـولـه
فـأقـم بـه ولـك الـغـنـى بـفـرَاتـه ... عـن قـطـر مـصـر وعـن مـوارد نـيـلـه
وانـزل عـلـى وادي الـسـلام مـمـتَّـعًـا ... بـرَغـيـد عـيـشٍ تـحـت ظـل نـخـيـلـه
والْـثُـمْ بـه ثـغـرَ الـطـبـيـعـة بـاسـمًـا ... يـشـفـي مـن الـمـشـتـاق حَـرَّ غـلـيـلـه

وتـرقَّـبَـنْ أسـحـاره حـتـى إذا	هبَّ النسيم فُجسَّ نَبض عليله
وانظر محاسن أرضه وسمائه	وانشـقْ أريجَ شماله وقبوله
فالجوُّ فيه مُنيرة أوضاحه	والحسن فيه دقيقهُ كجليله
والليل فيه مكلَّل بمرصَّع	وكواكب الإكليل من إكليله
وترى النَّهار به كذهنك واقدًا	بالشمس تُشرق في وجوه سهوله
وترى ضياء الشمس فيه مغلَّفًا	بنظيره ومُسَلسلًا بمثيله
وإذا وقفت بدارسٍ من مجدِهِ	فَكَوقْفَةِ الباكين بين طلوله
وانحبْ كما نحب الحزين مُكفكِفًا	غرب الدموع بجانبيْ مِنديله
فلقد عفا المجد القديم بأرضه	وعليه جرَّ الدهر ذيل خُموله
وإذا نظرت إلى قلوب رجاله	فانظر حديد الطرف غير كليله
تجد الرجال قلوبها شتَّى الهوى	مدَّ الشقاق بها حِبالَةَ غُوله
متناكرين لدى الخطوب تناكرًا	يعيا لسان الشعر عن تمثيله
فالجار ليس بآمنٍ من جاره	والخِلُّ ليس بواثق بخليله
والدينُ فيه يقولُ ذو قُرآنه	قولًا يُحاذر منه ذو إنجيله
وإذا تأوَّل قولَهم متأولٌ	صرفوه بالتفكير عن تأويله
وإذا تكلَّم عالم في أمرهم	خَفرُوا ذِمام العلم في تجهيله
حال لو افتكر الحكيم بكنهه	طول الزمان لعيَّ عن تعليله
من ذا يبدِّله فإن قوارعي	يئست لعمر الله من تبديله؟[1]
والجهل لا يُبقي على أربابه	كالسَّيف ليس براحمٍ لقتيله
أأمين لا تغضبْ عليَّ فإنني	لا أدَّعي شيئًا بغير دليله
من أينَ يُرجى للعراق تقدم	وسبيل ممتلكيه غيرُ سبيله؟
لا خير في وطن يكون السيف عنـ	ـد جبانه، والمال عند بخيله
والرأي عندَ طريده، والعلم عنـ	ـد غريبه، والحكم عند دخيله
وقد استبدَّ قليلُهُ بكثيره	ظلمًا، وذلَّ كثيرُه لقليله

[1] قوارعي: جمع قارعة، وهي الكلمة الشديدة، تقرع الآذان بشدتها.

إنِّـي إذا جـدَّ الـمـقـال بـمـوقـفٍ   فضَّـلـت مُـجـمـلـه عـلـى تـفـصـيـلـه
وإذا المخـاطب كان مثلك واعيًا   أغنى اختصار القول عن تطويله
يـا مـن يـكـتِّـم فـضـلـه مـتـواضـعًـا   والـنـاس مـجـمـعـة عـلـى تـفـضـيـلـه
شكوايَ بحتُ بها إليك وليس في   شكوى الزميل غضاضة لزميلِه
إن المريض ليستريح إذا اشتكى   مـمـا بـه لـطـبـيـبـه وخـلـيـلـه
وكـذا الـحـزينُ إذا تـهـيَّـج حـزنـه   يَـبْـكـي فـيـسـكـنُ حُـزْنـهُ بـعـويـلـه
إنِّـي لآنـفُ أن أبـوح بـمـضـمَـري   إلا لـمـقـتـدرٍ عـلـى تـحـصـيـلـه
ولـديَّ إن وصـل الـحـبـيـب تـمـسُّـكٌ   بـالـعـزِّ يـمـنـعُ فـايَ مـن تـقـبـيـلـه

بعد النزوح

قالها في بيروت سنة ١٩٢٢، وكان قد خرج من بغداد على ألا يعود إلى العراق.

هيَ المواطن أدنيها وتقصيني ... مثلُ الحوادث أبلوها وتبليني

قد طال شكواي من دهرٍ أكابده ... أما أصادِف حُرًّا فيه يُشكيني؟!

كأنني في بلادي إذ نزلتُ بها ... نزلتُ منها ببيت غير مسكون

حتى متى أنا في البُلدان مغتربٌ ... نوائب الدهر بالأنياب تدميني؟!

فتارة في المواصي فوق مُوقَرَة ... وتارةً في الطوامي فوق مشحون[1]

كم أغرقتني الليالي في مصائبها ... فَعُمت فيهنَّ من صبري بدُلفين![2]

أنا ابن دجلةَ معروفًا بها أدبي ... وإن يك الماء منها ليس يُرويني

قد كنت بُلبلهَا الغرِّيدَ أنشِدها ... أشجى الأناشيد في أشجى التلاحين

حيثُ الغصون أقلَّتني مُكلَّلة ... بالورد ما بين أزهار البساتين

فبينما كنت فيها صادحًا طَربًا ... أستنشق الطِّيبَ من نفح الرياحين

إذ حلَّ فيها غُرابٌ كان يُوحِشني ... وكان تنعابه بالبين يؤذيني

حتى غدوت طريدًا للغراب بها ... وما غدوت طريدًا للشواهين[3]

---

[1] المواصي: جمع موصاة، وهي الصحاري المقفرة. والموقرة: الناقة التي حملت عليها الأوقار، وهي الأحمال الثقيلة. والطوامي: جمع طامي، وهو البحر. والمشحون: صفة لمحذوف؛ أي الفلك المشحون.

[2] الدلفين: حيوان بحري يحمل الغرقى إلى الشواطئ، ولعلَّه هنا يريد سفينة تشبه الدلفين في صورتها.

[3] الشواهين: جمع شاهين، وهو من جوارح الصيد.

فـطـرتُ غـيـر مـبـالٍ عـنـد ذاك بـمـا　　تـركـت مـن نـرجـسٍ فـيـهـا ونـسـريـن

* * *

ويـل لـبـغـداد مـمـا سـوف تـذكـره　　عني وعنها الليالي في الدواوين
لقد سَقيتُ بفيض الدمع أرْبُعَها　　عـلـى جـوانـب ودٍّ لـيـس يَـسـقـيـنـي
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها　　قومي بكيت على من سوف يُبكيني
أفـي الـمـروءة أن يَـعـتـزَّ جـاهـلـهـا　　وأن أكون بها في قبضة الهُون؟!
وأن يعيش بها الطُّرطور ذا شمَمٍ　　وأن أُسامَ بعيشي جَدْعَ عِرْنيني؟![4]
تالله ما كان هذا قطُّ من شيمي　　ولا الحياة على النكراء من ديني
ولست أبذل عرضي كي أعيش به　　ولـو تـأدَّمـت زَقُّـومًـا بـغِـسْـلِـيـن[5]
أغنت خشونة عيشي في ذَرَا شرفي　　عما أرى بخسيس العيش من لين[6]
عـاهـدت نـفـسـيَ والأيـام شـاهـدة　　ألا أقِـرَّ عـلـى جَـوْر الـسـلاطـيـن
ولا أصـادقَ كـذَّابًـا ولـو مَـلـكًـا　　ولا أخـالِـط إخـوان الـشـيـاطـيـن
أمـا الـحـيـاة فـشـيءٌ لا قـرارَ لـه　　يحيا بها المرء موقوتًا إلى حين
سيان عندي أجاء الموت مخترمًا　　من قبل عشرين أم من بعد تسعين
ما بالسنين يقاس العمر عنديَ بَل　　بـمـا لـه فـي الـمـعـالـي مـن تـحـاسـيـن
لو عشت ستين عامًا لاستعضت بها　　سـتـيـن مـكـرمـة بـل دون سـتـيـن
فـإنـمـا أطـول الأعـمـار أجـمـعـهـا　　لـلـمـكـرمـات مـن الأبـكـار والـعـون
إن الـلـئـيـمَ دَفـيـنٌ قـبـلَ مِـيـتـتـهِ　　ومـا الـكـريـم وإن أودى بـمـدفـونِ

* * *

مـا كـنـت أحـسـب بـغـدادًا تـحـلِّـئـنـي　　عن ماء دجلتها يومًا وتظميني[7]

[4] الجدع: القطع. والعرنين: مقدم الأنف.

[5] تأدمت: اتخذت إدامي، والإدام ما يؤكل بالخبز. والزقوم: شجرة يطعم منها أهل النار المعذبون. والغسلين: ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه.

[6] ذرا شرفي، بفتح الذال: ظله وجانبه.

[7] تحلئني: تمنعني وتطردني.

حتى تقلَّد فيها الأمر زِعنفة ... من الأناس بأخلاق السراحين[8]
ما ضرَّني غير أني اليوم من عرَبٍ ... لا يغضبون لأمر ليس يرضيني
تالله ما ضاع حقي هكذا أبدًا ... لو كنت من عَجَمٍ صُهب العثانين[9]
علامَ أمكث في بغداد مضطبرًا ... على الضَّراعة في بُحبوحة الهُون[10]
لأجعلنَّ إلى بيروتَ مُنْتَسبي ... لعلَّ بيروت بعد اليوم تُئويني
خابت ببغداد آمالٌ أؤمِّلها ... فهل تخيب إذا استذرَتْ بصنِّين؟
فليتَ سوريَّة الوَطْفاء مزنتها ... عن العراق وعن واديه تغنيني
قد كان في الشام للأيام مُذْ زمنٍ ... ذنبٌ محته الليالي في فِلسطين
إذ كان فيها النشاشيبيُّ يُسعفني ... وكنت فيها خليلًا للسكاكيني
وكان فيها ابن جَبْر لا يقصِّر في ... جَبر انكسار غريب الدار محزون
إن كان في القدس لي صحْبٌ غطارفة ... فكمْ ببيروتَ من غرٍّ مَيامين!

[8] الزعانف: جمع زعنفة، وهم أراذل القوم. والسراحين: جمع سرحان، وهو الذئب.
[9] الصهب: جمع أصهب، وهو أصفر اللون. والعثانين: جمع عثنون، وهو شعر الذقن.
[10] الهون: الذل والهوان.

إلى هربر صموئيل

ألقى يهودا محاضرة تاريخية، ذكر فيها مدنية العرب في الغرب والشرق، ولما أتمها قام هربر صموئيل، المندوب السامي من قبل إنكلترة في فلسطين، وألقى على القوم كتابًا مؤنقًا، وعدهم فيه مواعد سياسية سر بها الحاضرون الذين كانوا قد حضروا بدعوة من راغب بك النشاشيبي رئيس بلدية القدس، فقال الرصافي هذه القصيدة مسجلًا بها ما قاله المندوب، وشاكرًا له على ذلك.

خطابُ يهودا قد دعانا إلى الفكرِ ... وذكَّرنا ما نحن منه على ذُكْر

ومجَّدَ ما للعُرْبِ في الغرب من يدٍ ... وما لبني العباس في الشرق من فخر

لدى محفل في القدس بالقوم حافل ... تبوَّأه هِرْبر صَموئيلَ في الصدر

دعاهم رئيسُ القدس ذو الفضل راغبٌ ... إليه فلبَّوْا دعوة من فتًى حُرِّ

فأمسوا وفي ليل المحاق اجتماعُهُم ... يَحفُّون من هِربَرْ صَموئيلَ بالبدر

فيا ليَلةً كادت وقد جلَّ قدرُها ... تكون على عِلاتها ليلةَ القدر

ولمَّا تناهى من يهودا خطابُه ... وقد سَرَّنا من حيث ندري ولا ندري

تصدَّى له هربر صموئيل ناطِقًا ... بسحر مقالٍ جلَّ عن وصمة السحر

فصدَّق ما للعُرب من تالد العُلَا ... وما لهمُ في العلم من خالد الذكر

وزاد بأن أوما إلى ما لصنعهم ... على صخرة البيت المقدَّس من إثرِ[1]

[1] أوما: أصله أومأ؛ أشار برأسه.

وقال وقد أصغى له القوم: إننا سنرأب ما أَثْأَتْه منكم يدُ الدهر
ونُنْهضُكم في مَنهج العلم نهضةً مقوِّمةً ما اعوجَّ فيكم من الأمر
فكانت لهذا القول في القوم هِزة سرورية من دونها هِزَّة السكر

* * *

حنانيك يا هربر صَموئيل كم لنا على الدهر من حقٍّ مُضاعٍ ومن وتر!
لنا قَلبَ الدهرُ الخئون مجنَّه وكرَّ علينا لابسًا جِلْدة النَّمْر[٢]
وأغرى بنا الأحداث مبتكرًا لها فلم يأتنا إلا بحادثةٍ بكر
وقد أفنت الأيَّام كل عَتادنا سوى ما ورثنا من إباءٍ ومن صَبْر
فلسنا وإن عضَّت بنا اليوم نابُها نَقَرُّ على ذلٍّ وننقادُ عن ذُعر
فمن سامَنا قسرًا على الضيم يلقنا مصاعيبَ لا نعطي المقَادة بالقسْر
لنا أنفسٌ تحيا بثروة عِزِّها وإن نشأت بين الخَصاصة والفقْر
إذا نحن عاهدنا وَفيْنا ولم نكن إذا ما ائتُمِنَّا جانحين إلى الخَتر
فإن شئتَ يا هربرْ صموئيل فاختبرْ خلائقَ منا لا تميلُ إلى الغدر

* * *

وعدتَ فأمسى القوم بينُ مشكِّك ومنتظر الإنجاز منشرح الصدر
فكذِّب — وأنت الحرُّ — مَن ساء ظنُّه فقد قيل: إن الوعدَ دينٌ على الحر
ولسنا كما قال الألى يتهمُوننا نعادي بني إسرائيل في السرِّ والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإليهمُ يَمتُّ بإسماعيلَ قِدْمًا بنو فِهْر؟!
وإنِّي أرى العُرْبيَّ للعُرب ينتمي قريبًا من العِبْرِيِّ يُنمَى إلى العِبر
هما من ذوي القُربى وفي لغتيهما دليل على صدق القرابة في النَّجْر
ولكننا نخشى الجلاءَ ونتقي سياسة حكم يأخذ القوم بالقهر
وهل تثبِت الأيامُ أركان دولة إذا لم تكن بالعدل مشدودة الأزْر
وها أنا قبل القوم جئتك معلنًا لك الشكرَ حتى أملأ الأرض بالشكر

[٢] المجن: الترس يتقي به المحارب قرنه، وقلب المجن كناية عن الاستعداد للمنازلة في الحرب.

مظاهر التعصب في عصر المدنية

قالها بعدما ألقى غورو على المسلمين خطابه المشهور في بيروت.

رُويدَك «غورو» أيهذا الجَنِيرالُ! فقد آلمتنا من خطابك أقوالُ
أتيتَ بلاد الشرق من بعد هدنةٍ قد اضطربت في المسلمين بها الحال
فجاء إليك ابن الدنا وهو مسلم يكيل لك الودَّ الصميمَ ويكتال
وقام خطيبًا معربًا عن عواطفٍ لقومك تكريمٌ بهن وإجلال
فقمت له في مَحفل القوم خاطبًا تجرُّ ذيول الفخر عجبًا وتختال
فذكَّرته أهل الصليبِ وحرَبهم إذِ انبعثت منهم إلى الشرق أبطال
وقلتَ عن الإفرنج قومِك: إنهم لأبطالِ هاتيكَ المعارك أنسال
فحرَّكتَ حزنًا كان في الشرق ساكنًا وجدَّدت عهدًا منه في الشرق أوجال
أسأت إلينا بالذي قد ذكرته من الأمر فاستاءت عصور وأجيال
ذكرت لنا الحربَ الصليبية التي بها اليومَ قد تمَّت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأتها بما قلته فاهتاج بالشرق بَلبالُ
فيا عجبًا من أمة قدتَ جيشها تشابه كرْدينالُها والجَنِيرال
ولو أننا قلنا كما أنت قائل لأنحى علينا بالتعصُّب عذَّال
وقالوا لنا: أنتم أولو جاهليةٍ وإن خالفوا وجهَ الصواب بما قالوا

فلا تصِمنَّ الحرب بعد انقضائها بما هو للدنيا وللدين إخجال[1]
ولا تنسَ فضل الشرق إذ كان ناصرًا لقومك فيما أحرزوه وما نالوا
فقد قادت الأعرابُ نحو عدوِّكم خيولًا لها في حومة الحرب تَجوال
وقامت لكم منهم بمكة راية لكم فُتحت فيها من القدس أقفال
لقد أغضبوا البيت الحرامَ وربَّه وهم بمقام البيت لا شكَّ جُهال
ولو أنَّ عهد المسلمين كعهدهم قديمًا لحالت دون ذا النصر أهوال
ولكنهم باعوا الديانة بالدُّنا فحالت لعمري منهم اليوم أحوال
لذلك قام ابن «الدنا» عن دناءةٍ يحابيك فيما فيه للقوم إذلال
ولا تحسِبَنْه مخلصًا في مَقاله ولكنه في مكسب المال محتال
فكان قتيلًا بالمطامع عزُّه فذل وإن الحرص للعزِّ قتَّال

* * *

خليليَّ قوما بي نطأطِئْ رءوسنا لدى جدثٍ تعنو لمن ضمَّ أجيال
لدى الجدث الفرد الذي فيه قد ثوَى من الملك الفرد ابن أيُّوبَ رِئبال
فنبكي على الأوطان حول رِجامه كما قد بكت من فقدها الأمَّ أطفال
ونستنزف الدمع الغزير لتربه كما استنزفت دمع المحبِّين أطلال
حنانيك يا قبرَ ابن أيوب فانصدع لينهض ثاوٍ في مطاويك مِفضال
إليكَ صلاح الدين نشكو مصيبةً أصيب بها قلب العُلا فهو مُغتال
ودارت رءوس القوم فيها توجُّعًا وحُزنًا كما دارت بسكرانَ جِرْيالُ[2]
وقطَّبتِ الأيام حتى تشابهت بها غُدُواتٌ كالحات وآصال
وأمسى حمى الإسلام تنتاب رَوضه فترعاه من سرح المعادين آبال[3]

---

[1] فلا تصمن: فلا تحدث وصمة، وهي العيب.

[2] الجرْيال: الخمر.

[3] آبال: جمع إبل.

ولسون بين القول والفعل

قال قولًا به استحقَّ احترامًا وتعدَّاه فاستحق مَلاما
رجل قد تنكَّب الحق قوسًا ومن البُطْلِ ظلَّ يرمي سهاما
كان منه المقال نورًا فلمَّا حان حِين الفعال كان ظلاما
خاض حربَ العدا بِمِقْوَلِ حرٍّ فاق فيها المهنَّد الصمصاما
وبذا عرَّف الورى أن قول الـ ـمرء في الحرب قد يفوق الحساما
إذ غدا ناطقًا بمرقد واشنـ ـطون نطقًا شفى به الأسقاما
معربًا عن مبادئٍ محكمات ساميات تحرر الأقواما
قال: حرية الأنام هي الغا ية لي في الوغى فغرَّ الأناما[1]
فاشرأبَّ الورى إليه وظنُّوا أنهم سوف يبلغون المراما
واطمأنت له القلوب بفوز يغتدي في فم الزمان ابتساما
شام منه الورى بوارق غيم من وراء البحر المحيط ترامى
فتصدَّى لغيثه كل قوم قد شكوا غلة بهم وأواما
ثم خابت ظنونهم فيه لما مر في الجو خُلَّبًا وَجهاما

* * *

مدَّ وِلسون في السياسة حَبلًا جمع النقض فيه والإبراما

[1] غر الأنام: خدعهم وغشهم.

فلبعض الأنام كان عِصامَا ولبعض الأنام كان خِصاما
مَلأ الدهر في فيومة فخرًا وبأزميرَ أخجل الأياما
إن أزميرَ صيَّرت ما لِولسو نَ من الفخر في فيومةَ ذاما[٢]
فهل الحق عنده في سوى الغر ب حقيرٌ أقلُّ من أن يُحامى؟!
أو هل الشرق وحده في الأقا ليم مُباحٌ أن يُستبَى ويُضاما؟!
أم هل القوم عاهدوا الله في أن لا يُراعوا للمسلمين ذماما؟!
ما لهم أرهقوا بني الشرق ظلمًا وعلى الترك أشلوُا الأرواما؟[٣]
فاستباحوا حريم أزمير نهبًا واستحلُّوا من الدماء حَراما
حيث جاسوا خلالها بجنود ركِبت في عُتوِّها الآثاما

* * *

أيها المجلس الرباعيُّ مَهلًا فلقد جُرْتَ في الأمور احتكاما
أنت سكرانُ خمرةِ النصر فاحذر حين تصحو ندامة ولِواما
لك عينٌ ترى السها في الدياجي وعن الشمس في الضحى تتعامى[٤]
أولم تَدْر أن للدهر عينًا إن تنم عين أهله لن تناما؟
لا تكن تابعًا هوى النفس فيما أنت فيه تقرِّر الأحكاما
فهوى النفس قد يُضلُّ ذويه فيطيشون في الورى أحلاما
ويرون الجُسامَ أمرًا صغيرًا ويرون الصغير أمرًا جُساما
لا يغرَّنك الزمان إذا ما لك أبدى بشاشة وابتساما
كم أشال الزمان أعلام قوم في الذرا ثم نكَّس الأعلاما
مثلما دار للفرنج على الجِرْمَنِ حربًا فأدركوا الانتقاما

* * *

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحالٍ تستوجبون احتراما

[٢] الذام: العيب.

[٣] أشلى الكلب على الصيد: سلطه عليه ليصيده.

[٤] السها: نجم صغير لا تكاد تراه العين لبعده.

إنـمـا أنـتـمُ لـدى الـغـرب قـوم   خُلقوا عن سوى الشرور نياما
فـإذا مـا وسِـعـتـمُ الـنـاسَ حِـلـمًـا   عـدَّه الـغـرب شِـرَّةً وعُـرامـا[٥]
وإذا مـا مـلأتـمُ الأرض عـدلًا   عُدَّ جورًا، أو مفخرًا عُدَّ ذاما
وإذا مـا فـعـلـتـم الـخـيـر يـومًـا   حـسـبـوه جـنـايـة وأثـامـا
وإذا زَلَّـةً لـكـم دَفَـن الـدهــ   ــر أمَـلُّـوا بـنـبـشـهـا الأقـلامـا
وإذا مـا افـتـرَى عـلـيـكـم عـدوٌ   أيـدوه وصـدقـوا الأوهـامـا
وإذا مـا جـنـى عـلـيـكـم أنـاس   سـكـتـوا عـنـهـمُ ومـرُّوا كـرامـا
كم بأرضِ البلقان منكم قتيل   وأيـامـى مُـضـاعـة ويـتـامـى
نثر الظالمون في الأرض منهم   جُـثَـثًـا تـمـلأ الـفـضـاء وهـامـا
لـو أتـيـنـا تـلـك الـبـلاد رأيـنـا الــ   ــيوم منهم جَماجِمًا وعظاما
ما نضا للدفاع عنهم بنو الغرْ   بِ حـسـامًـا ولا أحـاروا كـلامـا
إن تـكـن هـذه الـسـيـاسـة عـدلًا   فـإلـى الـظـلـم نـشـتـكـي الآلامـا
رحـم الـلـه أمَّـةً أصـبـح الـغـر   بُ يـرى كـل ذنـبـهـا الإسـلامـا

---

[٥] عراما: عتوًّا وطغيانًا.

يا محب الشرق

أنشدت في حفلة كبيرة أقامها الحزب الوطني في بغداد لتكريم المستر كراين الثري الأمريكي الشهير لمناسبة مجيئه إلى بغداد سنة ١٩٢٩.

يا محبَّ الشرق أهلًا بك يا مستر كِرَايِنْ
مرحبًا بالزائر المشـ ـهور في كل المدائن
مرحبًا بالقادم المشـ ـكور في هذي المواطن
فضلكم بادٍ على الشر ق وشكر الشرق عالِنْ
كم لكم من وقفاتٍ دونه ضدَّ المشاحن

* * *

جئت يا مستر كراينْ فانظر الشرق وعَايِنْ
فهو للغرب أسيرٌ أسْر مَديونٍ لدائن
إن هذا الشرق والغر ب لمغبون وغابِنْ
فترى الشرق تجاه الـ ـغرب يسعى سعْيَ ماهِن
وترى الغرب عليه واقفًا موقف خائن
منكرًا منه المزايا مُوجدًا فيه المطاعن
غاصبًا منه المواني شاحنًا فيه السفائن

حـافـرًا فـيـه الـمـعـادن نـابـشًـا فـيـه الـدفـائـن[1]
فـهـو يـمـتصُّ دمـاء الـشــ ــرق مـن كـل الأمـاكـن
بـاذرًا مـن كـيـده فـي أهـلـه بَـذر الـضـغـائـن
حـاكـمًـا فـيـه عـلـى أهـ ــلـيـه حُـكـم الـمـتـهـاوِنْ
جـاعـلًا فـي رجـلـه قـيـ ــد الونى والقيد شائن[2]
فـتـرى الـشـرق لـهـذا مـاشـيًـا مـشـيـة واهـن
أفـهـذي يـا مـحـب الـشــ ــرق أفـعـال الـمـهـادن؟!
أيـن مـا قـد قـالـه ولـ ــسنُ يا مستر كراين؟![3]

* * *

لـم يـكـن ولـسـنُ فـردًا إنَّ فـي الـغـرب ولاسـن
فـعـلام الـغـرب لا يـنـ ــفكُّ للشرق مضاغن؟
كم يسوم الغربُ أهلَ الشــ ــرق خسـفًـا ويخـاشـن!
وإلـى كـم سـاسـة الـغـر ب تُـداجـي وتـداهـن؟
كـم وكـم نـسـمـع مـنـهـم قـول خـداعٍ ومـائـن![4]
إن في الشرق تجاه الـ ــغـرب نـيـرانًـا كـوامـن
سـوف يـنـشـق حـجـاب الد هـر عـنـهـا بـالـدواخـن[5]
وإذا قـامـت حـروب من بني الشرق طواحن
فـمـن الـمـسـئـول عـن ذ لـك يـا مـسـتـر كـرايـن؟

* * *

وإذا تـسـأل عـمـا هـو فـي بـغـداد كـائـن

[1] المعادن: المناجم.
[2] الونى: الفتور والخمول.
[3] الرئيس ولسن: كان رئيس حكومة الولايات الأمريكية.
[4] مائن: كذاب مخادع.
[5] الدواخن: جمع دخان على غير قياس.

فهو حكم مشرقي الضـ ـرع غربي الملابن
وطنيٌّ الإسم لكن إنكليزي الشناشن[٦]
عربي أعجمي معرب اللهجة راطن
فيه للإيعاز من لنـ ـدن بالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نمـ ـلك تحريكًا لساكن
أفهذا جائز في الـ ـغرب يا مستر كراين؟

[٦] الشناشن: جمع شنشنة، وهي الطبيعة والخليقة والسجية.

إلى بطل الشرق الأكبر

قالها عقب انتصار الغازي مصطفى كمال على اليونان سنة ١٩٢٣.

سميَّ المصطفى لا زلت تعلو إلى أوجٍ يطاول كلَّ أوجِ
فدُر كالشمس في فلك المعالي وحُلَّ من الكمال بكل بُرج
نُصرتَ على بني يونان نصرًا أقام الغربَ في هرج ومرج
وأطلع في سماء الشرق شمسًا تفيض عليه أنوار الترَجِّي
فسَرَّ المخلصين وكل حرٍّ وساء الخائنين وكل سمج
وما اليونان كفؤك في نزال وإن مَلئوا السهولَ وكلَّ فج
ولكن قد غلبتَ جيوش قوم أذلوا بالبوارج كل لج
تركت جيوشهم من فرط رعب تَعاهد للهزيمة كل نهج
إذا ذكروا سُماك ولو منامًا تحاموا ذكره بسوى التهجي[1]
لئلا يسمعوه فيعتريهم ضنى دائين من شللٍ وفلج
هم اليونان ألأمُ كلِّ قوم وأخوف في الوغى من فرخ قبْج[2]
أرقُّ شجيةً منهم وأرقى حمير الوحش سارحة بمرج
فلا تغررْك أوجههم بياضًا فإنَّ طباعهم كطباع زَنج

[1] سماك بضم السين: اسمك.

[2] القبج: نوع من الطير يسمى الحجل والكروان.

وجوهٌ قد حكين الثلج لونًا ... ولكن فاتهنَّ نقاء ثلج
فيا أمضى الورى رأيًا وسيفًا ... وأعرَفهم بمصعَد كل أوج
لقد أنقذت من أزمير خودًا ... تسام الخسفَ في يد كل علج
وقمت على البلاد مقام عيسى ... على مَرضاه من عُمْي وعُرْج
فعالجت الفتوق بحسن رَتْقٍ ... ولاءَمت الخروقَ بحسن نسج
ورحت إلى التجدُّد في المعالي ... تقود الناهضين بها وتزجي
وتخطب في الجموع بيوم حفل ... كما خطب النبي بيوم حج
وتأتيك الوفود من الأقاصي ... لتسمع قول مِدْرَهِها المثج[3]
فقودك للعقول بيوم سَلم ... كقودك للجيوش بيوم هَيج[4]
لقد جددت للأوطان عهدًا ... تجاري فيه أوطان الفرنج
لتبتدرَ الشعوبُ إلى المعالي ... وتبلغ ما تريد وما ترجِّي
وتنهج مَنهج العمران فيما ... بها للناس من دخل وخرج
وأنت اليوم حارسها المفدَّى ... تحوط أمورها من كل هرْج
وتبتدر المُلمَّ إذا عراها ... فتَعْرَوري الجوادَ بغير سرج[5]
إذا ذكر الهبوط فأنت مُعْلٍ ... وإن خيف الحبوط فأنت مُنْج
وتشرب أنت كأس المجد صرفًا ... ويشربُها سَواؤك ذات مَزْجِ

[3] مدره أقوم: المحامي عن أحسابهم. المثج: الفصيح الغزير المادة.

[4] الهيج: الحرب.

[5] تعروري الجواد: تركبه عريانا من غير سرج ولا أداة.

تجاه الريحاني

هي النفس

أنشدها في حفلة أقيمت في بيروت لأمين الريحاني، بعد رجوعه من سياحته في بلاد العرب.

هي النفس أغشى في رضاها المعاطبا ... وأحمل منها بين جَنبيَّ قاضبا[1]
تكلفني أن أخبط الليل بالسُّرى ... وأن أمتطي فيه من الهول غاربا[2]
وتنهضني للمجد بالعزم ماضيًا ... وبالهمِّ مِقلاقًا وبالرأي صائبا
ولم ترضَ إلا كالجبال معزةً ... ولم تهوَ إلا كالشموس مناقبًا
إذا أنا أنزلت النجوم لأرضها ... أبَتهن إلا أن يكنَّ ثواقبا
وترفضُ مني كل عيش منعم ... إذا ازورَّ ذاك العيش بالذل جانبا
ولم تبغِ لي إلا الحقيقة بغية ... ولم ترضَ لي إلا الكريمَ مصاحبا
تقول إذا أوردتها ماء مِذنَبٍ ... رِدِ البحرَ بي غمرًا وخلِّ المذانبا[3]
وإني لأشكوها إليها تظلمًا ... فأرجعُ عنها بعد شكواي خائبًا
على أنَّ لي منها حصاةً رزينة ... قتلت بها كل الأمور تجاربا[4]

[1] المعاطب: المهالك. وأصل القاضب: السيف القاطع، شبه نفسه بالسيف في مضائه.

[2] غارب البعير: ما بين سنامه وعنقه.

[3] المذانب: جمع مذنب كمنبر، وهو كهيئة الجدول.

[4] الحصاة: العقل.

لقد تعبت فيما تروم من العلا كذلك نفس الحرِّ تلقى المتاعبا
ألم ترَ ما لاقى ابن لبنان في العلا من الأين لما ساح في الأرض ضاربا؟!
تيمَّم من بعد الحجاز تهامة وراح إلى صنعاءَ يُزجي الركائبا
وجاء إلى أرض العراقين مبحِرًا وكرَّ إلى مجد يجوب السباسبا[٥]
ليجمع من أبناء يَعرُبَ شملَهم ويقضيَ حقًّا للمواطن واجبا
أخو همة لو مدَّ باعًا إلى العلا لأوشك منها أن ينال الكواكبا
له قلم عزَّ القرائحَ شاعرًا كما ابتزَّ فُرسان البلاغة كاتبا[٦]

* * *

لقد زرتَ نجدًا يا أمينُ فقل لنا أتذكر من أخبار نجدٍ جوائبا؟[٧]
فما حالة الإخوان فيها فإننا نرى الناس عنهم يذكرون الغرائبا؟
فهل كفَّروا من ليس يرسل لحية وهل فسَّقوا من ليس يحفي الشواربا[٨]
وما أنا من قوم يدينون باللِّحى ولم يقبلوا إلا من الحلق تائبا
ودعْ عنك أخبار العراق فإنني لأعلم منها ما يفوق العجائبا
فويحًا لأهل الرافدين إذ انطووا على اليأس من نور يَشقُّ الغياهبا[٩]
ألا عَدِّ عمَّا في العراق فإنني أراه بأخلاق الزمان معايبا
معايبُ لو أني هتكت سِتارها لأرسلتُ منها للمعاند حاصبا[١٠]
فلا تحسبَنْه أنه ذو حكومة ولو ضربوا ظُلمًا عليه الضرائبا
لئن ألَّفوا بالكذب فيه وزارةً فإن بها للكاذبين مآربا
وإني لأهوى الفجر إن كان صادقًا وتنكر عيني الفجرَ إن كان كاذبا

* * *

[٥] السباسب: جمع سبسب، وهو القفر والمفازة.

[٦] عزَّ القرائح: غلبها. وابتز: فاق وغلب.

[٧] الجوائب: جمع جائبة، وهي الأخبار تجوب الأرض من بلد إلى بلد.

[٨] إحفاء الشارب: الأخذ منه.

[٩] فويحًا: رحمة. والرافدان: دجلة والفرات. والغياهب: جمع غيهب، وهو الظلمة.

[١٠] الحاصب: الريح تحمل الحصباء، وهي صغار الحجارة.

تـبـسَّـم لـبـنـانٌ بـعَـوْد أمـيـنـه وأضـحـى لأذيـال الـمَـسـرَّة سـاحـبـا
أخا الفضل قد آنستَ لبنان حاضرًا كما كنت قد أوحشتَ لبنان غائبا
ومـا أنـت إلا الـبـدُر يُـبـهـج طـالـعًـا ويُـحـزِن آفـاقَ الـمـواطـن غـاربـا
مُـحيِّيكَ في بغداد إذ جئتَ قادمًا يـحـيِّـيكَ فـي بـيـروتَ إذ جئت آئبا

في المدرسة الحربية

أيها القومُ ما لكم في جمودِ أوَما يستفزكم تفنيدي؟
كلما قد هززتكم لنهوض عُدتُ منكم بقسوة الجُلمود
طال عُتْبي على الحوادث فيكم مثلما طال مَطْلُها بالوعود
فمتى سعيكم وماذا التَّواني وإلى كم أحثُّكم بالنشيد؟
أنا غرِّيد شاردات القوافي أفلم يُشْجكم بها تغريدي؟
كنت قبلًا أثني عليكم لأني أبتغي الحثَّ بالثناء الحميد
فاتَّقوا اليوم صولةً من يراع واقف في مواقف التنديد
أيها القومُ نحن في عصر علم جعل الحرب في طراز جديد
جعل الحرب تُدرَسُ اليومَ فنًّا مغنيًا عن شجاعة الصنديد
إن للعلم في حروب بني العصـ ـر لَبَأسًا يفوق بأس الحديد
إذ بدا بأسه الأشدُّ فأنسى كلَّ بأسٍ من الحديد شديد
أيها القومُ فادخلوا المعهدَ الحر بيَّ طَوعًا وانضُوا ثياب الجمود
واستعدوا لردِّ كل عدوٍّ أنكر الحق ناقضًا للعهود
وأعزُّوا الملك الذي نبتغيه بجنود مبثوثة في الحدود
قد دعتكم أوطانكم فأجيبوا دعوة الآمرين بالتَّجنيد
نحن لا نقصد الحروب ولكن نبتغي الذود عن تراث الجدود
أرأيتم مُلكًا بغير جنودٍ إنما الملك قائم بالجنود
فاجمعوا الجيش في العراق ليرعى ما به من طريفكم والتليد

ويـردَّ الـعـدو عـنـكـم ويـحـمـي　　عـيـشـكـم مـن شـوائـب الـتـنـكـيـد
لا تـقَـرُّوا عـلـى الـهـوان وأنـتـم　　عـرَبٌ مـن بـنـي الأبـاة الـصِّـيـد
يـكـرهـون الـحـيـاة إلا حـيـاة　　ذات عـزٍّ بـبـأسـهـم صَـيْـهـود[1]
أشرف الموت عندهم هو موت　　في صُها الخيلِ تحت خَفْق البنود[2]
وأعـزُّ الأعـمـار عـمـر قـصـيـر　　تـحـت ظـل مـن الـسـيـوف مـديـد
وأذلُّ الـحـيـاة عـنـدي حـيـاة　　قـد أهـيـنـت حـقـوقـهـا بـجـحـودِ

[1] أصل الصيهود: الشديد الحر، والمراد هنا الحياة القوية.

[2] صها الخيل: جمع صهوة، وهي الظهر.

العِلمُ والعَلَمُ

لواعجُ الهم في جنبيَّ تضطرمُ والهمُّ مِقدارهُ من أهله الهممُ
كم قد أذاقتنيَ الأيامُ من حُرَقٍ من فوقها أسفٌ من تحتها ألم
أكلما قلت شعرًا قال سامعه نار تَفوهُ بها لِلناس أم كَلِم؟!
ما بال شعرك مثل النار ملتهبًا يذكو، على أنه كالماء منسجِم؟
إنا لنعجب من شعرٍ تؤجِّجه نارًا ولم يحترق في كفك القلم
لا تعجبوا فالأسى في النفس ملتهبٌ والعزم متقد والهم محتدم
اسْتبردَ النارَ مَن حرَّت عزائمه واستصغر الخطبَ مَن في نفسه عِظَمُ
وكيف يصبح من دنياه في دَعةٍ من بات في نفسه الآمال تزدحم؟!

* * *

أما المُعِزَّان في الدنيا فإنهما هما على ما أراه العِلم والعَلَمُ
كلاهما ضامنٌ للناس حُرمتهم هذا له الحكم أو هذا له الحِكم
من لم يك العَلَمُ الخفاق شارتهم فليس يُجديهمُ العِلم الذي علموا
وليس ينفع قومًا لا علوم لهم أن يُنشر العَلَمُ الخفَّاق فوقهم
فالعلم في أمَّةٍ ليست بحاكمة كالسيف يحمله في الحرب منهزم
والعلم أوهن من أن يستظل به إن لم تقم من سيوف تحته دِعَم
ما أحسن العَلَم الخفَّاق منتصبًا به تشير إلى استقلالها الأمم!

* * *

قد علَّمتني الليالي في تقلُّبها أن الموفق فيها السيف لا القلم
وأن أصدق بَرْقٍ أنت شائمه برقٌ تبسَّم عنه الصارم الخذِمُ
وأخصب الأرض أرضٌ لا تسُحُّ بها إلا من النقع في يوم الوغى دِيَمُ
من كان يُكذبني أنَّ الحياة مُنى فليس يكْذبني أنَّ الحياة دم
وأنه في كلا الحالين منبعها يدور في الجسم أو في الأرض ينسجم
وأنه وهو فوق الأرض منتشرٌ كمثله وهو تحت الجوف منتظم
إني أرى المجد في الأيام قاطبةً إلى عبيط دم المحيا به قَرَم
فالمجد يَنبت حيث العلم منتشرٌ من حيث تعترك الأبطال والبُهَم[1]
والمجد أعطى الظُّبا ميثاق معترفٍ أن ليس يضحك إلا حين تبتسمُ

* * *

فليذَهب اليأس عني خاسئًا أبدًا إني بحبل رجائي اليوم معتصم
ولست ممن إذا يسعى لحادثةٍ يسعى وأرجله بالخوف تصطدم
لا تسأمَنَّ إذا حاولتَ منزلةً فيها يَرِفُّ عليك المجد والكرمُ
فالعيش تَستبشع الأذواق مَطعَمه إذا تسرَّبَ في أثنائه السأم
وكن صَليبًا إذا عَضَّتك حادثةٌ تعَضُّ منك بعُود ليس ينعَجِم[2]
إن الخصال التي تسموا الحياة بها عَزْمٌ وحَزم وإقدام ومُقتحَم
لا يَكسِب النفسَ ما ترجوه من شرفٍ إلَّا الإباء وإلا العز والشَّمَم
لا يؤنسنَّك أَنَّ الحُرَّ محتقَرٌ عند اللئام وأنَّ الوغد محترم
فالعقلُ يتِّهم الدهرَ المسيء بذا وما يَعيبك أنَّ الدهر متهم
هذي ملامتكمْ يا قوم فاستمعوا منها إلى كَلِمٍ في طيِّها حكَم
قد أنشدُ الشعر تعريضًا بسامعه فهل وعى ما أردت السامعُ الفَهِمُ؟

[1] البهم: جمع بهمة، بوزن غرفة، وهو البطل الذي لا يعرف قرنه من أين يناله؛ لقوته وشدة حذره.
[2] ينعجم: يتأثر بالعجم، وهو العض بالأسنان.

السجايا فوق العلم وفوق العالم

وقد نظم الشاعر الكبير الأستاذ الرصافي هذه القصيدة الاجتماعية الجبارة؛ جوابًا عن قصيدة الشاعر الأمير عادل أرسلان، وقد كان الأمير عادل أرسلان قد اطلع على قصيدة الأستاذ الرصافي «العلِم والعَلَم» التي ينصح بها الأمة العربية، ويحضها على الجهاد في سبيل الحرية فنظم قصيدة يعارضها بها.

عِلْمٌ يُعَزِّزه من دَوْلةٍ عَلَمُ ... في كل عصر به قد سادت الأمَمُ
ودولة القوم لم تثبت قواعدها ... إلا بأنَّ سجاياهم لها دِعَمُ
فليس للعلم مهما اعتزَّ جانبه ... نفع إذا ما السجايا الغرُّ تنعدم
إذا استحالتْ سجايا القوم فاسدةً ... فليس ينفعهم علم ولا عَلَم
وليس يَختلُّ حبلُ الملك مضطربًا ... إلا إذا اختلَّتِ الأخلاق والشِّيَمُ
لولا سجايا على حُبِّ العلا جُبلتْ ... ما سادت الناسُ لا عُربٌ ولا عجم
لا خيرَ في العيش يغدو فيه صاحبه ... وأنفه باحتمال الذلِّ مُزدَلم[1]
ما بالُ قومي على الإرهاق قد صبروا ... كأنَّ أَشْهُرَ قومي كلها حرُم؟!
قد أنهضتهم إلى العلياء وَحدُتهمْ ... واليوم أقعدهمْ عنها أن انقسموا
كان التعاون غرزًا في غرائزهم ... حازوا به الشَّرف الوضاح واغتنموا
ثم اغتدوا بعد حينٍ في جوانحهم ... نارُ التخاذل بالشحناء تضطرم

[1] مزدلم: مقطوع.

قد زال روح التفادي منهمُ ونما رُوح التعادي إلى أن ماتت الهمم
ألقى التخاذل ضَعْفًا في عزائمهم فالأجنبي عليهم ظلَّ يحتكم
تعاظموا لعظامٍ يفخرون بها وهل يكون بعظمٍ رمَّةٍ عِظَمُ

* * *

داء التأخر منا في خلائقنا فقد فشا الداء حتى استفحل السقم
كانت خلائقنا للعز ضامنةً حتى فسَدْنَ فزال العز والشمم
وأصبحت عندنا الغايات تابعة إلى هوى النفس، فيما شأنه عمَم[٢]
نمشي من الجهل في ظلماءَ ظالمةٍ بليَّتاها علينا الظُّلْم والظُّلَم
حرية الفكر فينا غير جائزة والحرُّ منا مُهانٌ ليس يحترم

* * *

لا دَرَّ دَرُّ رجال الدين إنهمُ قد أظهروا فيه مِنهمْ غير ما كتموا
واستعملوه كما تهوى مآربُهم كأنَّه ليس إلا آلةً لهمُ
تالله ما كان في الإسلام من حَرجٍ على الأنام ولا في نهجه غمَم
بل كله جاء تيسيرًا وتبصرة للعاملين وأحكامًا بها حِكَم
لكنما القوم ظلوا جامدين على ما منه قَدْ وِهموه، بئس ما وَهِموا!
إذا سلكت إلى الإصلاح مسلكه فأنت في رأيهم بالكفر مُتَّهم
وإن تصادمْت بالعادات تُنكرها فأنت في زَعمهم بالدِّين تصطدم
وإن أتيتَ ببرهانٍ فأعجزهم لم يحسنوا الردَّ، بل من عجزهم شَتموا
وإن تقُل لهمُ قولًا لتقنعهم شدُّوا عليك وردُّوا قبلما فهموا
خلائق كظلام الليل من يَرَها يقل بأمثال هذي تُمْسَخُ الأمم

* * *

لله دَرُّ بني معروفَ إذ صَبروا على التجالد ما كلُّوا ولا سئموا
أخلوا منازلهم للكَرِّ ثانية كالأسد ترتدُّ خلفًا ثم تقتحم
ولازموا القفرَ، عاشوا في مجاهله عيش القناعة لا حلوٌ ولا دَسم

---

[٢] أمر عمم: تام عام.

بـذاك حُـبـهـمُ الأوطـانَ يـأمـرهـم إذ هُمْ بسيماء حب الموطنِ اتسموا
باتت دمشق لهم ترنو نواظرُها كما رنا للطبيب المدنف السَّقَم
أيامَ لم يبقَ من بيتٍ بغوطتها إلا ذكت فيه نارٌ أو أريق دم
ثم انضوى بعدما اجتيحت معالمُها منها إلى جمعهم أبطالها البُهمُ
فاستقتلوا في سبيل الذَّود عن وطنٍ صِينت له من قديم عندهم ذمم
كانوا أشدَّ مضاءً من صوارمهم فليس يَثنيهمُ ثانٍ إذا هجموا
عند الهجوم كمَوج البحر تُبصِرُهمْ وكالجبال الرواسي همْ إذا التحموا
صَلَّتْ سيوفٌ بأيديهم يَسلْنَ دمًا حتى حكين الغوادي حين تَهْتزم[3]

* * *

من مبْلغٌ للأمير الشَهْم مألُكةً كالشمس تشْرق إلا أنها كلِم[4]
إلى فتى آل رسْلان الألى رَسختْ في معدِن المجدِ من قِدْمٍ لهم قَدَم
لبعضهم شهرةٌ بالسيف واحدة وبعضهم شَهْرتاهُ السيف والقلم
كعادلٍ وشكيبٍ في أكفِّهما جال اليراع وصال الصارم الخَذم[5]
صبرًا فديتك بالعُقْبَى وإن بعدتْ للصابرين وعُقبى الخائن الندم
ولم يَفتْك نجاح في محاربةٍ أقلُّ ما حزت فيها المجد والكرم
يا عادلًا كاسمه لا تنسَ مَظلمتي عندي خصوم وما عندي لهم حَكم

[3] صلت صليلًا: صوتت. والغوادي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ فقط غدوة. تهتزم: من الهزيم وهو صوت الرعد.

[4] المألكة والألوكة: الرسالة يؤديها الرسول بلسانه.

[5] سيف خذم: ومخذم: بكسر الميم: أي قاطع.

الحرية في سياسة المستعمرين

يـا قـومُ لا تـتـكـلـمـوا إن الـكـلامَ مـحـرَّمُ
نـامـوا ولا تـسـتـيـقـظـوا مـا فـاز إلا الـنُـوَّمُ
وتـأخَّـروا عـن كـلِّ مـا يـقـضـي بـأن تـتـقـدَّمـوا
ودَعـوا الـتـفـهُّـم جـانـبًـا فـالـخـيـرُ ألَّا تـفـهـمـوا
وتـثـبَّـتـوا فـي جـهـلـكـم فـالـشـرُّ أن تـتـعـلـمـوا
أمـا الـسـيـاسـة فـاتـركـوا أبـدًا وإلا تـنـدمـوا
إن الـسـيـاسـة سِـرهـا لـو تـعـلـمـون مُـطـلْـسَـم
وإذا أفـضـتـم فـي الـمـبا ح من الـحـديـث فـجـمـجـمـوا
والـعـدلَ لا تـتـوسـمـوا والـظـلـمَ لا تـتـجـهـمـوا
من شاء منكم أن يعيـ ـش الـيـومَ وهـو مـكـرَّم
فـلـيـمـسِ لا سـمـع ولا بـصـرٌ لـديـه ولا فَـمُ
لا يـسـتـحـقُّ كـرامـةً إلا الأصـمُّ الأبـكـم
ودعـوا الـسـعـادة إنـمـا هـي فـي الـحـيـاة تَـوهُّـم
فـالـعـيـش وهـو مـنـعَّـمٌ كـالـعـيـش وهـو مـذمَّـم
فـارضَـوا بـحـكـم الـدهـر مهـ ـمـا كـان فـيـه تـحـكـم
وإذا ظُـلـمـتـم فـاضـحـكـوا طـربًـا ولا تـتـظـلـمـوا
وإذا أُهـنـتـم فـاشـكـروا وإذا لُـطـمـتـم فـابـسـمـوا
إن قـيـل: هـذا شـهـدكـم مُـرٌّ، فـقـولـوا: عـلـقـم

أو قـيـل: إن نـهـاركـم ليل، فـقـولـوا: مـظـلـم
أو قـيـل: إن ثـمـادكـم سـيـل، فقولوا: مُفعِم[1]
أو قـيـل: إن بـلادكـم يـا قـوم سـوف تُـقـسَّـم
فـتـحـمَّـدوا، وتـشـكـروا وتـرنـحـوا، وتـرنَّـمـوا

[1] الثماد: جمع ثمد بالتحريك، وهو الماء القليل.

غادة الانتداب

دعْ مزعجَ اللوم وخل العتاب   واسمع إلى الأمر العجيب العُجابْ

من قصَّة وَاقِصَةٍ غصَّةٍ   تضحك بل تدعو إلى الانتحاب[1]

في الكوخ من بغدادَ مرَّت بنا   يومًا فتاة من ذوات الحجاب

لَبَّتُها مُوقَرَةٌ بالحلى   وكفُّها مشْبعة بالخضاب[2]

ووجهها يَطمس سَحْناءَهُ   عنا ظلامٌ من سواد النقاب

تمشي العِرَضْنى في جلابيبها   مِشية إحدى المومِسات القِحاب

تَخْتلبُ الناسَ بأوضاعها   وكل ما يصدُرُ منها خِلاب

قد وضعت تاجًا على رأسها   يلمع في الظاهر لمع الشهاب

يُحْسَبُ من دُرٍّ بتمويهه   وهو إذا حقَّقته من سِخاب[3]

كاسية الجسم أرق الكسى   موشيَّة الثوب بوشْي كِذاب

قد غُولط الناس بأثوابها   في أنها من معمل الانتخاب

وهي لعمري دونَ ما ريبةٍ   منسوجة في منسج الاغتصاب

فالغش في لحمتها والسَّدى   وكل ما يدعو إلى الارتياب

---

[1] واقصة: اسم فاعل من وقصه؛ إذا دق عنقه، والمراد أنها مؤلمة أشد الألم.

[2] اللبة: موضع القلادة. وموقرة: محملة.

[3] السخاب، ككتاب: خيط ينظم فيه خرز، تلبسه الصبيان والجواري.

قال جليسي يوم مرَّت بنا: مَن هذه الغادة ذات الحجاب؟
قلت له: تلك لأوطاننا حكومة جاد بها الانتداب
نحسبها حسناء من زِيِّها وما سوى «جنبول» تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة والويل في باطنها والعذاب
مصابنا أمسى فظيعًا بها يا ربِّ ما أفظع هذا المصاب!
تالله قد حق لنا أننا نحثو على الأرؤس كلَّ التراب

الفيل والحمل

أنشدها يخاطب بها الزعيم الهندي محمد علي، وقد كان مدعوًّا معه في مأدبة أقامها له الأستاذ الثعالبي عند مروره ببغداد سنة ١٩٢٩.

إليكَ زعيم الهند أورد ها هنا سؤالًا له أرجو الجواب تفضلا
فنحن هنا في مجلس ذي أمانةٍ فلم يخشَ فيه الحُرُّ أن يَتقوَّلا
إذا ما سمعت الهند في قول قائل تخيَّلت فيلًا بالحديد مُكبلا
تزجِّيه كف الأجنبيِّ مُسخَّرًا فيمضي بأعباء الأجانب مثقلا
ويبرك أحيانًا على الأرض رازحًا له أنَّة من ثِقل ما قد تحملا
ويُنخَس أحيانًا فتعلوه رَجفة فيمضي على رغم القيود مهرولا
وإني أظن الفيلَ صاحبَ قوةٍ تكون له، لو شاء من ذاك موئلا
فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى لهزَّ بها شم الجبال وقلقلا
ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة لما رمتُ عن هذا جوابًا مفصلا
لنا حَمَلٌ وهو العراق نظنَّه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فإن يَنْجُ هذا الفيل من قيد أسره نجونا وإلا أصبح الأمر معضلا
فإن لم يكن هذا صحيحًا فما الذي ترون سوى هذا عليه المعوَّلا؟
ومن بعد هذا يا محمد إنني أحييك باسم الناهضين إلى العلا

دمشق تندب أهلها

أنشدها في حفلة أقيمت في بغداد لجمع الإعانات لمنكوبي سورية سنة ١٩٢٦.

بكت في ظلام الليل تَندبُ أهلها ... بصوتٍ له الصخر الأصم يلين
وباتت وقد جلَّ المصابُ حزينةً ... لها في مناحي الغوطتين أنين
تئنُّ وقد مدَّ الظلام رِواقه ... وخيَّم صمتٌ في الدُّجى وسكون
إذا هيَ مدَّت في الدجُنَّة صوتها ... تميد له في الغوطتين غصون
وتلهب منه في الفضاء شرارة ... فتبصرها في الرافدين عيون
وتهبو له في ساحل النيل هَبوة ... أبو الهول منها واجدٌ وحزين

* * *

ومن بعد وَهْنٍ أشرق البدر طالعًا ... فأسفر منها عارض وجبين
فأبصرتُ منها الوجه أزهرَ مُشرقًا ... بخدَّيه سر للجمال مصون
جمال بديعٌ بالجلال متوَّج ... له سببٌ في المكرمات متين
وبَرْقَعَها حزنٌ فكان لوجهها ... مكان من الحسن المهيب مكين
فتاة جَثتْ في الأرض تبكي وحولها ... صريع على وجه الثرى وطعين
فضمَّت إلى الصدر اليدين وعينُها ... تقاذف منها بالدموع شئون
وقد شخصت نحو السماء بطرفها ... لها كلَّ آنٍ زفرة وحنين
وما أنسَ لا أنسَ العشية أنها ... تورَّم منها بالبكاء جفون
وأنَّ غزيرَ الدمع خدَّد خدها ... فلاحت من الأشجان فيه فنون
ولما انقضى صبري ترامَيت نحوها ... كما ترتمي بالعاصفات سفين

وقلت لها: مَنْ أنت رحماك إنني لك اليوم خِلٌّ صادق وأمين؟
فقالت وقد ألقت إليَّ بنظرة عن القصد فيها مُعْرِبٌ ومبين
أنا البلدة الثَّكلى دمشقُ ابنة العُلا أما أنت في مغنى دِمشق قطين
ألم ترَ أبنائي يُساقونَ للرَدى فمنهم قتيل بالظُّبا وسجين
فأين أباة الضيم من آل يَعربٍ ألم يأتِ منهم ناصر ومعين؟
فقلت لها: لبيك يا أمُّ إنهم سيأتيك منهم بارز وكمين[1]
سندرك فيك الثأرَ من أنفس العِدا ونوقد نار الحرب وهي زَبون[2]

* * *

فهذي دمشقٌ يا كرام وهذه أحاديث عنها كلهنَّ شجون

[1] بارز وكمين: أي ظاهر وخفي.

[2] الزبون: الدفوع، يقال: ناقة زبون، وحرب زبون: أي تدفع الناس إلى الهلاك.

معترك الأهواء

قالها يمثل حالة الصحف في الآستانة عقب الهدنة للحرب العامة.

أرى الأتراك في دار الخلافه تمادوا في الخصومة والسخافه

غدوا يتطاعنون بكل هُجْرٍ من القول المخالف للشرافه[١]

فما عملت رماح الخط فيهم كما عملته أقلام الصحافه[٢]

ترى كلًّا تهيَّأ للترامي وشمَّر عن سواعده لحافه

وأترع كفه حَمأً نتينًا ليَلطخ وجه من يُبدي خلافه[٣]

تراهم مُزْبدين لهم شدوقٌ كشدقي حالبٍ شرِب النشافه[٤]

لهم صَخَبٌ كعربدة السكارى وقد شربوا المطامع كالسلافه

على حين العدوُّ بهم محيطٌ يذيقهم المذلة والمخافه

سفينة ملكهم فيها خروق وهم لا يحسنون لها القِلافه[٥]

وقد وقفتْ بِدُرْدورٍ شديدٍ ولم تأمن من الموج انقذافه[٦]

---

[١] الشرافة: الشرف، وكلاهما مصدر شرف الرجل؛ إذا علا في الدين أو الدنيا.

[٢] الخط: بلد في البحرين تصنع فيه الرماح الجيدة.

[٣] الحمأ: الطين.

[٤] المزبد: البعير الذي خرج الزبد حول فمه. والنشافة: الرغوة التي تعلو لبن الإبل والغنم إذا حلب.

[٥] قلف السفينة: خرز ألواحها بالليف، وجعل في خللها القار، والقلافة اسم تلك الصناعة.

[٦] الدردور: موضع في وسط البحر يجيش ماؤه، لا تكاد تسلم منه سفينة.

وليس لها هنالكَ من عريفٍ يُقوِّمها بسكان العَرافه

عجِبْت لهم إذ اختلفوا بملكٍ يكون الإختلاف عليه آفه

كأني إذ أراهم في احترابٍ بملكٍ يطلب الغرب انتسافه

أرى كبشين ينتطحان جَهْلًا لدى الجزَّار في دار الضيافه

خِصامٌ يضحك السفهاءُ منه ويبكي منه أرباب الحصَافه

وإنَّ تدابرَ الأقوام شيء يئول إلى الندامة والأسافه

نفثة مصدور[1]

خـلـيـلـيَّ هـل مـن مُـنْـصـتٍ فـأبـثَّـه ... شجونَ فتًى يشكو الأليمَ من البثِّ؟

فإنـي سئمت العيش في عُنفوانه ... ويسأم مثلي كلُّ محترثٍ حَرثي

أقـول، ولـيـل الـغـرب لـيـس بـنـائـمٍ ... أما لنيام القوم في الشرق من بعث؟!

لقد جاح هذا الشرقَ بعد اعتزازه ... جوائح أودَتْ منه بالكِرْش والفَرث[2]

فسـاءَ مـن الإملاق والـجـهل خـلـقـه ... وصار سمين القوم يَبطِش بالغثِّ

وعــادَ هَـزيـلًا مَـجـده مُـتـلـفـعًا ... بسَحق دريسٍ من مَفاقره رَثِّ[3]

وهـبَّـتْ بـه هـوج الـريـاح فـلـم تـدعْ ... من العلم جذرًا فوقه غيرَ مُجتثِّ

أرى غَثيانًا في النفوس وهل ترى ... نفوسًا على خُبْث المطاعم لا تُغثي

فـيـا قـومـنـا أيـن الـمـسـاواة عـنـدكـم ... فقد طال عنها في مواطنكمْ بحثي؟!

وأيــنَ مــواثــيــق الأخُــوةِ إنـــنـــي ... أرى حبلها في كل يوم إلى النكث؟!

وإنَّ بـصـدري لـلـقـريـض لـفَـورَةً ... يزيد بها من طول غفلتكم نفْثي[4]

---

[1] قال الرصافي هذه القصيدة وهو في الآستانة، وأنشدها بشبان العرب في المنتدى الأدبي.

[2] أودت منه بالكرش والفرث: [يريد] أنها ذهبت منه بما عز وبما هان.

[3] متلفعًا: متلحفًا. وسحق في قوله: «بسحق» صفة لمحذوف؛ أي بثوب سحق، وهو البالي من الثياب. والدريس: الخلق، وكذلك الرث. والمفاقر: وجوه الفقر، لا واحد لها.

[4] نفثي: أي نفخي من الغضب.

أراكمْ فأهجو ثم أطرق ذاكرًا أوائلكم قبلًا فأندب أو أرْثي
وأبكي على المجد الذي كان دونه على ركبتيه الدهر من خشية يُجثي
يقولون: إنَّ الإرث في الخَلق سُنةٌ فهل بطلت في خَلقكم سنة الإرث؟
فهلَّا ورثتم ثلثَ ذاك الذي بَنوا من المجد، لا لا، بل أقل من الثلث!
قعدتم وقاموا واستكَنتم وفاخروا بعزٍّ على وجه البسيطة مُنبثٍّ
وما أتعب المستنهضيكم فإنهمْ يَحُثُّون منكم للعلا غير محتَثٍّ!
أما والعُلا، واهًا لها من أليَّةٍ عدمتُ العُلا إن بتُّ منها على حنثِ
لأحتَقرنَّ الموتَ في معرك المُنى وأسْترُ أفق اليأس بالرَهَج الكثِّ[٥]
وأرْكبُ متنَ الهول دون لُبانتي ولستُ أبالي بالكوارث من كرث
وأجري بمستنٍّ الخطوب مشمِّرًا وأخبط ليلَ المزعجات بلا لَبث
ولولا إبائي أن أخاطب ماجنًا كتبتُ هجاء الدهر بالقلم الثُّلث[٦]

[٥] الرهج: الغبار.

[٦] القلم الثلث: أصله قلم الثلث، وهو الذي يكتب في ثلث الطومار، والطومار: نوع من الورق، متفق على مقدار طوله وعرضه، وهذا من اصطلاح كتاب الدواوين، وقد جرى الشاعر على أسلوب عامة المتكلمين، فجعل الثلث وصفًا للقلم: يريد القلم العريض.

إخفار الذمم أو عبد العزيز شاويش

قالها في الآستانة عندما أسلمت وزارة أحمد مختار باشا الغازي الشيخ عبد العزيز شاويش إلى الحكومة المصرية.

إني عهدتك لا تكون يَئوسا ... مهما لقيت مصائبًا ونحوسا
كم قد صَدَمتَ النائبات بهمةٍ ... جعلتْ لها الصبر الجميل لبوسا
غدروك يا عبدَ العزيزِ وإنما ... غدروا الشهامة فيك والناموسا[1]
ما أسلموك إلى الخديو إنما ... قد أسلموا شرفًا لهم قُدْموسا[2]
هدموا بأيديهم قواعدَ مجدهم ... فهوى وأصبح رسمه مطموسا
وأحق شيءٍ بالرثاء لدى الورى ... شرف بأرجل أهله قد دِيسا
وأقل أبناء الزمان حَمية ... من كان بيت نزيلهم مَكبوسا[3]
قد أخجلوا علَم الهلال بفعلهم ... هذا فأصبحَ رأسه منكوسا
وغدا بنوه وإن تقادم فخرهم ... عند الفخار يُطأطئون رءوسا
ما هنتَ أنتَ وإنهم بفعالهم ... هانوا لدى أهل الحِفاظ نفوسا
جارتْ سياستهم عليك فأغضبت ... أهل العدالة سائسًا ومَسوسا

[1] الناموس: وعاء العلم.

[2] القدموس: القديم.

[3] المكبوس: الذي يهجم عليه ويفتش.

لو كان هذا الشعب يعرف نفسه لأقام حربًا من جَراك ضَروسا
ولوَ انَّ أخلاق الرجال صحيحة ما كان حقك عندهم مبخوسا
إن العلا همست إليك بسرها ولقد فهمتَ كلامها المهموسا
فنهضتَ بين المسلمين تلمُّهم وتُجِدُّ منهم مُخلَقًا ودَريسا[٤]
فرماك منهم حاسدوك بتهمة ملئوا الفضاء بزُورها تدليسا
إن يمقتوك فإن حبَّك لم يزل في قلب كل موَحِّد مغروسا
والشمس تشهدُ أنَّ فضلك مثلها يحي النفوس ويقتل الحنديسا[٥]
يا ليت شعري أي كأسٍ مُرة لك أدهقوا إذ جرَّعوك البوسا![٦]
وبأيِّ سلسلةٍ رَمَوك مكبلًا وبأي سجن غادروك حَبيسا
قد بتُّ من جزعي عليك منجمًا في الليل عنك أسائل البرجيسا[٧]
إن يسجنوك فإن ذكرك مطلقٌ يَجني الثناءَ ويقطف التقديسا
أو يوحشوك بقعر سجنك مفردًا فالحق عندك قد أقام أنيسا
ولئن لقيت أذًى فكم من مصلح لقيَ الأذاةَ مفجَّعًا متعوسا
ضحكت وُجوه الترَّهات ولم يزل وجه الحقيقة في الأنام عبوسا

[٤] وتجِد: تجدد. والمخلق: البالي. الدريس: الدارس البالي.

[٥] الحندس: الظلام، والحنديس؛ الحندس وقد أشبع كسرة الدال، فوجدت الياء.

[٦] البوس: البؤس.

[٧] البرجيس: نجم، قيل: هو المشتري.

ياسين باشا

قالها بلسان أحد المتظاهرين، وكان إذ ذاك في دمشق، لما دبرت حكومة الشام العربية بواسطة رجال الإنكليز مكيدتها المعلومة لياسين باشا الهاشمي فأخذوه واعتقلوه في الرملة، وكان ذلك قبل دخول الفرنسيين بلاد الشام.

ياسينُ إنك بالقلوب مَشيَّعُ	أفأنت للوطن العزيز مودِّعُ؟!
أخذوك يا بطلَ المعامع غِيلةً	بيدِ الخداع ومثلهم من يَخدع
ولوَ انَّهم تركوا الخداع وحاولوا	لقياك أعجزهم إليك المطلع
أوَليس يَدري آخذوك بأنهم	هاجوا بمأخذك الخطوب وزعزعوا؟!
أينَ الذمام ونحن من حُلفائهم؟!	سَرعان ما نَقضوا العهود وضيَّعوا!
أفيجهلون بأننا من أمَّة	في المجد تأمر من تشاء فيسمع؟!
لا تجزعنَّ فإنَّ خلفك أمة	تمشي كمشيك للعَلاء وتتبع
إن أخرجوك من المواطن مُكرَهًا	فالشعب خلفك هائج لا يهجَع
أو غيَّبوك فإنَّ أمرك حاضرٌ	أو ثبَّطوك فإن جيشك مُسرع
فلنملأنَّ بك البلادَ هَزَاهِزًا	حتى يضيق بها الفضاء الأوسع[1]
ولننهضنَّ إلى الهياج بهمة	شمَّاءَ يبصرها الجبان فيشجُعُ
ولنسعرَنَّ مَعامِعًا يَصْلونها	ورءوسهم فيها لسيفكَ رُكَّع

[1] الهزاهز: الفتن والثورات التي تهز الناس وتقلقهم.

ولـنـرمـيـنَّـهـمُ بـمـعـضـلـةٍ إذا   تُرمَى الجبال بمثلها تَتَصدَّع
ونقودها خرساءَ يُنطقها الردى   فيصِلُّ صمصامٌ ويصرخ مِدفع
يـا راحـلًا عـنـا بـكـيـد عـدوِّنـا   أبشرْ فإنك عن قريبٍ ترجع

كيف نحن في العراق؟

أيـكـفـيـنـا مـن الـدُولات أنَّـا تعلَّق في الديار لنا البنودُ؟!
وأنَّـا بـعـد ذلـك فـي افـتـقـار إلـى مـا الأجنبيُّ بـه يـجـود؟!
تـجـوز سـيـادة الـهـنـديِّ فـيـنـا وأمـا ابـن الـبـلاد فـلا يَـسـود
إذن فالهند أشرف من بلادي وأشرف من بني قومي الهنودُ
وكم عند الحكومة من رجالٍ تـراهـم سـادة وهـم الـعـبـيـد
كـلابٌ لـلأجـانـب هـم ولـكـن عـلـى أبـنـاء جـلـدتـهـم أسـود
ولـيـس الإنـكـلـيـز بـمـنـقـذيـنـا وإن كتبت لـنـا منهم عـهـود
متى شفق القويُّ على ضعيفٍ وكيف يعاهد الخِرْفانَ سِيدُ؟!
ولكن نحن في يدهم أسارى ومـا كـتـبـوه مـن عـهـد قـيـود
أمـا والـلـه لـو كـنـا قـرودًا لـمـا رضـيـتْ قـرابـتـنـا الـقـرودُ

في طريقي إلى حلب

جئت إلى الدير ضُحى يوم الأحدْ   أقصد منه حَلبًا فيمن قصدْ
فاعترضتني شرطةٌ ذات رَصدْ   تطلب تصديق جوازي في الصدد[١]
فعاقني ذاك من اليوم لغد   كأنني والغيظ في قلبي اتقد
سفينة أمسكها ماءٌ جَمَدْ   حتى لقد يئستُ من فتح السَّدد
وقلت من يأسي وقد قلَّ الجَلد: كأنَّ من يمر من هذا البلد
يمرُّ زحفًا بين أشداق الأسد   لولا كرام أدركوني بالمدد
لكنت أبقى زمنًا من غير حد   يا صاحب الشرطة ما هذا اللدد؟[٢]
لم أدرِ جِدٌّ فعلكمْ أم هو دَدْ   فإن أجنادك جاءوا بالفَنَدْ[٣]
إذ فيَّ عاثوا عيثَ ذئبٍ في نَقدْ   تعاورَتني مِنهمُ يدٌ فيدْ[٤]
أقاد كالقاتل قِيدَ للقود   حتى ثيابي فتشوها والجسدْ[٥]
كأنني سارق مالٍ مُفتقدْ   ما أنا ممن جرَّ جرْمًا فشردْ
ولست ممن سِيمَ حقًّا فجَحدْ   كلا ولست جانيًا على أحَدْ

[١] الصدد: الطريق.

[٢] اللدد: شدة الخصومة والجدال.

[٣] الدد: اللعب واللهو. والفند: ما يلامون عليه.

[٤] النقد: ضرب من صغار الغنم، كالمعز.

[٥] القود: القصاص.

لـكنَّمـا الأمـرُ لـديـهـم قـد فـسـدْ والـحكم قد جارَ عليهم واستبدْ
فـالـقـوم أمـا حـظـهـم فـقـد رقـدْ عنـهم، وأمـا سَـعدهـم فقد خمَدْ
منـهـم، وأمـا نـحسـهـم فـقـد وقـدْ وقـد أضـاعـوا مـجـدهـم إلـى الأبـدْ
وقـدْ وقـدْ، وقـد وقـدْ، وقـدْ وقـدْ

حكومة الانتداب

أنا بالحكومة والسياسة أَعرَفُ   أَأُلامُ في تفنيدها وأُعنَّفُ؟!
سأقولُ فيها ما أقول ولم أخفْ   من أن يقولوا: شاعر مُتطرِّف
هذي حكومتنا وكلُّ شموخِها   كذِبٌ، وكل صنيعها مُتكلَّف
غشَّتْ مظاهرها ومُوِّهَ وجهُها   فجميع ما فيها بَهارج زُيَّف
وجهان فيها باطنٌ متستر   للأجنبيِّ وظاهر متكشِّف
والباطل المستور فيه تحكم   والظاهر المكشوف فيه تَصلُّف

* * *

عَلَمٌ ودستور ومجلس أمةٍ   كلٌّ عن المعنى الصحيح مُحرَّف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها   أما معانيها فليست تُعْرَف
من يقرأ الدستورَ يعلم أنه   وفْقًا لصكِّ الإنتداب مُصنَّف
من ينظرِ العَلم المرفرف يَلْقَه   في عز غير بني البلاد يُرَفرف
من يأتِ مجلسنا يصدِّقْ أنه   لمراد غير الناخبين مُؤلَّف
من يأتِ مُطَّرَدَ الوزارة يُلْفِها   بقيود أهل الاستشارة ترْسُف

* * *

أفهكذا تبقَى الحكومة عندنا   كَلِمًا تُمَوَّه للورَى وتزخْرَف؟!
كثرَت «دوائرها» وقلَّ فعالها   كالطبل يَكبر وهو خالٍ أجوف
كم ساءنا منها ومن وزرائها   عمل بمنفعة المواطنِ مُجْحف

تشكو البلاد سياسةً مالية تجتاح أموالَ البلاد وتُتْلف
تجْني ضرائبها الثقال وإنما في غير منفعة الرعية تصْرَف
حكمت مشدَّدة علينا حكمها أما على الدُّخلاء فهي تخفَّف
يا قومُ خَلُّوا الفاشِسيَّة إنها في السائسين فظاظةٌ وتعجْرُف
للإنكليزِ مطامعٌ ببلادكمْ لا تنتهي إلا بأن تتبَلْشَفوا

* * *

باللـه يا وزراءَنا ما بالكمُ إن نحن جادَلْناكُمُ لم تُنصفوا؟
وكأنَ واحدكم لفرْطِ غُروره ثِملٌ تميل بجانبيه القرقف[1]
أفتقنعون من الحكومة باسمها ويفوتكم في الأمر أن تتصرفوا؟!
هذي كراسيُّ الوزارة تحتكم كادَت لفرط حيائها تتقصَّف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كلٌّ بسلطته عليكم مشرف
أيُعَدُّ فخرًا للوزير جلوسه فرحًا على الكرسي وهو مكتَّف؟

* * *

إن دام هذا في البلاد فإنه بدوامه لسيوفنا مسترعِف[2]
لا بد من يوم يطول عليكمُ فيه الحساب كما يطول الموقِف
فهنالكُمْ لم يغنِ شيئًا عنكمُ لُسُنٌ تقول ولا عيونٌ تذرِف
الشعب في جَزعٍ فلا تستبعدوا يومًا تثور به الجيوش وتزحف
وإذا دعا داعي البلاد إلى الوَغى أتظنُّ أن هناك من يتخلف؟
أيذِلُّ قوم ناهضون وعندهم شَرَفٌ يعزز جانبيه المرْهف؟[3]
كم من نواصيَ للعدا سنَجُزُّها ولِحًى بأيدي الثائرين ستنتَف
إن لم نضاحك بالسيوف خصومنا فالمجد باكٍ والعُلا تتأفَّف

* * *

[1] القرقف: الخمر.

[2] مسترعف: مسبب للرعاف وهو سيلان الدم من الأنف ومن السيف.

[3] المرهف: السيف أو السنان المشحوذ.

زُر ردهَة التاريخ إن فِناءها ... للمجد من أبناء يعربَ مُتْحَف
قد كان للعرب الأكارم دولة ... من بأسها الدول العظيمة ترجُف
عاش الأديب منعمًا في ظلها ... والعالِم النِّحرير والمتفلسف
أيام كان المسلمون من الورى ... في ظلها لهم المحل الأشرف
ثم انقضى عهد العروبة مذ غدا ... عنها الزمانُ بسعده يتحرَّف[٤]
حتى تقلَّص بعدُ من سلطانها ... ظلٌّ بأقصى المَشرقين مُوَرَّف
وغدتْ ممالكها الكبيرة كلها ... لسهام كل دُويلة تَستهدِف
فبنو العروبةِ أصبحوا في حالة ... منها العروبة لا أبا لك تأنف
والمسلمون بحالةٍ من أجلها ... تالله ضَجَّ بما حواه المُصْحف

[٤] يتحرف: ينحرف.

الوزارة المذنبة

دار ذا الدهرُ مَدارَهْ فرأى الناسُ ازورارهْ
كلٌّ فعل الدهر فعلٌ فيه للحرِّ إثاره
أهل بغدادَ أفيقوا من كرى هذي الغَراره[1]
إنَّ ديكَ الدهر قد با ض ببغدادَ وزاره
شأنها شأنٌ عجيب قصَّرت عنه العباره
هي للجاهل عزٌّ ولذي العلم حقاره
مَلك البدوُ بها الأمـ ـر على أهل الحضاره
كم لها من هفواتٍ تسلُب الطودَ وقاره
حبَّبت للوطني الـ ـحُرِّ أن يهجرَ دارَهْ
بيع للأطماع فيها حقكم بيع الخساره
فكأنَّ الحكم والعد ل بها قِطٌّ وفارَه
كم وزيرٍ هو كَالْوِزْ رِ على ظهر الوزاره
مُقحَم لو كان لفظًا شخصه كان استعاره
ووزير مُلحق كالذ يل في عَجز الحماره
ذَنَبٌ يستوجب الإخـ ـلاصُ والصدقُ انبتارَه[2]

[1] الغرارة: الغفلة وقلة الفطنة للشر.

[2] انبتاره: بتره وقطعه.

قــل لأربــاب الــوزاره عَـذَلًا أضـرمـت نـاره
أنــتــمُ الأصــنــام لــولا نـزقـات مـسـتـطـاره
أحُــلــومٌ كــفــراشٍ وقـلـوب كـحـجـاره؟!
أم جيوبٌ زرَّهـا الدهــ ـر على كل دَعاره؟![3]
أم وجوهٌ لو بدت للشـ ـمس لم تنشر حراره؟!
أمــع الــذلَّــة كِــبْــرٌ أم مع الجبن جساره؟!
كيف لا تخشون للأحـ ـرار في البطش مهاره؟!
يـا بـنـي الأوطـان هـبُّـوا وانقضوا هذي الغَراره
إن وجـه الـحـق بـادٍ كـسـراج فـي مَـنـاره
أدركوا الحق فقد شُلـَّ ـت على الحق الإغاره
لا تسل عنه وزير الـ ـقوم واسأل مستشاره
فـوزيـر الـقـوم لا يَعـ ـمل من غير إشاره
وهــو لا يـمـلـك أمـرًا غـيـر كـرسـيِّ الـوزاره
يــأخــذ الـراتـب إمـا بـلـغ الـشـهـر سِـراره[4]
ثـم لا يـعـرف مـن بعـ ـد: خراب أم عماره
حــدِّث الــنــاس الــ ـلؤم عن هذي الخُشاره[5]
فـلـعـلَّ الـدهـر مـنـهـم بـدمٍ يـغـسـل عـاره

[3] الدعارة: الفجور والخيانة.

[4] السرار: الظلام الذي لا يظهر فيه القمر آخر الشهر.

[5] الخشارة والخشار: الرديء من كل شيء، وخصَّ اللحياني به رديء المتاع، وفي البيت خلل، لكن هكذا ورد في الأصل.

يوم الفلوجة

أيـهـا الإنـجـلـيـز لـن نـتـنـاسـى بَـغـيـكـمْ فـي مـسـاكـن الـفـلُّـوجـه[١]

ذاك بـغـي لـن يَـشـفـيَ الـلـه إلا بـالـمـواضـي جـريـحـه وشـجـيـجَـه

هـو كـرْب تـأبـى الـحـمـيَّـة أنَّـا بسوى السيف نبتغي تفريجه

هو خطب أبكى العراقين والشا م وركنَ الـبَـنـيَّـةِ الـمـحـجـوجـه

* * *

حـلـهـا جـيـشـكـم يـريـد انـتـقـامًـا وهو مُغرٍ بالساكنين عُلوجه[٢]

يـومَ عـاثـت ذئـاب آثـور فـيـهـا عيْثة تحمل الشنار سَميجه

فاستهنتم بالمسلمين سِفاهًا واتـخـذتـم مـن الـيـهـود ولـيـجـه[٣]

وأدَرتم فيها على الْعُزل كأسًا من دماء بالغدر كانت مزيجه

واسـتـبـحـتـم أمـوالـهـا وقـطـعـتـم بـيـن أهـل الـديـار كـل وشـيـجـه

أفـــهـــذا تـــمـــدُّنٌ وعـــلاءٌ شعبكم يدعي إليه عروجه؟!

أم سَـكـرتـم لـمـا غـلـبـتـم بـحـربٍ لم تكن في انبعاثها بنضيجه؟

---

[١] الفلوجة: قرية على الفرات.

[٢] مغرٍ: مسلط محرض. والعلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفار العجم.

[٣] وليجة: بطانة.

قد نتجنا لقوحَها عن خِداج فلذاك انتهت بسوء النتيجه[٤]
هل نسيتم جيشًا لكم مُبذعرًّا شهدت جبنه سواحل إيجَه؟[٥]
وهوى بانهزامه حصن أقريــ ـطَ وأمسى قذًى على عين فيجه[٦]
سوف ينأى بخزيه وبعارٍ عن بلاد تريد منها خُروجه
لا تغرَّنَّكم شباكٌ كبار أصبحت لاصطيادنا منسوجه
لستم اليوم في الممالك إلا جُعَلًا تحت صدره دُحروجه[٧]
وطن عشت فيه غير سعيد عيش حرٍّ يأبى على الدهر عوجَه
أتمنى له السعادة لكن ليس لي فيه ناقة منتوجه[٨]
أخصب الله أرضه ولوَ انِّي لست أرعى رياضه ومروجه
كل يوم بعزه أتغنى جاعلًا ذكر عزه أهزوجه
ما حياة الإنسانِ بالذل إلا مُرَّة عند حسوها ممجوجه
فثناءً للرافدين وشكرًا وسلامًا عليكِ يا «فلُّوجه»

[٤] نتج الناقة: ولدها. واللقوح: الحامل. الخداج: نزول المولود قبل استكمال مدة الحمل.

[٥] المبذعر: المتفرق.

[٦] أقريط: كريت.

[٧] الجعل: ذكر الخنافس. والدحروجة: كرة يكورها من خرئه، يدحرجها ويجري وراءها.

[٨] منتوجة: والدة.

الإنكليز في سياستهم الاستعمارية

لقد جمع الدهر المكايد كلها — بقدر كبير صيغ من معدن الخبثِ
وصب عليها من بئار صروفه — سِجالًا من الكذب المموَّه والحِنثِ
وأنقع فيها ما يعادل ثلثها — من المكر بل ما قد يزيد على الثلثِ
وفتَّتَ أرطالًا من الغدر فوقها — وعالجها بالدقِّ والدلك والدعث
وأوقد نارًا للخديعة تحتها — تزيد على نار الغَضا أو على الرِّمث[1]
ففارت مليًّا فيه ثم تصعَّدت — بخارًا بأنبيقٍ من السحر والنفث[2]
فصاغَ طِباع الإنكليز من الذي — تقاطر في الأنبيق كالمطر الدَّث[3]
دع اللومَ واسمع ما أقول فإنني — قتلت طباع التيْمِسِيين بالبحث
كأنَّهمُ والناسَ عُثٌّ وصوفةٌ — وهل يستقيم الصوف في عيثة العُث
فكم حرثوا في أرض مستعمراتهم — مظالمَ سودًا كنَّ من أفظع الحرث
وكم أيقظوا والناس في الليل نوَّمٌ — بها فِتنًا كالدَّجْنِ يَهْمي على الوعث[4]
وهم يأكلون الزُّبد من مُنتجاتها — ويُلقون للأهلين منهنَّ بالفَرث[5]

[1] الغضا: شجر جزل، ناره قوية. والرمث: شجر يشبه الغضا لا يطول ولكن ينبط ورقه.

[2] الأنبيق: جهاز معروف يستعمل في التقطير.

[3] المطر الدث: الضعيف الخفيف.

[4] الدجن: الغيم. الوعث: المكان السهل الكثير التراب، تغيب بينه الأقدام.

[5] الفرث: السرجين ما دام في الكرش.

فيَحْظون منها بالنفائس دونهم ويعطونهم منها السقيط من الخُرثي[٦]
زر الهندَ إنْ رمت العِيان فكم ترى على الأرض من غُبْرٍ هناك ومن شُعثِ

* * *

يقولون: إنا عاملونَ لسعدكم ولم يعملوا غير الكوارث والكرث[٧]
فكم بعثوا في الشرق حربًا ذميمة تمثَّلُ في أهوالها ساعة البعث
وكم أرسلوا دسًا جواسيس مكرهم على الناس يشتدون بالنبش والنَّبث
وهم سلبوا أرض العراق سمينها ولم يتركوا للقوم منها سوى الغثِّ
إذا ما رأيت القوم في فخِّ مكرِهم رَقَقتَ لهم تبكي على القوم أو ترثي
فلا ترْجُ في الدنيا وفاءً لعهدهم فلا بد في الأيام للعهد من نَكْثِ
وما الحكم إلا عندنا كمِطثَّةٍ رموها إلينا كي يَرَوا لعْبة الطثِّ[٨]

[٦] السقيط: سقط المتاع. والخرثي: أردأ متاع البيت.

[٧] كرثه الأمر كرثًا: اشتد عليه.

[٨] المطثة: لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة عريضة، يدقق أحد رأسيها، نحو الفلة.

بين الانتداب والاستقلال

سلِ الإنكليزيِّ الذي لم يزل له   بدَسْتِ وزير الداخلية مقعدُ
أأنت وزير أم عميدُ وِزارةٍ   نراك إليها كل يوم ترَدَّد؟!
فها أنت مُلقاة إليك أمورُنا   تحُلُّ لنا ما شئت منها وتعقِد
وتأخذ منا راتبًا كموظف   وهذا لعمر الله أنكى وأنكد
أنحمل منك اليوم عبء تحكُّم   وندفع فيه الأجرَ منا ونَنقُد؟!
وما شأن ذَيَّاك السفير الذي له   على الجانب الغربي قصر مشيَّد
وكانت لكم من قبل فينا استثارة   فزالت ولكن دام منكم ترَصُّد
تبدَّلتم استقلالنا بانتدابكم   ولكن على وجه لنا هو مُعبِد
خلقتم لنا من كل عهد مموَّه   قيودًا بها استقلالنا يتقيد
إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى   به ساخرٌ كل امرئ ومندِّد
وصار كسيف قاطع في أكفِّكم   يجرد للإرهاب طورًا ويُغمَد
غررتم به الأغرار والله شاهد   على أنه في الحكم لفظ مجرد
وهل يستقل الشعب في حكم نفسه   إذا لم يكن في حكمه يتفرد؟!
فما هو إلا المَين منكم أعانكم   عليه رجالٌ خائنون وأيَّدوا
وما سكت الأحرار عن مخزياتكم   فكم أبرقوا غيظًا عليكم وأرعدوا
ولا تعجبوا أن يمْقت الشعبُ دأبكم   فيظهر وهو الساخط المتمرد
رويدًا فإن رمتم من الشعب وُدَّه   فخلوا له الأمر الذي يتقلد
وكونوا له عونًا على ما يهِمُّه   يكن لكمُ عونًا على ما يعدِّد

وإلا فـأنـتـم ظـالـمـون وإنـمـا أخـو الظـلـم مأخـوذ بمـا يتـعـمـد

بني وطني

بني وطني ماذا أؤمل بعدَما تفشت سعايات لكم بالتجسسِ
أقول لمن قد لامني في تشدُّدي على كل تدليسٍ أتى من مُدَلِّس:
لوِ اسودَّ وجه المرء من قُبح فعله لما كنت تلقى بيننا غير مُدْفِس[1]
ولو نال بالإخلاص مُثرٍ ثراءَه لما كنت تلقى بيننا غير مفلس
نحاول عزًّا بابتذال نفوسنا فنشري خسيسًا بالثمين المقدَّس
ومن جهلنا استكراهنا في معاشنا شقاء نزيهًا للنعيم المدنَّس
سأرحل عنكم للذي قد أقامني على موحِش من أمركم غير مؤنِس
أبيْت لنفسي أن تحل مكانة من العيش إلا فوق عز مؤسس
ولو أن هذا الصبح كان انبلاجه بغير شروق الشمس لم يتنفس
فلا أبتغي بالذل عيشًا مرفهًا ولو عشت في العزَّى بفول مدمس
وما أنا كابن العبد إذ عانق الرَّدَى لجدوى أبتْها رغبة المتلمس[2]
إذا ابتسمت لي عفتي ونزاهتي فلست أبالي بالزمان المعبِّس
أقابل أخلاق الرجال بمثلها وأعرف منهم وجهها بالتفرس

[1] المدفس: الذي اسود وجهه من غير علة.

[2] ابن العبد: طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي، والمتلمس: جرير بن عبد المسيح شاعر معروف، ولهما قصة في وفادتهما على عمرو بن هند، ومنادمتهما أخاه قابوس.

فأغوى لمن يغوى وأقسو لمن قسا وأظهر كالغطريس للمتغطرِس
ولست أجازي المعتدي باعتدائه ولكن بصفح القادر المتحمس
وما أنا من أهل الدعارة والخنا ولا من أولي حمل السلاح المسدس
ولكنَّ لي فيكم يراعًا إذا شدا أتاكم بكافٍ من عُلاه ومُخرِس
وما خالق الأكوان إلا مهندس وإن جلَّ عن تعريفه بالمهندس
تجلَّى على أكوانه بصفاته وأغلس فيهم كنهه كل مُغلس
وأقبسهم نورًا شديدًا جَلاؤه فساروا به كالعمي في كل حندس
وألبسهم حمر الغرائز فاغتنوا بحمرتها عن كل ثوب موَرَّس[٣]
وما مُقبس عند النهى غير قابس ولا لابس عند النهى غير ملبس
فأيَّان جال الطرف لم يرَ غيره إذا كان في ألحاظه غيرَ مُبلس[٤]
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى حقيقته دعْ عنك حدس المحدِّس
ألا إنني للكائنات موحِّد ولو أرغمت كلُّ المذاهب مَعطسي[٥]

[٣] حمر الغرائز: كذا بخطه، ولعله يريد الغرائز المعجبة، فإن الحمرة شعار الحسن. والمورس: المصبوغ بالورس، وهو الزعفران.

[٤] المبلس: من الإبلاس، وهو الحيرة.

[٥] المعطس: الأنف.

يوم سنغافورة

أطالوا الحرب طاحنة زَبونا فعدوا بالشهور لها السنينا
وقد زحفت لهم فيها جيوش تجاوزت الألوف مع المئينا
لقد خربوا البلاد ودوَّخوها وجُنُّوا في تناحرهم جنونا
ولم تُرد الشعوب لها اتقادًا فأوقد نارَها المترَئِّسونا
أولاكَ هم الجُناة بها علينا أولاك هم البغاة الطامعونا
إذا ذكر الورى جشعًا وحرصًا فشرشل أكبر المتجشعينا
وما رُزفلت فيها غير جانٍ يزوِّر في إطالتها الميونا[1]
أعان على الهِياج وقال حيدِي حَيادِ فأعجب المتكذبينا[2]
فما دعواه في الحيوان إلا كدعوى العفَّة المتهتكونا
كذلك ساسة الأقوام فيما به من أمرهم يتفوهونا
خداع لا يراه ذووه شيئًا ولا يمسي به أحد مَشينا

* * *

بسنغافورة اليابانُ شنُّوا على أعدائهم حَربًا طحونا
لهم فيها طوائر صاعقات لها قصف تدك به الحصونا

---

[1] الميون: جمع مين، وهو الكذب.

[2] الهِياج: الحرب والشر. وحيدي حياد: كلمة يقولها الهارب من شيء يخافه.

رواعد تملأ الآفاق رعبًا وترسل في تهزمها المنونا
تزلزلت الحصون بها وكانت تطاول في مناعتها القرونا
حصون تستخف بكل طود وتستعشي بروعتها العيونا
لقد سكتت مدافعها وجومًا لجيش حل مرصفها العيونا
على بحر بلجته أقاموا لغلق البحر من نار كُرينا
وقد بثوا البوارجَ فاسبطرَّت تجول به فواردَ أو ثُبينا[3]
ترى الحيات فيه قد اشرأبت تردِّد فوقه نظرًا شفونا[4]
وتطفو تارة وتغوص أخرى وتبدي من تماقِلها فنونا
وتضرب بالزعانف جانبيها فتنقلب الظهور بها بطونا
بحيث يقول من يرنو إليها: لعلَّ بهنَّ صرعًا أو جنونا

* * *

وبحر الهند أصبح في اضطراب يُرجِّم في عواقبه الظنونا
أيُفتح بابه فيكونَ حرًّا لمن يُزْجي بلجته السفينا
ويُمسي الهندُ عندئذٍ طليقًا من الأثر الذي قطع الوَتينا[5]
فبشرى للبلاد إذن وبشرى لمصر وللعراق بما هَوينا
فسوف تكفُّ عنهن الليالي مطامعَ ساسةٍ متحكمينا

* * *

هنالك حفرة الأطماع يُمسي خِداعُ الإنكليز بها دفينا
وتحتدم الحفائظ في البرايا فتضرم فوق مَدفنه أتونا
وتتسع السياسة للتَّصافي فيستصفي الخدينُ بها الخدينا
ويصبح كل تمويه وغش لأنظار البرية مستبينا
ويصبح كلُّ خداعٍ كذوب رجيمًا في سياسته لعينا

[3] اسبطرت: استطالت. وفوارد: مفردات. وثبين: جماعات.
[4] الشفون: النظر إلى شيء نظر المعجب منه.
[5] الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

ويصبح كل شعب مستقلًّا عزيزًا لن يذلَّ ولن يَهُونا
ويمسي الناس قاطبة سواءً بدين أخوَّة متدينينا
يُعاون بعضهم بعضًا ويُؤْوي قويُّهم الضعيف المستكينا
تسير بها شرائعُ عادلات إلى أوج السعادة مرتقينا
سواء لا يفرقهم لسان ولا دين له يتعبدونا
فما من سائد أو من مَسود ولا من دائِن يُربي الديونا
ويصبح كل مُحْترَثٍ مُشاعًا لمن فيه ثوَوا مُتوَطِّنينا[٦]
وما أهلُ البلاد سوى عيالٍ على العمل الذي هم يحسنونا

[٦] المحترث والمزدرع: موضع الحرث والزرع. والمشاع: الشائع بين الناس لا يختص به أحد. وثوى بالمكان: أقام وتوطن.

نحن والحالة العالمية

صاح إن الخطوبَ في غليانِ فبماذا يُطرِّق المَلوان؟[1]

جلَّ رب الأنام في كل يوم هو من كبريائه في شان

خالق الكون ذو الجلال قديم واحد عندهُ القرون ثواني

كلُّ ما ضم ملكهُ كلماتٌ وإليه انتهت جميع المعاني

نسمع اليوم للخطوب أزيزًا كأزيز القدور في الفوران

إنني مُبصرٌ تباشير صبح مستفيض على ظلام الأماني

ليس تلك الدماء في الحرب إلا شفقًا من ضيائهِ الأرجواني

إنني أستشف من غِيَرِ الدهـ ـر انقلابًا يَعُمُّ كل مكان

سيلوح الداني به وهو قاصٍ ويلوح القاصي به وهو دان

ويكون المُعَزُّ غير مَعَزٍّ ويكون المهان غير مُهان

وسيغدو الضعيف محترم الحق ويُمسي الظلوم في خسران

والثريا ستعتلي في أمان من عَداء العَيُّوق والدَّبران[2]

يتجلَّى رب السموات والأر ض علينا بعدله والحنان

---

[1] يطرق: أصل الطرق: الإتيان ليلًا، ولم أجد في المعاجم التطريق بهذا المعنى الذي يريده الشاعر. والملوان: الليل والنهار.

[2] الثريا، والعيوق، والدبران: أسماء نجوم، وكذلك الثور والفرقدان.

فيبوء «المستعمرون» بخسر   وتضيء البلاد بالعُمران

* * *

معشر العُرب أين أنتم من القو   م إذا ما تمَّ انقلاب الزمان؟
أَنيامٌ والدهر يفتح فيكم   من جَديديه مقلتيْ يقظان؟!
نقض القوم عهدكم قبل هذا   واستخفُّوا بحفظه في حواني[٣]
واستهانوا بالوعد إذ أخلفوه   واستغلُّوا دفائن الأوطان
وأقاموا بها قواعد جوٍّ   لاحتشاد الجنود والطيران
ثم بثُّوا بها العيون يعيثو   ن فسادًا في سُوحها والمباني[٤]
ثم ساروا في حكمها سَير فُلْكٍ   هم بها آخذون بالسكان
كل هذا وأنتمُ مستقلو   ن بزعْمٍ من عندهم وامتنان
قيَّدوكم لنفعهم بعهود   ناطقات من أمركم بلسان
أوثقوكم بها إسارًا وقالوا: ليس هذا لكم سوى إحسان
ليس تلك العهود يا قومُ إلا   كعهود الذئاب للحملان
أفلا تذكرون من أوَّليكم   أنُفًا من مَسيسِهم بِهوان
يوم ساروا والعز فيهم يماشي   حزبهم بالمُشَطب الهندواني[٥]
وتعالت راياتهم خافقاتٍ   في جيوش عَنا لها الخافقان
فانهضوا اليوم مستجدِّين مجدًا   كالذي كان دونه القمَران
إن للمجد في المساعي مَحَلًّا   عاليًا لا يَحُلُّه المتواني

* * *

قل لمن رام صَدْعنا بشقاقٍ   أنت كالوعل ناطح الصَّفوان[٦]
وَيْك إن الإسلام أوجد فينا   وحدة مثل وحدة الرحمن

---

[٣] الحواني: الضلوع، جمع حانية.

[٤] سوحها: جمع ساحة.

[٥] المشطب: السيف ذي الشطب.

[٦] الصفوان: الحجر الشديد الأملس.

فاعتصمنا منها بحبلٍ وثيق هو حبل الإخاء والإيمان
ليس معنى توحيدنا الله في الملـَّ ـة إلَّا اتِّحادنا في الكيان
فلهذا نعم! لهذا، لهذا نحن دِنَّا بوحدة الدَّيَّان
وحدة لا يفُلُّها المتوالي من صروف الدهور والأزمان
وحدة جاءنا من الله فيها مرسَل بالكتاب والفُرقان
فهدانا بها إلهٌ قديم واحد، عنده القرون ثواني
ما نرى سلطة علينا لخلق غير سلطان خالق الأكوان

الحربيات

إلى الحرب

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحربِ
وقبِّلِ غرار السيف واسلُ هوَى الكُتْبِ
ولا تغتررْ أن قيلَ: عصر تمدن
فإن الذي قالوه من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس
أباحوا حِمى الإسلام بالقتل والنهب؟
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم
ولكن جميعُ الغرب يؤخذُ بالذنب
فإني أرى الطليانَ منهم بمنزل
يعدُّ «وهم يُغرونه» منزلَ الكلب[1]
فلولاهم لم يَنقُضِ العهدَ ناقض
ولا ضاع حق في طرابلس الغرب
بلاد غدت في الحرب تندب أهلها
فتبكي وتستبكي بني الترك والعرب

[1] أغرى الكلب بالصيد: أي حضه عليه وأرسله، والمعنى: أن منزلة الأمة الطليانية من سائر أمم الغرب، كمنزلة الكلب من الصياد.

قد اغتالها الطليان وهي بمضجع
من الأمن لم يقضض برعب على الجنب[٢]
فما انتبهت إلا لصرخة مدفع
وما نهضت إلا إلى موقف صعب
فأمست وأفواه المدافع دونها
تمجُّ عليها النارَ كالوابل السكب
صواعق من سحب الدخان تدكها
وتنسفها نسفَ الزلازل للهضب
غدت ترتمي فيها عشيًّا وبُكرةً
فلا يابسًا أبقت ولم تبقِ من رَطب
وما إن شكا من عضَّة الحربِ أهلها
ولكنهم شاكون من غصة الجدْب
فما خفقت عند الهياج قلوبهم
ولا أخذت أعصابَهم رجفة الرعب
ولكن جرت نكب الرياح بأرضهم
فجرَّت عليها كلكل الحجج الشهب[٣]

* * *

يعزُّ علينا أهل بَرْقةَ أنكم
تدور عليكم بالدمار رَحى الحرب
وأنَّا إذا ما تستغيثون لم نجد
إليكم على بُعد المسافة من درب

---

[٢] قوله: «يقضض» يقال: أقض عليه المضجع يقض إقضاضًا إذا خشن وتترب، ومعنى البيت أن الطليان قد أخذوا طرابلس الغرب على غرة، فهجموا عليها وهي نائمة في مضجع الأمن.

[٣] قوله: «نكب الرياح»: جمع نكباء، وهي الريح المائلة عن مهبها، ونكب الرياح عندهم من دواعي الجدب والمحل. والحجج: جمع حجة، وهي السنة. والشهب: جمع شهباء، يقال: سنة شهباء؛ أي مجدبة لا خضرة فيها.

وقد عَلم الأعداء أنَّ سيوفنا
تململُ في الأغماد شوقًا إلى الضرب
ولكن هو البحرُ الذي حال بيننا
فلم نستطع زحفًا على الضمَّر القبِّ[٤]
ولولاه فاجأنا العدو بفيلقٍ
يبين ضحًى من هوله مطلع الشهل
فيا بحرُ فاجمدْ أو فغرْ إن جيشنا
عليك غدا كالبحر يَزْخَر بالعتب
ويا سُحْبُ هَلَّا تنزلين فتحملي
إلى الحرب جيشًا ينشر النقع كالسحب
ويا ريحُ قد ضِقنا فهل لك طاقة
بحمل منايانا إلى المعرك الرحْب
إلى خير أرض داسها شرُّ مَعشر
بأرجلهم قطَّعن من أرجل جُرب

* * *

أما والعُلا يا أرض بَرقة إننا
لَنشْرَقُ من جَرَّاك بالبارد العذب
نراك على بُعد تسامين ذلة
فيحزننا أن لم نكن منك بالقرب
وما نحن إلا الليث شُدَّت قيوده
وأُلقِيَ حيًّا شبله في فم الذئب
يرى الشبلَ مأكولًا فيزأر موثقًا
ويضرب كفيه على الأرض للوثب

[٤] الضمر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم، اللاصق البطن. والقب: جمع أقب، وهو الدقيق الخصر من الخيل.

فلا يستطيع الوثب إلا تمطيًا
وزأرًا وإنشابَ المخالب بالترب
ويا أهلَ بنغازي سلام فقد قضت
صوارُمكم حقَّ المواطن في الذَّبِّ
حميتم حِمى الأوطان بالموت دونها
وذاك بما فيكم لهنَّ من الحب
ومن مُبلغ عنا السنوسيَّ أنه
يمد لهذا الصدْع منه يدَ الرأب
فإنا لنرجو أن يقود إلى الوغى
طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من العِدا
وينهض كشافًا لهم غمة الخطب
فإنَّ حشا الإسلام أصبح داميًا
إلى الله يشكو قلبُه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسي مدركًا
جنودَ بني عثمان في الجبل الغربي
وكن أنت بين الجند قطبَ رحى الوغى
وهل من رحى إلا تدور على قطب

* * *

ويا مَعشر الطليان قبِّحتَ مَعشرًا
ولا كنتَ يا شعبَ المخانيث من شعب
تركت وراء البحر مَزحف جيشنا
وأجَّجت نارًا في طرابُلس الغربِ
أتحسِب هاتيك الديارَ وقد خلتْ
من الجند تخلو من ضراغمةٍ غلْب
فما هي إلا أرض أكرَمِ معشرٍ
من العُرب لم تنبت سوى البَطل الندب

سترجع عنها بالفضيحة ناكصًا
وتذكرك الأيَّام باللعن والسبِّ
مشيتم إلينَا مُعجبين بجمعكم
تظنون حرب المسلمين من اللعب
فلما حللتم أرضنا ذقتمُ الردى
بأسيافنا حتى صحوتم من العجب
سنلبسُكم ثوب المهالك ضافيًا
ونحملكم منها على مركب صَعب
ونستمطرُ الأهوال حتى نخيضَكم
بسيل دم فوق البسيطة مُنصبِّ
وما دَعوة «البابا» لكم مستجابة
فقد أغضبت طغواكم غيْرة الربِّ
أجل إنكم أغضبتم الله فاتقوا
وإن رضيت تلك الحكومات في الغرب

* * *

أيا زعماء الغرب هل من دلالة
لديكم على غير الخديعة والكذب؟
تقولون: إن العصر عصرُ تمدن
أمِن ذَلكم قتل النفوس بلا ذنب؟!
ألم تبصروا القتلى تمجُّ دماءها
على الأرض والجرحى يئنُّون في الحرب؟!
أفي الحق أم في العلم ألا يسوءكم
ويخجلكم شن الإغارة للغصب؟!
وهل أغلفت هذي العلوم قلوبكم
بأغطية قدَّت من الحجر الصلب؟!
كذبتم فإن العصر عصر مطامعٍ
تقدُّ لها الأوداج بالصارم العَضب

فــلا تــغـضــبــوا الإســلام إن ســيــوفــه
مَواضٍ كما قد كنَّ في سالف الحُقبِ

في طرابلس

هو النصر معقود برايتنا الحمرَا | على أنه في الحرب آيتنا الكبرى
حليفان من نصر مبين ورايةٍ | به وبها نعلو على غيرنا قدْرا
لئن أدبر «الطليان» عند كفاحنا | فإن لهم في بطش شجعاننا عذرا
فإنا لقوم إن نهضنا لحادث | من الدهر أفزعنا بنهضتنا الدهرا
ندُك هضاب الأرض حتى نثيرها | غبارًا على أعدائنا يكثح الذعرا[1]
ونأكل مرَّ الموت حتى كأننا | نلوك به ما بين أضراسنا تمرا
فسلْ جيش «كانيفا» بنا كيف قومتْ | شِفارُ مواضينا خدودهم الصُّعرا؟
وكيف هزمناهم فولَّوْا كأننا | وإياهم أسدُ الشرى تطرُد الحُمرا؟
وكم قد نثرنا بالسيوف جماجمًا | نظمنا بها فوق الثرى للعدى شِعرا!
وما جزعي للحرب يحمَى وطيسُها | ولكن لأرواح بها أزهِقت صبرا

* * *

لكِ الله يا قتلى طرابُلسَ التي | بها حَكَّم الطليان أسيافهم غَدْرا
أداموا بها قتل النفوس نكاية | إلى أن أصاروا كل بيت بها قبرا
ولما أحاط المسلمون بجيشهم | فعاد الفضاء الرحب في عينه شبرا

---

[1] يكثح الذعر: أي يسفيه ويذروه، فيرميه عليهم.

تقهقر يبغي في الديار تحصنًا ... ففر بها من خشية الموت واستذرى[٢]
وأصبح يُنِكي أهلها من تغَيُّظٍ ... فيقتلهم صَبرًا ويُرهِقُهم عُسرا
فأوسعهم بالسيف ضَرْبًا رقابهمْ ... وآنافهم جَدعًا وأجوافهُمْ بَقرا
وما ضر «كانيفا» اللعينَ لوَ انَّه ... تقحَّمَ في الهيجاء عسكرَنا المَجْرا!
أيحجِمُ عنا هاربًا بعُلوجه ... ويَبغي بقتل الأبرياء له فخرا؟!
وهل حسبوا قتلَ النساء شجاعةً ... وقد تركوا عند الرجالِ لهم ثأرا؟!
لقد شجُعوا والموت ليس له يد ... ولم يشجُعُوا والموت يَطعنهم شَزْرا
يعِزُّ على أسيافنا اليومَ أنها ... تقارع قومًا قرعُهم بالعصا أحرَى
ولم تك لولا الحربُ تعلو سيوُفنا ... رءوسًا نرى ملءَ القحوف بها عهْرا[٣]
ومن مُبكيات الدهر أو مضحكاته ... لدى الناس حُرٌّ لم يكن خصمهُ حرا

* * *

لئن «أيها القتلى» أريقتْ دماؤكم ... فما ذهبت عند العِدا بعدكم هَدْرا
سنثأر حتى تسأمَ الحربُ ثأرنا ... ونقتلُ عن كل امرئ أنفسًا عشرا
وإني لتغشاني إذا ما ذكرتكم ... لواعجُ حُزن ترتمي في الحَشا جَمرا
على أنَّ قُرص الشمس عند غروبها ... يذكرني تلك الدِّماء إذا احمرَّا
فأبكي تجاه الغرْب والبدر لائح ... من الشرق حتى أبْكي الشمس والبدْرا
ويا أهلَ هاتيكَ الديارِ تحية ... توفِّيكم الشكر الذي يرْأس الشكرا
فقد قمتُمُ للحرب دون بلادكم ... تذودون عن أحواضها البغيَ والنكرا
وثرتم أسودًا في الوَغى يَعرُبيَّةً ... غدا كل سيف في براثنها ظُفْرا
تراها لدى الحرب العَوانِ مُشيحةً ... تهمْهمُ حتى تُنْطِقَ الفَتكةَ البِكرا[٤]
ولو أنَّ كفِّي تستطيعُ تناوشًا ... فتبلُغ في أبعادها الأنجمَ الزُّهرا
لرتَّبْت منها في السماء قصيدةً ... لكمْ واتخذت البدرَ في رأسها طغْرا

[٢] استذرى: استتر واختبأ.

[٣] القحوف: جمع قحف، وهو عظم الرأس المجوف.

[٤] مشيحة: أي جادة، أو مقبلة على الحرب، مانعة لما وراء ظهرها. وتهمهم: أي تردد زئيرًا في صدورها، يقال: همهم الأسد: إذا سمعت له دويًّا. والفتكة البكر: التي لم تسبق بمثلها.

وخـلـدتـهـا آيًـا لـكـم سَـرْمـدِيـةً مدائحها تستوعب الكون والدهرا
يـقـولـون: إن الـعـصـرَ عصر تمدن فما باله أمسى عن الحق مزورًا
إلى الله أشكو في الورى جاهلية يَعُدُّون فيها من تمدنهم عصرا
أتتنا بثوب العلم تمشي تبخترًا إلى الخير لكن قد تأبَّطَتِ الشرا
فلا تلتمظ في مدحها متمَطِّقًا فإن أظهرت حُلوًا فقد أبطنت مُرًّا
لقد مَلَكَ الإفرنج أرض مَراكشٍ وقد ملكوا من قبلها تونِس الخضرا
ففاجأنا الطليان من بعد مُلكهم لكي يسلبونا في طرابُلس الأمرا
وقالوا: ألم تأتِ الفرنجةُ تونسا وهذي جيوش الإنكليز أتت مِصرا
فخلُّوا لنا ما بين هذي وهذه وإلا قسرناكم على تركها قَسرا
فقلنا لهم: إنَّا أحقُّ بمِلْكها فقالوا: ولكن زَنْدُ قوَّتنا أورَى
أهذا هو العصر الذي يدَّعونه فسُحْقًا له سُحقًا ودَفرًا له دفرا![٥]

---

[٥] سحقًا له: أي بعدًا. ودفرًا له: أي نتنًا.

أدرنة[1]

أدِرْنَـةُ مَـهـلًا فـإن الـظُّـبـا ستـرعَى لكِ العـهدَ والمَوثِقَا
وداعًا لـمـغـنـاك زاهـى الـرُّبـا ودَاعًـا ولـكـن إلـى الـمُـلـتـقـى

* * *

عَـزاءً لـمـسـجـدك الـجـامـع أفـارقَ مـحـرابُـهُ الـمِـنـبـرا؟!
وهـل فـي مُـصـلاهُ من راكع يـجـيـب الـمـؤذن إن كـبَّـرا؟
فـيـا لَـسـقـوطـك مـن فـاجـع بـه فَـجـعَ الـدهـرُ أُمَّ الـقـرى
وقـبـرَ الـنـبـوة فـي يـثْـرِبـاً ومَثْوَى ضجيعيه مَثْوَى التُّقى
ومن في البقيع ومَنْ في قُبا ومن شـهدوا الفَتْح والخندقا

* * *

رُويـدًا أدرنـة لا تـجـزعـي وإنْ قـد أمـضَّـكِ هـذا الأذى
إذا أنتِ بالسيف لم ترجَعي فـلا حـبَّـذَا الـعـيـش لا حَـبَّـذا
ألا أنتِ «ألزاسُنا» فاسمَعي ونحن الفرنسيس مِن بعْد ذا
سلام على قُطرِك المُجتبى سـلام عـلـى أفُـقِـك الـمُـنْـتـقـى
أَيُمْسِـي لِشرْك العِدا مَلعَبًا وكـان لـتـوحـيـدنـا مَـعْـبـقـا؟

[1] هذه القصيدة قالها الرصافي لما سقطت «أدرنة»، وأخذها البلغار، وذلك في الحروب البلقانية العثمانية.

* * *

لقد حلَّ فيها لواءٌ مُريبْ حلولَ الحقارة بين الجَلال
فظلَّتْ بأدمعها والنحيب تنوحُ على نجمها والهلال
أَنَنْسى أدرنةَ عما قريب؟! إذن لا بلغنا العُلا والكمال
فسوف على الرغم من أوْرُبا نقومُ لها فَيْلَقًا فَيلقا
فتُبكي هزاهزُنا المَغْربا وتُضحك أسيافُنا المَشْرِقا[2]

* * *

أرى الدهر أنهض كل العدا على حينَ قد قعدَ المسلمون
فكم جرَّعونا كئوس الردَى ونحن على كيدهم صابرون
أيحسنُ يا قومُ أن نقعدَا وقد آن أن يَنهض القاعدون؟!
فَسيلُ المصائب غَطَّى الزُّبا وَغيم النوائب قد طبقا
وأوشكتِ الأرض أن تقلَبا وصبح القيامةِ أن يَفلِقا

* * *

دع الغربَ يَنعم في بالِهِ وإن لقيَ الشرقُ منه الكروب
ولا تسألنْهُ بأفعالِهِ فعهد التمدُّن عهد كذوب
فنحن اغتررنا بأقوالِهِ ولكننا بعد هذي الحروب
سنأبى عليه أشدَّ الإبا فإما الفَناء وإما البقا
ونركبُ من عزمنا مَركبا ونرقَى وإنْ صَعُب المرتقَى

* * *

لقد آنَ يا قومُ تركُ الونى وترك الشِّقاق وترك الدَّدِ[3]
إلى كم نكابد هذا العَنا ونخبِطُ في جهلنا الأسود؟!
وبالعلم من قبلُ نِلنا المنى وفزنا من العيش بالأرغدِ

[2] هزاهزنا: أي وقائعنا وحروبنا.

[3] الدد: اللهو واللعب.

ولكنما العلمُ قد غرَّبا فلا عيش إلا إذا شرَّقا
فهبُّوا إليه هبوب الصَّبا عسى أن يَسحَّ ويَغْدَودِقا

الجيش بقائده[1] أو هزيمة «لولا برغاز»

يا مَوطنًا ما انتضيناها مُهنَّدةً — إلا لردع الأعادي عن إهانتهِ
ولا ركبنا مَنايانا مُطهَّمة — إلا لنكسب عِزًا من صيانته
سَقيًا ورعيًا لروض منك ذي أنَقٍ! — قد كانت الحربُ تذوي غُصنَ بانته
تالله لم ينكسر في الحرب عسكرنا — من أجل قِلَّته أو من جَبانته
وكيف وهو تفوق الطَّيس كثرته — وتستعير الرواسي من رزانته[2]
لكنَّ قائدَه ما كان يَمأنهُ — ولا يبالي بأمر من مَعانته[3]
حتى لقد نفدتْ في الحربِ عينتهُ — بحيث لم يبقَ سهم في كنانته[4]
فظل يرْسف في النيران مُرتبكًا — مستفرغًا كل جُهدٍ من متانته
حتى غدا جُلُّه للنار مأكلة — وما تزحزح شِبرًا عن مكانته

[1] قال الرصافي هذه القصيدة لما انكسر الجيش العثماني في معركة «لولا برغاز»؛ وذلك في الحرب البلقانية العثمانية، وكان قائد الجيش العثماني إذ ذاك ناظم باشا، الذي قتله الاتحاديون في الآستانة.

[2] الطيس: كل ما في وجه الأرض من التراب والقمام، والكثير من الرمل وغيره، والمراد به هنا مجرد الكثير.

[3] قوله: «ما كان يمأنه»: أي ما كان يقوته، يقال: مأن القوم يمأنهم مأنًا: إذا احتمل مئونتهم؛ أي قوتهم. والمعانة: العون كالمعونة.

[4] قوله: «نفدت عينته»، العينة بالكسر: مادة الحرب، وهي ما تسميه العامة اليوم بالمهمات الحربية.

ولا استكانَ لهول الحرب من فرَقٍ بل كان يَفْرَق من هَول استكانته
فخاض غَمرَ المنايا صابرًا وأبى على الفرار انغمارًا في مهانته
ليس الفرار لجند المسلمين ألا إن الفِرار لَكفرٌ في ديانته
وكيف يَغلب جيش كان قائدهُ يَحفُّه بجيوش من خيانِته؟!
فالجيش تلتهم النيران أنفُسَه وقائد الجيش لاهٍ في مجانته
أقام في القصف والأجناد طاوية مُعاقرًا بهناءٍ بنت حانته
صَبْحانَ غبقانَ في أقسى مُعسكره مُحرَوِرفًا بين رهْطٍ من بِطانته
تلقاه من بين ذاك الرهط في مَرحٍ كأنه الجأبُ ينزو بين عانته[٥]
لهفي على الجيش جيش المسلمين فقد قضى ولم يقضِ شيئًا من لبانته

[٥] الجأب: الفحل الغليظ من حمر الوحش. والعانة: القطيع من حمر الوحش.

الوطن والجهاد[1]

يا قومُ إنَّ العِدا قد هاجموا الوطنا　　فانضوا الصوارمَ واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدوِّ الله كلَّ فتى　　ممن نأى في أقاصي أرضكم ودَنا
واستنهضوا من بني الإسلام قاطبة　　من يَسكن البدو والأرياف والمدُنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وَطن　　به تقيمون دين الله والسُّننا
واستلئموا للعِدا بالصبر واتخذوا　　صدق العزائم في تدميرهم جُننا[2]
واستنكِفوا في الوَغى أن تلَبسوا أبدًا　　عارَ الهزيمةِ حتَّى تلْبَسوا الكفَنا
إن لم تموتوا كرامًا في مواطنكم　　مُتُّم أذلاءَ فيها مِيتةَ الجبنا
لا عُذر للمسلمين اليومَ إن وهنوا　　في هَوشةٍ ذل فيها كل من وهنا[3]
ولا حياة لهم من بعدُ إن جَبنوا　　كلَّا وأي حياة للَّذي جَبنا؟!
عار على المسلمين اليوم أنهم　　لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عَدَنا

* * *

[1] قال الرصافي هذه القصيدة عند دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة الكبرى يستنهض المسلمين إلى الجهاد في سبيل الذود عن الوطن.

[2] استلئموا: تدرعوا. وقوله: «جننا»: جمع جنة، بالضم، وهي كل ما وقى من سلاح.

[3] الهوشة: الفتنة، والهياج والاضطراب، وأراد بها الحرب العامة.

قل للحُسَينين في مصرٍ: رُويدكما قد خنتما الله والإسلامَ والوطنا[٤]
شايعتما الإنكليز اليومَ عن سَفهٍ تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدينَ بالدنيا مجازفة فكنتما في البرايا شرَّ من غُبنا
لا تفرحا بالوسامين اللذين هما طوقا إسارة مِصرٍ فيكما اقترنا[٥]
قد مثَّلا منكما للناس قاطبة عجلًا أضلَّ الورى من قبلُ أو وَثنا
ما ازدان صدراكما شيئًا بحملهما بل أصبحا في كلا صدريكما دَرَنا
إن الحمَّية لم تنظر بمقلتها إلى وساميكما إلا بكَتْ حزَنا
ما كان أغلاهما إذ قد غدت لهما خزائن النيل في أيدي العدا ثمنا
ستندمان ولا يُجديكما أبدًا أن تقرعا السن أو أن تقبضا الذقنا
هذي جيوش بني التوحيد زاحفةً على العدا وعلى من ضل مفتتنا
لترسلن عليكم كل راعدةٍ تهمي الدماء وتمريها ظُبا وقنا
حتى تعودَ إلى مصرٍ كرامتها ويطهر النيل من ماءٍ به أجِنا

* * *

لا زلتَ يا وطن الإسلام منتصرًا بالجيش يزحف من أبنائك الأمنا
يردُّ عنك يدَ الأعداء خاسرةً ويكشف الغمَّ عن أفقيْك والمحنا
سعدَيكَ من وطنٍ جلَّت مفاخره عن الزوال فلا تخشى بِلًى وفنا
تاللهِ إن معاليكَ التي سَلفتْ تعيي الفصاحة والتبيانَ واللَّسَنا
كم قد أقمتَ على الأيام من شرفٍ لنا وأنبتَّ من نبع العلا غصُنا
إنا نحبك حُبًّا لا انتهاء له يستغرق الأرض والأكوان والزمنا
نفديك منا بأرواح مطهرةٍ أخلصن لله فيك السر والعلنا
إذا دهتك من الأيام داهية فلا رعى الله عينا تألف الوسنا
وإن فُتِنت بإحدى المزعجات نرق منا الدِّماءَ إلى أن نخمد الفتنا
فَقَرَّ عينًا وطِبْ نفسًا وعشْ أبدًا وفز بما شئت من حمد وطيب ثنا

---

[٤] يعني بالحسينين حسين كامل ووزيره حسين رشدي.

[٥] يشير إلى الوسامين اللذين أهدتهما الحكومة الإنكليزية إذ ذاك إلى حسين كامل وحسين رشدي.

وربَّ مُستصحَبٍ لي قال يخبرني: إن العدوَّ إلى أرض العراق دنا
فقلتُ: دعْ عنك هذا، إنه خبرٌ سِواه يبعث في أحشائيَ الشجنا
إن صحَّ أن العدوَّ اليوم مقترب إلى العراق فقد أكدى وقد أفِنا[٦]
إن العراقَ لعمرُ الله مَسبعة تواثبُ الأسدُ فيه من هُنا وهُنا
دون الوصول إليه كلُّ مُشعِلة شعواء تترك وجه الشمس مكتمنا[٧]
فإن فيه رجالًا من بني مُضرٍ إذا تحاربُ لا تستشفع الهدنا
قوم لِقاحٌ أبَوا أن يخضعوا أبدًا إلى الملوك وإن أعطوْهم المؤَنا[٨]
تحمَّلوا كل عبءٍ في حياتهمُ إلا الصَّغارَ وإلا الضيم والمننا
لو أن أمَّاتهم منَّتْ على أحدٍ منهم بألبانها لم يشربوا اللبنا
هم المغاوير إن صالوا بملحمةٍ فلا يروْن لهم غيرَ المنون مُنى
بَنوا فأعلوا بناءَ المجد فارتفعوا به على كل من قد شَادهُ وبَنى
فكيف تقعد عن حرب العدا فئة أبت سوى العز مأوى والعُلا وُكنا؟

[٦] أكدى: أخفق، ولم يظفر بحاجته. وأفن: ضعف رأيه وطاش.

[٧] مشعلة: بصيغة اسم الفاعل: صفة لموصوف محذوف؛ أي غارة مشعلة، وهي الغارة المتفرقة التي تنصب من كل أوب، وكذلك قوله: شعواء؛ أي متفرقة. والمكتمن: المختفي.

[٨] قوم لقاح: أي لا يدينون للملوك.

رؤياي الصادقة

حـيـاكُـم الـلـهُ أيـهـا الـعـربُ   فاستمعوا لي فقصَّتي عجبُ
قـد بـتُّـهـا لـيـلـة مُـطـوَّلـة   يعقد جفني بنجمها الوَصبُ[1]
أنـجـمـهـا الـزهـرُ غـيـرُ سـائـرةٍ   كـأنـمـا كـل كـوكـب قـطـب
تحسبني في مضاجعي حسك   يـقـلـبـنـي وخـزهُ فـأنـقـلـب
أمشي إلى النوم وهو منهزم   مَشيي دَبيبٌ ومشيه خَبب
حتى بدا الفجرُ لي وقد طَفقت   تغرَق في فيض نورِه الشهب
عـنـدئـذٍ خـدَّر الأسـى عَـصـبـي   فـنـمـتُ والـنـومُ جـرَّه الـتـعـب
فـطـاف بـي طـائـفٌ لـروعـتـه   يرتجف القلبُ وهو مُرتعِب
رأيـتـنـي قـائـمًـا عـلـى نـشَـزٍ   من ساحل البحر وهو مضطرب
والأفـق مـحـمـرَّة جـوانـبـه   كـأنـمـا الـجـو مـلـؤه لـهـب
وفي عنان السماء قد طلعت   أهـلَّـةٌ فـي إزائـهـا صُـلـب
والأرض قد بعثرت ضرائحها   مـكـشـوفـة لا تـغـمُّـهـا الـتـرب
والموت كالكبش في جوانبه   يَـرعـى نـفـوسًـا كـأنـهـا عُـشُـب
وبـيـن تـلـك الـقـبـور غـانـيـة   يلمع في حرٍّ وجهها الحسَب
لـهـا جـبـيـنٌ كـأنـه قـمـر   تـحـت شـعـورٍ كـأنـهـا الـذهـب

---

[1] الوصب: المرض والوجع الدائم.

ووجـنـة بـالـلـطـم دامـيـة	وسـاعـدٌ بـالـدمـاءِ مـخـتـضـب
قد أذبل الجوعُ وردَ وجنتها	فاصفر وامتصَّ ماءَه اللَغب[٢]
شاخصة الطرف وَهي جاثيةٌ	تحملها دون سوقِها الركب
حاسرةُ الرأس غير ناطقةٍ	إلا بـدمـع لـسـانـه ذَرب
فلحظها فوق رأسها صُعُدٌ	ودمعها تحت رجلها صَبَب
مكتوفة الساعدين منكسر	من حَزنٍ طرفها ومكتئب
قد وتدوا القيد في مُخلخَلها	ومـدَّدوه كـأنـه طُـنـب[٣]
ترى خدوشًا على مُقلَّدها	كأنها في صفيحةٍ شُطب[٤]
وحولها أنفسٌ مُصرَّعة	يسرَح فيها ويمرحُ العَطب
واحتَوَشتْها كلابُ مجزرةٍ	مهترِشاتٌ يهيجها الكلب[٥]
تـنـهـشُـهـا تـارةً وآوِنـة	تنبح من حولها وتصطخب
وفوقها الطيرُ وهي حائمة	تبعد من رأسها وتقترب
بِيض المناقير ذات أجنحة	خُضر وريش كأنه العُطب[٦]
يَقدُمُها طائر قوادمُه	تلمع كالبرق حين يلتهب
تضطرب الأرض والسماء له	إذا غدا بالجناح يضطرب
وقفت أرنو إلى ملامحها	ووجهها بالدموع مُنتقب
حتى تعلمت أن سَحْنتَها	للعرب الأكرمين تنتسب
وبينما كنت ممعنًا نظري	فيها وقلبي كقلبها يجب
إذ هاتفٌ في السماء يهتف بي	كأنه في الغمام محتجِب
يقول لي: إنها «طرابُلسٌ»	تبكي على أهلها وتنتحب

[٢] اللغب بفتحتين: أشد الإعياء.

[٣] قد وتدوا: أي ثبتوا، ويجوز أن يقرأ بتشديد التاء أيضًا.

[٤] الصفيحة: السيف العريض. والشطب: جمع شطبة، كظلمة، وهي طريقة السيف في متنه.

[٥] قوله: «واحتوشتها» أي: أحاطت بها فجعلتها هي في وسطها. والمجزرة: موضع اجتزار الجزور. ومهترشات: متواثبات متحرشات بعضها على بعض.

[٦] العطب، بضمتين، وبضم فسكون: القطن.

وهذه الطير حيث تبصرها   محمد والصحابة النجُب
فتلك رؤياي غير كاذبة   فهل تغيثون أيها العرَب؟
يا شيخ روما ومن لرايته   وتاجه يُنتمى وينتسَب
لستَ ولا قومُك اللئام بمن   تُعرف أمٌّ لمثلهم وأب
وإنما أنتُمُ بنو زمن   إذا ذكرناه تخجل الحِقب
بروميةٍ قبلُ وهي مَبولةٌ   بَالَكمُ الدهرُ وهو مغترب
فعشتُم في الورى سَواسية   لا حَسبٌ عندكم ولا أدَب
ما أوقد الدهر نار مخزية   إلا وأنتم لنارها حطب
أغسِل شعري إذا هجوتكمُ   لأنه من هجائكم جُنُبُ

أنشودة الحرب

نـحـن لـلـحـرب الـعـوانِ ولإدراك الأمـــانـــي
لا نـعُـدُّ الـعُـرس إلا يـوم ضـرب وطـعـانِ
يوم نحسو من دم الأعـ ـداء لا بـنـتِ الـدِّنـانِ
ما صليل السيف إلا عـنـدنـا صـوت الـمـثـانـي
شفَّنا الحبُّ لبيض الـ ـهند لا البيض الحِسان
نشتهي غمغمة الأبـ ـطال لا عزف القيان
نـحـن لا نـفـخـر إلا بـلـسـانٍ مـن سِـنـان
شِيم ينظر من تحـ ـتٍ إليها الفرقدانِ
وبها قد شهد النجـ ـم لـنـا والـقـمَـرانِ
سـلْ بـنـا كـل زمـانٍ سَـلْ بـنـا كـل مـكـانِ
هل بنينا المجد إلاً بالحسام الهُنداوني
كم جلونا غُمَّة الهيـ ـجاء ذات المعمان
بسيوفٍ أضحكت في الرَّ وع وجـه الـحـدثـان
وكماةٍ ثبتت حيـ ـث تزل القدمان
كلُّ رَحب الباع صعب الـ ـملتقى ثبتِ الجَنان
رابطِ الجأش وقور النـ ـفس جوَّال العِنان
حيث شخص الموت في المأ زق بـادٍ لـلـعـيـان

* * *

يا علوج الصِّرب والبُلــ ـــغــار أولادَ الــزوانـــي
لـم يـكـن إيـعـادكـم بـالــ ـحـرب غـيـرَ الـهـذيـان
إنــمــا الــحــرب لــديــنــا مــن تــمــام الــحــيــوان[1]
فـاتـركـوا الإيـعـاد يـا أبــ ـنـاءَ حـمـراءِ الـعـجـان[2]
ودعوا الـحـرب فـلـيس الــ ـحـرب من شـأن الـجـبـان
وتــزيَّــوا يــا مــخــانــ ـيـث بـأزيـاء الـغـوانـي
إنــمــا أنــتــم تــيــوس أولِــعَــتْ بــالــنــزوَان
سـوف تُـرْمَـوْن مـن الـعـر ب بــداءِ الــيَــرقــان
وسـتـدْمُـون بـقـرع الــ ـن أطـرافَ الـبـنـان
وتـذوقـون مـن الـمـو ت الــزُّؤام الأرجــوانـي
حـيـن تـلـقـونَ أسـودًا طـافـحـاتِ الـهَـيـجـان
ذات بـأس يـتـرك الـصـخـ ـر قـريـنَ الـذوبـان
وزئــيــر تــأخــذ الأر ض لـه بـالـرجـفـان
وقـلـوب طـبـعـتْ مـن حـدَّة السـيـف الـيـمـانـي
جـهـلـت فـي غـيـر مـا الـرا يـة مـعـنـى الـخـفـقـان
إنــمــا نــحــن كــرام عــزنــا غــيــر مُــهــان
نـتـفـانـى فـي سـبـيـل الـذَّ وْد عـن هـذي الـمـغـانـي
نـشـتـري الـموت بـنـقـد الـر وح فـي الـحـرب الـعـوان
إذ نـقـيـمُ الـمـوت مِـعـرا جًـا إلـى أعـلـى الـجـنـان
سـوف نـكـسـو الـحـرب ثـوبًـا لــونــه أحــمــرُ قــان
فــتــكــون الأرض مــنــهــا وردةً مــثــل الــدِّهــان[3]
قــد أظــلَّــتــهــا ســمــاءٌ مــن شُــواظٍ ودخــان

[1] قوله: «من تمام الحيوان»: أي من تمام الحياة.
[2] قوله: «يا أبناء حمراء العجان»: أي يا أعاجم، يقال: يا ابن حمراء العجان؛ أي يا أعجمي، وهي كلمة شتم تجري على ألسنة العرب.
[3] وردة: أي حمراء. والدهان: الأديم الأحمر.

تـرسـل الـمـوت عـلـيـكـم فــي شـآبـيـبِ الـهـوان
فـيـقـيـم الـذل فـيـكـم مُـلـقـيًـا كـل جـران[٤]

[٤] الجران: من البعير مقدم عنقه، من مذبحه إلى منحره، ومعنى كونه ملقيًا كل جران: كونه ثابتًا مقيمًا.

الشيطان والطليان

قالها لمناسبة دخول إيطاليا في الحرب العامة.

رأيت إبليسَ عدوَّ البشرْ يخطب في جمعٍ له قد حضرْ
قد لبسَ الوشيَ على قبحه وخضَّب الشيبَ وقصَّ الشعَر
وهو يهنِّي حزبه قائلًا: يا مَن عصى الله ومن قد كفر
اليومَ قد طابت لنا لعنة جاءت من الله بحكم القدَر
واليومَ قد هان الخلود الذي قدَّره الله لنا في سَقر
إذ أمَّة الطليان قد أصبحت أكبر مَن خان ومن قد غدَر
زلَّت إلى العار بها زلة شنعاءُ لا تمحى ولا تغتفر
فهي التي هان بكفرانها كفران من زاغ وأبدى البطر
لو أُلقي الصخر بمخزاتها لانفتَّ من فرط الحيا وانفطر
ولو أصاب البحرَ من عارها لغار منه ماؤه وانحسر

* * *

نحن الشياطين على أننا جئنا من اللؤم بإحدى الكبر
صِرنا إلى جنب بني رومةٍ ننفر من نَافرَنا وافتخر
فلا نبالي اليوم من لامنا في رفضنا آدم أو من عَذر
إذ في بني رُومة عذر لنا يستسلم السمع له والبصر
فهم على الله لنا حُجة في أننا أفضل هذا البشر
وأن يومًا نقضوا عهدهم فيه ليومٌ خِزيهُ مبتكر

فلنتخذه خيرَ عِيدٍ لنا　　نذكر فيه فوزنا والظفر
ولْنجعلَنْه يومَ أفراحنا　　نجني به الأنس ونقضي الوطر

* * *

ثم انثنى الشيخ أبو مُرة　　يرقص فيما بين تلك الزمر
حتى إذا أكمل أشواطه　　رنا إليهم وأحدَّ النظر
ثم دعا من بينهم واحدًا　　مُشوَّهَ الوجه كثيرَ القذَر
وقال: يا خنزَب بادر إلى　　رُومة وادخلها قبيلَ السحر
واذهب إلى «عمَّانويلَ» الذي　　دب البِلى في مجده فاندثر
وقل له: إنَّ أبا مُرَّةٍ　　أخاك يدعوك إلى المستقر
فإن يقل أين؟ فقل: إنه　　في دَرْكةٍ سافلةٍ من سَقر
مقعد خزي كتبوا حوله　　بأحرفِ النيران: أين المفرْ؟

المقطَّعات

وتشمل بعض قصار القصائد

قصر الحمرا

قِفْ على الحمراء واندُبْ مُضرَ الحمراء فيهِ[1]
واسألِ البنيان يُنبئـ ـك بأنباء ذويهِ
ويحدثْك حديثَ الـ ـمجدِ والعيش الرَّفِيهِ
بكلامٍ محزن اللهـ ـجة يُبكي من يعيهِ
فيقول القلبُ: آها وتقول: الأذن إيه[2]
صاحِ لو كان لذا الدهـ ـر حياءٌ يقتنيهِ
ما رمى العُرْبَ أباة الضـ ـيم بالخطب الكريهِ
لا ولا جرَّ بغرنا طة أذيالَ سِنيه
حيث هذا القصرُ أمسى خاليًا من مبتنيه
فازدَرِ الدهر وسفِّهْ كلَّ من لا يزدريه
وإذا كنتَ حليمًا فابْكِ من دهرٍ سفيه

---

[1] مضر: مضاف إلى الحمراء، والمراد بالحمراء الذهب.

[2] إيه: اسم فعل، للاستزادة من حديث أو فعل.

يا ضاربًا بالكمان

يا ضاربًا بالكمانِ يفتنُّ كل افتنانِ
سحرت سمعي وعقلي بصوت تلك المثاني[1]
ضربت لحنًا بديعًا حوى بديع المعاني
فكان شيئًا عجيبًا إذ سرَّني وشجاني

[1] المثاني: جمع مثنى، وهو الوتر الثاني في العود.

يا دهر

أَطَلْتَ يا دهرُ نحسي | متى تجود بسعدي؟
فقد تضاءَل صبري | كما تعاظم وجدي
إذا تعشَّقتُ هندًا | منحْتني وصلَ دعد
وإن تعشقت دعدًا | منحتني وصل هِندِ
أما تعوَّدت إلا | بأن تجود بضدِّ
إني أريد عدوِّي | فهاتِ بعض أوُدِّي
وجُد عليَّ بوصلٍ | فقد رضيتُ بصدِّ
كلا، فإنَّ مقالي | هزل وليس بجد
بل أنت أحقر عندي | من أن تجود وتجدي
إني وإن كنت أشقى | بأوجه منك رُبدِ[1]
رَبَأت عنك بذمِّي | كما ربأت بحمدي[2]
إذ لست أنت بكفئي | ولست أنت بنَدِّي
لو كنت يا دهر حُرًّا | وجئت تخدم عندي
لما ارتضيتك عبدًا | ولا خُويدِمَ عبدِ
وكيف أرضاك عبدًا | وأنت أوغد وَغْدِ؟!

---

[1] ربد: جمع أربد وهو الذي تغير من الغضب.
[2] ربأت: ترفعت عنك.

الحقائق الملقنة

لقنتُ في عصر الشباب حقائقًا ... في الدين تقصر دونها الأفهامُ
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه ... فـإذا الـحـقـائـق كـلـهـا أوهـام

الخطوة الأولى

قدم السيد عادل جبر إلى الرصافي تصويرًا شمسيًّا به صورة ابنه الصغير، لأول عهده بالمشي، وطلب إليه أن يكتب عليه شيئًا من الشعر، فكتب الأبيات الآتية:

يا عمْرَك الله من وليدِ   يسرُّه اللعب بالنُّغَير[1]
لا زلتَ في طالع سعيد   فِدًى لك البدرُ من قمَير

* * *

لم تره مُقلتايَ إلا   أحسست في النفس بانتعاش
في العين أم في الفؤاد أحلى   مَرْآه مُذ قام وهو ماش!

* * *

مشى على الأرض بارتعاش   ثم حبا واضعَ اليدين
إذْ لم يزل لَيِّنَ المُشاش   أفديه بالروح من غصين[2]

* * *

وَيْسَك داود من شُبيل   لوالد منجب هِزبر![3]

---

[1] النغير بصيغة التصغير: البلبل الصغير أو فرخ العصفور.

[2] المشاش: جمع المشاشة؛ وهي رأس العظم اللين.

[3] ويسك: كلمة ترحم وتعجب مثل ويحك.

بـدربـك انـجـاب كـلُّ لـيـل   عـن أبـك الـعـادل بـن جـبـر

وجه نعيم

أسبغ الله نعيم الـ ـحسن في وجه نعيمِ
قمر أغنى عن الإشـ ـراق في ليلٍ بهيمِ
علَّم الناس صحيح الـ ـحُبِّ بالطرف السقيمِ
يَرجع السحر بعينيـ ـه إلى عهد الكليمِ

المغربي

مما كتبه تحت صورة شمسية له أهداها إلى العالم النِّحرير والكاتب الشهير، الشيخ عبد القادر المغربي.

إلى المغربي الحبر أهديت صورتي	تُذكِّرُه مني صداقةَ صادقِ
وتؤذنه بالودِّ وهي خيالةٌ	ورُبَّ خيال مؤذِنٍ بالحقائق
وإن لعبد القادر الفضل كله	بما أوضحت أقلامه من دقائق
فتى العلم زانته العلوم بنورها	كما زانها منه بحسن الخلائقِ

صفا لك

ومما كتبه تحت صورة فتوغرافية أيضًا، أهداها إلى الأديب الكبير إسعاف النشاشيبي المقدسي، قوله:

صَفا لك فيَّ يا إسعاف وُدٌّ	صميمٌ ما لصحته اعتلالُ
فخُذ تمثالَ خِلٍّ ذي وِداد	يمثِّل صدقَه لك ذا المِثال
خيال حقيقة ولربَّ شيء	يدلُّ على حقيقته الخيال
ولست ممازِقًا في الودِّ خِلِّي	إذا مَذقت مودتها الرجال[1]
ومثلك من تجادله القوافي	ويُحمد في فضائله المقال

[1] مذق: خلط.

إليك عادل

ومما كتبه أيضًا تحت صورة شمسية أهداها إلى صديقه الفاضل عادل جبر المقدسي، قوله:

إليك عادلَ جبرٍ رَسْمَ ذي مِقَةٍ   من أصدقائك حَيَّاد عن الفَندِ[1]
لو تدرك الشمس في القلب من شغف   لصورتْ لك ودًّا جَلَّ في خلدي
لكنها خُلقت عن ذاك عاجزة   فصوَّرتْ لك مني ظاهر الجسد
فاقبله تذكرةً في الدهر باقية   بقدر حبيك حتى آخر الأبد
فأنت أكرم من صادقته خلقًا   وأبعد الناس عن غِلٍّ وعن حسدِ

[1] المقة: المحبة. والفند: الكفر بالنعمة والكذب.

الكتاب

واستعار وهو في القدس كتابًا من إسعاف النشاشيبي، ثم أعاده وقد كتب عليه هذين البيتين:

آل النشاشيب إن الله أسعفكم	على التقدم للعليا بإسعاف
ذاك الذي أشرفت بالعلمِ همته	على سماء المعالي أي إشراف

من هذا؟

مُـخلِص مُـنكشـف إخـلاصُـهُ عن رياء فيه تـخـفيـه الأنَـانَـهْ
وأمـيـن قـد جـرت أطـمـاعـه بسيول الغش في وادي الخيانهْ
لـو درت كلُّ خـيـانـات الـورى بـالـذي فـيـه تـسمَّـت بـالأمـانـهْ
تـركـب الـفـحـشَ رُجـولـيَّـتُـه بـعِـنـانَـيـنِ: نُـعُـوظِ وعَـنـانَـهْ

من مطبخ الدستور

معربة عن التركية بتصرف، للشاعر التركي توفيق فكرت.

كلوا يا أيها السادَه　　كما تنكرهُ العادَه
كلوا من مطبخ الدستو　　ر أكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعا　　ء حتى تنفِدوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس　　فإن الناس مُنقاده
كلوا لا تخشوا الدهر　　فأمُّ الدهر قوَّاده

الوزارة عندنا

إن الوزارة — لا أبا لك — عندنا ثوبٌ يفصَّلُ في معامل لندَنا
لا يرتديه سوى امرئٍ أضحى له طبعًا ودادُ الإنكليز ودَيْدَنا

عبد اللطيف باشا المنديل

عبدُ اللطيف بفضله جعل الورى　　أسـرَى مكـارِم أسـرة الـمـنـديـل
ورث المكارم عن أبيه وجدِّه　　فبنى أثيلَ المجد فوقَ أثيل
في الوجه منه مَلامحٌ عربية　　يدعو توسُّمها إلى التبجيل
في البصرة الفيحاء مُذْ لبَّيْته　　طُنبَين من بأسٍ ومن تنْويل
فطريده فيها أذلُّ مُطرَّد　　ونزيلهُ فيها أعزُّ نزيل
حُرُّ الضمير مؤيَّد بفطانة　　يرمي برأي في الأمور أصيل
إن قال حقًّا قاله بصراحة　　لم يخشَ لومة لائم وعذول

إلى السباعي

وقال وهو في دمشق جوابًا عن كتاب أتاه به ابن سليم السباعي الدمشقي من أبيه، يتضمن أبياتًا من الوزن والروي:

إلى الرجل الكريم إلى السباعي كتابُ أخٍ لعهد أخيه راعِ
فتًى أحببته قبل التلاقي وكم حُبٍّ تولَّد من سَماع
ولكني رأيت له سليلًا كريمَ سَجِيةٍ وطويل بَاعِ
ويُحسب من دماثته جبانًا على ما فيه من خُلق الشجاع
فقلت وقد رأيت به إباءً كذاك تكون أشبال السباعي
فشكرًا يا سليم على نظيمٍ بعثتَ به لمُغترب مُضاع
فآنسَ غربتي وأسَا جروحي ونفَّس كربتي وشفى صداعي
وما أنا للثناء بمستحقٍّ وإن أعطيت مملكة اليرَاع
ولكنْ حسنُ ظنك بي دليلٌ على ما فيك من كرم الطباع
فدمتَ بحسن سعيك لِلمعالي قريرَ العيْن مشكور المساعي

عفو بعد نفي

أنشدها في عمر صالح أحد أصدقائه في القدس، وذلك عند قدوم عمر من عكا بعد أن نفي إليها سياسة.

أحرزت يا عمرُ المفاخر كلَّها فالبسْ من العلياء ما تختارُ
أما البلادُ فقد حَميتَ ذِمارها لـمَّا أضاع ذمارها الأشرار
ولقد رعيتَ عهودها فتُنوقلت في الناس عن رعياتك الأخبار
فإذا جرى ذكر الحميَّة بعد ذا أثنت عليك مواطنٌ وديار
ولئن نَفَوْك فإنَّ نفيك لم يكن عارًا عَليْكَ وأين منك العار؟!
بل قد نفوك لأنْ أبَيْتَ هوانهم والنفي من دار الهوان فخار
هاجت لمنفاكَ الحفائِظُ فاغتدت كالبحر هاج بلجُّه تيارُ
شرفٌ لِعَكَّة أن رأت بك ماجِدًا بعلاه تفخر حِمير ونِزار
فالقدس حاسدة عليك ربوعَها والمسجد الأقصى عليك يغار
ولقد عفوا وهم الجُناة وإن عفا عنك المسيء فعفوه استغفار
ندموا فسُمِّيت الندامة عندهم عفوًا وذلك منهم استكبارُ
أهلًا بمقْدَمك الذي بسروره سِيءَ اللئامُ وسُرَّتِ الأحرار

الترامويُ في الآستانة سنة ١٩٠٩

مَرَّ الترام فقيلَ: اركب، فقلت لهم: ذلَّ امرؤٌ كان مركوبًا له الكسلُ
أما ترى وضعافُ الخيل تسْحبه كأنه جَبلٌ في الأرض ينتقلُ
يحكي السُّلحفاة في عَرض الطريق وقد أمستْ بها في التأنِّي يُضرب المثلُ
ترى به أوجُه الرُّكاب عابسة من فوقها ضجر من تحتها مَلَلُ
في جانبيه وفي أعلاه قد كَتبوا بيتًا تمثل في إنشاده الأوَلُ
«قد يدرك المتأنِّي بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ»

لقيتها في الطريق

لقيتها في الطريق عابرة   يَهصِرُ من قدِّها تبَخْترُها
أعجبَها مَنظري وأعجبني   بالحسْنِ عند اللقاء منظرها
فصار قلبي بالحبِّ يأمرني   وقلبها بالغرام يأمرها
وحين مَرَّت والشوق يُسكرني   بخمرة تارة ويُسكرها
لَفتُّ جِيدي أرى أتنْظرني   والتفتت لي ترى أأنظرها
فقلت، والشوق فيَّ ملتهبٌ:   إن عَذرتني فسوف أعذِرها

الدين والوطن

لا يخدَعنْك هِتاف القوم بالوطن فالقوم في السر غير القوم في العَلَن

أحْبُولة الدِّين ركَّت من تقادمها فاعتاض عنها الورى أحبولة الوطن[1]

فما لهم غير صيد المال من غرضٍ في اليوم والغد والماضي من الزمن

لم يقصدوا الخير بل يستذرعون به رميًا إلى الشر أو قصدًا إلى الفتن

فإن تهادن قوم فانتظر شغبًا إذ ليس هدنتهم إلى على دخن

[1] رُك: ضعف ورق.

الحياة والأذاة

وَطِّن حياتك للمكارِهِ وارتقبْ   كدَر المَواردِ إن صفا لك مَشرَبُ
كـل الأمـاكـن لـلأذاةِ مَـظـنـة   حتى السماءُ تدِبُّ فيها العقرب

يا أيها المفتي

قالها لما أفتى بكفره بعض من يدَّعي العلم في بغداد؛ وذلك لإنشاده قصيدة «في مسرح التمثيل» أنكر فيها تشديد القوم على النساء في الحجاب:

يا أيها المفتي بتكفيرنا	مهلًا فقد جئت بأمر نَكِيرْ
بأيِّ جهل فيك مستأصل	علمت يا جاهل ما في الضميرْ
وذاك أمرٌ ليس تنتاشُه	إلا يد الله العليم القدير[1]
لو كنت ذا مجد لأصْلَتْكَ مِن	هجائنا، الأيام نار السعيرْ
بل أنت وَغْدٌ لا تبالي الهِجا	وهكذا كل لئيم حقيرْ
وإنما تغتاظ من هجْوِنا	بقدر ما تغتاظ منه الحميرْ

[1] انتاشه: جذبه واستخرجه.

في معرض الشكر

لقد جرَّبت أصدق أصدقائي فلم أرَ قط أصدق من صَلاح
فتًى أما نداه فصْوبُ مزن وأما خلقه فشذا الأقاحي[1]
بـه آل اللـبـابـيـديِّ بـاهـوا كما باهى بهم هو في السماح
أشدُّ من الخِضمِّ يداه مَدًّا وأقذف منه بالدُّرر الصحاح
نقيُّ العارضَين له جبينٌ أغرُّ كأنه فلق الصباح[2]
سديد الرأي طلق الفكر حرٌّ طلوب للعلا سهل النجاح
كريم ما اقترحت عليه إلا وقد غلبت فواضله اقتراحي
أيا مَنْ شدَّ في بيروت أزري وآنسَ غُربتي وشفا جراحي
سأبلغ فيك غاية كل شكر وإن قصَّرت نحوك بامتداحي

---

[1] الصوب: المطر. والمزن: السحاب الممطر.

[2] العارضان: صفحتا الخد.

عند لعبة البيلارد

وفي الألعاب لم ترَ قط عيني كمثل اللعب بالأُكَر الثلاثِ

تجول بمستطيل الشكل عالٍ لطيف صُنعهُ حسنِ الأثاث

فبيضاوانِ تندفعانِ جريًا إلى حمراءَ بادية اللَّهاث

ينال الضرب إحداها فتجري لضرب الأخريين بلا لَباث[١]

فتنبعث الثلاث مُدحرجاتٍ وقد حصل اصطدام بانبعاث

يُدحرجهنَّ أغْلِمة ظِراف نسيتُ بهم مغازلة الإناث

بأيديهم عِصِيٌّ مُشرعاتٌ مهيأة لضرب واحتثاث

فكان إذا انحنى للضرب منهم غلام هاج شوقي وهو جاث

وربَّةَ ضربةٍ لمَّا تَثنَّى ليضربَها تثنَّى بانخناث

وكانت توبة لي عن مُجونٍ فعادت من هواه إلى انتكاث

فلستُ وقد تجدَّد لي غرامٌ أبالي لوم ألْسِنَةٍ رِثاثِ

[١] اللباث، بفتح اللام: اللبث والمكث.

السينما الوطني

قالها لما أنشئ السينما الوطني ببغداد.

لو جعلنا كل شيء وطنيا	لقطفنا ثمر المجد جنيًّا
ولعشنا اليوم في أوطاننا	مستقلين بها عيشًا رَخِيًّا
ولأضحى نابِهًا خامِلُنا	ولأمْسى كل ذي فقر غنيًّا
يا بني بغدادَ هل من يقظةٍ	لأمور تكسب القوم رُقيًّا
إن بغداد قضت واجبها	مذ أرتْكم سنماها الوطنيًّا
سينما أظهر للرائين من	صور الآداب ما كان خفيًّا
ولقد صَوَّرَ في رُقعته	عِبرَ الأيام تصويرًا جليًّا
ولقد قرَّب للأنظار من	خطط البلدان ما كان قَصيًّا
يبهج الناظر فيه أنه	يُقرأ المكتوب فيه عربيًّا
يا بني بغداد لا عذر لكم	إن أتيتم بعد هذا الأجنبيًّا

عند نشر المعاهدة

نشروا المعاهدة التي في طيِّها قـيـدٌ يَـعَـضُّ بـأرجـل الآمـالِ
قد أبـلـعونـا حَبَّة استـعـبادنـا لـكـن مـمـوَّهـة بـالاسـتـقـلالِ
والـعـهـد بين الإنـكـليز وبيـنـنـا كالعـهـد بين الشاة والرئبال[1]
من ذا رأى ذئبَ الذئاب مصافحًا بـتـوددٍ حـمـلًا مِـن الأحـمـال؟!
لكنَّهم خافوا انفكاكَ قيودنا فـاسـتـوثـقـوا مـنـهـنَّ بـالأقـفـال
كتبوا لـنـا تـلـك الـعـهـود وإنـمـا وضعوا بها قُفلًا على الأغلال
شَـلَّـت أكـف مُـوَقـعـيـهـا إنـهـم حَـلـت عـلـيـهـم لـعـنـة الأجـيـال
هَبْ أنهم أَمِنوا انفكاك قيودنا أفـيـأمـنـون تـقـلُّـب الأحـوال؟!

[1] الرئبال: الأسد أو الذئب.

وزراء المعارف عندنا

ويحَ المعارف لا يَستوزرونَ لها إلا الذين لوزْرِ الجهل قد وزروا
فأيَّ حرمةِ علمٍ هم قد انتهكوا بـذا وأيَّ ذمـام لـلـعـلا خَـفـروا!
هَبْهم قد احتقرونا في مواطننا سـيـاسـة فـعـلامَ الـعـلـم يـحـتـقـر؟!
يا قوم ما بالكم لا تغضبون له أليس فيكم فتًى للعلم ينتصر؟!
تـالـلـه قـد أنـزلـونـا شـر مـنـزلـة لا الزنج ترضى بها منهم ولا النَّوَرُ

قيصر معلوف

في آل معلوفَ الكرام خلائقٌ غُرٌّ يضيء بها الزمان الأكدرُ
ولهم مآثر في البلاد جليلة أيدي المُطاولِ عن علاها تقصر
يأبى الزمان دَوالَ دولة مجدهم ما دام فيهم ذو المكارم قيصر
رجل رأيت به الفضائل تعتلي والمجدَ ينمو والمعالي تكثر
وصحبت في بيروت منه مهذبًا ما إن تصور مثله المتصوِّر
صغرت به عندي الكرام لأنه في كل مكرمة أجل وأكبر
إني لأشكره على إفضاله والحر للحر المهذب يشكر
أما حليلته الفتاة فإنَّها بدر بآفاق الجمال منوَّر
ما أحسن الحُسنين إذ جُمعا بها: نفس مهذبة ووجه أزهر!

إلى أمين كاملة

وكتب له أمين كاملة أحد أدباء بيروت فأجابه:

حي الأمين الذي طابت مغارسه في منبت النبعِ لا في منبت الغرَب[1]
مشهورة في رُبا لبنان غُرته من آل كاملة صُيَّابةِ العرب[2]
قد جاء بالشعر يطريني فقلت له: شكرًا لفضلك إذ أحسنت ظنك بي
أوسعتني منك ترحيبًا وتكرمة لمَّا حططت لديكم رحْل مغترب
وتلك شيمة من كانت خلائقه مصوغة من صميم المجد والحسب
قل للألى يقصدون اليوم تخطئتي مستغربين إلى لبنان منتسَبي
من مَتَّ منكم إلى قوم بنسبته فقد مَتَتُّ إلى لبنان بالأدب
ونسبة العلم والآداب لحمتها أقوى لمنتسب من لحْمَة النسب
أليس لبنان بالآداب مشتهرًا من العلوم وقول الشعر والخُطب؟
فإن نزلت بوادٍ منه منتجعًا فقد نزلت بوادٍ ممرعٍ خصب

---

[1] النبع: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر ضعيف.

[2] صيابة العرب: خيارهم.

إلى عبد الوهاب النائب

أنشد حضرة العلامة عبد الوهاب أفندي النائب في بعض مجالسه ببغداد البيت الآتي ولم يكن الرصافي حاضرًا:

إن فاخرت بلدةٌ يومًا بشاعرها فإن شاعرنا في الشرق «معروفُ»

فبلغ ذلك الرصافي، فكتب إليه الأبيات الآتية:

قل لعبد الوهاب النائب العلَّا مة الحَبْر مُنجب النجباءِ
إن أكن شاعرًا فمثلك من يُد عى ببغداد أعلم العلماءِ
أيُّ فضل للشعر لولا علوم قوَّمت من قناتِه العوجاء؟!
إن بين الشعر المقول وبين الـ ـعلم بَونًا كأرضنا والسماء
ما ادَّعى الشعر عالم قط لكن يدَّعي العلم أشعرُ الشعراء

إلى أولي الأمر

وقال يخاطب رجال الحكومة ببغداد سنة ١٩٣٧:

يا مُبعديَّ بظلم عن مناصبكم وقاطعين إلى ما أبتغي طُرُقي
علمتُ كل خفيٍّ من ضمائركم وما علمت الذي ترضون من خلق
ماذا يوافقكم من شأنِ صاحبكم حتى يكون لديكم حائز السبق؟
إن كان عقلٌ فإني عاقلٌ فطِنٌ أو كان حمق فعندي أحمق الحُمق
فجرِّبُوني تفوزوا عند تجربتي بما تريدون من طيشٍ ومن نزَق
وإن أبيتم سوى مَن عِرضُه دَنِسٌ فلست معْكم على شيء بمتفق
لا أبعد الله غيري عن مناصبكم إني بتدنيسِ عرضي غير مرتزق

المصور البارع

إن فنَّ التصوير قد صار فيه أسعدٌ بارعًا بغير نظير
حمل الشمسَ للأنام بكفٍّ وبأخرى صناعةَ التصوير
وأتى يُبدع البدائع للنا س بفنٍّ من الرسوم خطير
لم يفته من صورة المرء حتى ما بها من علائم التفكير
فتراها كأنها ذات فكر هي عنه تهمُّ بالتعبير
وترى عند حزنها ذات حزن وترى في السرور ذات سرور
لك يا أسعد الفخار ولا زلـ ـت جديرًا بالفخر جدَّ جدير

الأغنياء والفقراء

أرى أغنياء الناس كالعُمْي لم يرَوْا　　شقاء بني غَبراءَ من كل بائس[1]
كأنَّ الغنى والفقر نور وحندسٌ　　ولم يرَ من في النور من في الحنادس[2]

[1] الغبراء: الأرض، وبنوها الناس.

[2] الحندس: الظلام الشديد.

الجهل فضاح

ما أقبحَ الجهل! يُبدي عيبَ صاحبه   للناظرين وعن عينيه يخفيهِ
كذلك الثُّوم لم يشمَمه آكله   والناس تَشتمُّ نتْنَ الريح من فيهِ

حمام الوزارة

ألا بلِّغوا عني الوزير مقالةً له بينه لو كان يخجل توبيخُ
أراك بحمَّامِ الوزارة نُورةً وأما جَنابُ المستشار فزِرنيخُ

رخص المناصب

نحن قومٌ من الدراويش نَغنَى عندنا عن مدارس بِتَكيَّهْ
رَخُصت عندنا المناصب حتى قد شرَوها بسبُحةٍ وبلحْيَهْ

الناس والملوك

عجبت للناس في الدنيا فحالتهم مع الملوك صريح العقل يَجحدُها
إن الـمـلـوك لـكـالأصـنـام مـاثـلـة الناس تنحتها والناس تعبدها

منزلة المعلم في المجتمع الإنساني

إذا كان جهلُ الناس مَدْعاة غيِّهم فليس سوى التَّعليم للرشد سُلَّمُ
فلو قيل: من يستنهض القوم للعلا إذا ساء محياهم؟ لقلت: المعلم
معلمُ أبناء البلاد طبيبهم يداوي سَقام الجهل والجهل مسقِم
وما هو إلا كوكب في سمائهم به يهتدي الساري إلى المجد منهم
فلا تبخسنْ حقَّ المعلم إنه عظيم كحق الوالدين وأعظم
فإن له منك الحجا وهو جوهر وللوالدين العظمُ واللحم والدم[1]
ألا إنما تعليمُنا الناسَ واجبٌ وإنَّ على الجهَّال أن يتعلموا
وما أخذ الله العهود على الورى بأن يعملوا حتى قضى أن يُعلموا

[1] الحجا: العقل.

أم سري

زار الرصافي صديقه السكاكيني في القدس فارتجل عنده هذين البيتين يخاطب بهما قرينته السيدة سلطانة:

أَأُمَّ سَـريٍّ أنـت سـلـطـانـة الـبَـهـا أطاعك منه ما عصى الناس أجمعا
ولم يرَ نقصًا في مُحيَّاك ناظري سوى أن كلَّ الحسن فيه تجمَّعا

الحزب الحر العراقي

لما نفي بعض أعضاء الحزب الوطني وحزب النهضة، وسدت نوادي هذين الحزبين، قال الرصافي يخاطب الحزب الحر المعتدل:

قولوا لحزب تسمى الحرَّ معتدلًا: هل أنت من بعد نفي القوم معتدلُ؟!
وهل لما حلَّ بالحزبين باكية عيناك أم أنت مسرورٌ به جَذلُ؟
تالله ما أنتَ حرٌّ في مطالبةٍ وإنما أنت للحكام مُعتمِل[1]
قد احتملتَ من التاريخ لعنته لله دَرُّك ماذا أنتَ محتمل؟!

[1] معتمل: مصطنع.

قال ذو الحزب

وبلغ الرصافي أن رئيس الحزب الحر قال إذ سمع بهذه الأبيات: «نحن لا نبالي بمثل هذه الأقوال الفارغة»، فقال الرصافي:

قال ذو الحزب إذ أتاه مقالي:	نحن لسنا بما يقال نبالي
صادق في الذي ادَّعاه وأنَّى	يَألم المَيْتُ من جروح النضال؟!
إنما تجزع الكرام من الذَّمِّ	وتخشى الأمجاد لذع المقال

المسلم المصلح

قالها في صديقه الشيخ عبد القادر المغربي، أحد أركان المجمع العلمي بدمشق، وأنفذها إليه من زحلة.

للمغربيِّ بأرض الشام منزلة	ممتازة في نوادي العلم والأدبِ
المسلم المصلح الهادي بفكرته	إلى الحقيقة أهل الشك والرِّيب
قد غاص في لُجَجِ الأديان مجتهدًا	فاستخرج الدرَّ لم يعبأ بمَخْشلب[1]
وجال جولةَ حبْرٍ في منابتها	فاستخلص النبْع حيَّادًا عن الغرَب
لو سار كلُّ بني الإسلام سيرته	لما شكوْا في حياةٍ سوءَ منقلَب
أو جال كل أولي الأديان جولته	لما تكوَّن باسم الدين من شَغَب
إني لأمدحه بالحقِّ عن ثقة	والمدح بالحق غير المدح بالكذبِ

---

[1] المخشلب والمشخلب، بفتح الميم: كلمة عراقية نبطية، وهي اسم لما يشبه الدر من حجارة البحر، يعمل منه خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ، وهو أردؤه وأقله قيمة.

نجل عبد اللطيف

كتب عبد اللطيف باشا المنديل إلى صديقه جناب المستر «منك» مدير الكمارك في بغداد، كتابًا وصف به له حالة ابنه الصغير، وأنه بلغ من العمر أن صار يشير بيده، ويتكلم بكلام لا يفهمه إلا هو، فطلب المدير المشار إليه إلى الرصافي أن يقول على لسانه أبياتًا في المعنى، فقال:

نجلُ عبد اللطيف وهو نجيبٌ كيف لا يُظهر النجابة طفلا؟!
إن يكن غيرَ واضح القول لفظًا فكلام النجيب يُفهم عقلا
كلما قال أو أشار فمعنى قوله أنه عَلاءً سيَعلى
إن آل المنديل قوم كرام قد زَكَوا في الأنام فرعًا وأصلا
نجلُ آل المنديل غيرُ عجيب أن يكون النجيبُ طِفلًا وكهلا
أَيها النجل عشْ لتجديد مجدٍ قد بَنته لك الأوائل قبلا

عبد الوهاب النائب

عَـلـيَّ لـربـنـا الـوهـاب أنـي
أواصـل شـكـرَه وأديـم حَـمـدَهْ

وذاك إذا يـعـامـلـنـا بـلـطـف
فيشفي «النائب» المفضال عبده

لِـيرشـدَنـا إلـى سـبـل الـمـعـالـي
فنقصد في ابتغاءِ المجد قصده

هـو الـحَـبرُ الـذي وجـدَت مُـناهـا
بـغـاة مـكـارم الأخـلاق عـنـده

تـردَّى الـمـجـد مـن أدب وعـلـم
وطرَّز بـالـمـعـالـي الـغـر بُـرده[1]

يـوَدُّك فـي الـرخـاء ودادَ حـر
ولا يـنـسـاك إن دهـمـتـك شِـده

أطـال بـقـاءه الـرحـمـنُ فـيـنـا
وأكـثـر فـضـلـه وأدام سـعـده

[1] تردى المجد: اتخذه رداء.

إلى أمير الكمنجة

صاحِ قم بي إلى أمير الكمنجه   أصدق النابغين في الفن لهجه
قـم بـنـا نـسـتـمـع إلـى نـغـمـاتٍ   تـمـلأ الأنـفـس انـتـعـاشًـا وبـهـجـه
ولحون كالصبح إن هي فاضت   تـغـرق الـروح من سـرور بـلـجـه
ذاك سامي الشّوَّا الذي قد سما في   فـلـك الـفـن بـالـغًـا مـنـه أوجـه
هـو فـي فـنـه الـرفـيـع إمـامٌ   مُوضـح لـلأنـام منـه الـمـحـجَّـه[1]
كل من سار في طريق الأغاني   يَـقـتـفـي إثـره ويَـنـهـج نـهـجـه
مـا أمـرَّ الأنـامـل الـخـمـس بـالأو   تـار إلا ألـقـى عـلـى الـقـوم رَجـه
نغمة منه تجعل القوم كالبحـ   ـر يموجون موجة بعد موجه
ويـمـيـلـون بـاتِّـجـاهٍ إلـيـه   أيـنـمـا مـال ضـاربًـا أو تـوجـه
بـطـل الـفـن هـزَّ رمـح ابـتـداعٍ   راكزًا فوق هضبة المجد زُجه[2]
وبـكـأس الـفـخـار أسـقِـيَ صِـرفًـا   من كـمـال تـعـوَّدَ الـنـاسُ مزجـه
فـلـتـفـاخـر بـلاد يـعـرُبَ فـيـه   سـادة الـفـن فـي بـلاد الـفـرنـجـه
يا أميرًا في الفن صار مليكًا   حامل الصولجان وهو الكمنجه
شـهـد الـلـه أن كـلَّ حـيـاة   لـم تـزنـهـا بـدائـع الـفـن سـمـجـه

[1] المحجة: جادة الطريق؛ أي وسطه.

[2] الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح، وفي الكلام استعارة لا تخفى.

إلى محمد الرضا

إنـي لأشـكـر مـن مـحـمَّـدٍ الـرضـا ... شـعـرًا ذكرت به زمانًـا قد مضـى

شعـرًا غدوتَ علـى «جرير» فاخـرًا ... فيه ورحت عن «الفرزدق» معرضا

قـد دبَّـجـتـه يـراعـة لـمـحـمـد ... أخذت تقيم من القريض مُقوضا

هـي فـي الـتـفـنـن ريشـة لـمصـور ... ولدى القِراع هي الحسام المنتضى

لو كان في كف «الرضيِّ» نظيرها ... حسد الرضيَّ بها أخوه المرتضى

وكـأنـمـا يـومُ الـفـخـار هـديـرُهـا ... صوتُ الرُّعود لها دويٌّ في الفضا

وكـأنـمـا يـومُ الـرثـاء صَـريـرُهـا ... صوت الحمام ينوح في وادي الغضا

أمـا ذكـاء ابـن الـخـطـيـب «مـحـمـد» ... فـشـبـيـه بـرق لاح أو نـجـم أضـا

وافـت جـواهـره عـلـى يـد «جـوهـر» ... وبـهـا رأيـت مُـذهَّـبًـا ومـفـضـضـا

يـا أيـهـا الـرجـل الـذي بـكـتـابـه ... لـلـودِّ مـنـي بـالـقـريـض تـعـرضـا

إنـي لأشـكـر مـنـك خـلًّا فـاضـلًا ... يُدنـي أحبته ويُقصـي المبغضـا

وقريحـة مـا زدت فـي استنباطها ... إلا وزادت بـالـقـريـض تـفـيُّـضـا

ولـقـد نـظـرتَ إلـيَّ مـنـك بـنـظـرة ... فيـهـا الـثـنـاء وهـكـذا عـيـن الـرِّضـا

فخامة الرئيس ووسام الرافدين

أنشدت في الحفلة التي أقيمت في البلاط الملوكي، لمناسبة ما أنعم به جلالة الملك على فخامة رئيس الوزراء من وسام الرافدين من الدرجة الأولى، وذلك يوم ٢٦ آذار ١٩٣٣.

تِهْ يا وسامَ الرافدين بصدرِ من   هو في العُلا للرافدين وسام
نوري السعيد أبو صباح من به   سعدَ العراقُ فثغره بسام
قد أنعم الملك المطاع به لكي   يزدانَ فيه وزيرُه الضرغام
يا حبذا ذاك الوزيرُ وحبذا الـ   ـملك المطاع وحبذا الإنعام
زَهِي الوسام بصدرِه فكأنه   تاجُ المليك يحفه الإعظام
صدر إذا الخطب ادْلهمَّ تلألأت   فيه السجايا الغر والأحلام
وإذا تنهَّدت الصدور لحادث   بدت الشجاعة منه والإقدام
ليس التفاخر بالوسام يهمُّه   ولوَ انَّه افتخرت به الأقوام
بل همُّه أن تستقل حكومة   ويتم في أمر البلاد نظام
فعلى البلاد من الرئيس تحية   وعلى الرئيس تحية وسلام

في بيروت

في مجمع كوكب الشرق

ومجمعٍ جامعٍ ضاع الغناء به ... ضياع شعريَ في قومي وأوطاني
تلاطم الموجُ فيه وهو من لغطٍ ... حتى أصمَّ عن الألحان آذاني
فظلت أسمع بالعينين فيه وقد ... يُغني عن الأذن طرف للفتى راني
كلًّا تراه على عزْف القيان غدا ... بالنرد يلعب مشغولًا مع الثاني
فللمعارك بين القوم فرقعة ... كالملح يُحرَق مذرُورًا بنيرانِ
كان الغناء كرأيي حين أعلنه ... وسامعوه كقومي عند إعلاني

نهاد قرة الأعين

إلى حضرة الفاضل نور الدين بيهم

كان مذ قال واهبُ الأولاد   لـــنـــهـــادَ كُـــنْ
فاستمرَّت بحمدها المُزواد   تـــنـــطـــق الألـــســـن
لاح بدرًا له بأفق النادي   طـــلـــعـــة تـــحـــســـن
أوْلد النور منه للوُفاد   بـــهـــجـــة الأعـــيـــن
نهر بيروت منه بالميلاد   فـــاخـــرَ الأردن
هو في آل بيْهم الأمجاد   نـــبـــعـــة الأغـــصـــن
كان عيدًا لهم من الأعياد   فـــي مـــدى الأزمـــن
إن تاريخه «حياة نهادِ   قـــرة الأعـــيـــن»

ذات الشعر الأبيض

ومـلـيـحـة أوصـافـهـا تدعو القلوب إلى التصابي
بـيـضـاءَ أمَّـا شـعـرهـا فـبـلـون أنـوار الـشـبـاب
قـد لاح يـضـرب لـلـبـيـا ض وذا من العجب العجاب
كـشـعـاع أنـوار الـنـجـو م إذا تـلألأ بـاضـطـراب
يـمـتـد فـوق جـبـيـنـهـا كضياء منقضِّ الشهاب
فـكـأن غـرةَ وجـهـهـا بـدر تـكـلـل بـالـسـحـاب
أو قرص شمس قد تجلَّل بـالـرقـيـق مـن الـضـبـاب

رقة قولي

وغرت رقتي في القول قومًا فعادَوني وكنت لهم صديقَا
وما علموا بأن رقيق قولي يكون لدى التماحك مِنجنيقَا
وما موج البحار يكون إلا لكون الماء سَيالًا رقيقَا

جو بيروت

جو بيروت في الشتاء دفيء   مانعٌ من نوازل الأسقام
فإذا ما تواتر الغيث فيه   خلتني في مغاسل الحمام
وعلى القرب من مغانيه جوٌّ   ثغره من ثلوجه في ابتسام
يجعل الجسم في ارتجاف فيمسي   فيه نطق الفصيح كالتمتمام
وكذا الحسن في الأماكن بالأضـ   ـداد تبدو أوصافه للأنام

على مقابر الشهداء

حيِّ هذه القبور إن كنت حيًّا عاملًا بالفضيلة الغراء
إنما الميت كل من لا يحيِّي باحترام مقابر الشهداء
واحترامُ الأموات حَتْمٌ وإن كا نوا بعادًا فكيف بالقرباء؟!
لا تقل هذه الرجام قبورٌ بل تماثيل نجدة وإباء
إنما هذه القبور ترينا كيف حبُّ الأوطان في الأحياء

منيرة[1]

هل سمعتم «منيرة» مذ أفاضت ... من بديع الغناء في كل فنِّ
مذ أقرَّت برقصها كل عين ... واسترقَّت بصوتِها كل أذن
رقصها يُرقِص القلوبَ على أن ... غناها عن المزامير يغني
هي إن أقبلت بثنية عِطْفٍ ... أقبلت بالمهَفهف المطمئن
وهي إن أدبرت بهزَّة رِدْفٍ ... أدبرت بالمرجرج المُرجَحِنِّ
خلق الله صوتَها العذب كيْما ... يعرف الناس كيف حُسن التغني
وبراها ممشوقةَ القدِّ كيما ... يعرف الناس كيف حُسن التثني
بنت فنٍّ غنَّت لنا فسقَتْنا ... من أفانين لحْنها بنتَ دَنِّ
سحرتني مذ أقبلت تتثنَّى ... فكأني مذ أقبلت لستُ منِّي

[1] هي مغنية عراقية.

يطلب جلنار

وظبيٍ جاء يطلب جلَّنارا يحاكي لونَ وجنتِه احمرارَا
وقد ملكَ الخلائقَ ملك أسْرٍ وأوثقَ في قلوبهم الإِسارا
بقدٍّ أخجَل السُّمرَ اعتدالًا وطَرْفٍ أوجَل البيض اقتدارا
فقلت: وما الكليم سوى فؤادي وقد آنستُ في خديه نارا؟
فديتكَ كيف تطلب جلَّنارًا وفي خديكَ أبصِر جلَّنارا؟

اسمعي لي كلاما

اسمعي لي قبل الرحيل كلاما ودعيني أموت فيك غَراما
هاك صبري خذيه تذكرةً لي وامنحي جسميَ الضَّنى والسَّقاما
لست ممن يرجو الحياة إذا فا رق أحبابه ويخشى الحِماما
لكِ يا ظبيةَ الصريمة طرفٌ شدَّ ما أوسع القلوب غَراما![1]
حُبَّ ماء الحياة منك بثغرٍ طائرُ القلب حول سمْطَيه حاما[2]
شغل الكاتبين وصفك حتى لا دُوِيًّا أبقَوْا ولا أقلاما
كلما زاد عاذلي فيك عذلًا زدت في حسنك البديع هُياما
أَفأحْظى بزَوْرةٍ منك تشفي صَدع قلبي ولو تكون مناما؟
ربَّ ليل بالوصل كان ضياءً ونهارٍ بالهجر كان ظلاما
قد شربتُ السهاد فيه مُدامًا وتخِذتُ النجوم فيه ندامى
ما لقلبي إذا ذكرتك يهفو ولعيني تُذري الدموع سِجاما؟!
إن شكوت الهوى تلعثمتُ حتى خِلتني في تكلُّمي تمتاما

---

[1] الصريمة: قطعة ضخمة من الرمل تنقطع عن سائر الرمال.

[2] السمط: العقد.

وقال في عود انكسر

قلبي عليك حليفُ الوجد يا عُودُ كم شنَّفت أُذني منك الأغاريدُ!
كنت افتديتك لو يُفدَى الذي حكمت فيه المقادير أن يلقاه تنكيد
فكم بدت نغماتٌ منك مُطْربةٌ هُزَّت بها طربًا حتى الجلاميد
تُعيد يا عود بالأوتار إن نطقت مَيتَ المَسرة حيًّا وهو ملحود
كأنَّ أرواحنا عند استماعك من لطف لهنَّ عن الأجساد تجريد
فكيف نالتك أيدي الدهر كاسرة وأنت في الدهر بالآذان معبود؟!

ضاق الخناق

أَقول لهم وقد جَدَّ الفراقُ: رويدَكمُ فقد ضاق الخِناقُ
رحلتم بالبدور وما رحِمتم مَشُوقًا لا يبوح له اشتياق
فقلبي فوق أرؤسكم مُطار ودمعي تحت أرجلِكم مُراق
أقال الله من قَوَدٍ لِحاظًا دماءُ العاشقين بها تُراق[1]
وأبقى أعيُنًا للغيدِ سودًا ولو نُسيتْ بها البيض الرقاق[2]
متى يصحو الفؤاد وقد أديرت عليه من الهوى كأسٌ دِهاق
وليس الناس إلا من تصابٍ وإلا من يَشوق ومن يُشاق
مررنا بالمنازل مُوحشات لِهُوج الرامسات بها اختراق[3]
كأن لم تُصْبِني فيها كعاب ولم يُضرَب بساحتها رِواق
فعُجت على الطلول بها مُكبًّا أسائلها وقد ذهب الرفاق
كأني بين أطلال المغاني أسيرٌ عَضَّ ساعده الوِثاق
حديد بارد في اللوم قلبي فليس له إذا طُرق انطراقُ

---

[1] القود: إعطاء الدية.

[2] البيض الرقاق: كناية عن السيوف.

[3] الرياح الرامسات: التي تأتي بالتراب، فتدفن الأشياء تحته.

وصف البدر عند الإفرنج

كأن البدرَ صحنٌ من لُجَينٍ   بدا فَجَلا برونقه الهموما
به ارتقت الملائك للأعالي   وراحت فيه تلتقط النجوما

إلى أم كلثوم

أم كلثوم في فنون الأغاني   أمة وحدها بهذا الزمان
هي في الشرق وحدها ربة الفن   فما أن للفن ربٌّ ثان
ذاع من صوتها لها اليوم صيتٌ   عَمَّ كل الأمصار والبلدان
ما تغنَّت إلا وقد سحرتنا   بافتتانٍ لها وأيُّ افتتان
في الأغاني تمثل الحب تمثيـ   ـلًا صريحًا بصوتها الفتان
يتجلَّى في لحنها مشهد الحب   ولون الوصال والهجران
فتريك المحبَّ عند التنائي   وتريك المحب عند التداني
وتريك الحبيب عند افتراقٍ   وتريك الحبيب عند اقتران
كل هذا في صوتها يتجلَّى   من خلال الأنغام والألحان
صفحات من الغرام تراها   ظاهرات في صوتها للعيان
تنشد الشعر في الغناء فتأتي   بلحون مطابقات المعاني
فإذا أنشدت عن الوصل أبدت   فيه لحن المسرور والجذلان
وإذا أنشدت عن الهجر جاءت   بلحون تدعو إلى الأحزان
كم سقتنا كأس السرور بلحنٍ   وبلحن كأسًا من الأشجانِ
تفهم الروح منطق الحب مما   تتغنى به بلا ترجمان
فكأنَّ الأنغام في الصوت منها   ناطقات لنا بغير لسان
قد سمعنا غناءها فعرفنا   كيف فعل الغناء في الإنسان
حسْن صوت يزينه حسن لحنٍ   فيه للسامعين حسن بيان

نبراتٌ في صوتها مشجيات　　تترك السامعين في هيجان
تسترقُّ القلوب منا بصوت　　نعبد الحسن منه بالآذان
كل لحن إذا سمعناه منها　　دب فينا دبيب بنت الحان
في وقار الحليم تجعلنا طو　　رًا وطورًا في خفة النشوان
نتفانى في الاستماع إليها　　ونرى لذة لنا في التفاني
وترانا نهتزُّ حين تغني　　فكأنَّا في حالة الطيران
وكأن الأرواح — إذ تتعالى　　طربًا — جرِّدت من الأبدان
هي في مرتقى الأغاريد تعلو　　حين تشدو ونحن في خطران
يشعر المرء حين يصغي إليها　　بغرامٍ من صوتها روحاني
بنت فنٍّ غنَّت لنا فسقتنا　　من فنون الغناء بنت دنان
هكذا فلتكن يدُ الفن عليا　　هكذا فلتكن على الفنَّان

أيتها الكعاب

فتنتِ الملائك قبل البشرْ وهامت بك الشمسُ قبل القمر
وسرَّ بك السمع قبل البصرْ وغنَّى بك الشعر قبل الوَتر
فأنت بحسنكِ بنت العِبَرْ

ترفُّ لِمرآك روحُ الغرام ويهوَى طلوعَك بدرُ التمام
ليطلعَ مثلك في الاحتشام ويرْقبَ خَطرَة هذا القوام
لكيما يَهبُّ نسيم السحر

تميلُ بقدِّك خمرُ الدلالْ فيضحكُ في مَيله الاعتدال
وفيه ارتقى الحسنُ عرش الجلال ومنه العقول غدت في عقال
وكم قد نهاها وكم قد أمَر

إذا الوجه منك بدا للعيان له سَجَد العشقُ يرجو الأمان
ويخجل من نوره النَّيِّران ويَعْنو له جبروت الزمان
ويخضع حتى القضا والقدر

بك الحُسن أُلبِس ثوبَ الكمال فأنتِ الحقيقة وَهْوَ الخيال
وأنت مَليكة ملك الجمال ولو صوروك بلوح المثال
لكنت مليكة كلِّ الصور

يروح الشتاء وتصحو السَّما ويأتي الربيع بما نَمنمَا
فيطلعُ فوق الثرى أنجُما ويبتسم الزهر بعد النما
فأنت ابتسامة ذاك الزَّهَرْ

فطرْفك بالفَتْر كم قد روى نشيدَ غرامٍ يَهُدُّ القوَى[1]
وما أنت شاعرة في الهوى ولكنما الشعر فيك انطوى
فآية حسنك إحدى الكُبَر
لسانكِ يسحَرُ في ظَرفِه وجفنكِ يفتن في ضعفه
وقدُّكِ يخطِر في لطفه فيطنِب رِدفك في وصفه
ويوجزه خَصُرك المختصَرْ
سقتكِ الكعابةُ صَفوَ الشبابْ وغطى محيَّاك منها نقاب[2]
فأنت إذا قمت للإنسياب تبخترتِ في خَفَرٍ والكعاب
تضيء كعابتها بالخَفَر

[1] الفتر: السكون والضعف.
[2] الكعابة: بروز ثدي الفتاة.

الشيخ المرائي

سوَّد الله منك يا شيخ وجهًا غَشَّ حتى باللحيةِ السوداءِ
لو نتفنا من شَعرها وغزلنا لنسجنا خمسين ثوب رياءِ

جاهل متكبر

وشامخ الأنف ما ينفك مكتسيًا　　ثوب التكبُّر في بُحبوحة النادي
قد لازم الصمتَ عيًّا في مجالسه　　كـأنـمـا هـو مـن نـوَّاب بـغـدادِ

الطفل الملتحي

معارفُ بغدادَ قد جاءها مديرٌ من الطيش في مسرحِ
حمار ولكنه ناطق وطفل ولكنه ملتحي
فيا أيها العلم عنها ارتحِلْ ويا أيها الجهل فيها اسْلحِ[١]

[١] سلح: تغوط وتبرز.

فاسقُ مُراءٍ أو جاهل يدعي العلم

أيوسف ما إن أنت من فَحْلِ هجْمةٍ ولكن من الشولِ الطوالب للفحل[1]

لئن كنت تُنْمَى للعطاء فإنه عطاء الذي تزكو الورى فيه بالبخل

وإن كنت قد كفَّرتني بجهالة فبالبهت كم كفرت من مسلم قلبي

وإنك في تكفيرك الناسَ كافرٌ تهاون بالله الذي جلَّ عن مثلِ

رويدَك قد كفَّرت يا وغدُ مؤمنًا وكذَّبت فيما تدعي سيد الرُّسْل

وأنت امرؤ لم تجهل العلمَ وحده بل الجهل أيضًا بل وجهْلَك بالجهل

وأنت من الإسلام في كل حالة بمنزلة الظلم الصريح من العدل

نطقتَ ببُطل القول تهذي ممخرِقًا ومثلكَ من يهذي وينطق بالبطل[2]

ألستَ الذي أعطى اللئام كرامة وكشَّر فيه الأصل عن أربع عُصْل[3]

وكم قرطَسَت فيك الرماةُ ووُتِّرت عليك القسيُّ المُلس يا جعبة النبْل[4]

فيا علج أقْصِرْ عن نهيقك إنه أضلُّ كإضلال الخوار من العجل

أنزِّه عنك السيف في قتلك الذي تحتَّم لكن يا مخنَّث، بالنعل

---

[1] الهجمة: ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة من الإبل. والشول: النوق التي رفعت أذيالها طلبًا للفحل.

[2] مخرق: كذب.

[3] العصل: الأنياب الصلبة المعوجة.

[4] قرطس: أصاب الهدف.

الأرض

كأني بهذي الأرضِ قد حان حَينُها فطاحت بأبعاد الفضاءِ شظايا
ونادت بأصوات الفناءِ فِجاجُها وناحت على أطوادِها هَملايا

أيها المشنوق

وقال فيمن شنق في الآستانة من أول الثورة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس ١٩٢٥:

يا ساكنًا وهو مشنوق على عمدٍ لأنت أبلغ من نادَى ومن خطبا
كم فيك يا أيها المصلوب من عِبَرٍ للناس حيَّرن من أَمْلَى ومن كتبا
إذ قمت تطلب شيئًا أنت جاهله طوعًا لمن خان أو سمْعًا لمن كذبا
طالبت بالشرع حتى قد قتلت به كذاك من جهل الشيء الذي طلبا
ولو أجبتَ إلى ما أنت طالبه لأصبح الشرع يدعو الويلَ والحرَبا
يا ظالم الشعبِ مظلومًا بفعلته عليك أمْ منكَ يبكي الشعب منتحِبا
قد قمتَ للشر لا للشرع منتصبًا حتى علوت به في الجو منتصبا
فاشكر عُلوَّك إذ يعلو به وطنٌ قد كِدت تُورده من فعلك العَطبا
يا مُفسدًا قام تحت الدين مستترًا ليجعل الأمر في البلدان مضطربا
انظر إلى ذلك المصلوب متَّعظًا فإنما قتله في الشرع قد وجبا
وآية الله في التنزيل قائلة من كان يفسد في أوطانه صُلِبا

بين اليأس والرجاء

ترى مُقلتي ما ليس تملكه يدي ... وما زلت أسعى مُنفض الكفِّ مُحْوَجا
أرى بابَ رزقي من بعيد مُفتَّحًا ... فآتيه ولَّاجًا فألفيه مُرتجا
وأيأس أحيانًا وأرجو فلم أكن ... لأملكَ من شيء سوى اليأس والرجا

جواب عن كتاب

قسَمًا بالإله عزَّ وجلَّا ... إنَّ قلبي عن حُبِّكم ما تخَلَّى

لا ولا عن هواك لي من سُلوٍّ ... طردت مهجتي السلوَّ فوَلَّى

أنكر العاذلون ثابتَ حبِّي ... وكفى شاهدًا بدمعيَ عَدْلا

ما عسى أن يضرَّ إنكار شيءٍ ... وهو كالشمس في العِيان تجلَّى

عذلوني فما سمعت فقالوا: ... أنت سالٍ عن حبِّهم؟ قلت: كلا

كيف يسلو عن حبكم ذو فؤاد ... قد تلاشى في حبكم واضمحلا؟!

لم يزل في الوداد يَرقُب قلبي ... ذمة فيكم وعهدًا وإلًّا[1]

أيها الممتطي مُتون المعالي ... فائزًا من قِداحِها بالمعلَّى

نسماتٌ من المسرةِ هَبَّت ... وهلال من السعادة هلَّا

يوم وافى إليَّ منك كتابٌ ... فيه آياتُ فضلك الجمِّ تُتلى

قيل لي: هاك ما يزيدُك شوقًا ... قلت: أهلًا بما أتيت وسهلا

قال: نلت المنى، فقلت: جميعًا ... قال: لولا فراقهم، قلت: لولا

---

[1] الإلُّ: العهد.

الغنيُّ غنيُّ النفس

لا تشكُ للناس يومًا عُسرَة الحال ... وإن أدامتْك في هَمٍّ وبَلبال
وجانب اليأسَ واسلكْ للرجا طُرقًا ... فالدهر ما بين إدبار وإقبال
واركب على صَهوات الجدِّ مغتربًا ... فيما تحاول ذا حل وترحال
واطلب على عِزَّة بيضَ الأنوقِ ولا ... تطلب لعَمْرُك أن تحظى بمفضال
لم يبقَ غيرُ الذي غُلَّت أنامله ... إمَّا بأغلال شُحٍّ أو بإقلال
كم قد غدوتُ على الأيام منتدبًا ... قومًا أضعت بهم شعري وآمالي
أفعالهم دون أن يُغرى الرجاء بها ... لكنَّ أقوالهم أقوال أقيال[١]
من كل هَيٍّ ابن بَيٍّ لا ثباتَ له ... جَعْد اليدين قئولٍ غير مِفعال[٢]
كم بات ذو الحمق خلوًا في مضاجعه ... وبات ذو العقل فيها كاسف البال
هذا يَميس بأبرادٍ مُفوَّفة ... وذا يخيط شظايا طمره البالي[٣]

[١] الأقيال: جمع قيل، وهو لقب للملك الصغير دون الملك الأعظم في بلاد اليمن.

[٢] رجل هيٍّ ابن بيٍّ: أي مجهول لا يعرف هو ولا أبوه.

[٣] ماس: مشى في اختيال. مفوفة: منقوشة بنقوش بيض. الطمر: الثوب البالي.

الشوق

شوقي إليك قريبٌ لا ينائيني والصبر عنك بعيد لا يدانيني

يا راحلًا وفؤادي في حقيبته رهنًا لديه ولكن غير مضمون

تركْتَني في شجون للورى مثلًا يميتني الوجد والأشواق تحييني

أقفو الملاحَ لكي أسلو هواك بهم فيرجعُ الحسن منهم فيك يغريني[1]

---

[1] أقفو: أتتبع.

شكر على صنيع

شــكـرًا لـفـضـل مـمـجَّـدٍ أهدي إليه نظيم شعري
فــاق الأمــاجـد وامـتـطـى بـالـعـز صـهـوةَ كـلَّ فـخـر
إنـي اخـتـبـرتُ بـنـي الـزمـا ن جـمـيـعـهـم فـي كل أمـر
وسـبـرتُ غـورَهـمُ لـدى الــ ــحـالَيْـن من عسر ويسر
وبـكـفِّ تـجـربـتـي لـهـم قلَّـبـتـهـم بـطـنًـا لِـظـهـر
فـوَحـقِّ مـن أرجـوه فـي دفـع الـخـطـوب وكـل ضُـر
مـا إن رأيـت بـهـم فـتًـى حسن السريرة مثل «شكري»
الـمـرتـقـي فـي الـمَـكـرُمـا ت إلـى الـمـقـام المشمَخر
يـا ذا الإخـاءِ الـمـسـتـقـر وذا الـوفـاء الـمـسـتـمـر
جـاءَ الـكـتـاب إلـيَّ مـنــ ــك به شفيت غليلَ صدري
فـإلـيك يـا «شـكـري» عـلـى هذا الصنيع عظيمَ شكري

لمن الديار؟

لمن الديار يَلُحْنَ في الصَّحصاحِ لـعِـبَـت بـهـنَّ روامـس الأرواحِ[1]
عَبثت بها أيدي البلى فترَكْنَها في العين أخفى من دريس نِصاح[2]
ولقد وقفتُ بها المطيَّ مسائلًا شـجـراتِ واديـهـا وهـنَّ ضـواح[3]
أقـتـافُ آثـارًا لـهـن دوارسًـا كـانـت إلـيـهـا غُـدوتـي ورواحـي
لـمـا تـبـيَّـنـتُ الـمـعـالـم هُـمَّـدًا هَطلت مدامع طرْفيَ السفَّاح
فسقاك مرتكز الغمائِم صَوْبه غـدقًـا بـكـل عَـشـيـة وصـبـاح[4]
حـيِّ الـديـار وإن تـحـمَّـل أهـلُـهـا عنها وأمست مُوحِشات بطاح
عهدي بها والعيش أخضر ناعمٌ والـشـمـلُ تـجـمـعـه يـد الأفـراح
مَغنًى أنيقًا للحسان وروضةً نـبـتـت بـكـل عـرارةٍ وأقـاحـي
كم قد لَثمت بها المراشف آخذًا بهضيم خَصْرٍ جال تحت وِشاح
ولكم لهوتُ من الحسان بغادةٍ لـمـيـاءَ تـرشِـفـنـي شـمـول الـراح[5]

---

[1] الصحاح: المستوي الأجرد من الأرض. والروامس: التي تأتي بالتراب فتدفن فيه ما تقابله. والأرواح: الرياح.

[2] الدريس: البالي. والنصاح: ما يخاط به الثوب من خيط ونحوه.

[3] الضواحي: البارزات للشمس.

[4] المرتكز: المقيم الثابت. والصوب: المطر. والغدق: الكثير.

[5] اللمياء: السوداء الشفة، وهي محببة لدى العرب. والشمول: الباردة.

هل عائدٌ زمنٌ أتيت مع المها ما شئت من لعب به ومِزاح
قد بتُّ فيه ضجيع كل غريرة رُؤدِ الشباب من الخرادِ ردَاح[٦]
أيام تحضرُ بي بمضمارِ الصِّبا فرسُ الشبيبةِ وهي ذات جِماح

* * *

ركضوا بميدان التحاسُدِ خيلهم وسبَوا من الأعراض غيرَ مُباح
لبسوا النفاقَ لهم دُروعًا واعتدوا يَتطاعنون من الخنا برماح
أضحوا كماة وشايةٍ وسعاية ومن الضغائن هم شُكاةُ سلاح[٧]
كالجاهلية غيرَ أنَّ مُغارَهم في نهبِ كل خطيئة وجناح
إصلاحُهم أعيا العقولَ لأنهم خُلِقت مفاسدهم لغير صَلاحِ
من كل مرتكب الشنِيعِ ولم يكد يثنِيه عنه إذا لحاه اللاحي
أهدى بِطُرْق المُخزيات من القطا وأضلُّ ممن آمنوا بسجاح[٨]

[٦] الرؤد: الشابة الحسنة. والخراد: الأبكار. والرداح: التامة الخلق.

[٧] الكماة جمع كمي، وهو البطل الشجاع يلبس الدروع. والشكاة بضم الشين: جمع شاك؛ أي شاكي السلاح، وهو من الشوكة والحدة.

[٨] القطا: نوع من الطير اشتهر عند العرب بمعرفته الطريق. وسجاح: هي ممن تنبئوا كذبًا بعد وفاة الرسول ﷺ.

ليالي الأنس

ذكرتُ ولستُ في الذكرى بناس ... ليالي بِتهنَّ مَبيتَ حاس
بنادٍ تزدَهِيك به انتظامًا ... مقابلةُ الأسرَّة بالكراسي
به اجتمعت غطارفة كِرَامٌ ... أبَوْا شِيَمَ التخالفِ والشماس[1]
يطوف عليهمُ رَشأ رَخيمٌ ... يُغازل مُقلتيه فمُ النعاس[2]
براحٍ فيك تبتعثُ ارتياحًا ... وتنسف طود همِّك وهو راسي
يشِب لمزجها بالماء وَقدٌ ... تكاد تِهمُّ منه إلى اقتباس
تميت همومَ شاربها سرورًا ... فتدفنهنَّ في حُفَر التناسي
وصاحٍ وَجَّه الندماءُ كأسًا ... إليه فقال: لست لها بحاسِ
وغالى في الإباء فمارَسُوه ... فلانَ أبيُّه بعد المِراس
فقال، وقد مشت فيه ودَبَّت ... دبيبَ الماءِ في ورَق الغِراس:[3]
لعمرُك إن في الصهباء معنًى ... دقيقًا ليس يُعرف بالقياسِ

[1] الغطارفة: جمع غطريف؛ وهو السيد الكريم. والشماس: المخالفة والعناد.

[2] الرشأ: ولد الظبي. والرخيم: الرقيق.

[3] الغراس: النبات مغروسًا في الأرض.

الشمس

كأن الشمسَ باخرةٌ مخور   تجِدُّ السير في بحر الفضاء
ستغرق بعد حينٍ باصطدامٍ   يمزق جرمها أو بانطفاء

رئيس الدائنية

الشيخ محمد أبو عبعوب الدائني

الدهرُ بيَّن في كتابِ شهادةٍ بالنورِ فوق جبينهِ مكتوبِ
أنَّ السماحةَ والشجاعة والعُلا جُمعت لعمري في أبي عبعوب
شهم تولع بالعطاء بنانه مثلُ الرياح تولعت بهبوب
أسد نَمَتْهُ لآل قيس في العُلا آباءُ مجدٍ ليس بالمكذوب
ورث المكارم عن أبيه ولم يزَل يسمو بصارمِ عزمه المَرهوب
ما زال يُوقد كل يوم في الورى نارَين: نارَ قِرًى ونار حروب
يهدِي جموعَ المُدلجين لِسيبه في الليل ضوءُ لهيبها المَشبوب[1]
خُلقت من الحسَبِ الصميم أكفه لعنان سابقة وكشف كروب
حَمِدت وقائِعه السيوفُ بكفه والخيل كل مطهم يعبوب
إن شنَّ فوق ظهورهنَّ إغارة ترك العدو بلوعة المَحروب[2]
يَلقى الفوارسَ والسكينةُ دِرعه ويخوض غمر الموت غير هيوب
فخرُ الكرام على المكارم والندَى قامت دعائم بيته المضروب

[1] المدلج: السائر الليل كله أو آخره.

[2] المحروب: المصاب بالشدة.

للجودِ مغلوبًا تراه ولم يكن ... للجيش في الغزوات بالمغلوب
يتفقَّد الأضياف ملءَ دياره ... عند الصباح وعند كل غروب
كالعبد يخضع للضيوف وإنه ... في القوم أكبر سيِّدٍ معصوب[3]
عمَّ الأراملَ واليتامى سَيبه ... فغدت تعيش بماله الموهوب
خُلِقَ الكريم ابن الكرام محمد ... لسرور محزون وجبر قلوب
تالله لو كان الكرام بلاغة ... كان الكريمَ المعجزَ الأسلوبِ

[3] معصوب: متوج.

راقم وما أدراك ما راقم!

أَقِمْ في الأرض صرحًا من ضياءِ　　بحيث يمسُّ كرسي السماءِ
وبعد فجسِّمِ العرفانَ شخصًا　　تردَّى المجد فضفاض الرداء
وفي يسراه ضَعْ لوح المعالي　　وفي يمناه ضَع قلم الذكاء
وأجلسه على الكرسي يمحو　　ويُثبت ما يشاء من العلاء
وقفْ وارفع إليه الطرفَ وانظر　　فذلك راقمٌ رَب الدعاء

* * *

ألا يا كعبة الفضلاء يا من　　فضائله عظمن بلا انتهاء
أهِمُّ بأن أحيط بهنَّ وصفًا　　ومن لي بالإحاطة بالفضاء
وأقدِمُ أن أتِمَّ عُلاك مدحًا　　فيرجعني عُلاك إلى الوراء
وما وفَّى الثناءَ عليك مُثْنٍ　　لأنَّك فوق توفية الثناء
وما اتَّقدت ذُكاءُ بما يداني　　ذكاءك يا إمامَ الأذكياء[1]
ولو كانت أشعتها تحاكي　　شعاعك ما انكسرن من الهواء
بفكرك دوحة العرفان تنمو　　كذا الأدواح تنمو بالضياء
وأُقسِم لو تكون من الدراري　　لكنت الشمس في كبد السماء
ولولا الصبح يطلع كل يوم　　لقلت: الصبح أنت بلا مِراءِ

[1] ذكاء الشمس.

نقش على الماء

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده ... كأنَّا على كيس المنون نعيش

وما زال وجه الأرض يوسعه الردى ... لِطامًا وهاتيك القبور خدوش

كأنَّ انقلاب الأرض ماء كأننا ... على الماء من ريح الحياة نقوش

لحا الله دنيا كل يوم بأهلها ... تهدُّ حصونٌ أو تثلُّ عروش

ترُوحُ سهام العيش فيها طوائشًا ... ولِلموت سهمٌ لا يكاد يَطيش

نمدُّ إلى قطف المنى وهي جمة ... من العمر كفًّا لا تكاد تنوش

ونرجو ومن سيف الردى في رجائنا ... جراحات يأس ما لهنَّ أروش[1]

وأجمِلْ بوجه العيش لو لم يكن به ... حنانيك من ظفر الخطوب خموش

دهانا لرامي الموت سهم مُقرطس ... نجيف بأدواء الحياة مَريش[2]

لعَمْرك إن الدهر تغلي خطوبُه ... وإن عويل الصارخين نَشيش[3]

وما الدهرُ إلا للخلائق منضِج ... له مِرْجَل بالحادثات يَجيش

كأن جيوش الموت رافقةٌ بنا ... فتزحف منا للحروب جيوش

ومن نظر الدنيا بعين اعتباره ... تساوت مُهود عنده ونُعوش

[1] الأروش: جمع أرش؛ دية الجراحة.

[2] المقرطس: المسدد للهدف. النجف: السهم العريض النصل. المريش: ذو الريش.

[3] النشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.

هوة الموت

كأنَّ حياتنا جبل مُطِل على مهواتِه وهي المَمَات
مشيْنا فوقه عُميًا فظلَّت تَهاوَى نحو هُوَّته المشاة
كأنَّ فضاء هذا الكون بحرٌ تموَّجُ فيه هذي الكائنات
ونحن لدى تموُّجها كأنَّا فواقع ظاهرات خافيات
تبيَّنُ تارةً وتغيبُ أخرى فشأناها التفرُّق والشَّتاتُ

رقت بوصف جمالك ...

رقَّتْ بوصفِ جمالكِ الأقوال ورأتكِ فافتَتنت بك العذَّالُ
وَهَبَ الإله بكِ الجمالَ تجمُّلًا حتى كأنكِ للجمال جَمال
كل العيون إذا برزتِ شواخص كيما تراك وغضُّهن محال
وإذا الخَلِيُّ رآك عاد بمهجةٍ للوجد مخترقٌ بها ومجالُ
كم قد سفرتِ ففي القلوب تولهٌ لما رأوْكِ وفي العقول خبال
فرَموكِ بالأبصار وهي كليلةٌ من نور وجهكِ نورهنَّ مُذال
ربطوا الأكفَّ على ضلوع تحتها بين النواظر وللقلوب جِدال
لو كنت في أيام يوسف لم تكن بجمالِ يوسف تُضرب الأمثال
ولقطَّعَت دون الأكف قلوبَها شوقًا إليك مع النساء رجال
كم قد يجور على جفونِك سُقمُها كسرًا وتجهد خَصرَكِ الأكفال
عجبًا لطرْفِكِ وهو أضعف ما أرى يرنو فترْهَب فتكه الأبطالُ

قامت تميس

قامت تميسُ بأعطافٍ وأوراك	رقصًا على نغمات المقْوَل الحاكي
حوراءُ جاءت وكلٌّ في مسرَّته	لاهٍ وراحتْ وكلٌّ طرفه باكِ
شكوت من خصرها ضعفًا وقلت لها:	مليكة الحُسن هل عَطفٌ على الشاكي؟
فاستضحكت وَهْي تجني الورد قائلة:	ما أحسنَ الوردَ؟ قلت: الوردُ خدَّاك
وقلت: أهوَى، فقالت بالدلال: ومن	تهوى؟ فقلت لها: إيَّاكِ إياك
واستحلفتني على قلبي فقلت لها:	يهواك إي وجلال الحسن يهواك
سحر بعينيك يستهوي القلوب وما	ينفكُّ في هتك عُبَّاد ونُساك
يا ربةَ الحسن هلَّا تعطفين على	من باتَ سهران مشغولًا بذكراك
ما أطيبَ العيشَ في الدنيا لو اتصلت	أسباب دنياي معْ أسباب دنياك!
الحُسن يفتنُّ والألحاظ فاتكة	وا حْيرَتي بين فتَّان وفتَّاك!
تهفو بقلبيَ أشواقي فأمسكه	لما أراك وهل يشفيه إمساكي
إني وعندي بكنهِ الحسن معرفة	ما راقني قطُّ من شيءٍ كمَرآك
أمسى غرامُك يجري في عروق دمي	كالكهرباء التي تجري بأسلاك

المكتب

تصوَّرْ حدائقَ في بهجة   تروق وفي نضرة تعجبُ
ترَقرَقُ فيها مياه العلومِ   جداولَ تجري ولا تنضب
وهبَّ عليها نسيم الفنون   يروح ويغدو بها يلعب
فأضحت وأرض كمالاتها   بنبتِ الحقائق تعشوشب
وأمست وإنَّ ثمارَ العلاء   لأشجارِ عِرفانها تُنسب
وطار الفخار بأرجائها   بلابلُ تغريدها مطرب
فللمجد وجه طليقٌ بها   وحفظ الجسوم بها يطلب
غذاء النفوس وطبُّ العقول   وحفظ الجسوم بها يطلب
فتلك إذا ما تصورتها   جلِيًّا لعمري هي المكتبُ

أقبلت في غلائل

سيوف لِحاظ أم قِسيٍّ حواجبِ تَريشُ إلى قلبي سهامَ المعاطبِ[1]
ورُبَّ كعابٍ أقبلت في غلائل وقد لاح لي منها حُلِيُّ الترائب[2]
لها جيدُ ظبي واعتدالُ وشيجة وعين مَهاة وائتلاق الكواكب
ولا عيبَ فيها غيرَ أن أُولي الهوى ينادونها في الحسن بنت العجائب
نَضتْ عن محياها النقاب عَشية فأسفرَ صبح الحسن من كل جانبِ
ومذ نشَرتْ سودَ الذوائبِ أولجت نهار مُحياها بليل الذوائب
تناسبَ فيها الحسن حتى رأيتها تفوق الدُّمى في حسن ذاك التناسب
مُفتَّرةَ الأجفان تُدمي بلحظها قلوبَ أسودٍ مدميات الكتائب
فلم أنسها والله يوم تعرَّضت لنا بين هاتيك الظِباء السوارب
وما كنت أدري ما الصبابة قبلها ولا همت يومًا في الحسان الكواعب
فأصبحت فيها ذا غرامٍ ولوعة ووجْدٍ وتَهيام وهمٍّ مواظب
وما الصبر إلا غائبٌ غير حاضر وما الشوق إلا حاضرٌ غير غائبِ

---

[1] راش السهم: عمل له ريشًا.

[2] الترائب: وهي جمع تريبة؛ أعلى الصدر حيث يوجد العقد.

كل امرئٍ وصديقه

تحرَّ إذا صادقتَ مَن وُدُّه مَحْضُ ... يُصان لديه المال والدين والعِرضُ

فكلُّ خليل منبئ عن خليله ... كما عن شئون القلب قد أنبأ النبض

وبالصْدق عامل مَن تحب من الورى ... وإلا فذاك الحب آخره بُغض

وسامح صديقًا قد أساءَ بفعله ... ثلاثًا عسى ذلك الفعل يَنْفضُّ

وبعدَ ثلاثٍ دَعْه غير مسامِح ... فرَفضُ الذي دامت إساءته فرْض

وقوِّ أساسَ الودِّ بالصدقِ فالذي ... على جُرُفٍ هاوٍ يؤسَّس يَنقضُّ

وإن ومضت للخلِّ منك سحابةٌ ... فلا يكُ منها خُلَّبًا ذلك الومض

النفس الأمارة

نهيتكِ عن هواك فما انتهيتِ ولكن قد فعلتِ كما اشتهيتِ
فيا نفسي عن الشهوات كُفِّي فأنتِ عليك يا نفسي جنيْتِ
وما أمَّارةٌ بالسوء يومًا سَعت في المنكرات كما سعيت
إذا ما حَلْبةُ الحسنات جاءت رأيتك أنت صاحبة السُّكيت[1]
فإن أسدى الإله عليك عفوًا وإلا يا فَجار فقد هَويْت

[1] السكيت: آخر خيل الحلبة.

الأنس في غير موقعه كدر

وصاحبٍ قد دعانا أن نُلِمَّ بِهِ — مستأنسين بضرب العود والوترِ

في ليلةٍ كان فيها الحر متقدًا — ترمي جَهنمُه الأجسام بالشررِ

وكان ذلك في دارٍ يَضيقُ بها — صدرُ الأغاريد من ضيقٍ ومن صغر

كأنها مَفحص تأوي القطاةُ له — أو جُحر ضبٍّ بأرض صُلبة الحجر[1]

فما عَهِدت طَروبًا قبل زورَتِها — تلقاه في نغمات العود في ضَجَر

ومطربات الأغاني وهي واقعة — في غير موقعِها ضرب من الكدر

---

[1] مفحص القطاة: بيتها، والقطاة: نوع من الطيور يشبه الحمام.

الدمع والنار

إلى كم تصبُّ الدمع عيني وتسكبُ   وحتامَ نار البين في القلب تُلهبُ؟!
أبيت ولي وجدٌ يُشبُّ ضِرامُه   ودمع له في عارضيَّ تصَبُّبُ
وهل لِمَشوقٍ خانه الصبر عنكمُ   سوى دمعه فهو الدواء المجرب
ألا إنَّ يومًا جَرَّد البيْنُ سيفه   عليَّ به يومٌ شديد عَصَبْصَبُ[1]
فيا ليتَ شعري هل أفوز برؤيتي   محيًّا له كل المحاسن تُنسب!
وعينيك لا أسلوكِ أو يصبح السها   وشمس الضحى في ضوئه تتحجَّب
فإني كما شاء الهوى بك مُغرمٌ   وأنت كما شاء الجمال محبب
أحِنُّ إلى رؤياكمُ كلَّما سرى   نسيمٌ وأبكي كلما لاح كوكب
وأذكركم للشمس عند طلوعها   ويعزبُ عني الصبر أيان تغرب
لقد بان صبري يوم بينِك إذ قضى   به صرف دهرٍ لم يزل يتقلب
تبصَّر خليلي في الزمان فهل ترى   صفا فيه من وقع الشوائب مشرب
ومَن نظر الدنيا وجرَّبَ أهلَها   رأى الغَدْرَ من أشداقها يتحلَّب

---

[1] عصبصب: شديد.

البصرة

إياك والبصْرَةَ المُضنى توَطُّنها   فلا تَمُرَّنَّ فيها غير مظطعِنِ[1]
لا تعجبنَّك بالأشجار خُضرتها   حسنًا فما هي إلا خضرة الدِّمنِ
ما إن أقام صحيح في مساكِنها   إلا وسافر عنه صحة البدنِ
ماء زَعاقٌ وجوٌ قاتم وهوى   نَتن وشدةُ حرٍّ غير مُؤتمَن
انظر تجد كلَّ أهلِيها كأنهم   من السَّقام استحقوا الدَّرج في الكفن
صفر الوجوه قد امتصَّت دماءهم الـ   ـحمَّى وقد حرَمتهم لذة الوَسَن

* * *

يَلقى النزيلَ بوجه قُدَّ من حجر   لولا العبوسةُ لم يُفرَق من الوثنِ
أفيك يا غمرُ يَلقى الشعر مأمله؟!   يا خيبة الشعر بل يا ضيعة اللسَن!
ما لي أراك على الكرسيِّ منتفخًا   إن كان فيك احتباس الريح فاحتقنِ؟

[1] المظطعن: المسافر.

الحر في أغسطس

قد كاد بالحرِّ هذا اليوم يَصهرنا   إذ قَدْ بدا فيه للرمضاء تسعير
كأنما الشمس جاءت فَهْي من سَغبٍ   تُشْوَى الجسوم لها والأرض تنُّور

البرد في كانون

للـه يومٌ جـاء يَـلسـعُ بَـردُه　　　فكأنَّ ذرَّاتِ الـهواءِ عَقـاربُ
لم تلقَ شيئًا فيه ليس بجامِدٍ　　　إلا احتمالَ البرد فيه فذَائِب

معلقة وقد قالها ارتجالًا

انظرْ إلى تلك المُعَلقَةِ التي ستر تْ ظلامَ الليلِ بالأضواءِ
قِطعٌ من البلَّور مُحدِقة بها يحكين شكلَ أصابعِ الحسناء
فكأنها بدر تلألأ في الدُّجَى وكأنهنَّ كواكبُ الجوْزاء
بل قد يُمثِّلها الخيالُ كأنها قمرٌ أحيط بهَالةٍ بيضاء

قد يطفح اللؤم

قد يَطفحُ اللؤمُ حتى إنَّ صاحبه ... يَنسى الحياءَ فيغدُو يَدَّعي الكرما
إن الجَهالة إن كانت قذًى ببصرٍ ... رأى الضلالَ هُدًى واسْتسمَن الوَرما
ما لِلغواةِ ارعواءٌ عن غوايتهم ... إن لم يكُ السيفُ يعلو منهم القِمما
كم من أراذلَ أطْغَتْها سَفاهتُها ... حى ادَّعتْ وهي أذناب لها الشمَما
إن عُدَّت الوحش ما كانت ولا بقرًا ... أو عُدَّت الطيرُ ما كانت ولا رَخما
والناسُ كالناس في خَلق وبينهمُ ... في الخُلْق بَونٌ فذا أرضٌ وذاك سما
مثلُ الحديد وما امتازت حقيقتهُ ... والقين يَطبع منه السيفَ والجَلما[1]

[1] القين: الحداد. والجلم: المقص.

اللؤم يهجو بعضهم

اللـؤمُ داءٌ فـي الـنـفـوس عـيـاءُ لم يَشفِ منه سوى الحمامِ دواءُ
لو كان في الدَّأماء كلُّ عيوبه بـل بَـعْـضـهـن لأنـتـنَ الـدأمـاءُ[1]
ولوَ انَّ في كرَة الهواء طباعه فسدت فمات بنَتْنِها الأحياءُ
ألقتْ عليه يدُ الزمان مخازيًا منها تلوح بوجهه الفحشاء
وجهٌ أقام الدهرُ فيه من الخنا سِمة فعاد وليس فيه حَياء
يا ماشيًا يختال في غلوَائه «أطرِقْ كرى» ما هذه الخيلاء؟!
هَب غفلةَ الجهلاء عنك طويلة أفليْسَ تعلم خِزيَك العقلاء؟!

[1] الدأماء: البحر.

تجنَّب

تجنَّبْ من سقيم الرأي قُربًا ... ولا تغترَّ بالبدَنِ الصحيحِ
ولا ترضَ الصديق لحُسْن خَلْقٍ ... إذا ما كان ذا خُلُقٍ قبيح
وذي سَفَهٍ أكبَّ على المخازي ... وما قبِلَ النصيحةَ من نصيح
ترُوج المُخزياتُ لديه حتى ... تباع إليه بالثمن الرَّبيح
أطاف بغيِّه وأباح شَتْمِي ... وكان الشتمُ أجْدَرَ بالمُبيح
وأغراه الضلال فكان مني ... كما كان اليهودُ من المسيح
فمتْ في نار غيْظك مستشِيطًا ... فلستَ من الهجاء بمستريح
سأضرم فيك يا لُكَعُ الأهاجي ... كنيران تشُبُّ تجاهَ ريح[1]
تجمَّعَتِ المخازي فيك حتى ... يُعدُّ الهجو فيك من المديحِ

[1] اللكع: اللئيم.

في المسرح

بدتْ في مسرحٍ رَحْبِ البلاطِ بقُضبان مُشَبَّكَةٍ مُحاطِ
فجالتْ من ضَفائرها بتاجٍ وماسَتْ غيرَ ضافية الرياط[1]
ولا أنسى تَوَرُّدَ وجنتيْها وقد برزتْ تميس على البساط
فقلنا وهي تخطِر في وقارٍ مَليكُ الحُسْنِ يخطر في البلاط
وقد سجدتْ لها الأنظارُ لمَّا أرَتنا الحُسن يَرْفُل في القبَاطِي[2]
وكَبَّرنا المُهيْمِنَ حين راحت تصُول على الضيَاغِم بالسِّياط
سقَتْ أعصابَنا خدرًا وطارت مرفرفةً بأجنحة النَّشاطِ
مشتْ مَشْيَ الحمامة فوق سِلك تهُولُ عليه أن تخطو الخوَاطي
وبارت فوقه خفقانَ قلبي بحالْيِّ ارتفاعٍ وانحطاط
فَخلْناها وقد خلَبت نُهانا تعلِّمنا الجوَازَ على الصراط

[1] الرياط: جمع ريطة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجًا واحدًا.

[2] القباطي: جمع قبطية بالضم، وهي ثياب من الكتان، ومنسوبة لقُبْط مصر.

شكر ووداع

أَعِرني لسانًا أيها الشعر للشكر
وإن لم تطِق شكرًا فلا كنتَ من شعرِ

وجئني بنور الشمس والبدر كي أرى
بمَعناك نور الشمس يُشرق والبدر

وحُمْ حول أزهار الرياض تطيُّبًا
بها مثلما حام الفراش على الزهر

وقُمْ في مقام الشكر وانشر لواءَه
برأس عمودٍ خذه من غرة الفجر

فإن لبيروتٍ حقوقًا جليلة
عليَّ فنبْ يا شعر عنِّيَ في الشكر

فإني ببيروتٍ أقمتُ لياليًا
ورَبِّك لم أحسب سواهن من عمري

وقضَّيتُ أيامًا إذا ما ذكرتها
غفرت الذنوب الماضيات من الدهر

لئن تكُ في بغداد يا دهر مذنِبًا
عليَّ ففي بيروتَ كم لك من عذر

قرأت بها درسَ المكارمِ مُعجبًا
بكل كبير النفس ذي خُلق حر

فكنت بها من باذخ العِزِّ في الذرا
ومن سروات القوم في أنجمٍ زهر[1]

وداعًا وداعًا أيها القوم إنني
مُفارقكم لا عن صدودٍ ولا هجر

لئن أزِفَ الترحال عنكم فإن بي
إليكم لأشواقًا أحرَّ من الجمر

أوَدِّعكم والشوقُ بالصبر فاتكٌ
كفتك الملوكِ المستبدين بالأمر

أحبكمُ قلبي اعترافًا بفضلكم
وأنكر في يوم النوى حكمة الصبر

ولا غروَ أن أكرمتمُ الضيفَ شِيمةً
توارثتُموها عن جُدود لكم غر

---

[1] سروات القوم: سادتهم.

ألستم من العُرب الأُلَى طار صيتهم إلى حيث يَبقى تحته طائر النسر
أعاريب نهَّاضُون في طلب العُلَا غطاريف سبَّاقون في حلبة الفخر
سأذكركم ذكر المحبِّ حبيبه وأشكركم شكر الجدوب ندى القطر
فلا تحرِمُوني من رضاكم فإنني إليكم إليكم ما حييت لذو فقر

إلى إيناس الوزير

إيـنـاس إنَّ مـزايـاك الـتـي عـظـمـت صارت بها تضرب الأمثال في الناس

أخـالُ بـيـتـيَ لـمَّـا جـئـتَ زائـره كـأنَّ وجـهـك فـيـه نـور نـبـراس

آنـسـتـنـي بـخـصـالٍ فـيـك طـيـبـة بحسنها أنعشت فكري وإحساسي

كم أوحشتني الليالي في تصرُّفها فـزال إيـحـاشُـهـا عـنـي «بـإيـنـاس»

أدامـك الـلـه يـا إيـنـاسُ تـذكـرة لـوالـدٍ فـات فـضـلًا كـل مـقـيـاس

قد كان يأسو جروحًا فيَّ دامية والـيـوم عـنـدي جـروحٌ مـا لـهـا آسِ

في مأدبة آل لطف الله

مما أنشد ارتجالًا في المآدب التي أقيمت للوفد العراقي بمصر سنة ١٩٣٦.

في آل لُطف الله لُطفٌ ساحرٌ في الخُلق والأنظار والأفواهِ
لله درُّهم لرفعة قدرهم فلذا تسمُّوا آل لطف الله

في مأدبة عبد الرحمن عزام بحلوان

المجد والفضل منشوران في علمٍ   على بيوتٍ بناها آل عَزَّامِ
لما حللنا ضيوفًا في مَرابعهم   نلنا بها كل إعزاز وإكرام
فسوف نشكرهم شكرًا نخطُّ به   لمجدهم سطر إجلال وإعظام

في مأدبة نظلة الحكيم

نحن ضيوف لذات مجدٍ مُؤَثَّلٍ خالص صميمِ
لها طباع مهذَّبات أرقُّ من خطرة النسيمِ
والحسن في خُلقها المُعلَّى كالحسن في وجهها الوسيم

الكرخي ومن كذب في منعاه

أَعَـبُّـودُ إنـك ذو فـطـنـة تعيش بها عيش حر سعيدْ
قـريـحـة شـعـرك فـيـاضـة لها في الأناشيد مرمًى بعيد
أتيت من الشعر بالمضحكات وبـالـمـبـكـيـات الـتـي لا تـبـيـد
فـأعـربـت لـلـنـاس عـن قـدرةٍ لها قَدْ عنا كل خصم عنيد
تقدمت فيها على السابقين فمن ذا زهير ومن ذا لبيد؟!
فكم لك في المدح أنشودة مدحت بها كل شهم مجيد!
وكم لك في الهجو أعجوبة صـفـعـت بـهـا كـل غـاوٍ بـلـيـد!
يـبـاهـي بـك الـكـرخُ أبـنـاءهُ ويُـثـنـي عـلـيـك بـمـا لا مَـزيـد
ولـكنَّ حـسـادك الـخـاسـريـن يـبـيـتـون مـنـك بـغـيـظ شـديـد
أشـاعـوا نـعـيَّـك مـن غـيـظـهـم يـريـدون لـلـشـعـر مـا لا يـريـد
ولـمـا تـبـيَّـن إخـفـاقـهـم لدى الناس عادوا بغيظ جديد
فـعـش وادعًـا رغـم آنـافـهـم بـعـمـر جـديـد وعـيـش رغـيـدْ

من خواطر الماضي

تعودتُ إنشادي القريضَ المهذَّبا ونـزَّهـتُ نـفـسـي فـيـه أن أتـكـذبـا

ومن أجل حبِّي للحقيقة لم أكن مع الزمن الغاوي إذا ما تقلبا

ومن أجل جهدي في استقامة منطقي أبَيت لرأيي أن يكون مذبذبا

وسافرت في البلدان طَورًا مشرِّقًا أرود العلا فيها وطورًا مغرِّبا

وصاحبت من عُربٍ وَعُجْمٍ أفاضلا بهم كنت في شتى المواطن مُعْجبا

فلم أرَ في عرب وعجمٍ لقيتهم ككردِ عليٍّ في الرجال مُهذَّبا

هو العالم الحبر الذي كنت مغرمًا بآدابه منذ الشبيبةِ والصِّبا

فقد كان في مصرٍ صريرُ يراعهِ يؤانسني بالممتع الغضِّ مُطربا

وكم كنت في الآداب والعلم كاشفًا بمقتبس من نوره ما تحجبا

إلى أن أنار الشام بالعلم عندما لمجمعها أمسى الرئيس المرتبا

إذا معجَمات العلم عيَّت فلا نرى سواك إليها يا محمد مُعربا

صورة

زهـرة قـد بـدت مـن الأكـمـامِ فتجلَّى منها الجمال السامي
وتراءت فـيـها الـحـقـيـقـة حسنًا لـم يـدنـسـه طـائـف الأوهـام
إن تجريدها من الثوب يحكي أنـفـسًـا جُـرِّدت مـن الآثـام
هـي كـانـت قـبـل الـتـجـرد مـنـه كـوكـبًـا غـمَّ نـوره بـغـمـام
إن قدس الأقداس يغضب من أن تـتـوارى وسـامـة الأجـسـام
وأشـد الـكـفـر الـذي هـو رجس كـفـر هـذا الـجـمـال بـالأهـدام
ضـلَّـة جـاهـلـيـة أنـكـرتـهـا رسـل الـفـن فـي هـدى الإسـلام

* * *

انظر الصورة التي انتزعتها من يد العُرْي ريشة الرسام
تَلْقَ فيها الجمال يضحك ضِحْكًا يمتري الدمع من عيون الغرام
وترى نفسك الكئيبةَ منها فـي سـرور مـهـاجـم مـتـرامـي
أنت منها في نشوة المتحسِّي بـنـت كـرم ولـوعـة الـمـسـتـهـام
مـنـظـر يـتـرك الـجـوانـح منَّا فـي هـيـاج مـن الـهـوى وهـيـام
«ويـرد الـوجـوه مـسـتـبـشـرات ويـرد الـثـغـور ذات ابـتـسـام»
«يبهج النفس إذ يحرك منها وتـر الـشـعـر مـطـرب الأنـغـام»

* * *

خـلـعـت ثـوبـهـا وأغـضـت حـيـاء فـأرتـنـا خـلاعـةً فـي احـتـشـام

جلست جلسة الحييِّ وأبدت بالتعرِّي بداعة في الوسام
ما أُحيلى إغضاءةً جعلتها كغريق في لجة الأحلام
يتعامى عنها الحياء حياء ليراها بحيلة المتعامي
لسقوط الرداء عن منكبيها نَهض الفنُّ قائمًا باحترام
«وغدا الحب راقصًا بابتهاج وجرى الشعر شاديًا بانسجام»

* * *

«إن هذا الجمال شيءٌ عجيب حيرة في العقول والأفهام»
«بين ألوانه وبين قلوب النا س جذب ذو حرقة واحتدام»
«وهو في الحب صادق الأمر والنهـ ـي مطاع في النقض والإبرام»
«إن يشأ فالصغار غير صغار وعظام الرجال غير عظام»
«هو نور يضيء في أوجه الحب ويهدي إلى طريق الغرام»

عصاي الفتية

أنا شيخ وذي عصايَ فتيَّهْ قد أتتني من «مظهر» لي هديه

صَاغة «الصابئين» قد ألبسوها حلية ذات صنعة عَبقريَّهْ

وشعارًا من «مظهر» بكلام مُعْرب عن مودة أخويَّه

هي تحكي عصا «ابن عمران» قدْرًا فلذا صيغ رأسها رأس حيه

فسأمشي بها قويًّا سَويًّا بعدما كنت ماشيًا كالحنيه

وستبقى الذكرى بها لإخاءٍ موثق بالوشائج الأدبيه

ألبستني كرامة بإخائي لكريم من أسرة حِمْيريه

النشيد الوطني

نحن خوَّاضو غمار الموت كشافو المحنْ
ما لنا غير اكتساء العز أو لُبْسِ الكفن
نبذل الأرواحَ نفديها لإحياءِ الوَطن
هل سِوَى الأرواح للأوطان في الدنيا ثمنْ؟!
يا ضَلالًا لِلْأُلَى لم يكونوا له الفِدَى
إن نمُت نحن فلتعش ولتحيا أوطاننا

إلى عبد الستار القرغولي

هاك عبد الستار حقك إني　　لست من منكرين ثابت حقك
غير أني ذهلت عنه وصدقي　　في ادعائي هذا مقيس بصدقك
إن تكن قد عشقت شعري فإني　　عاشق شعرك البليغ كعشقك

دمعة على قبر الزهاوي

أيها الفيلسوف قد عشت مضنى مثل ميتٍ وصرت بالموت حيًّا
ما حياة العظيم إلا خلودٌ بعد موت يكون للجسم طيًّا
سوف يبقى بين الورى لك ذكرٌ ناطق بالبقاء لم يخشَ شيًّا
أنت فردٌ في الفضل حيًّا وميتًا حزت في الحالتين ذكرًا عليًّا
سوف أبكي عليك شجوًا وإني كنت أبكيك في الحياة شجيًّا

في مدرسة الإمام الأعظم

مما كتب إلى العلامة الشيخ سعيد النقشبندي مهنئًا له بتعيينه مدرسًا في مدرسة الإمام الأعظم أبو حنيفة:

قد ازدهى للعم تدريسُ	وزال عن طلَّابه البوسُ
واتَّضحت معالم العلم لا	يوجد رسم منه مدروس
بعالم الآفاق من ربعه	له على كيوان تأسيس
سعيد الذي له السعد قد	طأطأ رأسًا وهو مرموس
العالم العيلم من لم تزل	تُحدى إليه النجب العيس
يولج أهل الفضل في قصده	ويعقب الإدلاج تغليس
ويطرد الجهل به مثلما	يطرد بسم الله إبليس
فلا تسل عَدَّ معاليه إذ	تضايقت عنها القراطيس
وقل لمن حاول تعدادها:	عقلك في جهلك مطموس
يحصي الحصا عدًّا ولكنها	لها عن الإحصاء تقديس
القذم الغطريف لا شك في	رؤيته للكرب تنفيس[1]
يبسم إن جئت ولكنه	ذو هيبة تحذرها الشوس
وليس للقانص علمًا سوى	محفله الحافل ناموس

[1] القذم: السيد المعطاء الكريم.

كم أذعن الخصم له طائعًا وانقاد للإيمان قسيس
كم واصل في العلم قال له: أنت رئيس وهو مرءوس
وليس للبرهان في حاجة إن ضياء الشمس محسوس
أنت سليمان العلا والنهى آصف والآداب بلقيس
أنت لا غيرك في خطة الـ ـعلم لداء الجهل نقريس
ونور أقمار سماء العلا من شمس عرفانك معكوس
وإن يكن للفظ درًّا فلا نَعجبُ إذ صدرك قاموس
لو لم يكن مدحك في الشعر لا يزدان تشطير وتخميس
ومذ حوى مدحك شعري له بالعقد ذي الترصيع تجنيس
قلت وفي روضة إنشاده روح التهاني لك مغروس
أرِّخ ودام لسعيد لدى إمامنا النعمان تدريس

شكر ومديح

وكتب إلى حسين فوزي النائب بعد تناوله الكتاب الذي استعاره منه:

أهدي إليك يا عظيم الجنابْ ... تشكُّرًا لفضلك المستطابْ
فيا حسين صحَّ عند الورى ... أنك غيث نائل ذو انسكاب
قد جمع الله جميع الندى ... فيك بحال عنفوان الشباب
فأنت في أفق سماء العلا ... شمس علا ما حجبت في ضباب
وإنني أشكر طول المدى ... شكرًا لإرسالك ذاك الكتاب
جردتني عن ثوب فقري له ... كما تسلُّ مرهفًا في قراب
ناب أبوك عن علوم الهدى ... وأنت نُبْتَ عن هموم السحاب
علَّامة العصر جميع الورى ... قد هديت بعلمه للصواب
فكم وكم معضلة أعجزتْ ... أماط بالفطنة عنها الحجاب
وكم جلا غامض علم لنا ... بفكره الثاقب مثل الشهاب
قد بهر الناس بعرفانه ... حيث أتاهم بالعجيب العجاب
وفاق في الآراء أهل النهى ... وأوتيَ الحكم وفصل الخطاب
لم يقطع الأمر لنا حاكمًا ... برأيه الصائب إلا أصاب
فهو لعمر الله في قطعه ... كالصارم المشحوذ منه الذباب
فكيف لا أمدحك اليوم إذ ... إنك فرع أصل ذاك المهاب
وأنتمُ أمجاد هذا الورى ... وقد زكى العنصر منكم وطاب
وأنتم الرأس وما غيركم ... من شرف المحتد إلا الذناب

ومـنـكـم الـفـضـل وأنـتـم لـه وما سـواكـم فـيـه إلا سـراب
والله ذو الفضل من المجد قد ألبسكم في الناس أبهى نقاب
فـأشـهـد الـلـه وكـل الـورى أني إلى أحسابكم ذو انتساب

القدوم المبارك

وكتب للعلامة الشيخ سعيد النقشبندي عند عوده من سامراء إلى بغداد للتدريس بمدرسة الإمام الأعظم:

ألا قد سرَّ طالبُ كل علم	ومن بذل النفائس في طلابه
صبيحة شرَّف الزورا سعيد	بمقدمه المبارك من غيابه
وتدريس العلوم لطالبيها	لدى النعمان عاد إلى جنابه
هو البحر الخضمُّ بغير حدٍّ	فرائد كل علم في عبابه
فقلت: بمعرض التاريخ بشرى	وأمر الدرس عاد إلى نصابه

١٣١٨هـ

إلى حسين النائب

وكتب إلى حسين فوزي النائب يستعير منه كتابًا:

رفعت أكفِّي نحو فضلك سائلًا — سؤال الورى الوهَّاب يا ابن الأماجدِ
ومن قبل هذا يا ابن أعلم عصرنا — وحقك لم أمدد لغيرك ساعدي
فقد عرضت لي يا حسين لُبانةٌ — بديوان شعر ابن الحسين فساعد
وجُدْ لي به بعض الزمان إعارةً — فلي فيه يا ذا الفضل بعض المقاصد
ولا زلت مأوى للعفاة ومرجعًا — لكل بني الغبراء يا ذا المحامد

إلى الدكتور زكي مبارك

إذا أطرى الأنام فتى أديبًا   فَلِابْن مباركٍ أدب غزيرُ
وعلم لا أشبهه ببحر   فقد نضبت بجانبه البحور
لقيت به أخا أدبٍ وعلم   له شبه وليس له نظير
زكا نفسًا فقيل له: زكيٌّ   وبورك فالمبارك منه خِير
يمجُّ يراعه في الطرس ليلًا   يشق دجاهُ صبحٌ مستنير
أقام «بنثرِهِ الفنيِّ» جسرًا   لمن في الفن أعجزه العبور
جلا بذكائه سدف المعاني   كأن ذكاءه للفهم نور
وخاض عباب بحرٍ من بيانٍ   تحوم عليه من بدع نسور
إذا قرع المنابرَ يوم حفل   رأيت الناس من فرح تمور
أصاخوا نحوه وقد اشرأبوا   أكفهمُ تصفق أو تشير
إذا افتخرت به مصرٌ وتاهت   فكل بني العراق به فخور

تخليد العظماء

قالوا: نخلد ذكره بحديقةٍ غنَّاء فيها تنبت الأزهار

ونضيفها في التسميات إلى اسمه حتى يكون له بها تذكار

هذا لعمر الله جهل تضحك الـ ـعقلاء منه وتهزأ الأحرار

إن الحدائق لا تخلد باسمها من لا تخلد ذكره الآثار

ما نفْع تسمية الأماكن باسم من خَلتِ الضمائر منه والأفكار

من فاته غُرُّ المساعي فإنه بعد الممات بغيرها الإنشار

إنَّ المعالي ما لهنَّ مآثر مثل الليالي ما بها أقمار

هل تُذكَر الأشجار من بعد البلى إلا بما انتضدت بها الأثمار؟!

والذكريات إذا أتت بشهودها حسن السماع وأُحْمِدَ التكرار

من سار في دنياه سيرة مصلح لهجت بخالد ذكره الأمصار

من عاش في خطط البلاد مؤثرًا أحيته بعد مماته الآثار

بين الرصافي والشيخ الراوي

أرسل المرحوم الشيخ إبراهيم الراوي قصيدة إلى المرحوم الرصافي، من جملتها البيت الآتي:

وأشعر أهل العصر عندي بلا مرا جميل الزهاوي والرُّصافي المقدَّم

فنظم الرصافي القصيدة التالية وأرسلها إلى الشيخ الراوي:

للسيد الراويِّ إبراهيما	فضل أظل الخافقين عميما
ومناقب لهج الرواة بذكرها	وبها استحق من الورى تعظيما
شيخ إذا جالسته في مجلس	جالست منه مرشدًا وحكيما
وإذا نظرت لشخصه متأملًا	أحسست فيك لشخصه تعظيما
داوى قلوب ملازميه بهديه	فأصحَّ منها ما رآه سقيما
يا أيها الشيخ الذي قد أدرك الـ	ـمجد المؤثل حادثًا وقديما
أرسلت مألكةً إليَّ كريمة	ضمَّنتها الدرَّ النضيد نظيما
أحسنت ظنك بي وحسن الظن من	تلقاء مثلك يوجب التقديما
شكرًا على شعرٍ إليَّ بعثته	فشفيت من قلبي الكلوم كلوما
شيم الكرام ورثتها من هاشمٍ	تركت فخار مفاخريك هشيما
أدنى احترامك أن تخصص بالعلا	وأقل مدحك أن تُعَدَّ كريما

إلى الشيخ قاسم القيسي

إذا قاسم القيسيُّ مَرَّ بخاطري تذكرت عهدًا في الصبا مَرَّ كالحلْمِ
تذكرته إذ كنت للعلم طالبًا بفكري ودمعي جاهد النفس والجسم
فقد كنت أحيانًا أزور فِناءه وأنتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرته في جامع الفضل راجيًا شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
إذا زرته يومًا نثلت كنانتي فثقف منها كلَّ ما اعوج من سهم
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلت بلقياه عني غمة الغرم والغنم
هو العالم الحبر الذي من يلُذْ به يكن فائزًا بالعلم والأدب الجم
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا وما شاء في التقرير من صادق الحكم
بقية أعلام مضوا وكفى به من العلم طودًا فوق أطواده الشم
له نظر في غامض العلم شامل ورأيٌ سديد لا يحوم على الوهم
إذا ما نحا في العلم قتلَ عويصةٍ رماها بسهمٍ من فطانته مصمي
نماه أبوه الشيخ أحمد للعلا فبورك في الآباء من والد شهم
فقد كان فردًا كابنه في ذكائه فجاء ابنه قرمًا تولد من قرم
وكان بتقسيم المواريث عالمًا ينيف بها رأيًا على ثاقب النجم
فيا رمسه اهنأ بالذي أنتَ رامسٌ سقاك السحاب الجون بالوابل السُّجْمِ

تقريظ كتاب القيسي

هذا كتابٌ قد تبدَّا جامعا   حكمًا تبين للنحاة التابعا
كشفت فوائده وهنَّ فرائدٌ   عن وجه غانية المرام براقعا
أبدت بدائعه براعة قاسم   من راح في طرق المعارف بارعا
بحر تلاطم بالفنون وبدره   لا زال في برج السعادة طالعا
هذا لعمر أبي سحابُ علومه   قد سح للطلاب غيثًا نافعا

الرصافي يحيي وفد مصر الشقيقة

أتى من مصر طَلْعَتُها بْنُ حربِ   فأهلًا بالمذلِّل كل صعب[1]
وأهلًا بالذي ادَّخرته مصرٌ   لدفع مُلمةٍ ولقرع خطب

* * *

هو الرجل الذي في مصر قامت   له همم تنفِّس كل كرب
تعهد بالمساعي الغر مصرًا   فبدل جدب تربتها بخصب
أحبَّ بلاده فسمعت منها   له شكر الحبيبة للمحب

* * *

لقد شاهدت مبتهجًا بعيني   له في مصر آثارًا كبارا
ففي «الكبرى» له متحركات   تخلد في البلاد له الفخارا[2]
معامل مارست غزلًا ونسجًا   فأغنت في صناعتها الديارا
وفي الإسكندرية باخرات   له في البحر تبتدر السفارا
وأما بنك مصر فذاك أمر   به قد جل «طلعت» أن يبارى

---

[1] زار العراق سنة ١٩٣٦ وفد مصري يرؤسه المرحوم طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر وشركاته العديدة التي عادت على مصر بنتائج طيبة ما زالت تذكر فتشكر.

[2] يريد بالكبرى: «المحلة الكبرى»، وهي مدينة مزدحمة بالمعامل ويعود الفضل في تصنيعها إلى المرحوم طلعت حرب باشا.

* * *

إذا ما مصر في المال استقلت فلا تخشى التأخر في السياسه[٣]

فإن المال أكبر ما يرجَّى به نيل السيادة والرئاسه

إذا ما الشعب كان أسير فقر فما تجدي السياسة والحماسه

أيصبح في سياسته طليقًا أسيرٌ أوجب الفقرُ احتباسَه؟

* * *

رجال النيل حُييتم رجالًا بما للعرب فيكم من سمات

بكم طرب الفرات وقال جهرًا لوادي النيل: إنك من لداتي

كلانا جاريان على سهولٍ بأبناء العروبة آهلات

كلانا في الإخاء لنا مواضٍ ضمنَّ لنا النجاح بكل آت

وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات[٤]

* * *

لقد زرناكم قبلًا فكنَّا على نشر التجلة والكرامه[٥]

فمن بيت يمدُّ به سماطٌ ومن وجه تضيء به ابتسامه

وما هذا لعمر الحق منكم ببدع بل لكم فيه استقامه

وما زرناكم لكبير ملك ولكن للأخوَّة والشهامه

ألا فَلْتحيَ مصرُ فنحن نرجو لكم فيها السعادة والسلامه

* * *

وكم في مصرَ من بطل سواكم يسير بها على خطوات سعد[٦]

وكم راقٍ بها في جو علم فيستهدي لأنجمه ويهدي

---

[٣] يشير إلى أن الاستقلال الاقتصادي هو أهم من الاستقلال السياسي.

[٤] يريد بسيدة اللغات: العربية.

[٥] يشير إلى زيارته مصر ممثلًا العراق في آذار سنة ١٩٣٦ وإلى الحفاوة التي لقيها.

[٦] زعيم مصر سعد زغلول مؤسس حزب الوفد وباعث النهضة السياسية.

وكم ساعٍ لها بخطا ابن حربٍ   ليسعدها بما يَقْني ويجدي
ولكنَّ ابن حرب في دجاها   كبدر الأفق حلَّ ببرج سعد
فكيف تكون مصرٌ في أسار   وفيها اليوم من يحمي ويفدي؟!


هنداوي